طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مَدغرة وادي زِيز

إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث

إعداد:
الأستاذ أحمد عبد اللوي علوي

الجزء الأول

1416 هـ - 1996م

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

مدغرة وادي زيز

إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث

إعداد:
الأستاذ أحمد عبد اللوي علوي

الجزء الأول

1416 هـ - 1996 م

تقديـــم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد، فإن دراسة تاريخ بـلاد المغرب الأقصى لن تتأتى معرفتها وتتبع مختلف مناحيها ومراحل تطورها، إلا إذا جزأناها إلى مجموعة من الوحدات الإقليمية، وننطلق في دراستها من الجزء إلى الكل. لتكون نقطـة البداية في ما يمكن أن نسميه بالدراسة التاريخية المجهرية للمغرب (MICRO - HISTOIRE).

وهذا المنحى الجديـد المعمول به في الأوساط الجامعية الأكـاديمية كفيل بأن يجعل هذا النوع من الـدراسات التاريخية الاجتماعية المتعلقـة بالتاريخ المحلي للـوحـدات الإقليميـة للمغرب، منطلقـا أسـاسيـا لكل من سيحـاول استقبـالا دراسة التـاريخ الاجتماعي المغـربي على مستوى التراب الـوطني ككل، لأن تجربة الدراسة على مستوى المجال الضيق والمحدود زمانا ومكانا «مونوغرافية MONOGRAPHIQUE» عــلاوة على كـونها من بين أهم فـــروع التاريخ لعمقهـا وتخصصها في دراســة أدق المسائل وإبـراز جوانب كثيرة، ولما تقدمـه أيضا من وصف شامل ومعلـومات غنية ودقيقـة عن منطقة أو إقليم معين، فإنها بـالإضـافـة إلى ذلك تسـاعد على استجـلاء العـديـد من الخصائص والمميـزات والظواهر والمعطيـات المحلية ذات الأبعاد المحـورية في التوجيه والاستقطاب.

وهـذا النوع من الـدراسات الجامعيـة الأكـاديمية الجامع بين استقـراء المضامين والمكونات التاريخية، انطلاقـا من المادة المعرفية الوثائقية وأسماء الأماكن LES MOTS TOPONIMIQUES ومـا في حكم ذلك من رصيـد تـاريخي لغوي معرفي شفاهي. هو الذي سلكه بالنسبـة لدراسة تاريخ منطقة مدغرة تـافيـلالت الأستاذ الشـاب البـاحث أحمد العلـوي عبدلاوي، فأنجـز هـذه الدراسة التاريخية الاجتماعية حول المنطقة المذكورة ووسمها بعنوان «مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الـواحي المغربي خلال العصر الحديث» وقدمها رسالة جامعية، نال بها دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي،

تحت إشراف الأستاذ الدكتور هاشم العلوي القاسمي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

فجاءت هذه الدراسة الأولى من نوعها عن منطقة مدغرة فريدة وجديدة في بابها، قيمة في موضوعها ومحتواها وفق المنهج الجامعي الأكاديمي، فأفاد الباحث وأجاد، جامعا بين الوصف والسرد والاستجلاء والتأمل والتقويم والتصويب والتعديل.

وإجمالا، جاءت هذه الدراسة محصورة في مقدمة وأربعة أبواب وإحدى عشر فصلا. حيث انطلقت من الأسس البيئية والبشرية ومنتهية بمختلف مناحي وأنماط الحياة بمدغرة اجتماعيا واقتصاديا وفكريا، علاوة على الاستنتاجات المعرفية والمنهجية، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه من إفادات سيجدها القارىء في ثنايا أبوابها وفصولها بشيء من التفصيل والتوسع والإحاطة.

وانطلاقا من عناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتنويع منشوراتها من مؤلفات ودراسات تعالج التراث المغربي الأصيل، وانطلاقا أيضا من أهمية هذا النوع من الأبحاث الجامعية. يسعد وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن تقوم بطبع هذا العمل لتيسير تداوله بين القراء، وتعميم النفع به لدى الدارسين والمختصين والمهتمين بالتاريخ المجهري للوحدات الإقليمية المغربية بوجه خاص، والتاريخ الاجتماعي المغربي بوجه عام.

وتسأل الله عز وجل أن يجعله في سجل المبرات الكريمة والحسنات الخالدة والأعمال الصالحة لمولانا أمير المومنين، حامي حمى الملة والدين مولانا الحسن الثاني دام له النصر والتمكين، ويحفظه بما حفظ به الذكر الحكيم، ويبارك في عمره ويجنبه كل مكروه، وأن يقر عينه بولي عهده صاحب السمو، الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد، ويحفظه في سائر أسرته الملكية الشريفة المنيفة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تأصيل

بقلم : الأستاذ الدكتور هاشم العلوي القاسمي
كلية الآداب ظهر المهراز – فاس

إن البحث التاريخي الحديث بالجامعات المغربية قد شق طريقه نحو مسايرة البحث العلمي الحديث في الجامعات العالمية الحديثة، سواء في المشرق الإسلامي أو الغربي المعاصر. وقد بدأت الجامعات المغربية تنتج دراسات أكاديمية وأبحاثا علمية رصينة في هذا الاتجاه على مستويات دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة، ويسعدنا أن نركز اهتمامنا على ما أنتجته وما ساهمت به كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس.

وقد أعطت هذه المؤسسة أبحاثا جديرة بالعناية والطبع، ومن بينها هذه الدراسة التي تحمل عنوان: «مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث» لصاحبها الباحث الواعد، الشاب أحمد العلوي عبد اللوي، الذي يعتبر أيضا من أبناء هذه المنطقة التي خصها بهذه الدراسة المتميزة. غير أن الإطار المنهجي الذي بنى به وعالج على أساسه بحثه هذا يمكن أن ندرجه ضمن ما يعرف بالدراسة المجهرية نظرا للإطار الجغرافي الضيق الذي تحدد فيه البحث المذكور.

وقد استخدم في ذلك عدة أسلحة منهجية جينيالوجية وسردية وأنطروبلوجية وسوسيولوجية بالإضافة إلى الاعتماد على الأساس الوثائقي الذي تميزت به هذه الدراسة، والتي تعتبر في حد ذاتها أول اكتشاف علمي على أساس وثائقها المحلية، والإطار الذي وضعت فيه

أبحاث هذه الدراسة جعلها تندرج ضمن البحث المجهري التاريخي (Micro - Histoire) ويصعب في هذا السياق أن نصنف هذا البحث ضمن العمل الشمولي، فلذلك يعتبر منوغرافية محلية تكاد تكون متميزة ضمن المنوغرافيات التي أصدرتها الجامعة المغربية، وكذلك نوهت بها لجنة المناقشة العلمية التي أجازتها بمدرج أبا حنيني (02) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس بتاريخ 8 أبريل 1994. إجازة استحقاقية تجعل هذا العمل جديراً بأن تعتني به المؤسسات العلمية لنشره، وبادرت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مشكورة إلى طبع هذا العمل، وقد تكرم معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية فأذن بطبع هذا البحث لكي تستفيد منه الدوائر المهتمة والمتخصصة في البحث التاريخي المغربي.

وأؤكد هنا أنني اعتمدت على علاقتي الخاصة بالباحث والرفقة الطويلة لهذا البحث وصاحبه منذ أن كان فكرة إلى أن تمت مناقشته، وفعلا كان لي شرف الإشراف على إنجازه وتوجيهه والمعاناة مع صاحب الدراسة، حيث صبر صبر أيوب للتعديلات. والتصويبات التي كنت أقترحها عليه، كما أدخل وأدرج وعدل نتيجة توجيهات المناقشة، فجاء هذا العمل حقيقة ثمرة من ثمرات البحث التاريخي بكلية الآداب بفاس، وجاء أيضا نتيجة لجهد متواصل ومضن استمر طيلة ست سنوات لكي يعالج الجوانب الرئيسية في البحث، وهي المعطيات البيئية لمدغرة والظاهرة السكنية والسكانية لمدغرة، ثم مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإطار العام للحياة الفكرية للمنطقة.

وهكذا جاءت هذه الدراسة في صورتها نموذجا واضحا ودقيقا من نماذج الدراسات الواحية قبل أن تحدث بالمنطقة تحولات ما بعد مرحلة الاستقلال (1956)، فهذه الدراسة إذا دراسة تاريخية اجتماعية تعالج مدغرة قبل التحول الجديد، ولهذا ركزت على مراحل ما قبل القرن العشرين في فصول تحليلية حصرها الباحث في أربعة أبواب وإحدى عشر فصلاً مع خرائط توضيحية بلغ عددها أربعة عشرة

خريطـة، وصور تعبيرية، وأربع وستين وثيقـة محلية، بالإضـافة إلى الفهارس التي وضعها الباحث أحمد العلوي عبد اللوي لبحثه.

وأتمنى له اطراد النجاح والتوفيـق كما يسعدني أن أقدم للقراء هذا العمل بكل فخر واعتـزاز، كما أنه بحث يقدم شـابا واعداً في الـدراسات التـاريخية مستقبـلا. كما أتمنى لكل قـارئ النفع والاستفادة – واللـه الموفق إلى الصواب.

والسلام

الأستاذ الدكتور هاشم العلوي القاسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ضحايا المعرفة من أجل
خدمة الإنسانية...

المختصرات

les abreviations

أ – بالعربية :

مخ، خ، أ : مخطوط الخزانة الأحمدية فاس.
مخ، خ، ع : مخطوط الخزانة العامة الرباط.
مخ، خ، م : مخطوط الخزانة الملكية الرباط (الخزانة الحسنية حاليا)
مخ، خ، ي : مخطوط الخزانة اليوسفية مراكش.
د. د. ع : دبلوم الدراسات العليا.
د. ت : دون تاريخ.
ط. ح : طبعة حجرية.
م. س : مصدر أو مرجع سابق.
ص : الصفحة.
ج : الجزء.
م : ميلادية.
هـ : هجرية.
/ : موافق.
== : تتمة الهامش في الصفحة الموالية.

ب - بالفرنسية :

A.E.S.C : Annales économiques sociétés civilisations.
A.E.S : Annales économiques sociétés.
A.M : Archives marocaines.
B.A.I.O.I. : Bulletin de l'Association d'Information de l'Office des Irrigations
B.E.M : Bulletin économiques du Maroc.
B.E.S.M : Bulletin économiques et sociales du Maroc.
B.S.G.M : Bulletin de la société de géographie du Maroc.
C.H.E.M : centre des hautes études méditeranéens
H.A.A.N : Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.
Hesp : Hespéris.
Hesp. T : Hespéris Tamuda.
R.G.M : Revue de géographie marocaine.
R.O.M.M : Revue de l'occident méditeraneen
R.M : Revues Marocaines.
S.I.H.M : المصادر الدفينة لتاريخ المغرب
Op cit : مصدر أو مرجع سابق
t : الجزء
p : الصفحة
ibid : نفس الصفحة
ibidem نفس المصدر والصفحة

مقدمة :

ـ موضوع البحث

ـ منهجه :

ـ أقسامه :

ـ مصادره ومراجعه :

مقدمة :

في إطار المنحى الجديد الذي أصبح يطبع جانبا من البحث التاريخي منذ سنوات، لا سيما بعد ظهور مجموعة من الدراسات المنوغرافية المتعلقة بالتاريخ المحلي للوحدات الإقليمية للمغرب عامة، والجنوبي منه بوجه التخصيص. نقوم بهذه المحاولة المتواضعة للكشف عن تاريخ منطقة مدغرة، ومحاولة إتمام بعض الحلقات من المسار التاريخي الوطني العام. خاصة وأنها جاءت بعد الاقتناع الذي أصبح يسود في الأوساط الجامعية، والقاضي بأن دراسة تاريخ المغرب لن تتأتى معرفتها وتتبع مختلف مناحيها ومراحلها إلا إذا جزأناها إلى مجموعة من الوحدات، وننطلق في دراستها من الجزء إلى الكل. لتكون نقطة البداية، فيما يمكن أن نسميه «بالتاريخ المجهري للمغرب» "Micro-histoire". وما توصلنا إليه في هذا البحث المتواضع يؤكد غنى وصلاحية منطقة «مدغرة» لتكون في مستوى هذا النوع من الأبحاث العلمية المتجهة في هذا التخصص.

وإذا كان هذا المنحى قد دشن منذ مطلع الستينات من هذا القرن، عندما وجه أحد أعلام الفكر المغربي المعاصر دعوة صريحة إلى ضرورة الاهتمام بالتواريخ المحلية المجهرية، كأساس وقاعدة لكل من سيحاول استقبالا دراسة التاريخ الوطني ككل.(1) سيما مع ما يسمح به هذا النوع من الدراسات من اطلاع على الوثائق المحلية التي تؤرخ لأشكال الحياة المختلفة

---

1) وهو ما يمكن أن نستشفه مما ذكره محمد المختار السوسي في سوس العالمة. قال: «... وفي المغرب حواضر وبوادي وتاريخه العلمي العام لا يمكن أن يتكون تكونا تاما إلا من التواريخ الخاصة بكل حاضرة من تلك الحواضر ولكل بادية من هذه البوادي...» انظر محمد المختار السوسي: «سوس العالمة» ص أ. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، 1984.

التي تنفرد بها كل منطقة، وهذا ما لا نجد له ذِكْراً - في الغالب - بالمصادر والنصوص التاريخية. كما أن هذه التواريخ تعتبر من أهم فروع التاريخ لأنها تبدو أكثر تخصصا وعمقا من التواريخ العامة، في معالجة أدق المسائل وإبراز جوانب كثيرة تغفل عنها مادة التواريخ العامة. ولما تقدمه أيضا من وصف شامل ومعلومات غنية عن منطقة أو إقليم معين.(2) فإن ما أنجزته المدرسة المنوغرافية المغربية الحديثة، وما استخلصته من نتائج هامة منذ أواسط الثمانينات من هذا القرن، كان لنا دافعا لمحاولة التأريخ لمنطقة مدغرة. وما أصبح لهذه الأخيرة من أهمية في محيط التاريخ المغربي لا سيما مع مطلع العصر الحديث. عندما انتقلت إليها بعض الأسر الحسنية الشريفة، وطعمت بنيتها البشرية بعنصر جديد وفعال في توجيه تطور الوقائع الاجتماعية في السياق التاريخي المحلي والوطني سياسيا واجتماعيا وروحيا. مما جعل المنطقة تنحت حضورها بشكل بارز في الذاكرة الدينية والروحية المغربية، بفعل مساهمة هذه الشريحة الاجتماعية في إثراء الفكر الديني محليا وأحيانا وطنيا. وهذا التحول كان له بالغ الأثر في تحويل المنطقة إلى مركز فكري علمي وديني معطاء، يضاهي في قوته ما هو موجود في العديد من المراكز القروية المغربية الأخرى. كما أن المنطقة نحتت حضورها في ذاكرة المخزن المغربي من خلال مساهمتها في بلورة العديد من المشاريع السياسية، لا سيما منذ مطلع القرن 10هـ/16م.

ورغم أهمية هذه المساهمة وهذه الأدوار ظلت منطقة مدغرة قابعة في الظل، ولم يحاول أحد من المؤرخين والدارسين التصدي لها بالتحليل والدراسة. ولا نكاد نلتقط هذه الأهمية إلا بالرجوع إلى مظان الوثائق المحلية بالخصوص. أو أثناء تعرض كتب التراجم والمناقب لرجالات الصلاح والتقوى المنتمون إلى المنطقة.

يبدو المجال المكاني لهذه الدراسة - مدغرة - أدنى ما يمكن أن تتناوله دراسة تاريخية. فحسب علمنا تعتبر منطقة مدغرة أصغر رقعة جغرافية حاولنا أن نؤرخ لها مقارنة مع مناطق مغربية جنوبية أخرى،

---

2) أحمد بلقاسم الزياني : تاريخ بلدة خنيفرة، تحقيق محمد أمحزون، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1984، ص 3.

كتافيلالت ودرعة وفجيج. اهتم بها دارسون آخرون. كما أن الفترة التاريخية التي غطت هذه الدراسة تشمل على الخصوص القرنين 10 و11هـ / 16 و17م.

وقد اخترنا منطقة مدغرة كموضوع لدراستنا علاوة على ما ذكر أعلاه للاعتبارات التالية :

1 - موقعها البيئي الفريد والمتميز، إذ تعتبر حلقة وسطى في سلسلة الواحات الصحراوية المتناثرة على طول وادي زيز. مما خول لها وظيفة الربط بين الشمال والجنوب ومن شرق إلى غرب مدغرة. سيما إذا علمنا أنه علاوة على موقعها البرزخي من الشمال إلى الجنوب، تعتبر صلة وصل بين واحات منطقة كَير وواحات وادي غريس. مما بوأها مكانة متميزة بفعل استفادتها من هذه المناطق وغيرها على مستويات عدة.

2 - إذا كان هذا الموقع قد أهلها للقيام بدور برزخي لا يقل أهمية عما يماثلها من مناطق مغربية أخرى، علاوة على أهميته الثقافية والاقتصادية، فإنه إلى جانب ذلك كان يسبب لها على الدوام عدم الاستقرار. بفعل تعرض المنطقة للهزات والاضطرابات الاجتماعية الناتجة - في الغالب - عن الاستثناءات المناخية (دورات الجفاف الحادة، الفيضان النهري...) والسياسية التي كانت المنطقة تتأثر بها إلى حد كبير. وأن البحث في مثل هذه الجوانب المرتبطة بطبيعة هذا الوسط الإيكولوجي والظرفية التاريخية، قد يساعد الباحث لا محالة على محاولة رصد وتتبع مختلف الأنشطة الاقتصادية التي يسمح بها هذا الوسط. كما أنه بإمكانه أن يبين طبيعة الإنسان الذي سكن منطقة مدغرة. مما له بالغ الأثر في تسهيل عملية رصد وتتبع تطور البنية البشرية في التاريخ العام للمنطقة.

ويمكنه أن يجيبنا عن مجموعة من الأسئلة، سيما إذا تكاملت أدوات التحليل والتأويل. وهي على العموم أسئلة مرتبطة بطبيعة البنية البشرية المنتظمة داخل ما يصطلح عليه «مجتمع القصر»، عبر تنظيم اجتماعي معقد يعتمد بالأساس على الانتماء السلالي والنسبي. وبإمكانه كذلك أن يكشف عن جوانب تتعلق بطبيعة أسس التنظيمات الاجتماعية والسياسية التي تبنتها مجتمعات القصور بمدغرة. والتي كانت تستجيب - في الغالب -

لتطلعات ومتطلبـات هذه المجتمعات. وبنفس الآن تضع أصبعنـا على جملة من المشاكل التي كـانت تعصف بروح التعايش والتسـاكن السلميين، سواء بين الفئات المتعايشة داخل القصر الواحـد أو بين مجموعة من القصور. مما كـان يحول هذه الأخيرة إلى مجمـوعـة من الوحـدات السيـاسية المستقلـة والمتحالفة. وأن مـا كان يتحكم في تحالف أو نزاع هذه الوحـدات السياسية هـو التنافس والتهـافت على الموارد الاقتصاديـة المطبوعـة بالقلـة والرابطـة اللحميـة الدمـوية. ممـا قد يسـاعد البـاحث على فهم وتتبع أشكال الحيـاة الاجتماعية العامة واليومية سواء بين الفئات المجتمعية المكونة للقصر الواحد، أو بين مجموعة من القصور.

3 - إن الموضوع الذي اخترناه كمجال لدراستنا في الزمان والمكان المشار إليهما أعـلاه، لا يستنـد فقط على بعض الـوثائق التي استطعنـا الحصـول عليها، باعتبارها منطلقا أساسيا لفرز عناصر البنية الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للمنطقة التي قلما تبرزها الكتابات التاريخية الإخبارية. بل نسجنا خيوطـه الأولى من خـلال ما اطلعنا عليـه من إشـارات شاردة هنـا وهناك بالمصادر العربيـة والمغربية المتباينة الحقب والتواريـخ، أو ما كتبه أصحاب أدبيـات الرحـلات المغربيـة والأجنبية عـن المنطقة. ممـا كون لنـا انطباعـا بضرورة البحث في تـاريخ منطقة مـدغـرة، ومحاولة تتبع ورصـد مختلف التطورات التاريخيـة الكبرى التي عرفتها مدغـرة. مساهمين بذلك في تكميل نسيج الدراسات المنـوغرافية التي سبقتنا في هذا الميـدان. وتناول أصحابها بالدراسـة والتحليل تاريخ جملة من واحات الجنوب المغربي بـوجه خاص. وأيضا لاستنباط أوجه الفرق والشبه بين هـذه المناطق على عدة مستويات، والتي غالبا مـا كانت تمليها عوامل الموقع والتطور التـاريخي وطبيعة البنية البشرية لكل منطقة على حدة.

المنهج :

لإنجاز هذا البحث اعتمدنا على مجمـوعة من المصادر المختلفة من حيث المضمون والقيمـة. وذلك لتجميع كل المعلـومات المتعلقـة بالمنطقـة، ويكون بإمكاننـا الإجابة على مجموعـة من الأسئلة التي تطرحها طبيعـة الموضوع،

وتصحيح معلومات بأخرى، واستكمال نقص بعضها ببعض. وسعيا وراء ذلك لم نقتصر على ما هو متوفر من كتب مطبوعة، بل اعتمدنا أيضا على الوثائق المحلية المخطوطة المختلفة المضامين والمواضيع. والتي ترتبط أشد الارتباط بالتطور التاريخي العام للمنطقة، وأشكال الحياة الاجتماعية العامة واليومية للسكان. ومثل هذه المعلومات وغيرها لا يمكن التقاطها إلا في مظان الوثائق المحلية، التي تعتبر بحق سجلا أميناً للتاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي ومظاهر الحركة العلمية للمنطقة. وما يشهد على أهمية هذا الصنف من المصادر وما يتضمنه من معلومات هامة وقيمة هو الغياب الشبه الكلي لمثل هذه المعلومات في المصادر الإخبارية والحولية، وأحيانا كتب الجغرافية والرحلات مغربية كانت أو أجنبية. فعلى سبيل المثال نشير إلى أن أصحاب كتب الجغرافية والرحلات الذين مروا بمنطقة مدغرة، لا سيما خلال مرحلة العصر الحديث، رغم المعلومات الهامة التي يقدمونها عن الظروف البيئية والمناخية ونمط عيش سكان المنطقة، فإنهم مع ذلك لا يكادون يقدمون لنا شيئا آخر. سوى التأكيد على بعض العموميات التي غالبا لا تكفي لرسم وتتبع معالم الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة بوجه عام.

من هنا كان لزاما علينا عدم الاقتصار على ما توفره المادة العلمية المخطوطة والمطبوعة، بل التجأنا إلى جمع كل المعلومات المختلفة بما في ذلك الرواية الشفوية، وما لهذه الأخيرة من أهمية في تقريب الباحث من بعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، من خلال محاولة ربط بعض تلك المأثورات الشعبية الشفوية التي مازالت تردد حتى الآن بمدغرة، بجملة من التطورات التاريخية العامة للمنطقة. كما قمنا كذلك بالتحريات والمعاينة الميدانية من خلال الجولات المتعددة بحقل دراستنا. وذلك للوقوف على المعالم العمرانية التي مازالت قائمة وبقايا القصور القديمة المندرسة. وجمع أسماء الأماكن سواء بالغابة أو بالحريم أو على ضفاف وادي زيز بمدغرة، وكذا جملة من الألفاظ والمعايير الاصطلاحية للمراحل الإعدادية للحقل الزراعي، وأنظمة السقي والرعي، وأنماط الاستغلال ومباشرة العمليات الفلاحية بوجه عام. وما تراكم من آثار في مختلف مناطق الواحة من أشكال

البنـاء وأدوات الاستعمال اليومي. ومحاولـة ربط هذه الأسماء والتسميـات بجملة مـن التطورات التـاريخية العـامة، لاسيما على مستـوى تحول البنية البشريـة. ومـا لهذه الأخيرة من أهميـة في صنع وتـوجيـه التـاريخ المحلي للمنطقة بوجه عام. وفي نفس هذا السيـاق وخلال كل مراحل البحث حاولنا الحفاظ على مجموعة من المصطلحات المحليـة التي تعود إلى مراحل تاريخية غابرة في رباط عضـوي متين بالمجموعات البشرية التي أطلقتهـا. وغالبا ما كنا نضعها بين مزدوجتين، ونشكل البعض منها حفـاظا على سلامة نطقها ودلالتهـا الحضـاريـة والتـاريخية. وأحيـانـا أخـرى نحـاول تفسير بعض مضامينها في الهوامش.

ورغم كل هذا فإننا لا ندعي أن ما حصلنـا عليه من معلومات ووثائق. رغم المشـاكل التي كانت تنتـاب عملية جمع هـذه الأخيرة، لجمود وتحجـر عقلية الأهالي وإصرارهم على الحفاظ على هـذا الموروث. أننا حصلنا على كل ما نحن في حـاجة إليه من هذه الـوثائق، فالكثير منها مـازال عند أصحابها مغمور ومنسي. ومع كل ذلك فإن مـا تجمع لدينا من هذا الزخـم الوثائقي استطعنـا من خلالـه محاولـة تتبع التطور الـذي عرفتـه الحيـاة بالمنطقـة بمختلف مناحيها.

وبنـاء على هذا وذاك فإن الـدراسـة التي أوردناهـا في الـزمان والمكـان المحددين أعلاه سـوف تعتمد على محاولة تتبع أشكال العـلاقات سواء بين مختلف الفئـات الاجتماعية المتعـايشـة داخل أسـوار القصر الواحـد أو بين مجمـوعة من القصـور أو بين الـرحل والمستقـرين. وما لهذا من أهميـة في توجيه التـاريخ المحلي للمنطقة وطبعه بطابع متميز وخـاص على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسيـة. آخذين بعين الاعتبار أن دراسة الحياة بالمنطقة لا يمكن أن تتم بمعزل عن المناطق المغـربية الأخرى، محادية كانت أو بعيدة عن حقل دراستنا. من هنـا كنا غالبا ما نرجع لفـرز مجموعة من التحولات التي عرفتها المنطقة بوجه عـام إلى ربطها بالتحولات العامة التي عرفها التراب الوطني ككل.

أقسام البحث :

لقد حـاولنا من خلال ما تجمع لـدينا من مادة علميـة والتي جادت بها علينا المصـادر والمراجع والدراسات، الوقـوف على الميكانيزمـات التي كانت

تحرك مجتمع مدغـرة خلال مرحلـة القرنين 10 و11هـ / 16 ـ 17م وما بعـدهما. وقسمنـــا عملنـا إلى أربعـة أبـواب، منطلقين مـن الأسس البيئيـة والبشرية، ومنتهين إلى أنماط الحيـاة بمدغرة اجتماعيـا واقتصاديا وفكـريا. وحرصنا كل الحرص في كل مراحل البحث أن نهتم بـالظواهر من جذورها وتتبع مراحل تطورها. ممـا كان يؤدي بنا أحيانا إلى عـدم الالتزام بالمرحلة الزمنية المحددة لهذه الدراسة.

فقـد تناول البـاب الأول المعطيات البيئيـة والمنـاخية. وكـان هذا البـاب ضروريا للتعريف بالمنطقة من حيـث: الموقع والتضاريس والإمكانات المائية. مما جعل منها مكانا للاتصـال والاستقرار منذ زمن بعيد. معتمدين في ذلك بشكل يكاد يكون كليـا على المصادر التاريخية والجغرافيـة، لمحاولة وصف تضاريس ومناخ المنطقة منذ عهود سابقـة عن مرحلة الدراسة. وحاولنا أن نكمل هذه الصورة بما أُنْـجِـزَ حول المنطقة من دراسات حديثة تصب كلها في الجانب البيئي والمناخي، لنـؤكد أن الظاهـرة البيئية والمناخية ظلت ثـابتة ولا نكاد نلاحظ إلا تغييرا طفيفا. وقسمنا هذا الباب إلى فصلين:

تناول الفصل الأول موقـع المنطقة من حيث وادي زيز. وحاولنـا خلاله رسم المعـالم الجغرافيـة لمنطقـة زيز الأوسط الـذي تنـدرج ضمنه منطقـة مدغـرة، من حيث نوع التضـاريس والبنية والجيـومورفولـوجية. لمحـاولة تفسير ضيق الحيز الزراعي واتساع المجال الـرعوي بالمنطقة، وأثر الظروف المنـاخية على هـذين القطاعين : مـن حيث قلة التسـاقطات وشـدة الحرارة وهبوب ريـاح الشرگي وغيرها من الظاهـرات المناخيـة الأخرى. لنتمكن من تحديد نوع الغطاء النباتي، ولمحاولة تفسير أسباب الفروق الواضحـة ما بين الشريط الفيضي على ضفاف وادي زيـز بمدغـرة وحريم المنطقـة من الجهة الشرقية والغربية منه، من حيث كثافة وتنوع الغطاء النباتي بالأول وندرته بالثاني.

وتطرق الفصل الثـاني الذي خصصناه للمشكلة الأساسيـة التي تعاني منها الواحات بوجه عام، وهو مشكلة قلة المياه. وحاولنا أن نتتبع كل أنواع الموارد المائية للمنطقة سطحية كانت أم جوفية، فتتبعنا استنادا على ما تمدنا به كتب الجغرافية والـرحلات بوجه خاص من معلومـات حول المسار الذي

يقطعه وادي زيـز من منبعه بجبال زيز (الأطلس الكبير «دْرْنْ») إلى سـافلة بسيط تافيلالت. مـدعمين ذلك بجملة من المعلومات القيمـة التي أمدتنا بها الخرائط الطبيعية للمنطقـة المنجزة مؤخـرا بالإقليم. ومستفيـدين أيضا من مجمـوعة من الـدراسات والأبحـاث التي تؤكـد ظاهـرة واحدة وهي أهميـة المجرى المائي السطحي في حيـاة السكان بالمنطقة. كما تتبعنـا الموارد المائية الجوفيـة، من عيون وآبـار وخطارات وغيرهـا. لمحاولـة إبراز الفـروق التي تتيحها المنطقة من إمكانات مائية. وهذا ما لم نلاحظه في غيرها من الواحات الأخرى المتناثرة على وادي زيز.

وتطرقنا إلى مختلف تقنيات وأسـاليب رفع الماء سواء من الوادي أو من الآبـار. وكانت هـذه الصورة الجغـرافية ضروريـة لربط المظـاهر الطبيعيـة بالحيـاة البشرية، وما لها من عـلاقات بأشكال وأنماط الاستغـلال والحياة المجتمعية العامة للمنطقة، وأثر كل ذلك في توجيه التاريخ المحلي للمنطقة.

وخصصنا الباب الثاني للسكن والسكـان وتقسيماته بمدغرة، وقسمناه إلى أربعة فصول :

تناولنـا في الفصل الأول تحديد ما يطلق عليـه منطقة مدغرة بحـدودها التـاريخية وليس بـالحدود الإداريـة المعروفـة الآن بـاسم «جماعة شرفـاء مدغرة». وتتبعنـا موقع المنطقة من حوض وادي زيـز في جزئه الأوسط، إذ كانت هذه المنطقة تشكل إحدى مقاطعات إقليم سجلماسة القديم. وأشرنا إلى المضـايق والفجاج التـي كانت تـربط المنطقـة بـالشمال والجنوب والغـرب والشرق، لنؤكد مسألة انفتاح المنطقة على ما يواليها عبر هذه الجهات الأربع من منـاطق مغـربية أخـرى. وأشرنـا إلى المجالات الاقتصـاديـة والثقافيـة والسياسيـة التي كانت منطقة مـدغرة تخالطهـا وتراقبها عبر مجمـوعة من التيارات القوافلية. كما تطرقنا إلى مدلـول اسم المنطقة «مدغرة» الذي أخذته من إحدى القبـائل البربرية الـزناتية الْـبُـتْـر التي استقرت بهذه المقـاطعة الجغرافيـة على الأقل منـذ القرن 2 هـ. وكـانت مناسبة للتعـرض للتطور التاريخي لقبيلة مدغرة ولهذه المقاطعة الجغرافية في التاريخ العام.

وتطرقنـا في الفصل الثـاني إلى النمط المعماري السائد بـالواحـات وهو نظـام القصـور. وحاولنـا أن نقف على التطـور الحاصل في بنـاء القصـور

السكنية بالمنطقة، لمعرفة قاعدة الاستقرار البشري الأولى. وكيف تم التحول من الترحال إلى الاستقرار، ومن المرحلة البربرية إلى العربية، من خلال طبيعة وشكل القصور بالمنطقة. وقسمنا القصور بمدغرة إلى قديمة مندرسة وأخرى قائمة، ووضعنا جدولا لكل منهما، أثبتنا فيه أسماءها ومواقعها. وحاولنا الوقوف على بعض النماذج من الصنفين لمحاولة تفسير جانب من التطور التاريخي العام للمنطقة انطلاقا من أسماء هذه القصور. ولرصد وتتبع الظاهرة العمرانية بالمنطقة أخذنا كنموذج لوصف مختلف المرافق العامة والخاصة التي يتكون منها القصر «قصر سيدي أبو عبد الله» لاستخلاص التطور الحاصل ببعض هذه القصور، إداريا واقتصاديا وعمرانيا. وتبين لنا في هذا الخصوص أن الدراسة المعمارية الحقيقية للقصور لاتعطي نتائجها العلمية الصرفة إلا بربطها بالنظام الداخلي للحياة داخل القصور على مستوى المحيط العام الذي أنشأ وطور هذه المؤسسات السكنية الواحية.

وخصصنا الفصل الثالث من الباب الثاني للحديث من مجموع الإثنيات البشرية التي تعاقبت على سكنى منطقة مدغرة خلال فترات متباينة من التاريخ، منها ما نصت عليه النصوص التاريخية التي استطعنا جمعها. ومنها ما استطعنا تأكيده انطلاقا من أسماء القصور والأماكن بالغابة. وعلى العموم فهذا الفصل يتعلق بأوضاع المنطقة ديموغرافيا وبمراحل تعميرها مع تحديد أسماء القبائل والإثنيات البشرية والأقليات الدينية، وتحديد أماكن انتشارها اعتمادا على ما وصلنا من إشارات. وكان هذا الفصل أيضا ضروريا لأنه يفيد من جهة في تتبع مراحل التطور البشري للمنطقة، ومن جهة أخرى يساعد على معرفة طبيعة البنية البشرية التي طبعت مجتمع القصور بمدغرة. ويساعد على تحديد القبائل المستعملة لحريم المنطقة، أو المغيرة عليها لا سيما خلال فترات أزمات قساوة المناخ ودورات الجفاف الحادة وفترات الصعوَبة السياسية.

وخصصنا الفصل الرابع لمناقشة مسألة انتقال بعض الأسر الحسنية الشريفة من تافيلالت إلى مدغرة وما إليها مع مطلع القرن 10هـ / 16م. وحاولنا في هذا الفصل الوقوف على أهم الأسباب الكامنة وراء ذلك الانتقال

ومـراحله. ومـدى مساهمة هـذه الأسر في تحويل المنطقـة إلى مركـز علمي وروحي معطاء. يضاهي في قوته ما هو موجود في العديد من المراكز العلمية القـروية الأخـرى. ممـا جعل المنطقـة تفرض حضـورهـا بشكل رسمي في التاريخ المغربي وتنحت حضورها في الذاكـرة الدينية والروحية المغربية على المستوى الوطني. حيث أصبح شرفـاء مدغرة يكونون القوة المحـركة للحياة الروحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في محيط مدغرة الذي درسناه. ممـا جعل المنطقة تنحت حضورها بشكل رسمي وبـارز في ذاكرة التـاريخ المغربي من حيث مسـاهمة شرفـاء مدغَـرة في الـدعايـة للمشروع التاريخي السعـدي في مرحلـة أولى، ومساهمتهـم الكبرى في خدمـة العرش العلوي المغربي في مرحلة ثانية. كما أن شرفـاء مدغرة أثروا الساحة العلمية والروحية المغربية بشتى ألوان فنون الفكر الديني والعلمي سواء بمدغرة أو بغيرهـا من العواصم العلميـة التقليـدية المغـربيـة. حيث إن بعضـهم أسس مجموعـة من الزوايا الـدينية والعلمية الصرفـة المطبقة للشريعة الإســلامية خدمة للعلم الديني دون سواه، كما وجد من شرفاء مدغرة من بوأته مكانته العلمية ليصبح قطب زمانه ومدرساً لأمراء وقته. لهذا لاغرو ونظرا لأدوار شرفاء مدغرة سياسيا وروحيا إذا وجدنا المنطقة تنحت حضورها حتى على مستـوى التصميم الإداري لإقليم الرشيـدية. إذ تعتبر المنطقـة الوحيـدة في المغـرب - فيما نعلم - التي ظلت ومـا زالـت تحمل اسم «جماعـة شرفـاء مدغرة».

وخلال هـذا الفصل حاولنـا أن نقف على القصور التي استـوطنتها كل أسرة من الأسر الشريفـــة الثـلاثـة (أهـل حم داوود ــ أهل تعـــرمت وأهل بوحامد). مبررين هذا الاختيار بمهام ووظائف واهتمامات كل أسرة. وذيلنا هذا الفصل بمحـاولة تحديد عدد سكـان المنطقة انطلاقـا من المادة العلمية الهامة التي تزخر بها الوثائق المحليـة. وحاولنا الاعتماد على القواعد العلمية المطبقة في هذا المجال.

وتناول الباب الثالث الذي قسمناه إلى ثلاثة فصول شكل العلاقات التي تربط السكان بالأرض، من حيث طـرق ملكية واستغلال الأرض والماء معا. ونوعية أدوات الإنتـاج. ومفصلين البحث في الزراعة وإمكـانياتها ومستوى

الإنتاج بالنسبة لحياة هذا المجتمع الواحي. وما كانت تنتجه المنطقة من منتوجات زراعية مختلفة ومردود ماشيتها. كما عالجنا كذلك أهم الأنشطة التجارية التي كانت تتم بأسواق منطقة مدغرة، وما يحيط بها من مناطق أخرى متباينة ومتعددة، دون إغفال الإشارة إلى أثر الاستثناءات المؤثرة على الإنتاج والمبادلات والاستقرار.

وتطرقنا في الباب الرابع إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية لمنطقة مدغرة. وقسمنا هذا الباب إلى فصلين:

خصصنا الفصل الأول لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية داخل قصور مدغرة. كمشكل التراتب الاجتماعي المبني أساسا على النسب، وعالجنا جانبا من الأسس التنظيمة العرفية الاجتماعية التي كانت تسنها مشيخات القصور لامتصاص الغضب، وتجنبا للصراع والتوترات الاجتماعية الناتجة عن قلة الإمكانيات الاقتصادية. وتطرقنا لأشكال النزاع والتضامن التي كانت تقوم سواء بين الفئات المكونة لمجتمع القصر الواحد أو بين مجموعة من القصور، بسبب التنافس على الموارد الاقتصادية كالماء والأرض والتي تزكيها الرابطة اللحمية الدموية بين بعض الفئات المتعايشة بالقصور. إلا أن هذه الخلافات سرعان ما كانت تذوب بفعل تدخل رجال الصلاح والتقوى أو عندما يتهدد القصور الخطر الخارجي كيفما كان نوعه.

وخصصنا الفصل الثاني لتتبع بعض مظاهر الحياة العلمية بالمنطقة. انطلاقا من نظام التعليم بالمساجد الجامعة وغير الجامعة. وأخذنا كنموذج «زاوية تاوريرت» لتتبع مراحل وطرق التعليم، مع ذكر بعض المواد التي كانت تدرس بها. وحاولنا الوقوف على المكتبة العلمية الهامة المعروفة في المصادر التاريخية بمكتبة آل بن طاهر التي كانت موجودة بالزاوية. وختمنا هذا الفصل بالتعريف بمشاهير رجال العلم الديني لمدغرة، ومساهماتهم الدينية والفكرية والوطنية. علاوة على ما توصلنا إليه من استنتاجات على المستويين المنهجي والمعرفي.

المصادر :

أ – الوثائق المحلية :

تشكل هذه الوثائق مادة علمية هامة تهتم برصد وتتبع مختلف أشكال الحياة بالمنطقة، وتقرب الدارس من مختلف ملامح العلاقات العامة بين السكان. ونظرا لأهميتها البالغة في التواريخ المحلية فقد اعتمد عليها عدد من الباحثين الذين استثمروا معلوماتها في إنجاز أبحاثهم المنوغرافية وغيرها باعتبارها قاعدة وأساس منطلقهم.

ورغم المشاكل التي يطرحها هذا النوع من المصادر من حيث صعوبة الحصول عليها نظرا للأسباب السالفة الذكر أعلاه، وأيضا مشاكل تتعلق أحيانا بصعوبة فرز معلوماتها وقراءتها. لأن هذه الوثائق غالبا ما تكون مكتوبة بخط ردىء وغير مقروء، كما أن البعض منها يوجد به بتر وخروم مما كان يضطرنا – في الغالب – إلى استعمال المكبر لفرز معلوماتها. إلا أنه متى تم الحصول عليها أو على جزء منها فإنها تشكل مادة علمية هامة لكل المهتمين بالأبحاث التاريخية وغيرها. وتتكون الوثائق التي استطعنا الحصول عليها من رسوم الملكيات المختلفة وعقود البيوع والأشرية والقسمة والتركات والأحباس، وبعض المراسلات الخصوصية وتقاييد والوفيات ووصف الكوارث والمجاعات والصراعات بين القصور وشجرات الأنساب وعقود الأخوة وغيرها. وعلى العموم يمكن الحديث عما يلي :

1 – عقد الأخوة الذي أبرمته أسرة آل حم داوود الشريفة من مدغرة مع أغلبية القبائل المشكلة لاتحادية أيت يفلمان، بخصوص تأمين وضمان سلامة الطريق المؤدي من مدغرة إلى فاس. لا سيما عند منطقة مضيق الخنك حيث تنتشر هذه القبائل. وتعتبر هذه الوثيقة من الوثائق الهامة والنادرة، فهي لا تتطرق فقط لذكر أهمية هذا الطريق في ربط الاتصال والتواصل بين مدغرة وفاس، بل إن من أهم حسناتها أنها تبين ثقل وأهمية أسرة آل حم داوود في توجيه تاريخ منطقة مدغرة وما إليها. إذ علاوة على تصدرها للعلم بها اهتمت بتسييج مختلف الأزمات التي كانت تنتاب منطقة مدغرة والمناطق المحيطة بها سياسيا واجتماعيا. وما عقد الأخوة هذا الذي أبرمته هذه الأسرة دون غيرها من الأسر الشريفة الأخرى الموجودة بالمنطقة

إلا دليل على أهمية هذه الأسرة بمدغـرة وما إليها. كما أن العقد المذكور يبين إضافـة إلى ذلك مختلف القبائل التي كـانت منتشرة من جهة على المضـايق، ومن جهة أخـرى تشير إلى مجموعة من القبائل أو بعض البطـون والأفخاذ التي كـانت تتشكل منهـا اتحاديـة أيت يفلمان. وهو أمـر قلما تشير إليهـا الدراسات التي أرخت للاتحاديات الأطلسية بما في ذلك حلف أيت يفلمان.

2 – ومن بين الوثائق الأخرى والتي لها أهمية بالغة لا سيما فيما يتعلق بمسألة بيع الأرض عثرنا على وثيقتين تعودان إلى مطلع القرن 20م وتبينان كيف أن بيع الأرض الزراعيـة بغابة مدغـرة لم يعد خاصا، بل تتـدخل فيه السلطات الإدارية والقضائية. وقد استنتجنا أن الهدف الذي كان وراء تدخل القاضي والقـائد معا في مثل هـذه العمليات، ينبـع أساسا مـن أهمية الأرض كوحدة إنتاجيـة أساسية كثرت عليها الخلافات والخصـومات. ولتسييجها ووضع حد لها اضطـر ولاة الأمر بمنطقـة مدغرة إلى ضرورة مـرور عملية البيوع والأشرية للأرض عبر القنوات القضـائية والمخزنية. ذلك أن الشخص الذي يـود بيع قطعة أرض ما كـان يقدم طلبا شفـاهيا للقاضي يعلمـه فيه ويطلب منـه أن يأذن له بـالبيع ويقـوم القاضي بمـراسلـة القائد المخـزني. ويكلـف هـذا الأخيـر أعوانه للقيام بخبرة حـول الأرض المراد بيعها للتأكد من سلامتهـا من موانـع التفويـت، كـأن تكون محط نـزاع أو فيهـا حق المخزن أو الحبس. كما تمكن هـذه الخبرة من معرفـة قربها أو بعـدها عن مجرى الماء والقصر السكني ونـوع تـربتها وطـولها وعـرضهـا. ولا يأذن القـاضي بالبيع إلا بعـد أن يحصل على نتـائج الخبرة التي يقوم بها القـائد المخزني. وكل هذه الإجـراءات لا يعتقد أنها اعتباطية بقـدر ما تنم عن كثرة الخلافات والخصـومات حـول الأرض. مما يـدل على أن كل شخص ادعى مليكـة أرض لا يمكنه أن يبيعهـا إلا إذا مـرت المسألـة عبر قنوات القـاضي والقائـد.

3 – وثيقة تتعلق بالمسألة العمرانية بمنطقة مدغرة وما إليها. وتبين هذه الوثيقة كيف كـان يتم بناء القصر وتوزيع النطاقات والحومـات على فئاته. وكانت تخضع هـذه المسألة للوضعيـة المادية والمكانة الاجتماعيـة لكل فئة. وتبين الوثيقة المرافق التي يشارك في بنائها وبشكل لزومي كل فئات القصر،

كبناء الأسوار الخرَّاجية والأبراج والأزقة والمسجد وغيرها من المرافق العامة. وتكشف كذلك عن جملة من الشروط التي يقـرها مجتمع القصر ويفرضـها بصرامـة على كل السكـان، كنظافـة الأزقـة والدكـانـة المخصصـة أساسـا لاجتماعـات سكان القصر وطبيعـة استعمالات المرافق العامـة للقصر ومنع غرز الأخشاب بجدار الجار أوصب الماء الوسـخ في الأزقة العمومية وغيرها من الشروط الأخرى المرتبطة بالأسـس التنظيمية للحياة داخل القصر. وقد اعتمـدنـا إلى جانب هـذه الـوثيقـة على مجمـوعة وثـائق أخـرى لتصحيح المعاومات وتكميل بعضها ببعض. وتعتبر هذه الوثائق الأخيرة بمثابة فتاوى كانت تجيب على مجمـوعة من النوازل التي كانت تطـرح على قضاة وفقهاء مدغـرة لإقرار نـوع من النظام داخل القصر، وزجر كل مـن خالف الأسس التي يقوم عليهـا نظام الحياة داخلـه. كما لجأنا كـذلك إلى تكميل مثل هذه المعلومـات من بعض المصادر والـدراسات التي اهتمت بالظـاهرة العمـرانية بـوجه عـام. وفي هذا الخصـوص نشير إلى استفادتنـا من كتاب «الإعـلان بأحكام البنيان» لابن الرامي، وكذا دراسـة الأستاذ عثمان عبد الستار حول نفس الكتاب. ومبرر اعتمادنـا على ابن الرامي هو أن أحكام قضـاة وفتاوى فقهاء مدغرة، كما هـو الحال كذلك بالنسبة لتافيلالت تعتمـد عليه، وهو ما تؤكـده الوثائق والعقود التي اطلعنـا عليها. وحاولنـا أن نعزز كل ذلك بما لازالت الذاكرة الشعبية المحلية تحتفظ به لحد الآن ومـا عايناه ميدانيا، وما أنجـزناه من لـوحات، وكلهـا تبين الخصائص المتميـزة للظاهـرة العمرانيـة بالمنطقة.

4 – وثيقة تتعلق بمكـان وجود قصر «هـلال» الذي ذكره المقـديسي منذ نهاية القـرن الرابـع الهجري والوزان مـع بدايـة القرن 10هـ. ويعتبر هـذا القصر من القصـور القديمـة المندرسـة بمـدغرة. حيث كـان خلال القـرن 10هـ/16م بمثابة مقر لقيادة عرب بني معقـل الذين كانوا يسيطرون آنذاك على مـدغرة. وقـد استطعنا تحديـد مكـان وجوده بمنطقـة مدغـرة اعتمادا وانطلاقـا من هذه الـوثيقة، وهـو الآن على غرار قصرا العمارنـة ولغروس محلا للغراسـة بغابة قصر أولاد أبي نـاجي بمدغـرة ولم يعد محلا للسكن كما كان من قبل.

5 – وثيقة تتعلق بمسألة تعاقب النوبة والجلوس بروضة مولاي عبد الله بن علي بن طاهر بين جميع أسر آل مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. وتحدد الوثيقة جميع الشروط التي كان يتم بمقتضاها اقتسام الذبائح والخيرات الآتية إلى الروضة، سواء من مدغرة أو من غيرها من المناطق الأخرى، لا سيما من قبيلتي أيت عيسى وأيت يوسي من جهة. ومن جهة أخرى تبين الوثيقة كيف كانت تلزم شروطها جميع المتعاقدين للجلوس بالروضة المذكورة على صيانتها والحفاظ على المتاع الموجود داخل الروضة من حصير وثوب وغيرها من الأمتعة الأخرى.

6 – مجموعة من الوثائق التي تؤرخ للصراع الذي كان يحدث بين بعض قصور مدغرة حول الماء والأرض في الغالب. وتبين بعض هذه الوثائق كيف أن النزاع كان يندلع بين قصرين ثم ما يلبث أن يتحول إلى صراع عام بين جميع قصور مدغرة، ويتحكم في هذه الصراعات الرابطة اللحمية الدموية. ذلك أنه عندما اندلع النزاع بين قصري أيت مسعود والقصر الدخلاني خلال سنة 1290هـ سرعان ما تحول هذا الصراع بين هذين القصرين إلى صراع بين أهل بوحامد وأهل تعرمت. الشيء الذي انعكس بشكل مباشر على أهم الموارد الاقتصادية كالماء والأرض وولوج الأسواق. إذ بمجرد اندلاع النزاع الدموي السالف الذكر تحولت مجموعة من الأسواق من مواضعها الأولى إلى مواضع أخرى. وهذا ما مكننا من معرفة مواضع الأسواق الأولى وأسباب تحولها إلى مواضع أخرى. ويؤرخ بنفس الآن لسنوات بنائها. كما أن الوثيقة تؤرخ لعدد القتلى والجرحى التي خلفتها هذه الصراعات، وكذا الشخصيات الدينية والروحية التي كانت تتدخل لإصلاح ذات البين بين المتحاربين. وهذا من شأنه أن يبين خصائص كل أسرة من الأسرة الشريفة التي انتقلت إلى مدغرة مع مطلع القرن 10هـ / 16م. ذلك أنه على إثر النزاع الذي اندلع بين أهل قصر سيدي أبو عبد الله وأهل مدغرة خلال سنة 1301هـ – والتي تؤرخ له وثيقة أخرى – فإن الذين أصلحوا بينهم هم بعض الشخصيات من أسرة آل حم داوود الشريفة كشيخ الإسلام سيدي محمد بالعربي العلوي ومولاي المهدي بن علي.

7 – مجموعة من الـوثائق التي تؤرخ للزخم الفكري الـذي خلفه شرفاء مدغرة، من حيث التأليف والنسخ. وفي هذا الخصوص نشير إلى الزخم الهام الذي يتضمنه مخطوط فتح القدوس الذي يؤرخ لشرفاء آل مولاي عبد الله ابن علي بن طاهر، وما خلفه زعماء هـذه الأسرة من مولاي عبد الله بن علي ابن طاهـر إلى مولاي بن علي، إضافة إلى مجمـوعة من الوثـائق التي تؤرخ للتراث العلمي والـديني الذي خلفـه بعض شرفـاء أهل تعرمت. كما تـؤرخ بعض هذه الوثـائق إلى تسلسل خطة القضاء في بعض آل تعرمـت وخاصة شرفاء القـصبة الجديدة، واهتمامات رجـالات المنطقة بشتى أنـواع الفنون الدينية والفكرية من إمامة وتدريس وفتوى ونثر وشعر وغيرها.

8 – ظهائر التوقير والاحترام التي كان يوجههـا سلاطين الدولة العلوية إلى أنجال الـولي الصالـح مولاي عبد اللـه بن عمـر المدغري. وأهميـة هذه الظهائر تكمن في أنها تبين من جهـة ظروف وملابسـات انتقال أسرة آل بن عمر من مدغـرة الوسطى إلى مدغرة العليا. ومن جهة ثـانية تبين الخلفيات السياسية التي كـانت وراء إقدام السلاطين الأوائل للدولـة العلوية على نقل هـذه الأسرة مع بدايـة النصف الثاني من القـرن 11هـ / 17م، سيما وأن تواريخها تتراوح ما بين 1059هـ / 1649م و1361هـ / 1942م. وحملنا هذا على استنتاج أن السلاطين الأوائل للدولة العلوية أدركوا أهمية هذه الأسرة في الدعاية للمشروع العلوي بعدما نجحت في ذلك مع الأسرة السعدية.

9 – وثيقتـان: الأولى تتضمن شروط اتفـاق قصر أيت عثمان. والثـانيـة تشير إلى مهام إصلاح ذات البين الذي استمـر أولاد مولاي عبد الله بن علي ابن طاهر، يتوارثـونها منذ مرحلة جدهم مولاي عبـد الله بن علي بن طاهر إلى مرحلـة العقد الـرابع من القرن 14هـــ / نهاية النصف الأول من العقـد الثاني مـن القرن 20م. وأهميـة هـذه الوثيقـة الأخيرة تكمن في أنها تقـرب البـاحث من المهـام التي اختصت بها أسرة آل مولاي عبـد اللـه بن علي بن طاهـر ولم تتخل عنها لمدة طويلة من الـزمن، أي من القرن 10هـ/16م إلى القرن 14هـ / 20م. وتبين كذلك أهمية هذه الأسرة في ضمان وسلامة طريق مدغـرة – فاس لاسيما بـالمضايق والضمان هنـا بقوة روحيـة وليس بقوة عسكرية.

كما تشير إلى مختلف القبائل التي كانت تتنافس للاستحواد على هذا الطريق، لا سيما عند مجال قصر أيت عثمان وما إليه جنوبا وشمالا. وهذه الوثائق هي التي نشرها الأستاذ العربي مزين بمجلة هيسبيريس تامودا عدد 19 «عدد خاص» خلال سنة 1980 – 1981 تحت عنوان :

Mezzine Larbi : tàqquit de Ait Atman, le receuil des regles des cotumes d'un groupe de qusurs de la moyenne valleé de l'oued Ziz. pp 89 - 121, in Hesperis Tamuda vol XIX fasicule unique 1980 - 1981.

10 – مجموعة من عقود ملكية الأراضي والأشجار. وكانت هذه الملكية لا تقتصر على المسلمين بمختلف فئاتهم بمنطقة مدغرة، بل إن الأمر طال حتى بعض الأقليات الدينية ويتعلق الأمر هنا بأهل الذمة. فقد كان اليهود ملاكون لبعض القطع الأرضية لا سيما بقسم مدغرة العليا ومنطقة الخنك. مما له بالغ الأثر في رصد وتتبع وضعية اليهود بالمنطقة، وما متعتهم به القاعدة الشرعية والأعراف المحلية من حقوق مدنية كاملة.

11 – وثيقة تتعلق بتجديد إقطاع خطارة تماسين من قبل السلطان العلوي الحسن الأول لورثة سيدنا بن أحمد بن احفيد من شرفاء قصر القصبة الجديدة بمدغرة.

ب) المخطوطات :

1 – مخطوط فتح القدوس في نسب أبى محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني لمؤلفه مولاي علي بن المصطفى من زاوية تاوريرت مدغرة. وقد فرغ مولاي علي بن المصطفى من تأليفه هذا يوم الثلاثاء السادس عشر من ذي الحجة الحرام عام 1322هـ وهو ما يوافق سنة 1905م. يقع المخطوط في 300 صفحة، وهو عبارة عن شجرة أنساب آل مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. والنسخة التي اعتمدنا عليها في عملنا هي تلك الموجودة بخزانة والدنا ابا سيدي بن التهامي العلوي.

ومعلوم أن هذا المخطوط كتب على الأقل ثلاث مرات. فقد كتبه للمرة الأولى مؤلفه مولاي علي بن المصطفى من زاوية تاوريرت مدغرة في التاريخ المحدد أعلاه. والثانية نسخه والدنا ابا سيدي بن التهامي العلوي بتاريخ 8 جمادى الثانية من سنة 1367هـ الموافق لسنة 1947م، بعد أن أضاف فيه

مجموعة من الإشارات المتعلقة بما تناسل من آل مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. معتمدا في ذلك على جملة من الرواة. قال: «وقد زاد فيه كاتبه محمد المبارك بن التهامي العلوي المدعو ابا سيدي زيادة بتاريخ 8 جمادى الثانية عام 1367هـ وها إليك بيان أسماء الأناس الذين رويت عنهم، لأني لم تكن لي معرفة بجميع الشرفاء لأنهم مبعثرين في المغرب. وهم: السيد مولاي الزهيد بن أحمد العلوي من آل عمي العابد بزاوية تاوريرت مدغرة والسيد مولاي عبد السلام بن الحسين من حوش تاوريرت مدغرة. والطالب السيد محمد بن المكي الخياط من حوش تاوريرت مدغرة، والشريف الفقيه العدل نائب القاضي السيد مولاي علي بن الحسن المدعو سيدي عمي من قصر أولاد أبي ناجي مدغرة. والشريف مولاي الطيب بن الأمين من قصر أولاد أبي ناجي مدغرة من آل عمي العربي. والشريف الطالب السيد محمد بن العربي بن اليماني من قصر أولاد أبي ناجي مدغرة من آل عمي العابد. والشريف السيد محمد بلخو من قصر أولاد أبي ناجي مدغرة من آل عمي البكري. والشريف السيد مولاي أحمد من آل عمي العربي الساكن بأيت وزاك بجير أيت عيسى قيادة بني تجيت».(3)

ونسخ هذا المخطوط للمرة الثالثة سنة 1392هـ / 1972م على يد أخانا الأكبر مولاي علي الشريف بأمر من والدنا. وهذا ما تؤكد الإشارة التالية: قال في مخطوط فتح القدوس: «وهذه التقيدة الثالثة رسمناها في هذا الدفتر المبارك بتاريخ 22 جمادى الأولى عام 1392هـ موافق 4 يوليوز سنة 1972م وفيها زيادة كبيرة... هذه سبعين سنة منذ كتبها العلامة مولاي علي بن المصطفى... والناسخ لهذه الشجرة المباركة عبيد ربه علي بن محمد المبارك ابن التهامي العلوي المدعو ابا سيدي بإذن من والده ابا سيدي بن التهامي والسلام».(4)

وهذه النسخة الأخيرة هي التي اعتمدناها في عملنا. وجدير بالإشارة أنه توجد نسخة أخرى من هذا المخطوط بالخزانة الملكية (الخزانة الحسنية حاليا). فقد ذكر الأستاذ محمد حجي أن النسخة الموجودة بالخزانة الملكية

---

3) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس القاهر في نسب أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني،، ص ص 27 – 28.، مخطوط خاص.

4) نفس المصدر السابق، ص ص 299 – 300.

تحمل رقم 2813ز.(5) وسبب وجود هـذه النسخة بالخزانة الملكيـة أن أحد أشراف مدغرة طلب من والدنا تسليمه إيـاها للاطلاع على نسبه وسلمها هذا الأخير إلى الخزانة الملكية.

صحيح أن المخطوط يؤرخ لأسرة أنساب آل مـولاي عبد الله بن علي بن طاهر الذين انتقلـوا إلى مدغرة مع مطلع القرن 10هـ / 16م في جملة الأسر الشريفـة التي انتقلت إلى مـدغـرة مـن قصـور وادي إفلي. إلا أنـه مع ذلك يتضمن إشارات تاريخيـة هامة، منها ما يتعلق بظـروف انتقال الشرفاء إلى مدغرة، ومنهـا ما يشير إلى أهم الزوايا العلمية التي أسسهـا آل مولاي عبد الله بن علي بن طاهر، مع ذكر بعـض القصور وتاريخ تأسيسها، والعناصر البشرية التي كانت مستوطنة بها أو ببعضها. كما يتعرض كذلك للانتقالات التي قـام بها شرفـاء مدغـرة إلى منـاطق كَير وغريـس وملويـة والحواضر المغربيـة كفاس وصفرو وزرهـون ومكناس ومراكش. ويتعـرض المخطوط كذلك لمختلف الوظائف التي كان يشغلهـا الشرفاء سواء بمدغرة أو بغيرها، علاوة على الزخم الفكري والديني الذي خلفه بعض أقطاب الأسرة، سواء على المستـوى المحلي الإقليمي أو على مستوى التراب الـوطني ككل. وغيرهـا من الإشـارات الأخـرى المتعلقة بـأهمية المنطقـة على الصعيـد العلمي والـديني والسياسي.

2 – مخطوط : مطـالع الزهراء في ذريـة بني الزهـراء لمولاي الزكي بن هاشـم العلوي من شرفـاء أسرة أهل بوحـامد قصر أزمـور بمدغـرة العليا. يؤرخ هذا المؤلف لشرفاء المغرب قاطبة من أدارسة وسعديين وعلويين، وقد أفادنا كثيرا من خلال المادة العلمية الهامة التي يقدمها حول ظروف انتقال بعض الأسر الحسنية الشريفة من تـافيلالت إلى مدغرة. ويقربنـا إلى حد ما من جملة المضايقـات التي تعرضت لها الأسر الشريفة بتافيـلات قبل انتقال بعضها إلى مدغرة. سواء من حيث ما عرفته الواحة الفيلالية آنذاك من غليان سيـاسي واجتماعي حاد مع مطلع القـرن 11هـ/17م، على إثـر وفـاة أحمد المنصور الذهبي وظهور ابن أبي محلي. وما أفرزه هذا الأخير من ضيق على الشرفاء واضطر قسما منهم إلى الانتقال.

---

5) محمد حجي : الحركة الفكرية في المغرب على عهد السعديين، ج 2ص 667.

كما يقدم لنا المخطوط مادة علمية هامة تتعلق بأسماء مختلف القصور التي انتقلت إليها كل أسرة من الأسر الشريفة الثلاثة إلى مدغرة وما إليها. وهو أمر قلما تشير إليه المصادر الأخرى التي واكبت مسألة انتقال بعض الأسر الشريفة إلى مدغرة. هذا وإن كنا نلاحظ أن الترتيب الذي وضعه مولاي إدريس الفضيلي في الدرر البهية مثلا لمختلف القصور التي حلت بها أسر آل حم داوود وأهل تعرمت وأهل بوحامد ينسجم إلى حد كبير مع مواطن كل أسرة على حدة. كما صنفه مولاي الزكي.

وعلاوة على ما تقدمه كتب الجغرافية والرحلات وبعض المصادر الإخبارية وكتب التراجم والمناقب من معلومات قيمة وهامة تقرب الباحث من رصد وتتبع مختلف مناحي الحياة بهذه الجهة. فإنه إلى جانب ذلك اعتمدنا على جملة من الدراسات الحديثة التي تطرقت لدراسة مناطق واحية أخرى، منها ما يلامس حقل الدراسة ومنها ما يبعد عنها. إلا أنها مع ذلك تشترك معها في العديد من الخصائص. وكان هدفنا من ذلك هو تكميل بعض المعلومات ومحاولة الوقوف على جملة من الفروق وأوجه الشبه، من حيث التماثل الكائن في وحدة الظاهرة المناخية والبيئية والمعالم العمرانية وطبيعة البنية البشرية بين هذه الأصقاع الواحية. وكذلك الاستفادة مما تضمنه البعض منها من عقود الاتفاقيات وشروط الأسس التنظيمية اجتماعيا وسياسيا وعرفيا.

لقد حاولنا خلال كل هذه المراحل استنطاق الوثائق واستخراج المعاني والمضامين التاريخية من أسماء الأماكن والقصور. وجمع كل المعلومات المتناثرة بالمصادر والمراجع. وذلك بغية الخروج ببحث منوغرافي ذي طابع شمولي يرصد ويتتبع مختلف الظواهر والحالات، لتحقيق تصور عام عن مجتمع مدغرة في الزمان والمكان المحددين أعلاه. وكل هذا وذاك دفعنا إلى الوصف واعتماد المقارنة والتحليل والتأويل كلما سمحت بذلك الأدوات المنهجية المتوفرة والمعمول بها في هذا النوع من الأبحاث التاريخية لاستنباط خصوصيات مدغرة. ولعل ما وجه إلى حد بعيد هذا العمل علاوة على

استفادتنا واستعانتنا بجملة من البحوث والدراسات التي سبقتنا إلى هذا الحقل المعرفي، هو ما أمدتنا به مجموعة من العلوم الإنسانية كالأنطربولوجية والسوسيولوجية وغيرها من أدوات علمية ومنهجية أخرى، حاولنا بواسطتها تذليل مجموعة من المشاكل التي كانت تنتاب عملية البحث والتحليل.

ومع كل هذا لا أدعي أنني من خلال هذه المحاولة المتواضعة قد استوفيت البحث بصورة شاملة جامعة، أثرت كل جوانبه وعالجت كل القضايا التي يطرحها، وأجبت عن كل الأسئلة التي تفرضها طبيعته. ولكن على الأقل أثرته، وبذلت ما في وسعي - كل ما وجدت إلى ذلك سبيلا - لأقدم مساهمة متواضعة في خدمة تاريخنا الوطني.

وفي الأخير يجدر بي أن أتقدم بخالص شكري وامتناني لكل من ساعدني من قريب أو بعيد على إخراج هذا البحث إلى النور، منذ كان فكرة حتى أصبح حقيقة ملموسة. وفي مقدمتهم أستاذي الجليل وسندي وعمدتي وشيخي السيد مولاي هاشم العلوي القاسمي «المدغري» الذي تفضل بالإشراف على هذا العمل الذي تم تحت رعايته وتتبع خطواته بحزم وعزم وشدة وبلاء، وتلك سمات الأخلاق العلمية الفاضلة لصبر العالم المتمكن، وأناة الباحث المتمرس وعطف الأب الرحيم، يشفق علي دمويا ولكنه لا يرحمني علميا. فمن مكتبته الخاصة بدأت وانتهيت وعلى مظان ما تتوفر عليه مكتبته العلمية الهامة اعتمدت وانطلقت، وعلى علاقاته الخاصة والعامة اتكأت، وبفضل إرشاداته وتوجيهاته العلمية صقلت. فما جاء في هذا البحث من فضل فله يعود وما فيه من تقصير فإلي ينسب.

وأسأل الله التوفيق.

فاس في 20 دجنبر 1993

الباب الأول :

المجال الطبيعي لحوض زيز الأوسط «مدغرة»

الفصل الأول :

المعطيات البيئية

الفصل الثاني :

مسألة الماء في حوض وادي زيز

الفصل الأول :

المعطيات البيئية

مقدمـــة :

- موقع حوض وادي زيز، الأوسط
* الطبوغرافية :
* التكوين البنيوي :
* جيو مورفولجية المنطقة :
* المناخ :
* التساقطات :
* الحرارة :
* الرياح :
* التربة :
* الغطاء النباتي :

الباب الأول :

الفصل الأول :

المعطيات البيئية

مقدمـــــة :

يكتسي تحديد الموقع الجغرافي والوصف العام للظـروف المناخية بالنسبة لمنطقة حوض وادي زيـز، أهمية خاصة في دراسة تاريخ منطقـة مدغرة. إذ على ضوء هذه المعطيات البيئية يمكن تحديد طبيعة القاعدة المادية التي تقوم عليها المجموعات البشرية التي استوطنت منطقـة مدغرة، لأن البيئة تؤثر في الحياة القبلية تأثيرا كبيرا، والحياة القبلية هي عصب تاريخ المغرب، فإذا لم نستعن بـالمعطيـات الجغـرافيـة لـن نستطيع أن نـدرس تنقـلات القبـائل وتحركـاتها. إذ لابـد من دراسـة الطرق والمسـالك التي سلكتهـا، ودراسـة البيئات التي تأثرت بها وأثرت فيها.(1)

وعلى ضـوء هذه المعطيـات البيئيـة أيضـا يمكن تحديد الملامـح العامـة لمختلف التطورات الاجتماعيـة والاقتصادية والسيـاسية التي عرفهـا تاريخ منطقـة مدغـرة. لأنـه لا منـاص للمؤرخ اليـوم من أن يعتمـد على الحدود الطبيعية ليفترض علاقة موضـوعية بين جميع السطوح التي سيصفها على مراحل مختلفة وبتقنيات متنوعة.(2) لهذا لا غرو إذا وجدنا بعض المؤرخين الغربيين أمثال غوتييه(3) وشارل أندري جـوليان(4) وطيراس(5) يولون

1) أحمد حسن محمود : قيام دولة المرابطين، ص 16، القاهرة، د. ت. دار الفكر العربي.

2) عبد الله العروي : مفهوم التاريخ، ج 1 ص 190، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1992.

3) gautier (E, F) : les siècles obscures du Maghreb. paris. 1915.

4) شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، جزءان، تونس 1983. ترجمة محمد مزالي، البشير ابن سلامة.

5) Terrasse (H) : Histoire du Maroc des origines à l'etablissement du protèctorat Français. 2 T. casablanca, 1951.

أهمية خاصة لهذه الحقائق، معتمدين في ذلك على المنهج الجغرافي لتفسير الأحداث تفسيرا معقولا، سيما وأن تاريخ بلاد المغرب عامة يرتبط إلى حد كبير بموقعها. فكل هذه العوامل مجتمعة تشكل مدخلا وإطارا لهذه الدراسة.

موقع حوض وادي زيز الأوسط :

يبدو حوض وادي زيز عموما كأنه شبه جزيرة مغلقة عزلتها الظروف الطبيعية عن باقي أنحاء المغرب، بجبال الأطلس في الشمال والغرب وبالصحراء في الجنوب. إلا أن هذا الانطباع الأولي ليس صحيحا ولم يكن كذلك في الماضي، ذلك أن هذا المنخفض لم يسبق له أن كان معزولا – على الأقل منذ مرحلة الفتح الإسلامي – عن باقي أنحاء البلاد، إذ أن كلا من فج تيزي ــ ن ــ تلغمت في الشمال الشرقي للمنطقة والأودية العالية لأسيف(6) ملول وأسيف نايت سخمان (الجزء الأعلى من وادي العبيد) في الشمال الغربي، والتي تلتقي على التوالي بالشعاب والممرات التي حفرها وادي زيز ووادي غريس في جبال الأطلس الكبير الشرقي، تمكن فعلا من ربط هذا المنخفض بمنطقة ملوية العليا.

وقد جعل الممر الأخضر الذي تكونه واحات إقليم سجلماسة المتناثرة على طول 200 كلم على وادي زيز وبعدها واحات توات منطقة الحياة في هذه الجهات. وهذا ما خول لهذه المنطقة دورها في الربط بين شمال المغرب والصحراء.(7) ومن ثم كانت واحات زيز الأوسط (الخنَك – مدغرة – الرتب) تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية الممتدة على طول وادي زيز في الجنوب الشرقي المغربي. إلا أن وجود الجبال في المدخل الشمالي لوادي زيز جعل سكان المنطقة يرتبطون بالمناطق الصحراوية أكثر من ارتباطهم بالمناطق الجبلية الشمالية، الشيء الذي طبع مجتمع المنطقة بسمات خاصة ومتميزة تستجيب في أغلبها لهذا الانفتاح.

---

6) أسيف تعني بالبربرية الجدول.

7) العربي مزين، مذكرات من التراث المغربي، مجلد 4 ص 14.

يقع حـوض وادي زيـز في جنـوب شرق الأطلس الكبير، ويحد الحوض بأكملـه من الشمال بحـوض ملـوية، ومـن جهة الغـرب بحـوض غـريس وبحوض كَير من جهة الشرق وجنوبا بحوض تافيلالت.(8)

وهكـذا يظهر أن حـوض وادي زيـز يشمل منطقـة شـاسعة الأطـراف مفتوحة الأبواب، مما جعل منها معبرا لعدة إثنيات بشرية بأنشطتهم وإرثهم الحضـاري. ويتجلى ذلك في البصمات القويـة التي تـركتهـا هذه الإثنيـات المختلفة، سـواء أكانـت مغربيـة أو صحراويـة إفريقيـة محضة، على شرائح عريضة من سكـان حوض وادي زيز. وما انطـوى عليه مجتمع المنطقة من عـادات وتقاليـد مختلفة الأصـول، لم تتمكن عوامل الـذوبان والإدمـاج أن تجردها من خصوصياتها المتميزة على مر العصور والأزمان.

ويمكن تقسيم حوض وادي زيـز بأكمله إلى ثـلاثة أقسام: حـوض زيز الأعلى، وحـوض زيـز الأوسط، وحـــوض زيـز الأسفل،(9) ومادام إطـار الدراسة يرتبط بحوض زيـز الأوسط نرى من المفيد التركيز على هذا الجزء دونما طبعا إغفال الأجزاء الأخرى لأنها كل متكامل.

يقع حوض وادي زيز في الجنوب الشرقـي المغربي وهو جزء صغير من الأخدود الجنـوبي الأطلسي أو المقعر مـا قبل الإفريقي، الـذي يتصل بجبال الأطلس الكبير عبر حـــوض وادي زيـــز الأعلى. كما يشرف على الصحــــراء الإفريقية الكبرى بمنخفضات وهضاب مثل درعة وكم كم والكَير.(10) ويحد حوض زيز الأوسط بحوض بودنيب في حمادة الكَـير شرقا وحوض غريس غربا، وشمالا حوض زيز الأعلى وسهل تافيلالت جنوبا. كما يقع من حيث الإحداثيـات الجغرافيـة بين خطي عرض 32 درجة و31 درجة و30 دقيقة شمالا، وبين خطي طول 4 درجات و4 درجات و30 دقيقة شرقا. وبذلك يمتد هـذا الجزء من الحوض برمتـه من مـركز الـريش إلى مـركز أوفـوس على

---

8) La terre, les hommes et l'eau. bulletin de l'association d'imformations de l'office des irrigations. n° 4 janvier, 1963 p 13.

9) La terre, les hommes et l' eau, op cit, (b.A.I.O.I) p 13.

10) Notes marocaines de service géographique, n° 231, ressources en eau, t III, domaine Atlassique. Rabat 1977, p 230.

مساحة تقدر بحوالي 4099 كلم^2 (11) وهو عبارة عن هضبة كريطاسية تعرضت للتعرية في جزئها الأوسط، يخترقها وادي زيز من الشمال إلى الجنوب مكونا منها واحة.(12) ولا تمثل الأراضي الزراعية من مساحة الحوض الإجمالية إلا نسبة ضئيلة تقدر بحوالي 0,64٪ من هذه الأراضي التي تمتد على شريط مخضر في جوانب الوادي على طول 90 كلم، وعلى عرض يتراوح ما بين 4 إلى 6 كيلوميترات كمتوسط فقط لا سيما في الواحات. لكن مع ملاحظة أن هذه الأراضي الزراعية تضيق وتتسع حسب المناطق. ففي واحة مدغرة يتسع الحيز الزراعي إلى أكثر من خمسة كيلوميترات في حين لا يتجاوز 800م في مناطق أخرى (قصر أولاد شاكر) على ضفتي الوادي. وهذا الحيز الزراعي الضيق يقابله اتساع في المجال الرعوي، وذلك راجع بالأساس إلى الظروف الطبيعية القاسية المسيطرة على الحوض وخاصة منها عامل المناخ.(13)

لكن إذا كانت الطبوغرافية والمناخ، وكذلك الغطاء النباتي تسهل عملية تحديد المجال الطبيعي لأي منطقة. إلا أن الباحث سرعان ما يصادف صعوبة كبيرة لا سيما عندما يتعلق الأمر بالإنسان، الذي لا تحصره حدود بفعل مده وجزره وبفعل نتاجه المادي والمعنوي. فالحدود تتغير حسب التطورات السياسية وحسب الركود أو الانتعاش الاقتصادي، وحسب سكون أو حركة المجتمع. كما تتغير أيضا حسب فصول السنة. فخلال فصل الصيف تكون المنطقة على اتصال بعدة مناطق مجاورة لها، سواء تعلق الأمر بالواحات المجاورة لها أو سكان الجبال، وكذلك جموع الرحل التي كانت تتردد على أسواق الواحات لأسباب تجارية. سيما إذا علمنا أنه في هذا الفصل تجنى المنتوجات الفلاحية، وتزداد هذه العلاقات كثافة خلال

---

11) La terre, les hommes et l'eau, op cit, (b.A.I.O.I) p 13.

12) والواحة بالمعنى الدقيق هي «بقعة مكونة نظاما زراعيا متميزا بخصوصيته الجامعة بين غراسة النخيل والبساتين الحقلية الخاصة بهذا القسم من حوض وادي زيز».

A.G.P Martin : quatres siècles d'histoire marocaine au sahara de 1504 à 1894. au Maroc de 1894 à 1912, p 2, paris, 1923.

13) la terre, les hommes et l'eau op cit (b.A.I.O.I) p 13.

بداية فصل الخريف الذي يصادف مرحلة جني التمور وتسويقها إلى أسواق الشمال وخاصة بفاس. بينما يتقلص نفوذ المنطقة خلال الفصل البارد نظرا لصعوبة الاتصال لأسباب مناخية أساسا، ولقلة الإمكانات النقلية. هذا علاوة على كون فصل الشتاء هو بداية مرحلة زراعية جديدة.

فالإطار التاريخي العام للمنطقة لم يتغير بناء على الأوصاف القديمة والجديدة التي تؤكد ظاهرة واحدة، هي استمرار الوجه الطبيعي للمنطقة ماعدا التغييرات البشرية.

ولهذا الموقع الجغرافي وأهميته تأثير على وضعية المنطقة سياسيا سواء إزاء المخزن الذي كان يتعثر في فرض سلطته عليها، نظرا لبعد المسافة عن العاصمة مركز القرار السياسي والإمداد العسكري، وكذلك لصعوبة تأمين الطرق. وهي بالجملة بحكم موقعها منطقة منفتحة على الصحراء. مما يؤهلها لاحتضان كل ساخط ثائر على السلطة المركزية، كما تعتبر مجالا حيويا للإثنيات المتنقلة بين الشمال والجنوب.

وخلاصة القول أن هذه الوضعية الفريدة التي تحتلها منطقة حوض زيز الأوسط (مدغرة) وسط تلك الأصقاع شبه الصحراوية، هي التي جعلت منها همزة وصل باعتبارها ممرا لقوافل التجارة، وسوقا تقصده القبائل المجاورة من رحل ومستقرين. وهي أيضا مركزا دينيا ثقافيا استقطبت عددا من العلماء والصلحاء، منهم من أسس زوايا لتدريس العلم كان الطلاب يقصدونها من مناطق بعيدة. وقد ساعدت هذه الأهمية الثقافية والاقتصادية لواحات زيز الأوسط على انتشار تمثيليات لزوايا دينية مختلفة في بعض قصورها. وفضلا عن هذا، كانت معبرا للحجيج المغربي بصورة غير رسمية.

الطبوغرافية :

تذهب جاك موني إلى القول أن معرفة الطبوغرافية والتضاريس شيء ضروري وأساسي لفهم أنماط حياة السكان وتاريخهم، إذ لا يمكن دراسة السكان بمعزل عن الإطار الجغرافي.(14) ومما هو متعارف عليه أن تنوع

Meunie (D.J) : le Maroc saharien des origines à 1670. librairie, t 1, p 51, paris 1982. (14

التضاريس لا ينعكس فقط على المناخ وحركة الرياح وتوزيع التساقطات والغطاء النباتي، بل ينعكس أيضا على أنماط العيش والأنشطة الاقتصادية وطباع الناس وعلى عاداتهم وأعرافهم.(15)

يدخل حوض وادي زيز في إطار الأخدود الجنوبي الأطلسي ما قبل الافريقي، المكون من حوض ورززات وحوض السوس وحوض زيز، والمتكون من طبقات رسوبية قديمة لم تتأثر كثيرا بالحركات التكتونية التي أدت إلى خلق جبال الأطلس الكبير. ومن وجهة نظر مورفولوجية للمنطقة الوسطى من حوض وادي زيز هناك عاملان محددان:

1 – طول السلسلة الثلاثية لحمادات الكَير.

2 – المستوى البنيوي المكون من الكلس الطوروني الذي هو بمثابة حد للتآكل والمكون للجرف العلوي المسيطر في سهل تافيلالت، هذا الذي يلعب دورا كبيرا للفصل بين واحة مدغرة وسهل تافيلالت.(16) وعلى العموم يتميز حوض وادي زيز بتضاريس تجمع بين وحدتين طبوغرافيتين:

أ – وحدة هضبة مسكي : ويقطعها وادي زيز من الشمال إلى الجنوب يتراوح فيها الارتفاع ما بين 950م و1100م فوق سطح البحر،(17) وهذا يدل أنها ذات سطح شبه منبسط، لكنها شديدة التقطيع في جنوبها الشرقي. ويرجع نشوؤها إلى الزمن الجيولوجي الثالث، فهي هضبة كريطاسية تشرف على وادي زيز بحافات شديدة الانحدار. وقد أطلق على هذه الهضبة اسم الحمادة(18) لاستواء سطحها النسبي، والذي تغطيه كميات هائلة من المفتتات الصخرية. مما يجعل سطحها ملائما للنشاط الرعوي أكثر من قابليتها للنشاط الزراعي، مع ملاحظة أن الوادي يتعمق نسبيا في منطقة

---

15) محمد استيتو : الكوارث الطبيعية في مغرب القرن 16. د.د.ع في التاريخ، كلية الآداب فاس سنة 1988، ص 36.

16) la terre, les hommes et l'eau. op cit. (b.A.I.O.I) p 13.

17) الأرقام مأخوذة من الخريطتين الطبوغرافيتين لقصر السوق وأرفود.

18) la terre, les hommes et l'eau, op cit, p 13.

الخنكَ، الشيء الذي يسمح بانتشار حيازة فلاحية بمنطقة مدغرة فوق سطح هذه الهضبة.(19)

ب – وحدة الوادي : وتبدأ هذه الوحدة من عين مسكي إلى أن تنتهي مع ما يسمى بسهل تافيلالت أي المنطقة التي يلتقي فيها وادي زيز برافده وادي زرزف، ويتميز الوادي هنا بعمق يتراوح ما بين 150م و200م ويختلف باختلاف المواقع. كما تسود قعره صخور المارل اللين، كما هو الشأن كذلك في واحة مدغرة. وهذا من شأنه أن يعمق ويوسع من مجرى الوادي(20) على حساب الأراضي الزراعية، وعليه فإن هذه الوحدة لا تتسع في واحة مدغرة لأكثر من 5 كلومترات كمتوسط و800م على طول حوض وادي زيز الأوسط. وهي على العموم المساحة التي يشملها النشاط الزراعي.(21)

وعلى العموم فالمنطقة عبارة عن هضبة تطل عليها سلسلة جبال الأطلس الكبير الشرقي من الشمال عبر حوض زيز الأعلى بارتفاعات تصل إلى حوالي 3698م (جبل العياشي)،(22) وهي عبارة عن جبال عارية شديدة التخديد تعكس طبيعة المناخ السائد بالمنطقة، وصفها كل من الوزان ومارمول بكونها جبال باردة وعرة،(23) وتحد جنوبا بالحوافي المشرفة على سهل تافيلالت.

---

19) والحمادات هي هضاب من الكلس قاحلة نخرتها وديان تحت تأثير الرياح الهوجاء وأشعة الشمس اللافحة، تغطي مساحات شاسعة. وقد تحدث عنها ابن خلدون في كتاب العبر، ج 6 ص 131 : «بأنها أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة». والواقع أنها هضاب صخرية تمتد في الفيافي الصحراوية، مائلة السطح سواء في إقليم قصر السوق وورزازات وطرفاية أو في الصحراء الغربية. ففي الجنوب الشرقي توجد حمادة مسكي وبودنيب وكَير. وتظهر هذه المرتفعات كسهول بلورية وهضاب كلسية ومنبسطات رسوبية لا تختلف عن هضاب الصحراء إلا من حيث المناخ الذي يتسم بالرطوبة شمالا بقدر ما يجف في الصحراء». انظر معلمة المدن والقبائل، ص184. عبد العزيز بن عبد الله، مطبعة فضالة المحمدية، 1977.

20) la terre, les hommes et l'eau, op cit, p 13.

– مجلة الماء والتنمية ع 2 يونيو 1986 ص 111.

21) انظر الخريطة رقم 3 والشكل رقم 3.

22) la terre, les hommes et l'eau, op cit, p 13.

23) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الافريقي : وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى الرباط 1982 جزءان، ج 1 ص 187.

– مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمة مجموعة من الأساتذة، 3 أجزاء، ج1 ص277، الرباط 1984.

التكوين البنيوي :

إذا ما حاولنا أن نقوم بإنجاز خريطة للوحدات البنيوية التي تكون منطقة حوض وادي زيز الأوسط فإنه يمكن الجزم بأن وادي زيز يدخل في إطار الأخدود ما قبل الإفريقي، الذي هو بمثابة مقعر غير متماثل الجوانب ما بين محدب الأطلس الكبير ومحدب الأطلس الصغير. فمنطقة الحوض هذه تتكون من طبقات رسوبية لم تتأثر كثيرا بالحركات التكتونية التي همت جبال الأطلس الكبير في عصر النيوجين. فمثلا هضبة مسكي والذي يشمل الحوض جزءا منها، تتكون من الطبقات الجيولوجية التالية ابتداء من الأسفل في اتجاه الأعلى :

- طبقة قديمة يرجع تاريخها إلى الزمن الأول ما قبل الكامبري، صخورها شستية وكوارتزية غير نافذة، وهي المسؤولة عن وجود مجموعة من عيون الحوض.
- طبقة جوراسية وكريطاسية ذات صخور كلسية وأخرى مارلية.
- طبقات الكريطاسي الأسفل والسينوماني وتشمل بنية الوادي الصخرية مثل المارل اللين، الذي يعمل على تعميق وتوسيع مجرى الوادي.(24)
- طبقة التيروني وتعلو سطح الهضبة.
- طبقة الكريطاسي الأعلى وتمتد من مسكي حتى بداية جبال الأطلس الكبير، وهي ذات صخور مارلية.(25)

جيومورفولوجية المنطقة :

إن قوة الرياح خاصة منها الشركَي تعتبر من أهم العوامل التَّحَاتِيَّة الدائمة الأثر في تشكيل المظهر الجيومورفولوجي العام لسطح المنطقة.(26) حيث تصبح السيادة لبعض الظاهرات الجيومورفولوجية الخاصة، كالتلال

24) مجلة الماء والتنمية عدد 2 سنة 1986 ص 111.

25) مجلة الماء والتنمية. م. س. عدد 2 السنة 1986 ص 111.

26) Fernand (Joly) : relief du sud - est marocain, Rabat 1962.

الشاهدة المتناثرة فوق سطح هضبة مسكي. إلى جانب كثبان رملية «الرك»،(27) كما هو الحال في المنطقة مسماة «إيردي» الواقعة جنوب الحوض. وقد ظلت هذه العروق(28) الرملية تشكل خطرا على الحياة الزراعية خاصة وقت هبوب الرياح.

وعلى العموم يمكن القول أن الظاهرات الجيومورفولوجية السائدة بجانب الوادي وعلى الهضبة أو الحمادة، هي التلال الشاهدة وموائد صخرية مخاريط الإنصباب، وغطاءات وكثبان رملية صغيرة. إلا أن مستويات الرباعي تندرج من الأسفل نحو الأعلى مكونة ما يلي:

- مجاري مائية لا تعمل إلا في أوقات الفيضانات.

- سطوح منخفضة طينية أو طمية مكونة من رسوبات رقيقة ذات لون ناصح، وتستغل هذه السطوح زراعيا وتتغذى بالرسوبات عن طريق السقي المستمر أو الفيض.

- سطوح مفروشة بالكونغرلوميرا خاصة بجوار الجبال، وهي لا تستغل فلاحيا إلا بشكل ضعيف.(29)

وهكذا نلاحظ أن التكوين الجيومورفولوجي للمنطقة أعطاها تضاريس هضبية، يخترقها في الوسط الوادي الذي يتغذى بشعاب وروافد مختلفة. كما أن وجود هذه الهضبة جنوب جبال الأطلس الكبير الشرقي حرمها من التيارات الهوائية الرطبة بفعل حاجز الجبال. لذا فهي منطقة تقع في ظل المطر، وإشرافها جنوبا على سهل تافيلالت المنبسط جعلها عرضة للتأثيرات الصحراوية الجافة. الشيء الذي طبع مناخها بالقارية وطقسها بالتقلب، وأثر كل ذلك على طبيعة الإنتاج الفلاحي وعلى الإستقرار.

---

27) وهي سهول مغطاة بالحصى جافة المناخ تنتثر منها الرمال لتكوين ما يسمى بالعرق / معلمة الصحراء، ص 109.

28) Labry (André) : gèographie economique et ferroviaire du Maghreb, p 18, edition mai, Paris 1978.

29) Fernend (J) : relièf du sud - est marocain, op cit, p 210.

المناخ :

ساهم المنــاخ بشكل فعال في توجيــه تاريخ منطقة حــوض زيز الأوسط بمجاليهــا الزراعي والرعوي اقتصــاديا واجتماعيا، ذلك أن سقــوط المطر أو انحباسه يؤثران سلبا على الاقتصاد، وبالتالي على المجتمع. وهذا ما دفع أحد الدارسين إلى نعت سلطان المنــاخ بكونه أشد سطوة وأكثــر تقلبا من مفعول الطبوغرافية التي تتأثر به في شتى مظاهرها.(30)

مما لاشك فيــه أنه بدون معرفــة الخصائص المناخيــة لحقل دراستنا لا يرجى بـتاتا فهم وتتبع تطور الاقتصاد الفلاحي المحلي (زراعة ورعي). غير أن الاعتماد على مصادر المرحلــة لمحاولة فهم وتتبع بل وضبط أحــوال هذا المناخ يبدو أمرا عسيرا، ذلك أن أصحاب هذه المؤلفات لا يتحدثون عن المناخ إلا إذا تعلق الأمر بجفاف حاد، أو حدث سيل غير معتاد للتأكيد على خيرات الأول وويلات الثاني.(31)

إن كتب الرحلات والجغرافيا بوجه التخصيص، لم تخرج عن إعادة ذكر ما أورده كتاب سابقون عنهم، ومما يـزيد الأمر تعقيدا كون هؤلاء يغضون الطرف عن ذكــر مصادر نقولهم. الشيء الــذي يجعل الدارس في حيرة، أهي من ذات العصر أم ســابقة عنــه بقــرون؟ سيما إذا علمنــا أن المناخ مــرتبط بالزمن فهو يتغير ويتقلب، بل هو مــوضوع التاريــخ كــما يذهــب إلى ذلــك le roy ladurie.(32)

الحقيقة أن الظروف المناخية لم يطرأ عليهــا أي تغيير يذكر منذ القرون الــوسطى على الأقل لا سيما بــالواحــات الصحــراوية، لأن الــوصف العــام للظروف المناخية لهذه الجهات ظل ثابتا حسب ما تمدنا به المصادر.

---

30) شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، م س، ج 1 ص 16.

31) محمد مزين : فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549 – 1637م) ج 1 ص 69، منشورات كليــة الآداب والعلوم الإنسانية الـرباط، سلسلة رسائل وأطـروحات رقم 12 الرباط، 1986.

32) la derie (E. Roy) : histoire du climat de puis l'an mille, Flamarion, paris 1983, 1er vol p11.

- Martin (A.G.P) : les oasis sahariennes, paris 1908, t 1 p 25.

د.حسن عوض : الإضطرابــات المناخية ص 214 ـ 217. مجلة البحث العلمــي عدد 4 ـ 5 سنة 1965، الرباط.

فإذا كـان ابن بطـوطة الـذي زار المنطقـة لم يشر إلى حالـة المنـاخ فإن البكري خـلال القرن 5هـ / 11م وصف مناخ هـذه الأصقاع بأنـه: «مناخ مفرط الحر شديد القيظ».(33) كما أشار القلقشندي نقلا عن العمري خلال القرن 9هـ / 15م إلى شـدة حـرارة هـذه الجهات الجنـوبيـة، وضمنهـا سجلماسـة ومجالها. قـال: «وهي بلـدة شـديـدة الحر»،(34) وهـو نفس الـوصف الـذي كان قـد قـدمـه عبد المنعم الحميري خـلال القـرن 8هـ / 14م.(35) كما أن الوزان الذي زار المنطقة خلال القرن 10هـ / 16م أكد هذه المعطيات المناخية،(36) ويجاريه في هذا الخصوص مارمول الذي يعتبر: «أن هذا القسم مـن إفريقيا (نـوميديـا) أشد حـرارة من بلاد البربـر. لأنه يقع جنوب جبال الأطلس، لـذلك فإنه يكاد يكون كله مجدبـا وينقصه الماء، ولو أن بعض الأنهر ترويـه بعد خـروجها من هـذه الجبال».(37) كما أن هـذه الظروف لم يطرأ عليها أي تغيير من خلال ما تمدنا به الدراسات الجغرافية الحديثة.(38)

وهكذا نخلص إلى القول أنه من خلال رصـدنا ومتابعتنا لنصوص كتب الجغرافية العربية نلاحظ أن مناخ المنطقة ظل شبه مستقر. ولا يكاد يلاحظ إلا التغيير الطفيف، الـذي لم يـؤثر على معطيـات الاستمـراريـة التاريخيـة للمنطقة.

يعتبر حوضا زيز وغريس خـاضعان للنظام المناخي السائد في مجالهما النهـري. مما يـؤدي حتما إلى تشـابه حيـاة الإنسـان البشري المتمركـز في حوضيهما. فمناخ الإقليم خاضع لنظام مناخي واسع يتميز بكثرة الجفاف،

---

33) أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر 1957 ص 151.

34) أبـو العباس أحمد بـن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صنـاعـة الإنشـا، المؤسسة المصريـة القاهرة، 1915 ج 5 ص 164.

35) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت 1984، ص 306.

36) الوزان : وصف م. س. ج. 2 ص ص 120 – 128.

37) مارمول : إفريقيا م. س. ج 1 ص 44.

38) ألبير عياش : المغـرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفـرنسية، تـرجمة مجموعة من الأسـاتذة، البيضاء 1985. ص 23.

- تاريخ إفريقيا الشمالية ج 1 ص 16.

وهذا يجاري ما ذهب إليه جون وجـاك طارو اللذان اعتبرا أن المغرب عبارة عن أرض إيطالية أكثر جفافا.(39) ويعتبر حقل الدراســة، أحسن معبر عن هذه الحقيقة بالمغرب.

يتميز مناخ حــوض وادي زيز بطابعه القـاري الصحراوي، الذي يتسم بالحرارة المفـرطة في فصل الصيف والبرد القارس خلال فصل الشتـاء. هذا الأخير الذي يبدأ من منتصف شهر شتنبر ويستمر إلى آخر يناير حسب ما ورد عند مارمول،(40) مع الجفاف التام تقريبـا طيلة فصول السنة. وهذه المواصفـات على العموم تنطبق على المنـاطق الشبه الجافـة التي تحدد بأنها النطاقات التي لا يمر عليها فقط أكثر من 6 أشهر دون سقوط الأمطار، بل إن هــذه الأخيرة يغلب عليهـا عدم الانتظـام الفصلي.(41) فالمعدل السنوي للتساقطات بـالمنطقة يتراوح ما بين 150 و300 ملم. الشيء الـــذي لا يسمح بتـواجد حيـاة نباتيــة دائمة. لهذا يعتبر المنـاخ الشبه الجاف العـائق الأول لوظائف الاستغـلال الفلاحي، وذلك بسبب الفرق الواضــح بين التساقطات والتبخر.(42) ممـا يفـرض أن لا زراعة بـدون سقي. وفي هـذا الخصـوص يشير الوزان إلى أن جميع أراضي نـوميديـا تحتاج إلى السقي. فإذا لم يهطل مطـر في الأطلس وجفت وديان نـوميـديا فإنــه لا يمكن سقي الأراضي،(43) ويقاس على هذا مـا هو واقع بوديان السفوح الأطلسية الجنـوبية وضمنها حوض وادي زيز الأوسط الذي هو موضوع دراستنا.

التساقطات :

إن موقع حقل الـدراسة ضمن المجال ما قبل : الصحـراوي جعله يتسم بمناخ شبه جاف، متميز بنـدرة التساقطات. إذ لا تتجاوز هذه الأخيرة 175

39) Tharaut (J et J) : Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, paris 1939, p 175.

40) مارمول : إفريقيا ج 1 ص 45.

- la terre, les hommes et l'eau, op cit, p 13.

41) كنيث والطون : الأراضي الجافـة. ترجمة الدكتور علي عبـد الوهاب شاهين، دار النهضـة العربية بيروت لبنان، 1978 ص 28.

42) الأراضي الجافة م س، ص 61.

43) الوزان : وصف م س، ج 1 ص 65.

ملم بمحطة تُلِّيشْت و150 ملم بمحطة الرشيدية و80 ملم بمحطة أرفود كمتوسط سنوي، ودرجات حرارية مرتفعة لا سيما خلال الفصل الحار.(44)

وهكذا نلاحظ من خلال إحصائيات محطات الرصد، أن التساقطات تقل كلما اتجهنا من الشمال نحو الجنوب. مما له بالغ الأثر على الحياة النباتية وعلى الاستقرار البشري، كما أن هذه الأرقام تبين أن المنطقة لا تتلقى إلا كميات ضئيلة من المطر. وذلك راجع لانفتاح المنطقة على المؤثرات الصحراوية الجافة لوجود حاجز جبال الأطلس ولارتفاع درجات الحرارة، وبالتالي ارتفاع درجة التبخر. كل هذا جعل الجفاف يدوم مدة 6 أشهر علاوة على أن الأيام الممطرة لا تتعدى 40 يوما،(45) وبالتفاوت الكبير في كميات التساقطات خلال السنة. بل الأكثر من ذلك من سنة لأخرى وبتمركزها خلال اليوم الممطر الواحد. إذ لا تتعدى مدة التساقطات بضع ساعات.

وعلى العموم تتميز التساقطات بما يلي :

- فصل ممطر يمتد من أكتوبر إلى أبريل، وتصل نسبة التساقطات خلاله إلى حوالي 85 ٪ كمتوسط سنوي.

- فصل جاف ويمتد من ماي إلى شتنبر، وخلاله ترتفع درجات الحرارة وتهب الرياح الصحراوية الجافة. ومع ذلك فإن فصل الخريف يعتبر من أغنى الفصول من حيث كميات التساقطات. حيث تصل نسبة الأمطار إلى حوالي 40 ٪، مع العلم أن تساقطات الخريف هي التي يعول عليها بصورة أكثر في العملية الزراعية. فقد لاحظ الوزان أنه إذا لم ينزل مطر في أكتوبر لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة،(46) ومع كل هذا لابد من التذكير أنه إذا كانت الأحوال الجوية المتذبذبة تتحكم في نظام

---

44) plan directeur de mise en valeur agricole du tafilalet: volume n° 9, rapport de synthèses Janvier 1983, p 5.

45) Martin (J. et autres) : géographie du maroc, hatier 1964 p 32.

46) الوزان : وصف م س، ج 1 ص 65.

الأمطــار. إلا أنه عنـدما تجتـاح التساقطـات المنطقة، فإنها تسقي بما فيـه الكفاية حوضي زيز وغريس.(47)

أما نظام الأمطار السنوي فذو فترتين ممطرتين :

فترة خريفية : وتمتد من شـهر شتنبر إلى شـهر دجنبر.

فترة ربيعية : وتشمل شـهري مارس وأبريل.

وتفصل بينهما فترتان جافتان هما فصـلا الصيف والشتاء. وهذا يعني أن نظام الأمطار السنوي للحوض هو من النموذج الذي يتقابل فيه فصلان جافان وآخران ممطران،(48) كما يعرف الحوض أمطارا عـاصفية تنزل على شكل رخـات عنيفة خـلال فصل الخريف خـاصـة. فتتسبب في فيضـانـات مهـولـة، ومع أنها محـدودة غير أنها تتسبـب في إلحـاق أضرار كبيـرة بالمنتوجات الزراعية الخريفيـة خاصة منتوج التمر. بل يشمل ضررها حتى السكـن. ويكفي التـذكير هنـا خـاصة بفيضـان وادي زيـز خـلال سنـة 1965.(49)

لقد حـاولنا أن نواكب ونتـابع الفيضـانـات التي عرفتها منطقـة مدغـرة ومـا إليها. من حيث تسلسل كرونولـوجية الفيضـانـات من خلال المصادر والمراجع، ومع الأسف الشديد لم تسعفنا المادة العلمية التي اطلعنا عليها إلا بالقليل، هذا وإن كانت الذاكرة الشعبية المحلية تحتفظ لنا ببعض المعلومات القيمة. ولا نستطيع أن نثبت من ذلك إلا الجدول التالي :

---

47) plan directeur de la mise en valeur agricole du tafilalet: analyse de la situation actuelle, rapport octobre 1981, p 9.

48) la terre, les hommes et l'eau, op cit, p 18.

49) ففي 5 نونبر من سنة 1965 حدثت فيضـانات كبيرة في أودية المناطق الجنوبية الشرقية الوسطى وكانت الخسائر جسيمـة. ففيما يخص وادي زيز فقد أتلفت فيضـانـاته حوالي 2000 هكتار من المزروعات و70 ألف من أشجـار ومات من الحيـوان 3000 رأس وتهدم 4500 منزل وأصبح 1200 شخص بدون مأوى أما الضحـايا فعشرة. وقدرت الخسائر في حوض زيـز وحده بـ 30 مليون درهم (مديرية هندسة المياه – الرشيدية).

تاريخ الفيضان	المصدر أو المرجع
381 هـ / 992 م	الأنيس المطرب(50)
1071 ـ 72 هـ / 1660 ـ 62 م	الإحياء والانتعاش(51)
1340 هـ / 1923 م	الرواية الشفوية
1343 هـ / 1925 م	مخطوط فتح القدوس(52)
1352 هـ / 1945 م	الرواية الشفوية
1383 هـ / 1965 م	مديرية هندسة المياه الرشيدية

وبالمقابل كانت المنطقة تتعرض لموجات من الجفاف تعصف بالمنتوج الفلاحي. لا سيما عندما تنحبس الأمطار خلال الفترتين المطرتين معا، وتسبب في عرقلة استقرار الأوضاع المرتبط أساسا بالإنتاج الزراعي.

فقد لاحظ الوزان أن انحباس المطر خلال الفترة المطرة الربيعية، وهو ما يسمى عادة في الأوساط الزراعية المغربية «عنق السنة» يعتبر ضربة قاضية لمحصول القمح. وهذا نص كلامه: «وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي».(53)

لكن إذا كان انحباس المطر لا سيما خلال فصل الخريف يعتبر كارثة بالنسبة لمنتوج القمح حسب ما أورده الوزان. إلا أنه مع ذلك يعتبر حسنة بالنسبة لجودة منتوج التمر. الذي لا يعتبر فقط القاعدة الأساسية لغذاء السكان كما ذهب إلى ذلك الأستاذ العربي مزين،(54) بل كذلك مادة

---

50) علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور الرباط 1973، ص ص 114 – 115.

51) الإحياء والانتعاش في ترجمة سادات زاوية أيت عياش، مخطوط مصور الخزانة العامة الرباط، رقم 1433 د. ص ص 250 – 290.

- Rosenberger (B) Triki (H) : Famines et epidémies aux 16 et 17 siecle. in Hesp 1973 - 1974. p 18 fasicule unique.

52) فتح القدوس القاهر في نسب أبا محمد عبد الله بن علي بن طاهر مخطوط خاص ص 69.

53) الوزان وصف م س، ج 1 ص 65.

54) Mezzine (L) : le tafilalet conribution a l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII siecles, publication de la faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat 1987, p 266.

أساسيـة للإتجار والتبـادل. وبإمكانها أن تقـوم النقص الحاصل في منتوج القمح ليس فقط خلال الأزمات الفلاحيـة، بل حتى وقت الرخاء والإنتعاش الفلاحي. فقد أشار الوزان أنه عندما ينحبس المطر تجود غلة التمر، ويفضل النوميـديون كثيرا غلة التمـر على غلة القمح. لأن هـذه الأخيرة مهما كثرت لاتكفي لنصف السنة،(55) ونفس هذه الإشارة ذكرها مارمول.(56)

الحرارة :

تخضع واحـات زيز الأوسـط لمناخ يتسم بـالحرارة المفـرطة والجفـاف الحاد. ذلك أن درجات الحرارة تعرف ارتفاعات مهولة خلال فصل الصيف قـد تصل إلى 45 درجـة، ومقـابل ذلك تنخفض إلى ما دون الصفـر خـلال الفصل البارد. ويقابل هذا الارتفـاع في درجات الحرارة شح في الأمطار. هذه الحقيقة ليست وليـدة اليوم، بل هي ضاربة في أعماق الـزمن. فقد سبق أن أكد عليها البكري خلال القرن 5هـ / 11م،(57) والحميري ق 8هـ / 14م(58) والقلقشندي ق 9 / 15،(59) ومارمول القرن 10 / 16م.(60)

وتمتـد الشهور الحارة مـا بين شهري مـاي وأوائل أكتوبـر، أي نصف سنة تقـريبا. وهـو ما ينعكس على نشـاط السكان الفلاحي ويضـاعف من مشاكلهم الناتجة عن الحاجة الملحة إلى المياه التي كثيرا ما لا تفي بالغرض. خصوصـا إذا علمنا أن هذه الفترة هي المدة التي يقطعها مـوسم محصول التمر من الولادة إلى الجني، وينعكس أيضـا على نمط السكن وخلق نموذج سكني متميز بالمنطقة. وهو نظام القصـور، وهذا له أهمية كبرى في التاريخ

---

55) الوزان ج 1 ص 65.

56) مارمول إفريقيا، ج 1 ص 45.

هذه الوضعية سائدة وصحيحة قبل الاستعمار الفرنسي، أما في القرن 20 فقد بدأت تتغير لتأثير المواصلات الحديثة في المنطقة.

57) البكري، ص 151.

58) الحميري، ص 306.

59) القلقشندي، ج 5 ص 164.

60) مارمول : إفريقيا، ج 1 ص 45.

الاجتماعي والعمراني في حوضي وادي زيز وغريس وحتى وادي درعة ودادس بصفة عامة.

وتمتد الشهور الباردة طيلة المدة التي تلي جني التمور الخريفية وتستمر إلى حدود نهاية شهر فبراير. فقد ذكر الوزان أن الفصل الأكثر بردا يمتد من منتصف شهر شتنبر وأكتوبر ويناير.(61)

ولتوضيح هذا الواقع سوف نثبت مجموعة من الجداول الخاصة بتذبذب التساقطات وتذبذب الحرارة في الملحق الخاص بالجداول.

إن الموقع الجغرافي للحوض حتم عليه الإنفتاح على المؤثرات الصحراوية الجافة، بينما تقل استفادته من التيارات الهوائية الرطبة بفعل حاجز جبال الأطلس. مما طبع مناخه بالقارية. كما أن طبيعة الإشعاع الشمسي الناتج عن صفاء الجو خلال معظم شهور السنة والذي يقرب من التعامد صيفا لا يعمل فقط على تفكيك الصخور وبالتالي تشكيل الطبوغرافية، بل إنه يضاعف من الفوارق الحرارية. الشيء الذي خلق بالمنطقة مدى حراري يومي وفصلي جد مرتفع، ولذلك يقوى التبخر في الصيف ويسبب عجزا في المياه السطحية ويزيد من ملوحة التربة.

الرياح :

تعرف منطقة حوض وادي زيز هبوب نوعين من الرياح : الأولى شمالية وشمالية غربية تغزو المنطقة في فصل الشتاء وبداية فصل الربيع. وتصل سرعتها إلى 2,8٪ م/ث أي ما يعادل 10,80 كلم في الساعة، وتمثل 8,4٪ من مجموع الرياح التي يعرفها الحوض.(62) وتعمل هذه الرياح على إسقاط براعم الأشجار المزهرة في فصل الربيع أي فصل الأزهار، وأحيانا تتلف النبات وتمزقه، بل وتجرد الأشجار من الأوراق وقد تقتلعها.

أما النوع الثاني من الرياح فهو الرياح الصحراوية الحارة الجافة التي تحمل أسماء مختلفة بعد خروجها من الصحراء. إذ تعرف باسم السيريكو

61) الوزان : وصف م. س، ج 1 ص 65.

62) an directeur : analyse de la situation actuelle, op cit, p 13, octobre 1981.

بـالجزائر والساحلي بـالصحـراء والخماسين بمصر والشركي بالمغـرب.(63) والشركي هـو عبارة عن ريـاح جنوبيـة شرقية حارة تصـل سرعتها إلى 2,1 م/ث أي ما يعادل 7,560 كلم في الساعـة في فصل الصيف،(64) وهو ريح حار في الصيف وبـارد في الشتاء، وكثيرا ما يضر بالغلل التي تعـاني أصلا من قلـة الماء، ويحدث الزوابع الـرملية الحلـزونية المفـاجئة الشـديدة.(65) ويعمل على الإسراع في عمليـات إتـلاف نسيج التربـة،(66) كما يتسبـب في انتشار أمـراض العيون، التي تصاب بـالتهابـات حادة ومزمنـة. فقد لاحظ الوزان أن هـذه البلاد - يعني نوميـديا - تعصف بها الـريح الشرقية التي تحمل الغبار والرمل فتتأذى منها العيون وتفسد في النهاية،(67) كما يحرك الشرقي الكثبان الرملية الجاسمة على هوامش الواحات. فقد سبق للإدريسي أن أكد أن هذا الرمل يتصل بأعلى الواحات الخارجية فيعدو عليها ويغير ما فيها من الآثار، ويتصل هذا الرمل بالمغرب إلى أرض سجلماسة.(68)

وبخصـوص حوض زيـز الأوسط يلاحـظ أن هذه الـرياح تنقل رمـال المنطقة المسماة «إيردي» نحو الواحات فتطمر الآبار والخطارات المعدة للري، كما تغطي المساحات الـزراعية. وقد حاول السكان عبثـا وضـع حواجز من سعف النخل لوقف زحف هذه الرمال. وتؤكد كتب الجغرافية والرحلات أن خطر هذه الرياح أشد وأقوى على القوافل، لأنها تطمر الآبار وتضل الطريق.

وبصفة عامة إذا كانت رياح الشركي تعمل على الزيادة من حدة الجفاف وارتفـاع نسبة الملـوحة في التربـة فإن دور الإنسان لا يقل أهميـة عن دور المناخ، وذلك بإدخاله حرفة الرعي وعمليات الحرق وتقليب التربة.(69) وكل ذلك ينعكس بشكل واضح على الحياة النباتية واستقرار الحياة الزراعية.

---

63) غوتييه : الصحراء. ترجمة كمال يونس، القاهرة 1987، ص 3 - 31.

64) Fernand (J) : relièf du sud - est marocain op cit.

65) محيي الدين المشرفي : جغرافية المغرب، الرباط 1956.

66) د. علي البنا : أسس الجغـرافية المناخيـة والنباتيـة، دار النهضة العربيـة بيروت - لبنان، 1970 ص162.

67) الوزان وصف م. س ج 1 ص 66.

68) الإدريسي الشريف : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر 1957 ص 28.

69) الأراضي الجافة م. س، ص 77.

وكيف ما كان الحال فرغم أن مناخ حوض وادي زيز الأوسط يعتبر من النوع الجاف المائل إلى القـارية.(70) إلا أنـه من الواجب إدخـال التغييرات المناخية الدقيقة في الحسبان، فواحات زيز الأوسط بغطائها النباتي وحقولها المروية في السهل الفيضي الخصب يمكن أن تخلق مناخا محليا داخل الإطار المناخي العام، حتى إن البعض لم يبد أي تحفظ في نعت مناخ الحوض بأنه مناخ شبه رطب.(71) لأن واحـة بنخيلهـا أو حقلا مـرويـا يمكن أن يخلق مناخا محليا شبه رطب، على اعتبار أن الواحة هي بمثابة جزيرة نباتية ذات ظروف تختلف اختلافا تاما عن محيطها.

وعلى العمـوم فـرغم عنف وقساوة هـذا المنـاخ بجفـافه الحاد أحيـانـا وشمسه القاسية ورياحه الهوجاء، فإن هذا لم يمنع من وجود الحياة بهذه المناطق. لأن الماء الذي هو مصدر الحيـاة والمحدد الحقيقي للإنتاج الفلاحي كما يقول بذلك كلاتزمان(72) لم يكن منعدمـا إطلاقا، إذ يتـوزع بين مطر رغم قلته (300 ملم) وجريان نهري رغم تذبذبه وماء جوفي باطني.(73)

فعيوب هذا المناخ إذا هي عيوب مناخ بلدان جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط عموما. فالجفـاف لا يضر فقط بالنمط الزراعي بل كذلك يتحكم في توزيع السكان قرب منابع المياه من عيـون وأودية وآبار، فضـلا عن علاقته بتطـور الحيـاة النباتيـة والمراعي وخصبهـا. الشيء الـذي يجعلـه يتحكم في الماشية ومردودها وبالتالي في الاستقرار.

ويمكن إجمال خصائص مناخ الحوض الأوسط لزيز فيما يلي :

- الدور النادر أو المنعدم تقريبا للتساقطات.
- إرتفاع متوسط درجات الحرارة مع فروق شهرية ويومية.

وكل هذا فـرض على السكان القيام بـزراعة مسايرة لقسـاوة المناخ. لأن الزراعة بهذه الأصقاع لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلا عن طريق السقي، فقد

---

70) Notes marocaines n° 231 ressources en eau t III, op cit, p 231.

71) الأراضي الجافة م س، ص 75.

72) Klatzman (J) : nourir dix milliards d'hommes. P.U.F. paris 1975 p 162.

73) Demangeon (Albert) Meynie (André) : géographie generale, p 138 Hachette paris, 1937.

ذكر الوزان أن جميع أراضي هذه الجهات تحتاج إلى السقي وأنه إذا لم يهطل مطر بالأطلس وجفت وديانها فإنه لا يمكن سقي الأراضي.(74) وهذه الحقائق تساير إلى حد بعيد ما هو موجود على أرض الواقع، وتؤكدها من جهة ثانية الدراسات الجغرافية الحديثة المنجزة والتي مازالت تنجز حاليا بالإقليم.(75)

وإذا كان لهذا المناخ ولتلك الطبوغرافية أثر كبير على توزيع المياه في الحوض وفي تحديد مناطق الزراعة ووسائلها. إلا أنه لابد من التأكيد على أن المناخ لا يعمل وحده منفصلا عنها، ولكنه يفرض مؤثراته بالتظافر مع تلك العوامل كلها.

التربة :

تتكون توضعات وادي زيز من الطمي الرمادي الممتزج بقليل من الصلصال. أما توضعات وادي غريس فتتكون من الطمي الأحمر الذي تغلب عليه مادة الصلصال والرمل. وهذا طبعا ناتج عن اختلاف طبيعة الطبوغرافية التي يخترقها كل من وادي زيز ووادي غريس، واختلاف وتباين الشعاب التي تغذي الحوضين. فقد وصف الوزان مجموع الأراضي الواقعة جنوب الأطلس وضمنها مجال حوض وادي زيز بأنها بلاد تكاد تكون كلها رملية.(76)

وهذا النوع من التربة المختلطة بالرمل هو ما أطلق عليه ابن فضل الله العمري(77) اسم «الرغام» الذي يقابله بمنطقة مدغرة «الرْجِيعْ».

وقد صنفت البعثة اليوغسلافية تربة وادي زيز إلى ما يلي:

1 – تربة رسوبية طميية صرفة.

2 – تربة رسوبية صرفة طينية ورملية.

3 – تربة طمي الواحة.

---

74) الوزان : وصف م. س ج 1 ص 65.

75) plan directeur : analyse de la situation actuelle, op cit, p 16 octobre 1981.

76) الوزان : وصف م، س، ج 1 ص 58.

77) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا ج 1 ص 37، القاهرة مطبعة دار الكتاب 1924.

4 – تربة رسوبية طينية قليلة الدبال.

5 – تربات ناتجة عن عمليات السقي.(78)

وحسب وثيقتين محليتين يمكن الوقوف على ثلاثة أنواع من الأتربة بمنطقة مدغرة، إذ تتوزع ما بين التربة الرملية والتربة الصفراء وتربة تَارْزَا،(79) هذه الأخيرة التي تعرف بالشمال والغرب المغربي بتربة الترس.

وانطلاقا من واحة مدغرة تصنف التربة حسب القرب أو البعد من المجرى، إذ نصادف أجود أنواع التربة على هوامش الوادي. وتعتبر هذه الأخيرة أجود أنواع التربة لأنها متجددة الشباب بفعل استمرار الترسيب المرتبط بالفيض، وبعدها نجد تربة رمادية إلى صفراء وهي متوسطة الأهمية الفلاحية، وتليها تربة تميل إلى اللون الأبيض وهي ذات تكوين طمي دقيق تدعى محليا «الْـبَـيَّـاضَـةْ». وأخيرا تربة كلسية طينية رملية حمراء وتسمى محليا تربة «لكَدور» أو «تماسين» وغالبا ما تحتل هوامش الأراضي الزراعية. ويعكس لنا هذا التصنيف مشهدا زراعيا متدرجا فكلما ابتعدنا عن المجرى حيث التربة الخصبة كلما قلت الكثافة في الغطاء النباتي.

إن مياه الفيضانات التي تغمر الحوض تضم نسبة قليلة من الملح مما يساهم في ارتفاع نسبه الملوحة في التربة والمياه الجوفية. من هنا وصفتها كتب الرحلات بأنها سبخة،(80) وقد اهتدى أحد الدارسين إلى تعيين مواصفات التربة السبخة. قال: «تظهر التربة السبخة بهيئة بقع سمراء داكنة كأنها مليئة بزيت. ويعزى اللون الدكن إلى أملاح كلوريدات الكالسيوم وكلوريد المنغنسيوم، أما القشرة البيضاء التي تغشى سطح التربة فتعزى إلى تراكم ملح كلوريد الصوديوم مع أملاح أخرى».(81) وهذا سائد في

78) Enrego - projekt : Vallée du Ziz - Ksar - es - souk Aoufous. Bélgrade 1964.

79) انظر الوثائق رقم 1 ـ 2 في ملحق الوثائق.

80) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمري من الباب 4 إلى الباب 14، تحقيق مصطفى أبو ضيف البيضاء 1988 ص 140.

81) عبد الجبار البكر : نخلة التمر م. س ص 134.

المنطقة الشمالية والشرقية من منطقة مدغرة أي بمنطقة تْمَاسِيْن. مما جعلها أكثر صلاحية للرعي أكثر منها للزراعة.

وإذا كان هذا النوع من التربة يطرح عدة مشاكل في وجه الفلاحة، فإن مياه الفيضانات تشكل على الدوام عامل تخصيب يساعد على تجاوز عقم التربة بما يترسب عليها من غرين في مواسم الفيضانات، الشيء الذي يجعلها دائمة الشباب.(82)

وعلى العموم فالتربة بزيز الأوسط خصبة لكنها تعاني من مشكلتين رئيسيتين هما: الملوحة الناتجة عن كثرة التبخر، وثانيهما النقص الحاصل في المواد العضوية وتراكم المواد الجيرية. على اعتبار أن الحياة النباتية ما هي إلا تعبير عن مدى استجابتها للمناخ،(83) إذ أن هذا الأخير هو الذي يتسبب بهذه المناطق في ملوحة التربة، لما يمتاز به من جفاف وارتفاع في درجات الحرارة زيادة على ارتفاع نسبة التبخر.(84)

وقد توصل ابن العوام إلى اقتراح حلول لتجاوز مشكل ملوحة التربة عن طريق قلب الأرض في بداية شهر أكتوبر، حتى تتمكن المياه من غسل عنصر الملوحة من التربة.(85) وهذا لا يعاكس ما توصل إليه العلم الحديث، فقد أشار محمد الفايز أن المياه بإمكانها غسل التربة من الأملاح أو عن طريق اختيار نباتات تتلاءم مع الأوساط المالحة.(86)

فالأمطار يمكن أن تقوم بهذه الوظيفة لأن لها القدرة الكبيرة على الغوص في أعماقها، كما تسمح عملية تصريف المياه من التقليل من نسبة الملح في التربة.(87) زيادة على أن المنطقة لا توجد بها إلا أشجار لها قابلية لتحمل هذا المعدن، وفي مقدمتها شجرة النخيل التي تنمو بصورة عادية في التربة المالحة.(88)

---

82) الحسن علوي حافظي : سجلماسة م. س ص 39. ـ أسس الجغرافية المناخية : م.س ص 276.

83) أسس الجغرافية المناخية م. س ص 37.

84) El Faiz (Mohamed) : le problème de la salinite de terres dans les traités arabes d'agriculture. Hesp 1985 p 11.

85) Iben Awam : Kitab Al Filaha. Tunis 1977. tome 1 p 57.

86) El Faiz (M) : le problème op cit p 11.

87) plan directeur op cit analyse de la situation actuelle, octobre 1981 p 20.

88) laumonier (R) : cultures fruitiers médeteranneens, paris 1960, p 147.

الغطاء النباتي :

تعتبر الحياة النباتية على قدر كبير من الأهمية لأنها جزء من البيئة الكلية، ولها من العلاقات المتداخلة مع كل من المناخ والجيومورفولوجية والتربة ما يجعل أحدهما منفصلا عن الآخر غير ذي معنى هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن معظم النشاط الفلاحي بالبيئات ما قبل الصحراوية يعتبر مرآة للحياة النباتية. ولقد سبق الحديث على قدرة النبات على تعديل المناخ المحلي. كما أن له دورا في حماية سطح الأرض من فعل الأمطار الإعصارية والجريان العنيف، وأهم من ذلك أنه يعمل على تماسك التربة والفتات الصخري، ويقلل بذلك من عمليات الإنهيارات الأرضية.

إن مناخ الإقليم الذي يتسم بالجفاف وارتفاع درجات الحرارة لا يساعد على وجود غطاء نباتي كثيف، باستثناء ضفاف الأودية التي تمثل مجالا رطبا نسبيا. ومعلوم أن جفاف المناخ وارتفاع درجات الحرارة وقلة المياه يؤدي إلى انعدام الرطوبة في التربة من مجمل العوامل التي تؤثر في نمو النبات في البيئات شبه الجافة. وهذا ما جعل النبات يتباين حسب فصول السنة، حيث يقل بكل مجالات الحوض خارج المناطق المسقية خلال الفصل الحار ومقابل ذلك يكثر نتيجة رطوبة الهواء وارتفاع كميات الأمطار في فصل الشتاء.(89) على اعتبار أن النبات في هذه الأوساط إما أن يكون متحملا للجفاف أو متجنبا إياه أو متغلبا عليه.(90)

فخارج السهل الفيضي تنمو في كل مكان نباتات صحراوية تنمو متقاربة من بعضها البعض لمدة قصيرة ثم تختفي لتظهر من جديد في موسم التساقطات.(91)

وهي على العموم نباتات قصيرة تحمل عدة أسماء حسب المناطق، فهناك ما يسمى محليا «بالنًّكَيْر» وكذلك السدرة، التي وصفها الإدريسي بأنها

89) Fernand (Joly) : relièf du sud-est marocain, op cit, p 10.

90) الأراضي الجافة م س، ص 49.

91) gautier (E.F) : le Sahara paris 1913 p 136.

- Meunie (D.J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 99.

نبات الشوك المثمر بالنبق.(92) وغالبا ما تنبت بالأراضي الجرداء وبإكليل الجبل. كما تنمو بهذه الأوساط نباتات مكورة يطلق عليها محليا اسم «الصَّلاَّعْ» ويقابل هذا الاسم العربي بالبربرية «أكَنٌّودْ». وفي هذا الخصوص تذكر الحافظة الشعبية المحلية لا سيما البربرية منها أن الشخص كان يُعَيِّرُ الآخر بشكل هذا النبات قائلا له: «سير أراس أكَنٌّود». وكان نبات الصَّلاَّعْ أو أكنود يستعمل كمحروق لتسخين الماء للمصلين أو لأغراض الطبخ المنزلي. وتندرج ضمن هذه الجفافيات نباتات أخرى تستغل للإستشفاء، وفي هذا الخصوص نشير إلى نبات «الْحَمِّيضَةْ» «وَأزِيرْ» و«الحرمل». فقد جاء في الإصليت حول هذا النبات ما يلي: «وكذلك الحرمل أكله مدقوقا قتال، ومع ذلك فقد أمر النبيﷺ بالتبخير بالحرمل. لأن دخانه لا ضرر فيه وفيه منفعة»،(93) والحدج، هذا النبات الذي استأثر باهتمام الحسن الوزان وهو يصف قصر أم الحدج قرب سجلماسة. قال : «ينبت فيها – يعني أم الحدج – الحدج بكثرة حتى أنها تبدو من بعيد وكأنه ليمون رمي به في الأرض».(94)

إن مجموع هذه النباتات تندرج ضمن ما يسميه الجغرافيون المحدثون «بالجفافيات» xerophites. وهو مصطلح يطلق على النباتات التي تتلاءم مع ظروف الجفاف، إذ لها من الخصائص ما يجعلها تتلاءم مع ظروف البيئة القاسية مناخيا، كأن يكون لها جذور طويلة تمتص بواسطتها الرطوبة من التربة السفلية، أو أن يكون لها لحاء كثيف وأوراق صغيرة أو شوكية أو مغطاة بطبقة شمعية. الشيء الذي يمكنها من تقليل عملية النتح وتستطيع بالتالي خزن الماء سواء في أوراقها أو في جذورها لمدة طويلة. وقد تستمر من فصل الرطوبة إلى فصل الجفاف.(95)

---

92) الإدريسي : وصف م س، ص 46.

93) ابن أبي محلى الفقيه الثائر ورحلته : الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت: تحقيق عبد المجيد القدوري منشورات عكاظ الرباط 1991، ص 186.

94) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 128.

95) الأراضي الجافة م. س، ص 128.

– أسس الجغرافية المناخية والنباتية م. س، ص 253.

إلا أن أهم غطاء نباتي بالمناطق شبه الجافة يتكون من أشجار لا تنمو إلا في هذه الأوساط. فقد ذكر الأستاذ العربي مزين أن شجرتين فقط استطاعتا أن تتكيفا مع البيئة شبه الجافة بالجنوب الشرقي المغربي هما: شجرة الطرفاء «الْـعَـدْبَـةْ» التي لا تحتاج إلا لقليل من الماء، ويستغل منتوجها في الدباغة. وشجر النخيل التي لها قدرة على البحث عن الماء في الطبقات الجوفية لأن جذورها تتوغل في أعماق التربة، ويمثل منتوجها القاعدة الأساسية لغذاء السكان بهذه المناطق.(96) ويمتد مجال انتشار شجرة الطرفاء من المغرب إلى الهند بكل مناطق الصحراء، وهي كثيرة في مناطق جنوب جبال الأطلس بالمغرب كدرعة ودادس - تدغة - فركلة - غريس - مدغرة والرتب بحوض زيز.(97) وهذا يعني من الناحية النباتية أن هذه المنطقة تعتبر منطقة انتقالية ما بين الصحراء وما قبل الصحراء.

يفهم من الإشارات الواردة في كتب الجغرافية والرحلات المغربية أن الإسم العربي لهذه الشجرة هو «الطرفاء»، وهو ما يمكن أن نقابله بالكلمة البربرية «تَـكّـاوْتْ». إلا أن ما يجب التأكيد عليه هنا هو أن هذه الشجرة في واحة مدغرة لا تحمل لا الإسم العربي ولا البربري على السواء، وإنما تعرف باسم آخر هو «الْـعَـدْبَـةَ»، في حين تحمل بواحة تافيلالت إسم «التْـلاَيَـةْ».

ويمتد مجال انتشار شجرة النخيل على مساحات واسعة من المناطق شبه الجافة، ولم يعرف هذا المجال تغييرا منذ عصور ضاربة في التاريخ. فقد ذهب عبد الجبار البكر أن زراعة النخيل انحصرت في العالم بين خطي عرض 10 درجات و35 درجة شمالا وتتعدى خط عرض 24 درجة و35 درجة شرقا(98)، غير أنه يقتصر في المغرب على مناطق الحوز والسوس

96) larbi Mazzine : le tafilale, t op cit, p 266.

97) Meunié (D.j) : le Maroc saharien op cit t 1 p 100.

وإن كان هذا طبعا لا يمنع من وجودها في النطاقات الرطبة، لكن بكمية أقل من المناطق شبه الجافة. فقد أشار ابن أبي زرع في أنيسه ص ص 30 - 31، إلى وجودها بفاس قال: «فسار عمير في فحص سايس يطلب ما خرج إليه حتى وصل للعيون التي ينبع منها نهر فاس... ورأى حول العيون شجرا من الطرفاء...».

98) عبد الجبار البكر : نخلة التمر والجديد في زراعتها وصناعتها وتجارتها: المشروع الإقليمي لبحوث النخيل والتمور في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا. بيروت 1972 ص 103.

ودرعة وزيز وكَير.(99) وذكر داوسن أن أغلب بساتين النخيل بالمغرب تقع بالجنــوب الشرقي من جبال الأطلس، فبســاتين النخيل في بودنيب تقع على ارتفاع 935م وبساتين قصر السوق على ارتفاع 1861م أما بساتين ورززات فعلى ارتفاع 1146م.(100) والحديث عن هذه التحولات التضاريسية والنباتية لا يـدخل إلا في إطــار تفسير تاريخ منطقـة مـدغرة بسبـب خصوصيـاتها وطابعها المتميز.

كما يشير ابن خلدون من جهتــه خلال القرن 8هـ / 14م إلى أن قبيلة مـدغرة مـارست غـراسة النخيـل منذ استيطـانهم بصحــراء المغرب. قـال: «....ومن قبــائل مضغرة أيضــا بصحراء المغـرب كثيرون نزلـوا بقصورهـا واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب».(101) رغم أن كلام ابن خلدون هــذا يعتبر نصا صريحا حـول وجود هــذه الشجـرة بهذه الأصقاع إلا أنــه يطرح عـدة مشاكل تتعلق بتاريخ وجـود هذه الشجرة بالمنطقـة، وهذا من شأنه أن يضطرنا للبحث في أصل وتاريخ هذه الشجرة ومراحل انتقالها إلى المغرب، هذا طبعا إذا سلمنا بأصلها المشرقي.

إلى حــدود اليوم حسب علمنــا لا نتوفــر على دراســة دقيقة عن تــاريخ وأصل النخل،(102) وكل مــا هو مــوجـود في الموضوع بعض الاجتهــادات ووجهات النظــر قدمت من قبل الدارسين الأجانب في شتى الاختصــاصات. وقد توزعت الآراء في هــذا الموضوع بين من يقول بأن النخل المثمــر قد جاء طفرة بين نخلــة الزينــة المنتشرة في المنطقة الواقعــة بين غربي الهنــد وجزر الكناري،(103) وبين من يفسر منشأ النخل الحالي على أســاس أنــه كــان في

99) Massignon (louis) : le Maroc dans les premières années du XVI siecle, Alger 1906, p88.

100) Dawsan and pansiot : drafet impovement of date palm grawing. New-york 1965, p 113.

– عبد الجبار البكر : نخلة التمر م س، ص 92.

101) عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون : العبر، ج 6 ص 118.

102) النخل شجر التمر واحدته نخلة والنخيل اسم جمع لا جمع نخله، وهو يذكر ويؤنث فنقول هو النخل وهي النخل أما النخيل فمؤنثه. انظر نخلة التمر. م. س ص 2.

103) نخلة التمر م. س، ص 2.

الأصل ضرب من ضروب الوحشية المختلفة، وبتوالي الأزمنة والعصور وتعاقب التهجين الطبيعي بين هذه الضروب نتج نخل التمر، وأن يد الإنسان ساعدت على إيجاد نخل التمر الحالي بفضل استمراره مدى عصور طويلة على انتخاب الأحسن فالأحسن،(104) ومع هذا فإن هذا الرأي يعتبر ضعيف الحجج الدامغة إذ لم يعثر على نخل التمر بحالته الوحشية حتى الآن، على أن هناك أوجه شبه كبيرة بين بعض أجناس النخل كما في الشكل. فقد لاحظ عبد الجبار البكر أن نخلة التمر المعروفة علميا باسم phoenix dactylifera ليست هي نخلة السكر المسماة phoenix syvestis المنتجة في الهند والتي يستخرج من نسغها السكر. كما ليست هي كذلك نخلة الكناري phoenix canariensis التي تزرع للزينة. وكل هذه أنواع تجمع بينها صفات متشابهة تجعل عملية التفريق بينها من حيث شكلها غاية في الصعوبة إلا على المدقق الحاذق، ومع ذلك فإنها بعيدة من حيث الخصائص وبالتالي لا يمكن اعتبار الواحدة منها أصلا للثانية.(105)

نشأ نخل التمر منذ عصور ما قبل التاريخ في المنطقة شبه الحارة الجافة التي تمتد من السنيغال إلى حوض الأندس، وتنحصر غالبا بين خطي عرض 15 درجة و30 دقيقة.(106) كما ذكر بيير مونيي pierre Meuniè من جهته أن هذه الشجرة ظهرت بالمناطق الصحراوية قبل أن تصبح قاحلة، لأن أقدم المعلومات الخاصة بمنتوج التمر تعود لتاريخ 4500 ق.م. لأنه تم العثور على بقايا من نوى التمر أثناء التقنيات الأثرية التي تم إنجازها بمنطقة طوخ Touhk بمصر. على أن أقدم المعلومات الخاصة بهذا المنتوج يوجد في بلاد العراق القديم وتعود لتاريخ 2500 ق.م.(107)

ويجزم عبد الجبار البكر أن أقدم ما عرف عن النخل كان في بابل التي يمتد عمرها إلى حوالي 4 آلاف سنة قبل الميلاد، ولا يستبعد أن يكون النخل معروفا قبل هذا التاريخ. فقد كان الأشوريون يقدسون أربع شعارات دينية

---

104) Fauvel (Jean) : les palmiers dattier dans le sud Algerien. Alger 1910, p 24.

105) عبد الجبار البكر م. س ص 4.

106) عبد الجبار البكر م. س ص 4.

107) Meunie (Pièrre) : le problème de l'origine du palmier dattier. R.F vol 29 n° 3 1974 p235.

إحداها النخلة والثلاثة الباقية هي المحراث والثور والشجرة المقدسة. فقد عثر على هذه الشعارات منقوشة على تاج وضع في أعلى محراب يعود إلى عصر أسر حدون 680 – 669 ق.م.(108)

ولا شك أن نخيل التمر كان مغروسا بمصر في عصور ما قبل التاريخ. وهي بذلك شبيهة بوادي الرافدين، فالإسم الهيروغليفي للتمر هو «بِنْرْ» أو «بِنْرْتْ» Bnr / Bnrt ومعناه الحلاوة، وهذه التسمية تنفرد بها اللغة الهيروغليفية. مما يدل على قدم توطين النخل في مصر. ومما يعلل ذلك ما عثر عليه الدكتور «رين هارت» Dr. Rein Hart في حظيرة بجهة الزريقات قرب أرمنت على مومياء من عصر ما قبل التاريخ، ملفوفة في حصير من سعف النخل. كما عثر أيضا على نخلة صغيرة كاملة بإحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى حوالي 3200 ق.م.(109)

ومما يقيم الدليل على قدم وجود النخيل في أسيا وإفريقيا هو تسميتها بأسماء مختلفة، فالعبريون يسمونها تَمَارًا وقدماء المصريين يسمونها «بنر». هذا إلى جانب تسمياتها بالعربية والفارسية فبعضها يدل على التمر بمختلف أطواره وأصنافه وبعضها يشير إلى الشجرة. وفي الإسم اليوناني فينيكس phoenix الذي هو مأخوذ من فنيقيا دليل على أن الفنيقيين كانوا يملكون النخل، وهم الذين نقلوا زراعته إلى حوض البحر الأبيض المتوسط. فلقد كان النخل مغروسا في إسبانيا والبرتغال قبل الميلاد والإسم داكتلس Dactylis «وديت» Date هي مشتقات من الكلمة «دقل» Dakel العبرية الأصل التي تعني الأصابع.(110) كما كانت قرطاج تزرعه في شمال إفريقية ثم أخذه عنها الرومان والبرابرة، كما يزرع في الصحراء الإفريقية الغربية والاستوائية من إفريقيا، والذي ساعد على وجوده هناك الجمل والقبائل الرحالة.(111) ومعلوم أن دخول الجمل إلى المغرب

---

108) عبد الجبار البكر م. س، ص 9.

109) عبد الجبار البكر : نخلة التمر ص 10.

110) عبد الجبار البكر : نخلة التمر، ص 13.

111) عبد الجبار البكر : نخلة التمر، ص 13.

كـان في القـرون الأولى للميـلاد يـوم طـرد الـرومـان البربـر إلى الصحـاري.(112)

إذا كنا لا نعلم تاريخ ظهور شجرة النخيل بمجالات زيز الأوسط. إلا أن أحد البـاحثين ذكر أن هذه الشجرة كـانت معروفة في مصر القديمـة ومنها انتقلت إلى ليبيا ثم بلدان المغـرب العربي الأخرى.(113) ويؤكد Deverdun أن شجرة النخيل كانت معروفة بالمغـرب منذ عصور قديمة بدليل أنها ضربت على نقود بطليموس ابن الملك يـوبا الثاني.(114) وهذا يعطي الدليل على أن هذه الشجرة كانت موجودة بالمنـاطق المغربية منذ تاريخ يتجاوز ألف سنه على الأقل.(115) وإذا كان السجستـاني القرن 3هـ / 9م يستثني المغرب الأقصى من مناطـق تواجد النخيل. ويظهـر ذلك من قولـه: «فليس في بلاد السـودان كلها ولا بـلاد البيضـان المشركين شيء من النخل... وإنما النخل قدره الله عز وجل للعرب في جزيرة العرب وفي المشرق، ومنه شيء في المغرب وأكثره في العـراق، فالذي بالمغـرب بأفريقية على خمس ليال منهـا بموضـع يقال له قصطيلـة - أي قسطنطينة - ثم حتى بلغ وادي طبيب بغرب مصر وادي فيه مسيرة أيـام كثيرة نخل ويقـال مسيرة شهر».(116) فإن البكري يعتبر أول من أشار إلى وجود شجـر النخل بإقليم سجلماسة على نهر زيز خلال القـرن 5هـــ / 11 م قـــال : «وهـي - أي سجلماســـة - كثيرة النخل».(117)

ويظهر من كلام ابن خلدون من خلال النص الذي أوردناه سابقا،(118) أن شجر النخيل قديم قدم حياة الإقليم تعرض لتعديلات تقنية حيث طوره العـرب عنـدمـا استقروا بتـافيـلالت. ومن بـاب الملاحظـة نشير أن الإسم البربري للتمر هو «تيني» الذي يمكن مقـابلته بالإسم العربي «التمر». وقد

112) شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 1 ص 220.

113) Saîdi (M) : contribution à l'etude contre le Bayaud. Dijon 1979 p 11.

114) Deverdun (G) : Marrakech des origines à 1912, Rabat 1958, t 1 p 8.

115) leroy (P) : le palmier dattier au Maroc Rabat, 1959 p 9.

116) السجستاني : النخلة. خ.خ.ع رقم ذ 1221، ص 4.

117) البكري، ص 152.

118) انظر ما جاء عند ابن خلدون في الصفحة 62 من هذا الفصل. - ابن خلدون العبر، ج6 ص 158.

لعبت التمور دورا كبيرا في تموين جيش حركة الخوارج الأولى ببلاد المغرب وقبل ذلك في الفتوحات الإسلامية الأولى. مما يعني أن التمر كان موجودا بالمنطقة منذ العهد الروماني.

لقد وجدت شجرة النخيل بواحات زيز الأوسط وسطا طبيعيا ملائما لنموها لأن المناخ الصالح لهذه الشجرة هو المناخ الجاف الذي تتراوح درجة حرارته ما بين 32 و 38 درجة. كما يمكن لها أن تنمو في وسط تصل درجة حراته إلى 50 درجة، وهو الحد الأقصى الذي يمكن أن تتحمله هذه الشجرة. أما أدنى درجة حرارية يمكن للشجرة تقبلها فهو 20 درجة.(119) كما لا تنتشر غابات النخيل إلا على تربة غرينية ناتجة عن فيضانات الأنهار غالبا ما يكون لونها بني فاتح.(120)

إن تربة حوض زيز تكونت بفعل توضعات نهر زيز الذي يخترق مجال الإقليم، وهي مكونة من الرمل والصلصال. وهذا ما جعلها صالحة لنمو شجر النخيل.(121) فقد أكد «Osché» «أوصشى» ورفاقه أن النخيل يزدهر نموه في أي تربة كانت خاصة التربة الرملية المزيجية الجيدة الصرف.(122) وهذه المواصفات على العموم تنطبق إلى حد كبير على تربات المجال المدروس.

كما أكدت الدراسات الحديثة أن شجرة النخيل يمكن أن تعيش لمدة طويلة دون سقي لكن إنتاجها يقل، كما يتباطأ نموها. لأن النخيل يحتاج إلى الإرواء المستمر ليحافظ على قابليته الإنتاجية،(123) فكمية المياه التي تحتاج إليها أشجار النخيل تتراوح ما بين 15 و20 ألف م^3.(124) ويستمر إرواء بساتين النخيل في شمال إفريقيا على مدار السنة باستثناء أسبوعين أو ثلاثة التي تعقب الإثمار أو تسبق النضج.(125) كما تتحمل هذه الأشجار

---

119) Saîdi (M) : contribution, op cit, p 14.

120) leroy (P) : le palmier, op cit, p 11.

121) لحسن حافظي علوي : سجلماسة وإقليمها... د. د. ع التاريخ فاس 1988. ص 44.

122) che (J.J) : et all / tropical and subtropical agriculture. Mac. millan New-york 1961 p38.

123) عبد الجبار البكري : نخلة التمر م. س ص 148.

124) Saîdi (M) : contribution, op cit, p 14.

125) عبد الجبار البكر نخلة التمر م. س ص 150.

المياه المالحة، فقد أثبتت التجارب التي قام سونجل Swingle في بساتين عديدة في الجزائر سنة 1900م واستنتج من ذلك ومن إحصائيات أخرى أن النخل يستطيع النمو في الترب التي تحتوي على 3 إلى 4٪ من الملح ولكن إنتاج التمر يتوقف إذا توغلت جذورها في تربة تقل ملوحتها عن 1٪. ويزداد الإثمار وينتظم إذا قلت الملوحة عن 0,6٪.(126) كما أظهرت دراسة chevalier في توكورت بالجزائر أن النخل ينمو ويثمر بصورة عادية عندما تكون محتويات محاليل التربة لأملاح الكلوريدات والكبريتات أقل من 15,000 جزء بالمليون. وتكون النخيل في حالة هلاك وموت عند بلوغ محلول التربة 48000 جزء بالمليون.(127) زيادة على أن هذه الشجرة تتأقلم مع جميع أنواع التربة التي يتعدى سمكها 20.1.(128)

إن الوسط الطبيعي لإقليم زيز الأوسط هيأ جميع العوامل الملائمة لنمو أشجار النخيل، وهذا ما جعل هذه المناطق مجالا خصبا لانتشار هذه المغروسات على نطاق واسع. فقد أشارت كتب الرحلات والجغرافية إلى جودة تمور هذه الأصقاع، وأكدت على أهميتها في اقتصاديات الإقليم، بالنظر لما توفره للسكان من غذاء وخشب. وهذا ما نلتقطه كذلك من عقود الرسوم العدلية المختلفة التي سوف نثبتها في الملحق الخاص بالوثائق، والتي أكدت على أهمية التمر وما يرتبط به في الحياة اليومية والعامة لسكان مدغرة، وهو على العموم ما سنحاول مناقشته بتفصيل في الباب الخاص بالحياة الاقتصادية لمنطقة مدغرة. وقد حملت هذه الأهمية بعض الدارسين إلى اعتبار الحياة شبه مستحيلة بدون هذه الشجرة بهذه المجالات.(129)

إن الغطاء الشجري بحوض زيز الأوسط لا سيما في الشريط الفيضي لا يضم فقط شجرتي النخيل والطرفاء، بل نجد أنواعا أخرى كالزيتون واللوز

---

126) Swingle (W.T) : the date palm and its utilization in the south western stade u.s. Bul in clus Bul n° 53, p 155 illurs New-york 1904.

127) chevalier (G) : sur un facteur de taxicite végètale en Afrique du nord, Revue agricole de l'Afrique du Nord (Algerien) n° 810 pp 86-88 paris 1935.

128) Saîdi (M) : contribution, op cit, p 15.

129) Meunié (D.J) : le Maroc saharien op cit, t 1 p 100.

اللتين تميزان البنية النباتية لواحتي الخنك ومدغرة.(130) فقد سبق لمارمول أن أكد أنه يوجد في هذه الأرض الواقعة بين هذا النخيل بقرب المياه أشجار مثمرة وخضر ولكنها أقل خصبا وفائدة من التي في بلاد البربر، لأنهم لا يحسنون فلاحتها.(131)

من خلال استقراء المادة المصدرية لم نقف على أي نص يشير إلى وجود شجرة الزيتون بهذه الأصقاع باستثناء ما أورده ابن الخطيب القرن 8هـ/14م وهو يصف مدينة كَرسلوين. قال: «فما تقول في أقرسلوين قال وادي عجيب... كثير شجر الجوز والزيتون».(132) إن أصحاب كتب الجغرافية والرحلات الذين يتميزون على العموم بدقة الملاحظة وتسجيل كل ما تقع عليه أنظارهم أو ما يسمعونه من غيرهم لم يشيروا إليها، وهذا ما دفع جاك مونيي – على ما نعتقد – إلى القول بأن شجر الزيتون كان منذ القرن 11 إلى 16م لا يحتل على ما يظهر إلا مكانة بسيطة في اقتصاد المغرب الجنوبي. وأول إشارة وردت عند صاحب كتاب الاستبصار في القرن 12م في واحة درعة. ومن باب الملاحظة تضيف مونيي أن الزيتون لا ينمو في تيوت ولا في سوس استنادا على ما ذكره الوزان. الشيء الذي جعل الزيوت المستهلكة بسوس تأتيه من بعض جبال مراكش.(133) كما يلاحظ أن القصور القديمة المتواجدة بواحة مدغرة لا توجد بها معاصر الزيتون، كما لا نجد المعاصر الرومانية القديمة أي البدائية، وكل ما هو موجود معاصر جاهزة. مما يدل على تأخر وجود شجر الزيتون بالمنطقة. مع العلم أن تاريخ المعصرة يحدد معلمة وجود النبات. وغالبا ما تذكر كتب الجغرافيا والرحلات مادة الزيت ضمن البضائع التي كانت تحمل إلى المنطقة، فالزيت كانت تأتي من الشمال أيام الإمارة الخارجية الصفرية بسجلماسة. كما كان الشحم يستهلك بشكل كبير بتافيلالت لتعوض النقص الحاصل في الزيت

---

130) plan directeur op cit vol n° 9, janvier 1983, p 26.

131) مارمول : إفريقيا، ج 1 ص 44.

132) لسان الدين محمد السليماني ابن الخطيب : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مطبعة فضالة المحمدية 1976 ص 179.

133) Meunié (D.J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 379.

وهي عادة قديمة جدا، وإلى عهد قريب كـانت واحة مدغرة تصدر الزيت إلى تافيلالت. فكل هذه القرائن تقيم الدليل على أن هذه الشجرة لم تكن معروفة بهذه الأوساط خـلال هذه المرحلة ولم تكن تستحوذ على الغطـاء الشجري كما هو الحال الآن، ونفترض أن يكون العرب هم الذين أدخلوا هذه الشجرة إلى المنطقة في المراحل المتـأخرة بدليل أن لا حـديث لا عن الزيـت أو معاصر الزيتـون بمنطقة مدغرة. إلا أنــه في الوقت الحالي نلاحظ أن شجر الـزيتون يشكل غالبية الغطاء النباتي بمدغرة. فقد جاء في إحصائيات المكتب الجهوي للإستثمار الفلاحي لتـافيلالت أن شجرة الزيتـون تمثل الآن أكثر من 72٪ مقابل 15٪ من شجـر النخيل بمدغرة والخنـك. مما يميز المنطقـة عن سهل تافيلالت الذي تمثل فيه شجرة النخيل أكثر من 96٪.(134)

وعلى العموم يمكن إجمال أهمية الغطاء الشجري بالمنطقة فيما يلي :

1 - المساهمة الفعاليـة للأشجار في مردوديـة المستهلكين بنسبة تتراوح حاليا ما بين 40 إلى 60 ٪.

2 - إن جفاف المنـاخ في حوض وادي زيز الأوسط فرض نسقـا زراعيا مضبوطـا يتميز بوجـود مجموعة من الأنظمة النبـاتية، وتسيطر شجـرتا النخيل والزيتون على الطابق العلوي منـه. الشيء الذي يكون ستارا وحجابا واقيا ضد موجـات الحرارة المفرطة، ويخلق بالتالي مناخـا محليا اصطناعيا تستفيد منه النباتات السفلية بالأساس.(135)

وهكذا يظهر بعد متابعتنا لمختلف أوجه الحياة البيئية بمعطياتها المختلفة أن إقليم حـوض زيـز الأوسط الـذي تنـدرج ضمنه منطقـة مـدغـرة التي اخترناها كموضوع لدراستنا، ليس من حيث الإمكانيات البيئية في مثل غنى السهول الشمالية والغـربية المغربية ولا في مثل فقر مواطن جنـوبية أخرى. بل إنـه اكتسب أهميته البيئيـة من جمعـه بين النشاط الـزراعي رغم ضيق المساحات الـزراعية. مما فرض على السكـان استغلال الأرض بشكل مكثف وبصفة لا تعرف فيها هذه الأخيرة الاستراحة إلا نادرا. والنشاط الرعوي لا

(134 plan directeur de la mise en valeur du tafilalet. vol n° 7 p 5.
- plan directeur, op cit, vol n° 9, p 176.

(135 plan directeur op cit vol n° 9 janvier 1983 pp 5 - 48.

سيما تربيـة الماشية،التي ظلت عنـد سكان الإقليم نشـاطـا مكملا ومـوازيا للزراعة. ومما كان يزيد من متاعب السكان ما كان يعرفه الإقليم من قساوة في المناخ الذي كان يؤثر بشكل سلبي على انتظام العملية الزراعية ومردودية الماشيـة وبـالتالي على الاستقـرار بـوجـه عـام. ويفسر إلى حد مـا أسبـاب الاضطـرابات والهزات الاجتماعيـة التي كـانت تعصف بروح التســاكن بين المنطقة السهلية والرعوية. ومعلوم أن العلاقة بين هاتين المنطقتين لعبت دورا كبيرا في رسم معالم تاريخ منطقة مدغرة بوجه خاص.

والخلاصة أن المتتبع لأخبـار المنطقة من خلال المصادر التي أفـادتنا في رسم معـالم المعطيات البيئيـة وما هـو موجـود على أرض الواقع، يـلاحظ بجلاء تام الارتباط الوثيق بين الطبيعة والسكان من جهة، ومن جهة أخرى كـانت هذه المعطيـات البيئية في أغلب الأحيـان عـائقا للسكـان في ممارســة أنشطتهم الفلاحية بوجه عام.

الباب الأول :

الفصل الثاني :

مسألة الماء في حوض وادي زيز

مقدمـــة :

1 ـ الهيدوغرافية :

* وادي زيز من منبعه إلى مصبه :

* المياه الجوفية :

2 ـ الماء مشكلة قائمة باستمرار :

3 ـ تقنيات الري :

* الخطارات :

* أغرور :

الباب الأول :

الفصل الثاني :

مسألة الماء في حوض وادي زيز

مقدمــــة :

تلعب الأودية في المغرب دورا حيويا في الأنشطة الزراعية للسكان بفضل تزويدها للسهول المجاورة بمواد فيضية غنية بالغرين، وبتوفيرها إمكانيات السقي، لا سيما بالجنوب المغربي. حيث الاعتماد شبه كلي على الأودية كأودية زيز وغريس وماسة وسوس وكَير وزورفانة. ومعلوم أن معظم الأنهار المغربية ترتبط بالأمطار، ولذلك تسجل عدة فيضانات وسيول خطيرة خاصة خلال الفصل الممطر، فتحدث بعض الخسائر في الأرواح والممتلكات. كما أنها تجرف كميات هامة من التربة.(1)

وخلال الفصل الحار تتزود الأنهار الجنوبية من العيون والينابيع الجبلية، وتستفيد كذلك من ذوبان الثلوج المتراكمة على جبال الأطلس، ما عدا السنوات التي يقل فيها المطر ويسود الجفاف أحيانا. الشيء الذي يساهم في التخفيف من ضغط الجفاف. وهذا ما توضحه الخريطة الطبيعية للمغرب بالنسبة لوادي زيز.(2)

1 – الهيدروغرافية :

يمثل وادي زيز(3) أهم وحدة هيدرولوجية بالمنطقة، حيث يعتبر مصدر جل المياه المغذية للحوض. ويتميز بنظام ذي نزعة صحراوية مع جريان

---

1) الوزان : وصف م. س ج 2 ص 254.

2) El Mellouki (M) : contribution à l'etude de l'histoire des villes medivales du Maroc: Sigilmassa des origines à 668 h/1269 J. C. Aixe en province 1985 p 18.

3) من خلال تفحصنا للمادة المصدرية المتوفرة لم نعثر على تفسير لمدلول كلمة زيز. فمصادر العصر الوسيط لم تحاول تفسير مدلول الكلمة، بل أحيانا تجدها لا تذكر حتى اسم النهر. فقد جاء =

شبه دائم أكثر من سنة على سنتين، زيادة على فيضانات الخريف والربيع.(4)

يخضع صبيب وادي زيز لتذبذبات مهمة تتبع تذبذبات التساقطات، لذلك تكون الفيضانات قوية في بداية موسم التساقطات. مما يجعلها ذات حمولة صلبة ومهمة، تساهم بها في تكوين بعض الولجات المستغلة فلاحيا. ويتلاشى الصبيب إلى أن ينقطع تماما عند توقف التساقطات. ولكن وادي زيز وكما ذهبت إلى ذلك جاك موني يدوم صبيبه أكثر من 6 أشهر في السنة.(5) الشيء الذي يحملنا على الاعتقاد أن وادي زيز لا يتغذى فقط من

= عند اليعقوبي خلال القرن 3هـ / 9م في كتابه البلدان أن: «سجلماسة على نهر يقال له زيز» ص 110. وكتب ابن حوقل في القرن 4هـ / 10م أنها – أي سجلماسة على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل – صورة الأرض – ص 90. وجاء عند البكري في القرن 5هـ / 11م وهي – أي سجلماسة على نهرين عنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة. ص 148، وهي نفس الملاحظة التي أبداها ابن أبي محلي في الإصليت ص 111. وكتب الإدريسي خلال القرن 12/6: «وإنما هي – أي سجلماسة – على نهر كثير الماء» ص37. وأورد ابن سعيد المغربي خلال القرن 7هـ / 13م ونهرها – أي سجلماسة – يأتي من جهة الجنوب والشرق» ص 124، واقتصر القلقشندي على نعت هذا النهر بنهر سجلماسة خلال القرن 9هـ / 15م. ج5 ص 174.

في حين قدمت كتب الجغرافية والرحلات للمرحلة الحديثة بعض الاجتهادات ووجهات النظر حول أصل الكلمة. فقد ذهب الحسن الوزان خلال القرن 10هـ/ 16م أن جبال الأطلس الكبير الشرقي تأخذ اسمها من اسم هذا النهر، ج1 ص 287، وهو نفس ما ذهب إليه محققو «إفريقيا» لمارمول ج 2 ص 277 هامش 61.

كما أن الدراسات الحديثة المنجزة حول إقليم سجلماسة لم تقدم تفسيرا شافيا لمدلول اسم الكلمة. فقد ذهب الأستاذ محمد الملوكي إلى أن هذا النهر يستمد اسمه من مدينة زيز التي كانت موجودة بحوض وادي زيز قبل سنة 140هـ / 747 – 758م.

- El Mellouki (M) : contribution, op cit, p 18 .1 هامش

ومهما يكن من أمر فكلمة زيز هي كلمة بربرية ترجع للهجة البربرية الزناتية ولازال الغموض يكتنفها سيما أمام تعدد التفسيرات والتأويلات، فقد قابلها الأستاذ محمد شفيق في المعجم العربي الأمازيغي ج 1 ص 458 بحشرة. ونفترض أن تكون مشتقة من الكلمة البربرية «أزيزا أو أزكزا». فحسب ما جاء عند أحمد بلقاسم الزياني: تاريخ بلدة خنيفرة ص 32 أن كلمة أزيزا أو ازكزا تعني اللون الأخضر. من هنا لا نستبعد أن يكون نهر زيز مرتبط بهذه الكلمة من حيث الشكل والمضمون، على اعتبار أن نهر زيز هو الذي وهب الحياة لجملة من الواحات الصحراوية وأعادها جنات خضراء.

4) Meunié (D. J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 149.

5) Meunié (D. J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 149.

الأمطـار، بل كذلك من ذوبان الثلـوج والمنابــع الجبليـة والعيـون. وهذا ما أكـده محـمـد بن إبراهيـم بن يحيى الملقـب بوطـواط المتوفى عام 718هـ / 1318م، إذ أشــار إلى أن نهـر سجلماســة يتغذى بميـاه عدد من المنابــع.(6) الشيء الذي يـوفر لــه صبيـبا شبــه دائـم، حـدده مارتـان وآخـــرون في 1200م³ / ت.(7) لكـــن مع ملاحظـــة أن هــذه النسبـة تتغيـــر حســـب الفصــول.

يقطع وادي زيز في مجراه أنواعا مختلفة من الصخور الكلسية المتمثلة في صخـور جبال الأطلس الجوراسيـة والترياسيـة، ثم إرسابـات الكريطـاسي بهضبــة مسكي (كـريطـــاسي أعلى – طـــوروني – كـريطـــاسي أسفل ثم السينـوماني). وخـاصة الغطـاء الغرينـي لكـل من مـدغرة والخنَك الـذي يساهـــم في توسيع مجرى النهـر، وبعد ذلك التـوضعات الـرباعيـة بسـهل تافيلالـت.(8)

إذا كانت مصــادر العصر الوسيط قـد ذكرت هذا النهـر وأهميته في ري مجموع الـواحات المتناثرة على حـوافيه، إلا أن هذه الأوصاف الجغـرافية – رغـــم أهميتهـا – لا تحدد منابـع ومصبات نهر زيـز. الشيء الـذي يـدفع الباحـث إلى ضرورة الاستعانـة بالمعلومـات التي توفـرها المراجـع الحديثة ومقارنتها، أمــلا في فهم هذه النصوص فهما معقـولا واستغلالها استغلالا سليـما.

إن الذين ذكروا هذا النهر لم يزوروا المنطقة للتأكد من أوصافهم، وعليه جاءت أقـوالهم مبنية على مصادر نقـولهم أو ما يسمعونــه من غيرهـم، مما طبع معلوماتهم بالإفراط والغموض أحيانــا، وأحيانا أخرى بالخلط، لكونها لاتستند على أي معطى جغـرافي أكيد. فقد جاء عنـد الإدريسي أن سجلماسة هي على نهر كثير الماء يأتي من جهــة المشرق من الصحــراء(9)، وهـي نفس

---

6) Fagnan (E) : Extraits inedites Relatives au Maghreb, géographie et histoire, Alger 1924 p 54.

7) Martin et autres : géographie du Maroc, op cit, p 34.

8) مجلة الماء والتنمية عدد 2 يونيو 1986 ص 111.

9) الإدريسي : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ص 37.

الإشـارة التي وردت عند ياقـوت الحمـوي(10) وعنـد صاحب الـروض المعطار.(11)

ومن جهـة أخـرى جـاء عنـد ابن سعيـد أن نهر سجلماسـة يأتي من الجنوب والشرق، ومنبعـه من جبل أزرو الكثير الحيات... وينقسـم منها إلى قسمين ثم يجتمع القسمان ويتصـلان على غربيهـا وشرقيها، وينصب هـذا النهر في نهر زيـز الذي يمشي معـه ونهر سجلماسة، وإليهـا خمسة عمائر والخيرات. ثم ينصب نهر زيـز في نهر ملـويـة الـذي ينصب في بحـر الرومان.(12) كما يشير القلقشندي إلى أن نهر زيز يصب في نهر ملوية.(13)

ومقابل ذلـك جاءت أوصاف كتب الـرحلات والجغـرافية خـلال المرحلة الحديثة في غـاية الـدقة والضبط، وتـوافق ما تـذكره الـدراسات الجغـرافية الحديثة عن مجرى وادي زيز من منبعـه إلى مصبه. وذلك لسبب بسيط هو أن أصحـاب هذه الأوصـاف زاروا المنطقـة ووقفـوا على حقيقة الأمـر، ولم يعمدوا إلى عملية اجترار المعلومات التي أوردتها كتب الرحلات الوسطوية.

يشير الحسن الـوزان أن نهر زيـز ينبع من جبـال تقطنهـا صنهـاجـة ويسيل نحـو الجنـوب بين عـدة جبـال مـارا بـالقـرب من مـدينـة تـدعى غرسلوين، ويستمر فيما وراء ذلك مختـرقـا أقاليم الخنك ومضغرة والرتب، فيدخل في بلاد سجلماسة مارا بين أراضيها الزراعية. ويخرج إلى القفر حيث يسيل قرب سغيلة، ثم يكون بحيرة وسط الـرمال حيث لا يوجد أي سكن. غير أن الصيادين من الأعـراب يختلفون إلى ضواحيهـا لأنهم يجدون صيدا حسنا جدا.(14) ويجاري مـارمـول وصف الحسـن الـوزان، لكنـه يقـدم إضافات تتعلق بمواطن بعض الجماعات التي كانت مستقرة على حوافي وادي زيز. وهذا نص كـلامه: «زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفـس الجبال (جبال الأطلس) حيث يقطن قسـم من جماعـات السينيك (كـذا)، وينحـدر نحـو

---

10) معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، المجلد الثالث، ص 192 بيروت 1957.

11) الروض المعطار م. س ص 305.

12) ابن سعيد أبو الحسن علي المغربي : كتاب الجغرافيا. بيروت 1970 ص 157.

13) صبح الأعشى م. س ج 5 ص 174.

14) الوزان : وصف م. س ج 2 ص ص 254 – 255.

الجنوب جاريا بين جبال شاهقة، ثم يمر قرب غرسلوين مخترقا إمارة كنانة ومضغرة والرتب فإقليم سجلماسة. ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ويخرج منها ويدخل مدينة سكهيلة ليتجه ثانيا نحو الجنوب ويكون بحيرة وسط رمال لا يسكن حولها أحد، إلا أن الصيد الكثير يقتات منها.(15) لكن إذا كان وصفا الوزان ومارمول يحددان المجالات والمناطق التي يقطعها وادي زيز من منبعه بجبال الأطلس إلى مصبه بالصحراء. إلا أنه مع ذلك يمكن تسجيل غياب الدقة في ذكر منابعه، على اعتبار أن جبال الأطلس هو تحديد واسع وغير دقيق.

وقد انفرد البكري خلال العصر الوسيط بذكر المعلومات التي تخص منابع وادي زيز قال: «وسجلماسة على نهرين عنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها».(16) إن كلمة أجلف التي ورد ذكرها عند البكري خلال القرن 5هـ / 11م ما هي إلا إسم لمكان عين بجبال الأطلس الكبير الشرقي التي تعتبر خزانا للمياه، لأن الثلوج المتراكمة على مرتفعاتها تمثل احتياطي مهم لتدعيم التصاريف المائية.(17) كما أن الطبقات الكلسية لهذه الجبال تختزن كميات من هذه المياه تتغدى بها الأودية عن طريق العيون، الشيء الذي يجعلها أكثر دواما.

وأشار ابن أبي محلي في إصليته خلال القرن 11هـ / 17م إلى عين أجلف وهو يتحدث عن عنصر ماء نهر سجلماسة. وهذا نص كلامه: «دمار سجلماسة جاء على يد تغوير مائها محدثات القرى التي تسمى اليوم بالرتب... لأنها قطعت عنها ماء عنصرها المعروف بعين أَكَلف».(18)

---

15) مارمول : إفريقيا م. س ج 1 ص 46.

16) البكري : المغرب م. س ص 148.

17) Martin et autres : géographie du Maroc, op cit, p 34.
وعلاوة على ذلك تذكر إحدى الرسائل السعدية أن الثلوج تدفع القحوط. رسائل سعدية. تحقيق الأستاذ عبد الله كَنون معهد مولاي الحسن تطوان 1954 ص 163.

18) ابن أبي محلي : إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط خ الحسنية رقم 100. ص 111.

إن التحـديد الـذي جاء بـه صاحب الإصليت يعتبر أكثـر دقة وضبطـا ويوافق ما هـو موجود على أرض الواقع. فهذا النـص من جهة يقيم الدليل على أن التسمية البربرية حافظـت على استمراريتها إلى حدود القرن 11/17م أي زمن ابن أبي محلي بل وإلى أبعد من ذلك، على اعتبار أن الاسم الشعبي الذي ظلت العين الزرقاء لمسكي تحمله وإلى عصور متأخرة جدا هو «طُوطُو كَـلْــفْ». لأن المقصود بعين أجلف من خلال كـلام ابن أبي محلي هو عين مسكي الموجـودة في مؤخـرة مدغـرة وشمال واحة الـرتب التي قطعت عن سجلماسة مـاء عنصرها. ومن جهـة ثانيـة فكلمة «طُـوطُو كَـــلْـفْ» تعني بالبربـرية عين الذهب، وفي هـذا الاسم دلالة كبيرة على أهمية الماء بـالنسبة للـواحات بـاعتباره من الموارد الحيـوية الهامـة الضامنـة لاستمرار الحيـاة الزراعية والاستقرار. لهذا لا غرو إذا وجدنا الأهالي ينعتونه بالذهب. كما أن محاولة القيـام بمقابلـة كلام البكـري السابق الذكـر بنص ابن أبي محلي، يظهر أن كلمـة «أجلف» تطلق على مواضع متعددة على طـول وادي زيز من الشمال إلى الجنوب. وهذا بدوره يبين أهمية العيون في تغدية نهر زيز بالماء، لا سيما خلال الفصل الحار الجاف.

تـوجـد منابـع وادي غريـس بجبـــال الأطلس الكبير الشرقـــي قـــرب منابـع وادي زيـز وكَير. ومجمـل هذه الأوديـــة تتغـذى اليوم بـالمياه التي تتجمـع في السـفـــوح الشرقـيـة للأطلـس الكبير، في حيـــن أن الميـاه التي تتجمــــع في السفـــوح الغربيــــة لهذه الجبــــال تغـــذي وادي ملويــــة وروافـده.(19)

يتغذى وادي غريس من ثلاثة وديـان : تدغة وفركلة وغريس. ويخترق وادي غـريس من منـابعه بجبـال الأطلس الكبير الشرقي إلى مكـان التقـائه بوادي زيـز جنوب سهل تافيـلالت مناطق عديـدة منها: أمدغـوس، أسول وأمـلاكَو في مـرتفعات الأطلس الكبير الشرقي، لتتحـد تلك الأودية وتـدخل بسيط تاديغـوست الواقعة على السفـوح الجنوبية لهذه المرتفعـات. بعد أن يكون وادي غريس قد قطع حوالي 30 كلم من منابعه إلى بسيط تاديغوست.

---

19) Meunié (D.J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 149.

ثم يدخل واحات كَلميمـة – الجرف والكَفيفات، ويصب في مجرى وادي زيز مكونا معه وادي الدورة الذي يضيع في الصحراء.(20)

تبلغ مساحة حوض غريس حوالي 9,918 كلم² أما مساحة حوض وادي زيز فلا تتعدى 7,835 كلم²، ويتميز نظام التصريف السنوي للوادين بفصلين من الجريـان القوي الدائم هما: فصـلا الخريف والربيع، وتقـل مياههما في فصلي: الشتاء والصيف. وتبلغ كميات المياه خلال السنة الواحدة بوادي زيز 150 مليون م³ بينما لا تصل بوادي غريس سوى 100 مليون م³ في المتوسط العـام، مع اختلافـات نسبية لهذه الكميـات من سنة لأخـرى.(21) وتصل فيضانات النهرين إلى المنطقة الرملية جنوب سجلماسة، غير أن أكثر كميات الميـاه تأتي عبر مجرى وادي زيـز. ونعتقد أن أهميـة هـذا التصريف المائي لزيـز هو سبب اهتمام كتب الـرحلات والجغـرافية بـوادي زيز بينما تغفل الحديث عن وادي غريس، هـذا الأخير الذي لا يعرف جريـانه العادي إلا في السنـوات المطرة وغـالبا مـا تنضب به الميـاه في السنوات الجافـة، حيث لا تتعدى مدة جريانه إلا بضعة أشـهر خلال السنة.(22) هذا طبعا دون إغفال الجانب التاريخي والسياسي لهذه الأودية، ففي الوقت الذي أعطى فيه وادي درعة الـدولة الـدرعية التكَمادارتية السعـدية أعطى فيـه وادي زيز الـدولة العلويـــة. ممـا لـــه بالـــغ الأهميـــة في تفسير اهتمام كتب الرحــــلات والجغرافيـــة والحوليات بهذين الـوادين في وقت أغفلـــت فيه الحديث عـــن وادي غريـس.

يقترب مجرى وادي زيـز من مجـــرى وادي غـريس في سهل تيـزيمي شمال مـا كان يطلق عليـه سجلماسة آنفـا. فقـد أشار جـولي فيرنانـد أن المسافـــة الفاصلــــة بين الواديـــن بمنطقـــة أرفـــود لا تتجـــاوز 7 كيلوميـتـرات، مـع ملاحظة أن وادي غريـس يجـــري في منطقـة منحـدرة عن مستوى جـريان وادي زيـز بحوالي 12 مترا، فضـلا عن كونـه يخترق

(20 Fémand (J) : relief du sud-est, op cit, p 13.

(21 Fortin (J.C) : la nappe Fréatique salée du tafilalet. R.H.T.E n° 7 Rabat 1973 p 112.

(22 Margat (J) : notes sur ressources en eaux perènnes dans les bassins du Ziz et du Rheris M. N. n° 6 1955 p 22.

المجال الغربي لسهل تـافيلالت إلى أن يصل إلى المناطق الـواقعة إلى الجنوب منه.(23)

ولما كانت أراضي حوض زيز تعول في زراعتها على مياه الأنهر كما أكدت ذلك كتب الجغرافية والـرحلات، فإنها عولت بالدرجـة الأولى على مياه زيز. لأن مجرى هذا النهر يسير وسط السهول. كما أن كميـات المياه الجارية به تؤهـل أكثر العمليـات الزراعية مقـارنة مـع مجرى وكميات الميـاه الجارية بوادي غريس.

وعلى العمـوم تتميز الشبكـة المائيـة لحوض وادي زيـز بعدة أنـواع من الجريان تتوزع مـا بين جريان موسمي يدوم أقل من أربعة أشهـر، خاصـة خـلال الفصل الممطـر، وجـريـان شبـه دائـم يـدوم مـا بين 10 إلى 12 شهـرا.(24) وأخيرا جريـان دائم حددته جـاك مونيي في ستـة أشهـر في السنـة.(25)

وادي زيز من منابعه إلى مصبه :

ينبع وادي زيز من منطقـة التقاء وادي أُوتَـرْبَـاتْ ووادي تَـازَارِينْ عند بلدة أَمُوكًّـرْ، ويظهر أن وادي أوتربـات من خلال المقطع الطولي لوادي زيز وروافده كأنه المجرى الأعلى لوادي زيز، ينبع من الأطلس الكبير الشرقي على ارتفاع يصـل إلى حوالي 3000م.(26) ويسمى عنـد انحداره من عين أُورْكَـرْ بوادي تَـالَسِّـيـنْـتْ ويلتقي بوادي أو تربات عنـد مستوى 2095م، هذا الذي تقـع منابعـه العليا عند أقصـى الحوض الأعلى لوادي زيـز. أما وادي تازارين فينبع مـن التقاء وادي أُوسَـكْـرَانْ وَأسِـيـفْ أسُـوفَا عنـد ارتفاع 1899م.

ويتجه وادي زيز نحو الشرق حيث يحتل مقعـرا واسعا بعد خروجه من بلدة أَمُوكًّـرْ، وينضم إليه من الجهة اليمنى جدول أسيف أَعَـدْيَا. أما على

23) Férnand (J) : relièf du sud-est marocain, op cit, p 291.

24) O.N.I : amènagement de la region du tafilalet, rapport general preliminaire hydrolique in projeckt p 3 Belgrade 1965.

25) Meunié (D.J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 149.

26) O.N.I : amènagement de la region du tafilalet, op cit, p 31.

الجهة اليسرى فينحدر وادي غْلُوتِيفْ وأسيف تِسِيدِّلْتْ ووادي تَاحَالُولْتْ من ارتفاع يصل إلى حوالي 1800م نحو الجنوب ليصب في وادي زيز.

وبعد اجتياز فم تَاقَّاتْ يصب في وادي زيز وادي مْزِيزَلْ ورافده جدول تِرِيسَتْ بُوأَبَّانْ وينبع وادي مْزِيزَلْ من جبل إيرِّي أو أقَّا عند ارتفاع 2557م، ويأخذ اتجاها جنوبيا غربيا إلى شمالي شرقي. وبعد ذلك يتصل بوادي زيز وادي زَيْدَاتْ وروافده الموسمية الجريان، ومن الضفة اليسرى وادي سيدي حمزة ووادي النزالة. وهما رافدين مهمين يندمجان في فم تُلِّيشَتْ قبل أن يصبا في وادي زيز قرب مركز الريش. وفي هذه المنطقة يتخذ مجرى وادي زيز مجرى واسعاً إذ يجري في سهل الريش الفيضي وتنحدر من الشمال مياه عين بو أنكَرف.(27)

وانطلاقا من كَرَّانْدُو يأخذ نهر زيز وجهة شمالية جنوبية، وهو اتجاه شبه متعمد نحو الجنوب على مسافة 150 كلم (من مركز الريش إلى مركز أوفوس). فبعد مروره بجوار جبل بوحامد يخترق وادي زيز الطية المقعرة لتيعلالين، ليقترب بذلك من السهل الفيضي الممتد إلى مركز قصر السوق (الرشيدية حاليا). ثم بعد ذلك يخترق الهضبة الكريطاسية لمسكي قبل أن يصب في سهل تافيلالت.(28) إلا أن ما يجب التنبيه عليه في هذا المقام هو أن وادي زيز في المنطقة الممتدة من مدينة الرشيدية مرورا عبر مدغرة والرتب إلى مركز أوفوس يشتكي من النقص في الروافد، فباستثناء رافد وادي ماء يوسف، ورافد وادي بوبرنوص الذي يصب في وادي أوفوس، ووادي زرزف وعين مسكي، وبعض الشعاب المتناثرة على ضفتي السهل

---

27) كل الأرقام والأسماء مأخوذة من الخريطة الطبوغرافية لمركز الريش والمقطع الطولي لنهر زيز، وهنا نود أن نشير إلى استفادتنا من البحث الجغرافي الهام الذي أنجزه الأستاذ عبد الرحمان الغياط حول مجرى وادي زيز. وقد اعتمدنا على النسخة الموجودة بالخزانة العلمية الهامة للمكتب الجهوي للإستثمار الفلاحي لتافيلالت. الرشيدية.

28) les hommes, la terre et l' eau, op cit, p 17.

الفيضي لمدغرة والرتب، والتي تتميز بعدم الانتظـام تبعا لتذبذب التساقطات لا نسجل أي رافد آخر مغذي لزيز.

تظهـر الفيضانـات بأوديـة المغرب وضمنهـا وادي زيز خـلال الفترات الممطرة التي تمتد من شهر شتنبر إلى شـهر أبريل، وهي ذات كمية كبيرة في الإرواء وتغذية الحوض بـالمواد الغرينية.(29) وهـذا من شأنه أن يفيـد في معرفة أنواع التربة التي تقوم عليها الحيـاة الزراعية بمنطقة مدغرة. وفي هذا الصـدد أكد ابـن حوقل أهميـة هـذه الفيضانـات في المردود الفـلاحي(30) بواحـات تافيلالت. كما لاحظت جاك مـونيي أن فيضانات وادي زيـز كانت منتظمة وطويلة تستمر من 20 إلى 25 يوما كمعدل سنـوي وأحيانا، تكون خطيرة.(31) إلا أنـه خـلال الفصل الحار حيث تنعـدم التساقطـات بجبـال الأطلس يجف الـوادي، مما يضطـر السكـان إلى الاعتماد في سقي أراضيهم الـزراعية على الماء البـاطني الجوفي. فقد لاحظ الـوزان «أنه كثيرا مـا يجف النهر في فصل الصيف ويقل الماء جدا».(32) مما يضطر الأهالي إلى الاعتماد على الماء الجوفي الباطني لتدارك هذا النقص.

من كل مـا سبق يظهر أن نهر زيـز كـان منبع الحياة في حـوض وادي زيز، فهو الـذي علم سكان هذه الواحـات المتناثرة على ضفافـه الزراعة وفي سهله الفيضي تركز السكان وعلى مائه اعتمد الإنسان والحيوان، وجلب زيز الماء اللازم لري النبـات. وحمل الغرين الذي كان يجدد باستمـرار خصوبة الأرض. لهذا لا نبـالغ إذا قلنـا بأن هـذا النهـر هـو الـذي أسهم في قيـام «الحضارة الـزراعية» بواديه، وإن لم يكن دور الإنســان أقل شـأنا من دور النهر والمناخ والعـوامل الطبيعية الأخرى.(33) فقد حاول الإنســان المدغري منذ نزل الوادي أن ينتفع بفيضـان النهر ليقيم الزراعة على جوانبه، وبمرور

---

29) groupe d'ingènieurs : seminaire, les ressources en eau du Maroc. document finale. institut agronomique et veterinaire Hassan II Rabat 13 - 14 Juin 1980 p 25.

30) أبو القاسم النصيبي ابن حوقل : صورة الأرض. دار مكتبة الحياة بيروت د. ت ص 90.

31) Meunié (D.J) : le Maroc saharien op cit t 1 pp 150 - 151.

32) الوزان : وصف... م. س ج 2 ص 126.

33) plan directeur. op cit. octobre 1981 p 17.

الزمن اهتـدى إلى عمل الجسور لحجز ماء الفيضـان، وشق الترع لتوصيل الماء إلى الأراضي الـزراعية. فقـد كـان استعمال ميـاه الفيضانـات مبني على عرف مسلم به من طرف الجميع، يقضي بإعطاء الأولوية للجهات الكائنة في عالية النهر قبل تلك التي توجد في سـافلته، فقد كان السكان المستقرون في العالية يحاولـون تشييد مجموعة من السـدود لتحويل أكبر قدر ممكن من المياه لـري أراضيهم. وكانت الإتفاقيـات العرفيـة تعمل على إيجاد نوع من المساواة بين المجموعات القبلية المستفيدة من ميـاه النهر. وهذا فعلا ما كان يحدث بين قبائل اتحاديـة: أيت يفلمان أصحاب العـالية، وأيت عطـة الذين كانوا يقومـون بدور الحماية لمجموع قصور سافلـة النهر، لا سيما بمنطقة الرتب في الفترات المتأخـرة. كما يحدث أيضا أن تطلب سـاكنة السـافلة من ساكنة العالية حبس الماء لمدة من الزمن عن طريق السدود الحجرية خاصة إذا كانت تربطهم علاقات دموية. كما هو الحال بين شرفاء قصر تازناقت في مـؤخـرة مـدغـرة، وشرفـاء قصر أزمـور بأعلى مـدغـرة، وذلك لأجل خلق فيضانات اصطناعية.(34) وفي نفس هذا الخصوص تذكـر الرواية الشفوية المحلية أن سكان مـدغرة كانوا يبعثـون ببعض أعيانهم إلى قبائل أيت إزدكَ ليفاوضوهم في مسألة إعطائهم الماء، وغـالبا ما كانوا يتراضون على منحهم الماء لمدة تتراوح ما بين 7 إلى 10 أيام.

وكل هـذا يـوضح أن تـدخل الإنسـان لتغيير مجرى النهـر والتحكم في منسوب صبيبـه، كان يعبر عـن رغبة ملحة في الاستفـادة من ميـاهه. لأن مشكل الميـاه بالـواحات كـان ولا يزال يطـرح نفسه بحـدة، لا سيما خلال مواسم الجفاف.

المياه الجوفية :

تشكل المياه الجوفيـة المورد الثاني بعد المياه السطحيـة التي يمثلها نهر زيز. وتعتبر الفرشة المائية الجوفيـة بمثابة بحيرة مغلقة تتجمع فوق سطح

(34 plan directeur de la mise en valeur agricole du tafilalet. volume n° 6 Novembre 1982 amélioration de distrubution de l'eau. p 5.

غير راجح وتعـرف انحدارا طفيفا مـن الشمال إلى الجنوب.(35) وإذا كانت العيون التي لا نجدها اليوم في حـوض زيز الأوسط هـي عيون فم غيور إلى الأعلى من مدينة الرشيدية، وعيون زاويـة أوفوس بالرتب، لم يرد لها ذكر في مصادر العصر الحديث باستثناء عين طوطو كَلف (العين الزرقاء لمسكي) التي ذكرهـا ابن أبي محلي في إصليته.(36) فإن هذا يعتبر دليـلا على عدم وجودهـا خلال تلك الفترة. ويـدل هذا من جهة ثـانية أن منـابع الماء كانت تجف تبعا لارتفاع سطح الأرض أو تتابع دورات الجفاف. مما يعطي الدليل على أن وجودها لم يكن إلا في مراحل متأخرة جدا.(37)

ويستفاد من العيون إمـا بتغذيتها للأنهار بالميـاه بعد فصل الأمطار أو باستخـدامها للشرب وسقي الأراضي، سواء في منطقة الأمطـار أو في مناطق الواحـات. ويحدد أحد الـدارسين مناطق تمركـز العيون بـالمناطـق الجبلية المرتفعـة شأنها في ذلك شأن الأنهار، حيـث تستفيـد من الثلـوج وبعضـهـا يفيض في الصيف.(38) إلا أن هذه المواصفـات لا تنطبق على عيـون حوض زيز الأوسط، فمثـلا عين مسكي تقع بعيدة عن الجبال الأطلسيـة في هضبة ذات فرشة مائية تكون احتياطي مهم من الماء، يمكن أن يغطي كل حاجيات الإقليم. وذلك راجع لتجـدد هذه الفرشـة المائية على الـدوام ماؤهـا معدني بسبب مروره بطبقات جيولـوجية تكثر بها مادة الملح.(39) وفي هذا الصدد ميز كَلاريون في دراسته الدقيقة للطبقات الجيولوجية للمنطقة بين فرشتين مائيتين:

الفرشـة المائية (أ) وهـي قريبة من سطح الأرض ومن خصـائصـها أنها تتغذى بالمياه على الدوام، لأنها تعتمد على ميـاه الفيضانات. والفرشة المائية

35) plan directeur. op cit. vol n° 6 p 12.

36) ابن أبي محلي : إصليت م. س ص 111.

37) فمثلا عين العاطي التي تـوجد بمنطقة «إيردي»، لم تـوجد إلا في سنة. 1986 وقد جاءت نتيجة الحفر والتنقيب على الماء.

38) عز الدين موسى : النشـاط الاقتصـادي في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983، ص 158.

39) Jouannet : Notes sur les conditions actuelles de la vie au tafilalet. B.E.M vol IVI n° 23 1959 p 8.

(ب) وبها احتياطي مهم من الماء، لأنها تتغذى عبر مجاري مائية جوفية تأتيها من مناطق الحمادات.(40)

2 ـ الماء مشكلة قائمة باستمرار :

يشكل الماء بواحات زيز أهمية خاصة بالنسبة لسكان هذه الواحات، باعتباره من الموارد الطبيعية والاقتصادية التي لا يمكن الاستغناء عنها بأية حال من الأحوال. إذ عليه مدار الاستقرار وبفضله عرفت الواحات نشاطا زراعيا تركز منذ القديم على طول السهل الفيضي الذي تكون على هوامش وادي زيز. لدرجة جعلت أحد الباحثين يعتبر الماء أصل الحياة في كل مكان إذ هو الرباط والمحرك لكل المجتمعات الصغيرة،(41) بل الأكثر من ذلك أن بروديل F. Breaudel ينعت قلة أو انعدام الماء بالموت.(42)

إن المشكلة الأساسية التي ظلت تعاني منها واحات زيز الأوسط وضمنها مدغرة هي قلة الماء، وذلك نتيجة لتذبذب صبيب وادي زيز حسب الفصول وقوة عملية التبخر الناتج عن ارتفاع درجات الحرارة، الشيء الذي جعل هذه الواحات لا تستفيد إلا قليلا من مياه الفيضانات. ويرجع ذلك أيضا لموقع هذه الواحات ضمن المجالات الشبه الصحراوية المحرومة من التيارات الهوائية الرطبة المحيطية. بفعل حاجز جبال الأطلس والمفتوحة على التيارات الهوائية الحارة الجافة، ونظرا كذلك لتذبذب الأمطار حسب الفصول والمناطق. كل هذه العوامل مجتمعة جعلت سكان الواحات يعيشون تحت وطأة الجفاف. سيما أمام قلة أو انعدام التساقطات التي قد تستمر فصولا عديدة من السنة. ومما يزيد من أهمية الجفاف هو اعتماد أغلبية السكان على المحصول الزراعي في المعاش، ومادام الماء هو المحدد الأساسي للغلات المنتجة فإن قلته تتسبب في تقليص إمكانيات التغذية، مع العلم أن أي تقلص

---

40) glariand (L) : le problème de l'eau au tizimi et au tafilalet. B.E.M vol V n° 17 1937 p 238.

41) El Mellouki (M) : contribution à l'edude. op cit. p 17.

42) Breaudel (F) : la meditèrannée et le monde méditèrranen à l'epoque de philipe II. 1966 Flamarion t 1 p 56.

في هـذه الأخيرة ينعكس على صحـة السكـان. ممـا يـؤدي إلى انهيـارات ديمغرافية نجهل الكثير عنها، وبالتالي نتساءل إلى أي حد يمكن كتابة تاريخ منطقة مدغرة في غياب مثل هذه المعطيات؟

إن وقع الجفاف كان أشد بمناطق الواحـات المغربية لدرجة أن ندرة الماء بهذه المنـاطق جعلت منـه ملكيـة مستقلـة وأسـاسـا لتـوتـرات اجتماعيـة عنيفة.(43) نجد صداها عند ابن أبي محلي في إصليته أثناء حديثه عن تغوير مـاء سجلماسة «جنـة الأمصـار»، بـل إن الفقيه الثـائر اعتبر قلة الماء أبـرز الأسباب التي أدت إلى دمار سجلماسة. قـال: «دمار سجلماسة جاء على يد تغويـر مائها محدثـات القرى التي تسمى اليوم الـرتب... لأنها قطعت عنها ماء عنصرها المعروف بعين أجلف».(44)

إن النزاع على مصادر المياه خير ما يصور لنا مشكلتها في المغـرب عامـة والواحـات بوجـه خاص، فقد كثـر النـزاع على مياه العيون وقسمتـهـا(45) وحفـر الآبـار قـرب بعضهـا البعض.(46) ويكـون النـزاع على أشـده في مناطق الواحـات، حتى قال صاحب الاستـبصـار في أهل قفصة: «إذا رأيت قومـا يتخاصمـون وقـد علا بينهـم الكلام فـاعلم أنهم في أمر المـاء».(47) وتشتد خطـورة الماء مع البوادر الأولى لنهـاية فصل الأمطار بجبال الأطلس الكبير. ممـا ينعكس سلبـا على الحيـاة الزراعيـة ويضطـرون إلى الاستعانـة بميـاه الآبار والعيـّون. وهذا مـا نستشفه من كـلام الحسـن الوزان. قـال: «وكثيرا ما يجف النهـر – أي نهر زيز – في هـذا الفصل من السنـة ويقل الماء جـدا، بحيث لا يجـدون غير الماء... المستخـرج من الآبـار

---

43) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit. pp 266-267.

44) ابن أبي محلي : إصليت م. س ص 111.

– عبد المجيد القـدوري : ابن أبي محلي الفقيه الثـائر ورحلته: الإصليت الخريت. الـرباط 1991 ص 23.

45) أبـو العباس أحمد الـونشريسي : المعيـار المعرب والجامع المغـرب في فتـاوي افـريقية والأنـدلس والمغرب. ج8 ص 238 الرباط 1982.

46) المعيار : م. س ج 8 ص 252.

– الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي. دراسة وتحقيق عبد الستار عثمان. مصر 1988 ص 118.

47) الاستبصار م. س ص ص 152 – 153.

المحفورة باليد».(48) وجدير بالملاحظة في هذا الخصوص أن مشكلة ملوحة مياه الآبار غير مطروحة بواحتي مدغرة والرتب، وقد فسرته البنية الجيولوجية التي سبق الحديث عنها.(49) ولا تطرح هذه المشكلة إلا في منطقة التقاء وادي زيز مع وادي غريس أي بسهل تافيلالت.

وهكذا نخلص إلى القول أن مشاكل قلة المياه كانت هي الثابت الحاضر في حياة السكان بوادي زيز، وقد كانت هذه المشاكل تزداد حدة عندما ينخفض منسوب المياه في مجرى النهر، وتنضب المياه الجوفية التي غالبا ما تتزامن مع الفصل الحار.

ورغم أن سكان واحات زيز كانوا يستقبلون الفيضانات بفرح كبير ويعتبرونها منة من الله عليهم وحدثا يرقى إلى درجة التأريخ. فقد أشار الأستاذ عبد الهادي التازي أن بلاد المغرب عامة لا تؤرخ أحداثها بالتاريخ القمري والشمسي فقط، بل إنها تؤرخها كذلك بنزول الأمطار أو انحباسها. فهم يذكرون دوما عام الشتاء وعام الجفاف. من هنا كان الاهتمام بالماء شاملا وعاما في شتى جهات الدنيا.(50) وبمنطقة مدغرة كان يؤرخ بعام الفيضان (عَامَ الْوَادْ) وعام اليبسة (عَامَ لِيبُوسْ). ومع كل هذا فإن ذلك لم يكن يمنع السكان من الوقوع في مغبة الصراعات اليومية التي تؤدي أحيانا إلى القتل. فقد أشار الوزان «أن القبائل المتضررة كانت تقوم بعملية هدم السواقي عندما تنشب بين هؤلاء شقاقات وخصومات... فيتلفون قنوات السقي المجلوبة من النهر ويقطعون النخل من أسفل...».(51) مما يؤدي إلى حروب دموية، الأمر الذي كان يستدعي تدخل الأشراف أحيانا وأحيانا أخرى المخزن لأصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة. لهذا لا غرو إذا وجدنا الوثائق المحلية تتحدث عن تقسيم أيام السقي وتنظيمها، بل

48) الوزان : وصف ج 2 ص 126.

49) انظر الفصل الأول ص : 49.

50) ندوات أكاديمية المملكة المغربية : الماء والتغدية وتزايد عدد السكان : عبد الهادي التازي. ص 21 الرباط 1982.

51) الوزان : وصف م. س ج 2 ص 126.

أن سعر الأرض يحدد بنسبة الماء المتوفر، وفي بعض الحالات وجد من يبيع أرضا ويشترط في عقد البيع أن البيع للأرض دون مائها.

لما كانت أيام الفيضانات لا تدوم إلا أياما معدودات فقد كان سكان الواحات يتهافتون عليها والفوز بالأسبقية في استغلالها، لأهميتها البالغة في العملية الزراعية. ودرءا لكل ما من شأنه أن يزج بالمجتمع المحلي في الصراعات والإضطرابات الإجتماعية، وما ينتج عن ذلك من تحالفات وتحالفات مضادة. فقد كانت الأعراف المحلية تنظم مسألة تقسيم مياه الفيض وغيره طبق شروط وقوانين متفق عليها من طرف الجماعة الكلية. وهكذا كان العرف المحلي يعطي الأولوية للإستفادة من ماء النهر للواحات الشمالية قبل الواحات الجنوبية المتناثرة على طول وادي زيز(52) كما كان الوسط الإيكولوجي والظرفية التاريخية تفرض على مجتمع القصر أن لا يعيش منعزلا، بل تتحالف مجموعة من القصور مكونة وحدات سياسية تتحكم فيها وتجمع فيما بينها وحدة المصالح ويحركها المستجد.(53) إلا أن ما يجب التنبيه عليه في هذا الخصوص هو أن قلة الماء لم تكن مشكلة المستقرين، بل نجد كذلك أن هذا المشكل كان يطال حتى الرحل الذين لم يكونوا يترددون في الهجوم على الواحات للتزود بالمعاش. وهكذا كان هاجس الجفاف وقلة الماء هو المسيطر على عقلية وسلوك سكان مناطق الواحات، فغالبا ما كانوا يلجأون إلى أهل الصلاح عندما يصيبهم الجفاف علهم يخففون عليهم من وطأته. وإلى عهد قريب جدا كان أهل مدغرة يقيمون حفلا دينيا بقصر الحيبوس بمنطقة تدعى «البقيع» يتلون فيه القرآن العظيم طلبا للمطر، كما كانت تقام في مناطق عديدة من مدغرة ما يسمى «بالحظرة» لاستنزال المطر هذا علاوة على صلاة الإستسقاء التي كانت تقام كلما انحبس المطر.

لقد كان مشكل قلة الماء وراء جميع المشاكل الاجتماعية (الصراعات بين الأفراد والقصور، الهجرة)، والمشاكل الاقتصادية (تعثر النشاط الزراعي

---

52) Dusang (R) : l'emplacement du barrage de l'oued Ziz. in R.G.M n° 11 1967 p 13.

53) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit. p 269.

والرعوي). الشيء الذي كان يؤثر سلبا على الاستقرار بوادي زيز. ومما كان يزيد من حدة استفحال هذا المشكل أن الدولة في فترات الاستقرار السياسي وتلبية لحاجياتها المتزايدة، كانت تفرض ضرائب على الفلاحين - ضرائب السقي -. فقد أشار المجهول البرتغالي أن الدولة السعدية كانت تفرض ضرائب على الفلاحين المستعملين للسواقي لا سيما بالواحات لقاء استعمالهم للمياه في عمليات السقي، على اعتبار أن الدولة هي المالك الوحيد للماء.(54)

3 ـ تقنيات الري :

عرفت تقنيات الري تطورا كبيرا في مجتمع الواحات، لأن قلة الماء بهذه المناطق كان بمثابة الحافز الذي يدفع برجل الواحة إلى البحث عن طريقة تضمن له ممارسة نشاطه الزراعي بكيفية مستمرة. فكان من نتائج ذلك أن تعددت طرق رفع الماء من باطن الأرض، إما اعتمادا على الطاقة الحيوانية أو البشرية.

فعلى طول وادي زيز نجد شريطا ضيقا متقطعا من المزروعات يقطع المنحدرات القاحلة الجرداء، ويتم ري هذه الأراضي بطريقة تقليدية. تقضي بوضع سد منخفض من الحجارة والأعشاب على مجرى النهر. ينشأ عنه مسطح من الماء تأخذ منه ساقية ترابية كبيرة لري حواشيه وسافلته، وتختلف أبعاد هذه الساقية حسب كميات المياه التي تحولها أو حسب المساحة التي تسقيها، وتتفرع عنها قنوات صغيرة تدعى محليا «المصرف» تتخلل البساتين والحقول، وتغمر هذه الأخيرة بالمياه كي تختزن التربة ما يحتاجه النبات من مياه.

إن المصادر لا تشير إلى وجود تقنيات لرفع الماء بمنطقة حوض وادي زيز، ويرجع السبب في ذلك أن مؤلفيها اقتصرت معارفهم على منطقة سجلماسة، أما مجالات حوض زيز الأوسط فلا ذكر لها إلا عرضا. كما أن هؤلاء المؤلفين اجتذبهم الاهتمام بسجلماسة كمركز تجاري وحضاري رابط

---

54) anonyme portugais : chronique de santa-cruz de cap de gué, texte portugais du XVI siecle. traduit et annoté par. p de cenivale, publication de la section historique du Maroc. paris guethner 1934. p 130.

بين المغـرب الشمالي وإفريقيـا جنـوب الصحـراء. كما شدتهم الـرغبـة إلى الحديث عن نهر زيز والدور الكبير الذي كانت تلعبه مياهه السطحية دونما الحديث عن التقنية المستعملة في ري الحقول والمزارع المتواجدة على ضفتيه. وهكذا يذكر اليعقوبي خلال القرن 3هـ / 9م أهمية نهر سجلماسة ويغفل ذكر وجود الآبـار والعيون. قال: «وسجلماسة على نهر يقـال له زيز وليس بها عين أو بئر».(55) إن كلام اليعقوبي لا يمكن تصنيفـه في إطار هشاشة معلـوماتـه عن سجلماسـة كما ذهب إلى ذلك بعض البـاحثين،(56) بـل إن صعوبة الظرف التاريخي الـذي وجد فيه المؤلف حتم عليه عدم الإلمام بكل ما يتعلق بهذه المنطقة التي كانت زمن اليعقوبي مجهولة.

فالمنطقـة صحراويـة تشكو من جفـاف المناخ وقلـة التساقطـات، وعدم جريـان النهر بصفـة دائمة. ومن ثم فإن رجـل الواحة لم يعتمـد فقط على المياه السطحية، بل اعتمد كذلك على المياه الجوفية التي تمثلها العيون والآبار لا سيما في الفترات الجافة. وكان الرجل الـواحي يوازي ما بين الاعتماد على الجريـان السطحي خلال الفصل الممطـر والفـرشة المائيـة الجوفية خـلال الفصل الجاف.

إن الحسن الوزان الـذي مر بمنطقة مدغـرة لم يشر إلى تقنيات رفع الماء رغم كونه رحالة من صنف خـاص، يسجل كل شيء تقع عليه عينه وأحيانا يعلق عليه. فقـد اقتصر حديثه عن منطقـة مدغرة على ذكر بعض قصـورها والمجموعة البشرية التي كانت تتحكم فيها، ولم يضف إلى ذلك أي شيء فيما يخص التقنيـات المستعملـة في رفع الماء. إلا أنه تـدارك ذلك وذكـر التقنيـة المستعملـة في سجلماسة، ويتعلق الأمـر بـالناعـورة. قـال : «كـانت مدينـة سجلماسـة مدينـة متحضرة جدا، دورهـا جميلة، وسكـانها أثريـاء بسبب تجارتهم مع بـلاد السـودان، وكـان فيهـا مساجـد جميلـة ومـدارس ذات سقـايات عـديدة يجلب مـاؤها من النهـر تأخذه نـاعورات من وادي زيـز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة».(57) فهل هذا يعني أن منطقة مدغرة

---

55) اليعقوبي : البلدان. المطبعة الحيدرية 1957، ص 110.

56) سجلماسة : الحافظي م. س ص 46.

57) الوزان : وصف م. س. ج 2 ص ص 127 – 128.

زمن الـوزان لم تكن تشتكي مـن قلـة الماء؟ أم أن قلـة الماء لم تكن لتشكل هاجسا يجب التنبيـه إليه وبالتالي استعمال تقنيـة تستجيب لذلك؟ أم أن – وهذا هو الـراجح – أن الوزان مر بمدغـرة دون أن يقيم بها مدة تمكنه من جمع معلومـات، قد تفيد البـاحث في الكشف عن العديد من جـوانب الحياة العامـة الخاصة بهذا الإقليم في عصره. خـاصة وأن الـوزان لا يشير قط إلى مكوثه بمنطقـة مدغرة، عكس ما فعل بقصر المامـون بتافيلالت، حيث دامت إقامته به أكثـر من سبعة أشهر. وهذا في اعتقادنا كـاف ليربط علاقات مع مختلف الشرائح الاجتماعية وبالتالي جمع كَـمًّا معلوماتيا كبيرا.

إن عدم إقـامته بمنطقة مدغـرة راجع بالأساس إلى عـدم الإطمئنان على حياته أمام سطوة الأعراب، لا سيما وأن الوزان سبق له وأن مر بتجربة لم تفده معها إلا الحيلة. وهذا يـوضـح في الأخير أن المعلومات التي أوردها عن منطقة مدغرة بحوض زيز الأوسط هي من صنف معلومات عابر سبيل، أو بمعنى أدق إن كل من اجتاز المنطقة يمكنه الحصول على مثل هذه المعلومات التي كانت تتناقلها القوافل. فالوزان لم يذكر إلا قصرا واحدا هو قصر هلال المنعدم الوجود الآن بمدغرة، ولم يحدد لا موقعه ولا جواره.

وقد يعزى صمت المصـادر عن ذكر وجود الناعـورة بحقل الدراسـة إلى كـون المنطقة لم تحتضن حـاضرة على شـاكلة فـاس أو سجلماسـة اللتـان وجـدت بهما النـاعورة حسـب رواية الـوزان. بل اقتصر الأمـر على وجـود مجموعـة من القصـور تشتمـل على عدة آبار وعيون تـزودها بالماء. ومع هـذا كلـه فـإن نفي وجـود الناعـورة بالمنطقـة يعتبر مجازفة، وهي على العموم إحدى المهام المنوطة بالبـاحث في علم الآثار بالمنطقة. وهذا من شأنه أن يفيـد في الكشف عن العـديـد من الخبـايـا التي ميزت مـدغـرة على مـر التاريـخ.

الخطارات :

إن محاولة القيام بعمليـة الكشف عن تاريخ ظهور الخطارات بـالمناطق الجنوبية الشرقية للمغرب يعتبر أمرا صعب المرمى، وذلك راجع لتعدد الآراء حول هذا الموضوع. فإذا كـان الإدريسي – حسب علمنا – أول من أشار إلى

وجود هذه التقنية بشمال إفريقيا خلال القرن 6هـ / 12م في معرض حديثه عن جرمة وتساوة القريبتين من مدينة فزان، حيث أشار أن هاتين المدينتين: «يقرب بعضها من بعض وبينهما نحو مرحلة أو دونها... ومياههم من الآبار وعندهم نخيلات ويزرعون الذرة والشعير، ويسقونها نطلا بآلات يسمونها أنجفة، وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة».(58) كما أشار في موضع آخر من كتابه أن تقنية الخطارة ظهرت في المغرب خلال القرن 5هـ / 11 م في عهد علي بن يوسف المرابطي، فقد جاء في وصفه لمدينة مراكش ما يلي: «وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس. وبسبب ذلك إن ماءهم ليس ببعيد الغور موجودا إذا احتفر قريبا عن وجه الأرض، وذلك أن هذا الرجل المذكور جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد... فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان، وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيها فهو جار مع الأيام. وإذا نظر الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها».(59) فإن هناك من يقول بأن الفضل في وجودها بمناطق الواحات يعود للعناصر اليهودية التي نقلتها من الصحراء. فقد أشار مولان Moulin أن هذه التقنية دخلت شمال إفريقيا عن طريق يهود المناطق الصحراوية، لأن قبائل التوارك يستعملون كلمة إيفلي كمقابل لكلمة الخطارة، ويوجد بتوات وكورارة عدد كبير منها. وهذا ما يؤكد أنها دخلت مجالات مراكش وتافيلات عن طريق يهود هذه المناطق.(60) ولا يختلف لويكي Lewiki مع مولان في أصلها الصحراوي، على اعتبار أن القبائل الزناتية اكتسبت تجربة كبيرة في حفر الآبار بفضل احتكاكها بمجالات الصحراء منذ

58) الإدريسي : ن م، ص 22.

59) الإدريسي : وصف م. س، ص ص 43 – 44.

60) Lewiki (t) : sur le titre libyco-bèrbère. Etudes maghribines et soudanaises. varsovie 1983 p 39.

عهود غابرة. وقد أخذت القبائل الزناتية هذه التقنية - يضيف لويكي - من السكان الليبيين القدماء الذين كانوا يستعملونها في الصحراء جنوب طرابلس والواحات الواقعة إلى الشرق منها.(61) وبذلك يقر بأصلها الصحراوي، إلا أنه يخالف مولان في العناصر التي أدخلتها إلى المغرب. أما دافيردان Deverdun فبعد استبعاده لكل هذه الآراء افترض أن تكون الخطارة دخلت المغرب منذ الفتح الإسلامي بواسطة أهل فارس، بدليل أن هذه التقنية كانت مستعملة بهذه المناطق وبلاد ما بين النهرين منذ عهود قديمة.(62) واستنتج برانشفيك Brinschvig أن تقنية الخطارة كانت معروفة بقرطاجة منذ العهد الروماني، لأن أحد الجيولوجيين عثر على بقاياها أثناء عمليات الحفر الأثرية التي أجريت بضواحي المدينة.(63)

وعلى العموم إذا كانت المادة المصدرية والمرجعية المتوفرة لا تسعفنا للجزم بأصلها وتاريخ وجودها بالمناطق الجنوبية الشرقية للمغرب بصفة عامة، ومنطقة مدغرة بوجه التخصيص، بسبب صمت المصادر، وتعثر علم الآثار في هذا الجانب. إلا أن الأكيد أن الخطارة واردة الحضور بحقل دراستنا رغم الصعوبات التي تكتنف تاريخ ظهورها بالمنطقة. فقد تمكنا عن طريق المعاينة الميدانية من العثور على بقايا بعض الخطارات في بعض قصور مدغرة، حيث توجد خطارة بقصر سيدي أبو عبد الله تحمل اسم «تَـحْـرَاقْـتْ» وأخرى بقصر تازناقت.(64) على أن أكبر هذه الخطارات تمتد من قبالة قصر تاوريرت مرورا بوادي ماء يوسف إلى حدود قصر تازناقت، ويسمى القسم الأوسط منها الذي يقابل قصر القصبة الجديدة بخطارة سيدنا بن أحمد بن احفيد.

فقد جاء في أحد الظهائر السلطانية الخاصة بمنطقة مدغرة أن السلطان مولاي سليمان العلوي أقطعها لمولاي أحمد بن احفيد، وهو الجد الأعلى

---

61) Lewiki (t) : sur le titre libyco-bèrbère. op cit. p 44.

62) Deverdun (G) : Marrakech des orignes à 1912. op cit. t 1 pp 87-88.

63) Brunschvig : la bèrbèrie orientale sous les Hafssides. paris 1940. t 1 p 213.

64) انظر تحديد القصرين في الفصل الثاني من الباب الثاني ص : 193.

لبعض شرفاء القصبة الجديدة مدغرة(65) وقد جدد السلطان مولاي الحسن الأول العلوي هذا الإقطاع لهذه الأسرة أثناء رحلته لمدغرة وتافيلالت في نهاية القرن 19م.

إن وجود هذه الخطارات بمدغرة لا يفهم إلا في إطار محاولة تسييج أزمة قلة الماء الذي تعاني منها المنطقة، لا سيما خلال الفصل الحار الجاف. ومن جهة ثانية تدل قلة الخطارات – على الأقل من خلال الآثار الباقية – أن المنطقة لم تكن تشتكي من أزمة قلة الماء بنفس الحدة التي كان يعاني منها سهل تافيلالت. وتعرف تقنية الخطارة في مناطق أخرى من المغرب بالفجارة.(66) وهي عبارة عن آبار عديدة تتصل فيما بينها بنفق يحمل المياه عبر مسافات طويلة إلى الأرض المرغوب سقيها.(67) وقد أشار أحد الدارسين أن الخطارة تنتشر في مجال واسع يمتد من الأطلس الصحراوي لمنطقة فكَيك حتى منطقة تدكلت،(68) وهو ما يمكن أن نقابله بشمال إفريقيا بالمجال الجاف. لأن ليس هناك ما ينفي وجودها بشمال إفريقيا منذ القرون الأولى للفتح الإسلامي.(69)

ساعد التكوين الجيولوجي لحوض زيز على استغلال هذه التقنية. لأن التضاريس التي تعود للعصر الجيولوجي الأول تتوضع أسفل فرشة غرينية على شكل رصيف منعزل تسمى ريش Risch، وهذا ما ساعد على قرب الفرشة المائية. وغالبا ما يكون نقطة انطلاق الخطارة على حد رأي الأستاذ العربي مزين،(70) وحدد دافيردان Deverdun شروط استغلال المياه الجوفية بهذه الطريقة في ثلاثة عناصر: أولها وجود المياه الجوفية على عمق غير بعيد من سطح الأرض، ثانيا وجود انحدار في التضاريس، وأخيرا أن تكون التربة صلبة نسبيا وغير قابلة للرشحان حتى لا تتعرض آبار الخطارة للهدم.(71)

---

65) انظر الوثيقة رقم 64 بالملحق الوثائقي الخاص.

66) الأراضي الجافة م. س، ص 215 وتسمى الفجارات بقبرص سلاسل الآبار chaines Wells.

67) سجلماسة وإقليمها، م. س، ص 62.

68) Lewiki (t) : sur le titre libyco-bèrbère. op cit. p 75.

69) El Mellouki (M) : Sigilmassa. op cit. p 260.

70) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit p 264.

71) Deverdun (G) : Marrakech. op cit. t 1 p 15.

وإذا كانت كـل هذه المواصفات مـوجودة بحـوض زيز إلا أنـه لابد من التأكيد أن الخطارات بمجالات زيز تختلف عن مثيلاتها بمراكش. فقد أشار دافيردان أن خطارات مـراكش يصل عمق آبـارها إلى 40م وتتراوح المسافة الفاصلة بين آبارها ما بين 20 و25م على حد مـا جـاء عند بـول باسكـون p. pascon (72) في حين اهتدى أحـد الدارسين إلى أن طول الخطارات بتـافيلالت يتراوح ما بين مئات الأمتار و20 كلم، أما عمق الآبار فيتراوح ما بين 6 و18 مترا، والمسافة الفاصلـة بين آبارها ما بين 5 و30 مترا. مع العلـم أن اتجاه هذه الخطارات يوازي جـريان المياه الجوفية.(73) وعلى العموم تطـابق هذه المواصفات الأخيرة إلى حد كبير ما هو واقع بمنطقة مدغرة، حيث إن خطارة سيدنا بن أحمد بن احفيد تمتد من قصر تاوريرت إلى قصر تازناقت أي من الكلم 6 إلى الكلم 16 على الطريق الرابط بين مدينة الـرشيدية ومركز أرفود من الشمال إلى الجنوب، زيـادة على أن عمق الآبار والمسـافة الفاصلـة بينها تطابق إلى حد ما ما جاء عند هذا الباحث.(74)

سـاعدت الميـاه الجوفية القـريبـة من سطح الأرض بمجالات زيـز على استغلال مكثف للمياه الجوفية سواء عن طريق الخطارة أو عن طريق تقنية أخـرى تعرف محليـا «بأغرور» وأحيـانا أخـرى «بالغـرغاز»، والفـرق بين التقنيتين أن «أغـرور» يعتمد على الطـاقة الحيـوانية، ومـا يرتبط بـذلك من أدوات تأتي في مقدمتها «الصنيفة». بينما تعتمد تقنية «الغرغاز» على الطاقة البشرية فقط.

أغرور :

إذا كانت المادة المصـدرية والمرجعية المتـوفرة لا تسعفنا للجـزم بتاريخ وجود تقنيـة أغرور بواحـات زيز الأوسط، إلا أن الفحص الـدقيق للأدوات المستعملة فيها تستنهض الدليل على أنها قـديمة قدم استقرار الإنسان بهذه الجهـات. ومن جهة ثـانية نـلاحظ أن كلمـة أغرور أو الغـرغاز هي كلمـة

(72 paul pascon : Haouz de Marrakech. op cit. t 1 p 106.

73) سجلماسة وإقليمها م س، ص 63 هامش 5.

74) لحسن حافظي علوي : سجلماسة... م س، ص 63.

بربرية لهذا ألا يمكن القول أنها تعـود إلى المرحلة البربرية أي زمن سيطرة القبائل الزناتية وبعدها الصنهاجية على الواحات؟

مهما يكن من أمر، فهذه التقنية تعتمد الطـاقة الحيوانية في رفع الماء من الآبـار. وتشبه في ذلـك تقنية الـدواليب التي تحدث عنهـا الكبري بـالمهديـة عاصمة الحفصيين. قال: «والماء الجاري بالمهديـة جلبه عبيد الله من مناقش وهي على مقربة من المهدية في أقـداس ويصب في صهريج داخل المهدية عند جامعها، ويرفع من الصهريج بالدواليب وكذلك يستقى أيضا بقرب مناقش من الأبار والدواليب، ويصـب في محبس يجري منه في تلك القناة».(75) وقد تـوصل بـرانشفيك إلى أن تقنيـة الـدواليب اختفت من إفـريقيـة الحفصيـة وعوضتهـا تقنية الـدلو لرفع الماء من الآبـار أو الوادي اعتمادا على الطـاقة الحيوانية منذ القرن 15م.(76) وإذا كانت المادة المصدرية المتوفرة لا تسمح بتحديد تـاريخ ظهور الدلو ليس فقط بمجالات حـوض زيز بل في مجموع بلاد المغرب الأقصى عامة. إلا أن الذي لا جـدال فيه أن كلمة الدلو ترادفها الكلمة البربريـة «أغرور» وما يرتبط به من أدوات أخـرى. ويحاكيه الدولب الذي ذكره البكري بإفريقيـة الحفصية. مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن استعمال هذه التقنية كان منذ المرحلة البربريـة، ومع مرور الزمن أخذت هذه التقنية مرادفا عربيا منذ الفتوحات الإسلامية الأولى. فقد استنتج أحد الدارسين أن عدم وجود الـدولاب ضمن التقنيات التقليدية المعروفة اليـوم بمجالات زيز يستنهض الدليل على أنـه اتخذ تسمية أخرى مـع الزمن هي تسمية الـدلو المعروف أيضا بأغرور.(77)

أوضح فوري Faure أن أغرور هي تقنية تجمع بين البئـر والدلو والأدوات الأخـرى التي تدخل في عمليـة رفع الماء، كما أن البئـر المخصصة لأغـرور يتراوح عمقها بتافيلالت وضمنهـا حقل الدراسة ما بين 10 و20م وعرضها ما بين متر ونصف للمتر ومترين.(78) وقد سبق لابن العوام أن أشار إلى أن

---

75) البكري : المغرب م. س ، ص ص 29 – 30.

76) Brunschvig : la bèrbèrie orientale. op cit. p 212.

77) حافظي : سجلماسة م. س، ص 66.

78) Fauré (R) : le tafilalet etude d'un secteur traditionnel d'irrigation. paris 1969 p 45.

الآبار التي تتخذ شكلا دائريا هي آبار عربية.(79) فهل هذا يعني أن آبار تقنية أغرور التي تجتمع مع الآبار العربية من حيث الشكل أتت نتيجة للآثار التي خلفها الفتح العربي بالمنطقة؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تحسين أدخل على هذه التقنية؟ سيما وأن ابن خلدون ذكر خلال القرن 8هـ / 14م أن قصور توات وتيكورارين ووركَلان وريغ والتي كان يقطنها أولاد أبي الحسين من عرب المعقل كانوا يستخرجون الماء الجوفي بطريقة مغايرة لما هو سائد في بلاد المغرب. قال: «وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتنحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفصلة ويقدفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء فينبعث صاعدا فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا، ويزعمون أن الماء ربما أعجل من كل شيء. وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ووركلان وريغ».(80) فرغم أن نص ابن خلدون يترجم الخبرة الواسعة الناتجة عن التجربة المستمرة لهؤلاء الأعراب في جلب الماء الجوفي. إلا أن هذا لا يمنع من تسجيل ملاحظة استحالة جريان الماء على السطح عندما يعم الماء البئر، سيما وأن هذه الأخيرة بعيدة المهوى. وهذا أمر لا يستساغ فهمه إلا إذا كانت الفرشة المائية أسفل الصخور الصلدة قوية التدفق، وهذا كذلك أمر نادر إلى منعدم بمنطقة الواحات بصفة عامة. الشيء الذي يدفع الباحث إلى ضرورة تنقيح معلومات ابن خلدون بدل أخذها جملة وتفصيلا.(81)

إن تقنية – أغرور – هي قبل كل شيء نتاج إنساني، لهذا فالقول بأن عرب المعقل هم الذين أحدثوها، يعتبر مجازفة خطيرة. سيما وأنه لم يَمْضِ على استقرار عرب بني معقل بهذه الجهات زمن ابن خلدون – أي خلال القرن 8هـ / 14 م – إلا زمن يسير. لهذا لا نغالي إذا قلنا إن هذه التقنية كانت من ابتكار أو على الأقل كانت معروفة لدى القبائل البربرية، لا

Iben Al Awam : Kitab Al Filaha. op cit. t 1 p 121. (79

80) ابن خلدون : العبر م. س، ج 7 ص ص 77 – 78.

81) لحسن حافظي : سجلماسة، م س، ص 68.

سيما الزناتية التي سبقت أن جاست هذه الأصقاع قبل قدوم عرب بني معقل إليها. فقبائل زناتة حسبما تشير إليه المصادر هي التي اختطت قصور الصحراء قبل أن تغادرها نحو المناطق الشمالية، وحل محلهم عرب بني معقل الذين لم يرثوا عنهم فقط قصورهم، بل كذلك كل ما يرتبط بحياة الصحراء. وإن كان هذا لا ينفي بالطبع، أن الفضل في انتشار هذه التقنية يرجع لعرب المعقل في الواحات المجاورة، فقد أشارت كتب الرحلات والجغرافية والحوليات، فضلا عن المراجع الحديثة أن عرب المعقل أصبح يمتد نفوذهم خلال المرحلة الحديثة حتى مشارف جبال الأطلس. فقد ذكرت جاك مونيي أن قبائل عرب بني معقل كانت تسيطر على المنطقة الممتدة من ملوية إلى رمال تافيلالت منذ النصف الثاني من القرن 13م.(82) لهذا لا يستبعد أن يكون عرب المعقل هم الذين عملوا على توسيع انتشارها فيما جاور قصور الصحراء. وهذا يجاري ما ذهب إليه كذلك لويكي الذي اعتبر أن الخطارات هي من ابتكار القبائل الزناتية المكناسية، ومن غير المستبعد أن تكون تقنية «اغرور» كذلك، وأن لعرب المعقل الفضل في توسيع انتشارها بمجال انتشارهم، وهذا ما أكده فوري حينما أشار إلى أن تقنية أغرور توجد بكل المناطق الصحراوية شمال غرب إفريقيا.(83)

إن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية. لمحاولة تسييج أزمة الماء لأن الحاجة تولد الابتكار، من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم، دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التدبدب والموسمية. وإلى حدود اليوم لازال سكان مدغرة يعتمدون الطرق التقليدية في حفر الآبار.

---

82) Meunié (D.J) : le Maroc saharien. op cit. t 1 p 282.

83) Fauré (R) : le tafilalet. op cit. p 45.

إن حفر هـذه الأخيرة ليس بالأمر الهين، بـل تستلزم معرفـة على درجة كبيرة من التخصص بهيدرولوجية الماء الأرضي.(84) وذلك بناءا على دلالات معينة يستعان بها قبل الشروع في الحفر كظهـور الرطوبة على وجه الأرض في الصباح والمسـاء، أو وجود منـاطق مخضرة بالأعشـاب. فقد أشـار ابن العوام أنه لما نريد حفر بئر يمكن أن نستعين ببعض النباتات أو حسب لون التربة في السطح. كما جاء في كتاب الفلاحة النبطية: «أن الجبال عندما تكون تحتوي على الميـاه تظهر الـرطوبـة على سطح التربة في السـاعات الأولى من اليوم أو في السـاعات الأخيرة منـه. وإذا كانـت نسبة الميـاه قليلة في أعماق الأرض فإن نسبة الرطوبة تقـل على السطح، أو يكون لون التربة أصفر أو يميل إلى البيـاض. يستنتج في كلتـا الحالتين انعدام الميـاه في الأعماق»،(85) ونفس الإشارة ذكرها ابن بصال كذلك.(86) إلا أن الملاحظ أن هذه الطرق لا تطبق بمنطقة مـدغرة، حقيقة أن حفـر الآبار يتم بمدغـرة في شـهر غشت وهو ما يوافق رواية ابن بصال. غير أن الطريقة المستعملة تختلف تماما عما أورده ابن بصال. ونعتقد أن السبب في ذلك راجع إلى اختلاف البيئات، فابن بصال يتحدث عن البيئة الأندلسية ذات المنـاخ الرطب. أما مدغرة فقد سبق أن أشرنـا أنها تتميز بقسـاوة المناخ والبيئـة الغير الملائمين. من هنا جـاءت تقنيات تحديد مواقع الماء والتنبؤ بأحوال السنة القادمة مغايرة تماما لرواية ابن العـوام وابن بصـال، وهي على هـذا الأسـاس استجـابـة للظـروف الإيكولوجية المحليـة المتميزة. فقد كانت قبائل أيت مرغـاد الرحالة تستعمل طريقة «النّسرِيـتَـةْ» أو «تَـنَـسْـرِيتْ» بالنطق البربـري لمعرفة أحوال الجو خلال السنة القادمة هل هي جدبـاء أو ممطرة. وتقضي هذه الطريقة بوضع شيء من الصـوف بأعلى قصبـة وتترك قـائمـة من بعـد الـزوال من أيـام السمائم حتى فجـر اليـوم الموالي، وتفتش فإذا كـانت رطبـة وبها شيء من

84) الأراضي الجافة : م. س ص 215.

85) Iben Al Awam : Kitab Al Filaha. op cit. t I p 121.

86) ابن بصال : كتـاب الفلاحة. نشره وتـرجمه وعلق عليه طوسي ماريـة مياس بييكروسـا ومحمد عزيمان ص ص 175 – 176 معهد مولاي الحسن تطوان 1955.

الندى فإن ذلك دليل على أن السنة القادمة ممطرة. وإن وجدت جافة يابسة فإن ذلك دليل على جدب السنة القادمة، مما يضطرهم إلى الرحيل إلى مناطق أكثر خصبا.

وبمدغرة كانت التقنية المستعملة للتعرف على وجود الماء في باطن الأرض أو عدم وجوده أن يأتي الرجل حافي القدمين عاري الرأس. ويقف متباعد الرجلين ماسكا بعصا من فصيلة شجر الزيتون مما يصطلح عليه محليا «بالتْفَرْكَةْ» ويظل الرجل يتنقل بين المناطق التي يظن أنها تحتوي على الماء في باطنها. فإذا تحركت «التْفَرْكَةْ»، إلى درجة أنها أحيانا تفقد الرجل توازنه. فإن ذلك دليل على وجود الماء في باطن المنطقة التي أجريت فوق سطحها هذه العملية، وإذا لم تتحرك العصا فإن ذلك مؤشر على عدم وجوده وقد ظلت هذه التقنية متداولة حتى الوقت الحاضر في حفر الآبار.

يعبر عن البئر بلهجة المحليين بمدغرة بلفظ «الحاسي» دون أن يكون هناك تمييز بين البئر التي تحفر بالقصر أو الدار بغرض توفير الماء الشروب والتي – أي البئر – تحفر بالغابة بغرض سقي الأراضي الزراعية بواسطة تقنية أغرور، ونميز ما بينهما «بحاسي أغرور» و«حاسي الجامع أو الدار»، والفرق الوحيد الموجود بينهما أن البئر الثانية – أي بئر الجامع أو الدار – تبنى على جنباتها بالحجارة والطين من أسفلها إلى أعلاها، وهو ما يصطلح عليه «بالتّنُّورْ» وهذه البئر مربعة وعميقة نسبيا مقارنة مع البئر المخصصة لأغرور. بسبب وقوعها في مناطق عالية ومرتفعة نسبيا، لأن بناء القصر يتم في الغالب في مناطق عالية لتوفير المساحات الزراعية وكذلك للإشراف على الغابة قصد المراقبة. أما بئر أغرور أو «حاسي أغرور» فهي حفرة غير مرصوفة ويتراوح عمقها ما بين 10 و20 مترا.

إن الأدوات المستعملة في تقنية أغرور تعتبر واسعة الانتشار بمجالات زيز، فهي لا تقتصر على واحة دون أخرى. فإلى جانب البئر هناك الحفرة المخصصة لحركة الحيوان أثناء قيامه بعملية جر الدلو، وهي على شكل مستطيل. وتعرف محليا باسم «الصْنِيفَةْ»، ويكون انحدارها متدرجا في

اتجاه نهايتها. يبلغ طولها أكثــر من عمق البئر بشيء قليل أما عــرضـها فلا يتجاوز ثلاثة أمتار.

يصنع الدلو غالبا من جلد الجمال وأحيــانا من جلد البقر والماعز. ويبلغ طوله مترا واحــدا، أما حجمه فيتسـع لما بين 20 و30 م^{3} من الماء.(87) ويربط الدلــو بحبلين يشد الأول إلى فتحــة الدلــو العليا والثــاني إلى فتحته السفلى. وذلك بغرض تسهيل عملية ملأ الدلو بالماء داخل البئر وصعوده إلى أعلاها، كما يسـهل الحبلان عملية إفراغ الماء في الصـهريج.(88)

وتتخــذ الجرارة التي كــانت تصنع في القـديم من الخشب(89) موضـعا وسطا في أعلى البئر بين قطعتين خشبيتين تسمى «الْحنَاكْ»، تتكئ كل منهما على قطعة خشبية أخــرى توضـع بطريقة عمــودية على ساريتين من الطين. تنتصب كل واحدة منهما على جانب مــن جوانب البئر. وفي الجزء الأعلى من الحنــاك يــوجـد عمــود خشبي يــوضـع في الجانب الآخــر من البئــر يسمى «الساري»، والغـرض من وجوده في الجانب الآخر هو ضمان وثبــات رسو الحناك.(90)

إذا تفحصنـــا هــذه الأدوات المستعملة في تقنيــة أغــرور نجـد أنها أدوات وليدة البيئة المحلية. فقد استخدم رجل الواحة وسائل وأدوات متنوعة يمكن وصفها بأنها أدوات بدائية، لكنها من غير شك كانت أنسب الأدوات للزراعة ولظروف البيئةالجافة. فبجلــود البقر والجمال والماعز صنع الإنسان المحلي الــدلــو، وبجلــد الخروف صنع «الشكــاوي»، وهـي على العمــوم حيــوانــات متــواجدة بكثـرة في النطــاقــات ما قبل الصحــراويــة. كما أن خشب النخيل والصفصاف المستعمل في تقنية أغرور أو ما يصطلح عليه محليا «بالتركيب» موجــود بكثرة في الواحات. وكل هــذا يدفع إلى الاعتقاد أن هــذه التقنية هي استجــابة لظــروف البيئة القــاسية بل هـي تحدي لها، وهـي إلى جــانب ذلك «ثورة في التقنيــة المحلية». من هنا لا مجال لــلاستئناس بــآراء أولائك الذين

Fauré (R) : le tafilalet. op cit. p 45. (87

hydrologie agricole du sahara. op cit. p 3. (88

89) أما في الوقت الحاضر فتصنع من الحديد.

90) سجلماسة وإقليمها م. س ص ص 70 – 71.

اعتقدوا أن المناطق التي كانت خارجـة عن السيطرة الرومانية، ظلت متخلفة في وسائل الري،(91) وما توصلنا إليه في هذا البحث يؤكد ذلك، بل الأجدى أن نجاري ما ذهب إليـه شارل أندري جوليان الذي قـال: «إن الرومان لم يلقنوا البربر أساليب الفلاحة».(92)

وإلى جانب هـذه التقنيات الأسـاسية في رفع الماء وتحويلـه والاستفادة منه، هناك أساليب أخرى إلا أنها لا تستعمل إلا في النادر. فهناك «الكَلتات» التي هي في الواقع بقايا للميـاه الفيضية في مجرى الوادي، وأغلبها يقع على السدود الحجريـة المعدة لتحويل الميـاه النهرية نحو الحقـول الزراعية.(93) وإلى جانب الكَلتات هناك الحفاري ج حفرة وهي الأحواض التي يتم حفرها بجانب القصور بغـرض التموين بالماء. إلا أننا نـلاحظ أن الحفاري بمنطقة مدغرة يؤخد منها التراب لـركز الدور أو لنقله إلى المزارع، وهذا تمييز محلي خاص بمنطقة مدغرة. إلا أنه لابـد من التمييز بين الحفاري و«الْـحَـوَارِي»، فالحفاري توجد خارج القصور بينما نجد الحواري داخل القصور لا سيما القصور التقليدية القديمة. كما هو الحال بقصر تاوريرت بمدغرة، فقد ورد في مخطـوط فتح القدوس أن مـولاي عبـد الهادي بن عبد اللـه بن علي بن طاهـر كان يـوما بباب قصر تـاوريرت مع جماعة مـن أشراف أهل تعرمت وجلس هنـاك مستقبلا القبلـة نـاحية الشرق، وكـان قبل ذلك حج وجـاور المدينة المشرفة فقال له. بعض الجالسين ما كنت تفعل وقت سكناك بالمدينة في هذا الـوقت ؟ وكان ذلك الـوقت وقت الضحى. فقال لهم رضي اللـه عنه كنت في هـذا الوقت أصلي على النبيﷺ... فأغمي عليـه في الحين حتى خيف عليـه من الوقـوع في حفير القصر.(94) وهـذا النص يقيـم الـدليل على أن الحفاري كانت توجد خارج القصور بمدغرة. ومن جهة أخرى يجب التمييز

---

91) sherwin (W) : gèographie Factors. in Roman, Algeria 1949. pp 8 - 10.

92) شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية. م س ج 1 ص 205.

93) Margat (J) : l'alimentation en eau potable des populations de la plaine du tafilalet. in N.M n° 13 1960 p 105.

94) مولاي علي بن المصطفى المدغري : فتح القـدوس القاهر في نسب أبا محمـد عبد الله بن علي بن طاهر. مخطوط خاص يوجد بخزانة العلامة المرحوم ابا سيدى بن التهامي العلوي ص 10.

بين الحفاري وأحفير، فهذا الأخير كان يستعمل لأغـراض أمنية دفاعية. فقد كان الأهالي بقصر تاوريرت حسب ما تذكره الرواية الشفوية يملأون أحفير بالوحل وَيُـــدَرَّى فوقه التبن لعرقلة وصـــول المهاجمين إلى القصر، كما كان أحفير بالإضافة إلى ذلك يستغل لأغراض البناء.

إنه بالنظر إلى الموقع الفريد لواحات زيز الأوسط وضمنها منطقة مدغرة بظروفه البيئيــة القاسية وعنف مناخه وضيف مساحــات أراضيه الصالحة للزراعة، الشيء الـذي سينعكس لا محالة على كمية ونمط إنتـاجه، وهذا على العموم ما سنحــاول توضيحه في الفصول اللاحقــة. لأن الموقع هو محصلة العلائق المكـانية وتـاريخ منطقة زيــز الأوسط، وهو انعكـاس لقيمة الموقع ووزن الموضـع: موضـع برزخي تمتد إليه الطرق وموضـع واحي غني بفضل حموله نهر زيــز. وهذا يعني أن واحــات زيز الأوسط (الخنكَ - مــدغرة - الـرتب) رغم عيـوب المناخ والبيئــة فإنــه على الأقل تنتفى عنــه مواصفــات المنــاطق الفقيرة التي قال عنهــا بـروديل إنها: «...منــاطق فقيرة بدون مــاء تنعدم بها العيون والأنهار والأشجــار وتحمل غطاء نباتيــا هزيلا... ويعتبر الخشب فيها مادة نادرة جدا».(95)

95) Breaudel (F) : le méditerannée et le monde mediterranen. op cit. t 1 p 158.

الباب الثاني :

السكن والسكان وتقسيماته بمدغرة :

الفصل الأول :

مدغرة وموقعها من حوض وادي زيز :

الفصل الثاني :

السكن بواحة مدغرة :

الفصل الثالث :

البنية البشرية لمدغرة :

الفصل الرابع :

الشرفاء :

الفصل الأول :

مدغرة وموقعها من حوض وادي زيز

مقدمـــة :

1 ـ الموقع والحدود :

2 ـ مدغرة :

3 ـ مدغرة وطرق القوافل :

الباب الثاني :

الفصل الأول :

مدغرة وموقعها من حوض وادي زيز

مقدمـــــة :

يطلق تجاوزا اسم تـافيلالت على مجمـوع المناطق الـواقعة على ضفـاف مجرى وادي زيز وغـريس وتدغة وجـزءا من مناطق وادي كَير. أي الإقليم الممتد جنوب مضيق جبـل تاغيا (مضيق الخنكَ بالكـاف المعقودة) إلى قرب جبل صاغـرو وسبخة بومعيز ومـا إليها.(1) وبذلـك كان معنى تافيـلالت يعني إقليم سجلماسة الذي قال عنـه الوزان خلال القرن 10هـ / 16م إنه: «يمتد على طـول وادي زيز ابتداء من الخنكَ من المضيق القريب من مـدينة غارسلوان ونزولا نحو الجنـوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا»،(2) كما جـاء في النصـوص القـديمـة. ورغـم كل ذلك فإن التقسيم الذي سنعتمـده في عملنا لإقليم سجلماسـة القديم نلمسـه بارزا في وقتنا الحاضر. من خلال التقسيمات التالية الآتية: الخنكَ – مدغرة – الرتب – تيزيمي – الجرف – السفالات – وادي افلي.(3) في حين أن لفظ تافيلالت في الـوقت الحالي لا يدل على هـذا المجـال الواسع، وتقتصر دلالتـه فقط على الواحة الموجودة بـاقتراب مجرى وادي زيز ووادي غريس، والتي احتضنت في الماضي مركز سجلماسة التجاري والسياسي المشهور.(4) وهو ما يمكن أن

---

1) محمد بن الطيب القادري : التقاط الدرر ومستفـاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر. تحقيق مولاي هـاشم العلوي القاسمي. ص 99 هامش 2، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت 1983م.

2) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص ص 121 – 140.

3) التقاط الدرر : م. س، ص 99 هامش 2.

4) العربي مـزين : مذكرات من التراث المغربي المجلـد الرابع، ص 4. مجموعة يشرف عليها الأستاذ العربي الصقلي.

نحدده حاليا بالمنطقة الممتدة جنوب تيزيمي إلى قصر تِينْغْرَاسْ وأهم مراكزها اليوم: أرفود – الريصاني والجرف.(5)

إلا أنه لابد من التذكير أنه بعد مرحلة القرن 10هـ / 16م استبدل الإسم سجلماسة بلفظة تافيلالت. فالحسن الوزان الذي ألف كتابه: «وصف إفريقيا» في النصف الأول من القرن 10هـ / 16م لم يستعمل قط لفظ تافيلالت، وإنما ذكر تلك المناطق باسم عاصمتها القديمة سجلماسة. وبهذا يكون هذا التغيير الذي لحق التسمية قد ظهر بعد الفترة التي عاش فيها الوزان، إذ أن استعماله بكثرة لم يتداول في مصادر تاريخ المغرب إلا في العهد السعدي. ونعتقد أن لفظ تافيلالت شاع بعد تخريب المدينة «سجلماسة».

وموضوع البحث الذي يهمنا بالدراسة هو الإطار الجغرافي الذي أصبح يعرف مكانيا باسم مدغرة نسبة إلى القبيلة، الذي هو أحد المناطق المرتبطة بإقليم سجلماسة القديم.

تندرج مدغرة ضمن ما تسميه الأسطوغرافية المغربية القديمة بلاد القبلة.(6) لأنها أولا توجد في الجنوب، وهي ثانيا الطريق المؤدية إلى الشرق وطريق الحجيج المغربي. والقبلة هو اصطلاح واسع لأنه لا يدل فقط على منطقة مدغرة بل يشمل كذلك مجمل الواحات التي يتشكل منها إقليم سجلماسة، وأحيانا واحات درعة.

كما تندرج مدغرة أيضا ضمن ما تسميه المصادر بلاد الصحراء(7) والقبلة. وهو كذلك تحديد واسع وغير دقيق، على اعتبار أن كل المناطق الواقعة جنوب الأطلس الكبير والصغير تدخل ضمن هذه المفازة الواسعة. مما سبب في اختلاط وتداخل أخبار هذه الواحات في روايات المؤرخين وكتب

---

5) لحسن حافظي علوي : سجلماسة م. س، ص 78.

6) القبلة في اصطلاح الجغرافيين العرب القدامى هي الجنوب، لأن العرب الذين فتحوا المغرب كان أكثرهم من أهل الشام والقبلة جنوبهم، فأطلقوا على الجنوب لفظة القبلة وتبعهم أهل المغرب رغم أن قبلتنا هي الشرق. انظر: أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب لأبى عبد الله محمد بن أحمد القيسي. تحقيق محمد الفاسي، فاس 1968، ص 106 هامش 1.

7) تعبير الصحراء يعني ما وراء جبال الأطلس جنوبا.

الجغرافيـة والرحـلات العربيـة لهذه المناطق على أكثر مـن مستوى. وجعل أخبارهـا مبهمة ومتداخلـة، لدرجـة يصعب معها التمييز بينما هـو خاص بمدغـرة، وما هو خـاص بالمناطق الأخـرى لا سيما تافيلالت، خـاصة وأن منطقة مدغرة كانت جزءا من إقليم سجلماسة باعتباره إقليما جبائيا مستقلا في فترات عديدة من التاريخ المغربي.(8) فما موقع مدغرة من حوض وادي زيز؟ ومـاذا يعني لفظها؟ وكيف اتسمت صـلاتها بطرق القوافل التجـارية والمناطق المغربية الأخرى؟

1 ـ الموقع والحدود :

تشكل منطقة مدغرة إحدى واحات إقليم سجلماسة الذي يمتد على طول وادي زيـز، من منطقة الخنكَ القـريب من مدينـة غارسلـوان ونزولا نحـو الجنوب على مسـافة مـائة وعشرين ميلا.(9) والـواقع أن إقليم سجلماسـة الذي تحدث عنه الوزان يشتمل على سلسلة من الـواحات المتناثرة على طول وادي زيـز. وتختص كل واحـدة منها بـاسم خـاص، من أهمهـا: الخنكَ – مدغرة – الرتب – تيزيمي – الجرف – السفالات ووادي إفلي.

من خلال تفحصنا للمادة العلمية التي استطعنا جمعها لا سيما المتعلقة منها بـالمرحلة الإسلاميـة الأولى نلاحظ أن أصحاب هـذه المؤلفات اقتصروا على ذكر اسم هذا الإقليم – مدغرة – دون أن يحددوا مجاله وحدوده، وهذا ما نستشفه من إشارات ابـن عذراي في بيانه(10) وابن خلدون في عبره(11) وغيرهما من تـآليف هذه المرحلـة. ولن يبدد هـذا الغموض إلا مع المرحلـة

8) محمد المنوني : ورقـات عن الحضارة المرينية، ص 91، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط 1979.

9) لما كان الميل حسب روايـة الدكتـور محمد عبد الستـار عثمان هو 1848م، انظر الإعلان بأحكام البنيان، لابن الـرامي. دار المعرفـة الجامعية مصر 1988م ص: 168. فإن المسافـة الفاصلة بين مضيق الخنكَ وسجلماسـة هو 1848 × 120 = 221760م مما يسـاوي 750.221 كلم، وهي مسافة بعيـدة كل البعد عن المسافة الحقيقيـة التي لا تتجاوز 145 كلم. مما يعني أن تقـديرات أصحاب الرحلات هي تقديرات اعتبارية فقط.

10) ابن عـذاري المراكشي : البيان المغـرب في أخبـار الأندلـس والمغرب. تحقيق ج. س كـولان، ليفي بروفانسال، دار الثقافة بيروت لبنان 1948. ج 1 ص 222.

11) عبد الرحمان ابن خلدون : العبر ج 6 ص ص 157 – 158.

الحديثة، وذلك مـرتبط – على ما نعتقـد – بالـدور الذي أصبح يلعبـه هذا الإقليم في صنع أحداث تـاريخ المغرب في قسمه الجنوبي الشرقي منـذ هذه الفترة.

فإذا كان الـوزان الذي زار المنطقة خـلال القرن 10هـ / 16 م لم يشر بكثير من التدقيق إلى حـدود مدغرة، بل اكتفى بالإشـارة إلى أن هذا الإقليم يتـاخم إقليم الخنكَ في اتجاه الجنوب. قـال: «مضغـرة دائرة أخرى تتـاخم السـابقـة – أي الخنكَ – في اتجاه الجنوب. خـارج المضيق، وتحتـوي على قصور عديدة على وادي زيز وأهمها القصر المسمى هلال».(12) وهذا يعني حسب رواية الوزان أن إقليم مدغـرة يحد من ناحية الشمال بمنطقة الخنكَ. إلا أنه لم يشر إلى حدوده الجنـوبية، وهو ما أفـادنا به مارمـول الغرناطي. حيث أشار إلى أن إقليم مدغرة ينحصر ما بين منطقة الرتب أو الرطم حسب تعبيره. وهذه الدائرة الأخيرة حسب مارمول تبتدىء من شعبة اللحم – أي عند انتهـاء مجال مدغرة لقاء الجنـوب – إلى بداية منطقة «إيـردي» المنطقة الرملية الجرداء.(13) ومنطقة الخنكَ شمالا أو ما عبر عنـه مارمول بمنطقة كنانة. قال: «يوجد هذا الإقليم – أي إقليم مدغرة – شمال الإقليم السابق – يعني الرتب، ويتـاخم إقليم كنانة شمالا في المنطقة المؤديـة إلى مملكة فاس. تقع معظم قراه ومداشره بجانب هذا النهـر، وأهمها بلدة هلالة مقر الحاكم العربي».(14) وهو ما يمكن أن نحدده حاليا من جنوب منطقة الخنكَ – أي جنوب جبل تاغيـا بمعنى المضيق – إلى قرب شعبة اللحم(15) جنوب العين الزرقاء لمسكي. أي على مسافة 35 كلم من الشمال إلى الجنـوب على امتداد وادي زيز.(16)

---

12) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123 ،نقله عن صاحب أحسن التقاسيم.

13) التقاط الدرر : م. س، ج 2 ص 137 هامش 5.

14) مارمول : إفريقيا ج 3 ص 155، وفردي هلال يـوجد بالمزرعة أي «الغابـة» الواقعة بين قصري أولاد أبي ناجي وأولاد الحاج، وهذا ما سنحاول توضيحه في الفصل اللاحق أنظر الصفحة 180.

15) تسمى بشعبة اللحم وكذلك شعبة الروح، وتذكـر الرواية الشفوية أن سبب تسميتها بهذا الاسم هـو أن أيت عطة كـانوا يغيرون على منطقـة قصر مسكي واستنجـد أهل تازنـاقت بأيت عيسى ووقعت بينهم معركة عظيمة سقطت فيها أرواح عديدة وسميت هذه الشعبة كذلك.

16) التقاط الدرر م.س، ص 99 هامش 1.

لكن إذا كانت حدود إقليم مدغرة من الجنوب إلى الشمال بارزة المعالم فإن الغموض يكتنف حدودها من الشرق والغرب. فقد كانت منطقة مدغرة خاضعة من الجهة الشرقية والغربية لنظام حريم القبائل الذي يحدد بموجبه المحتطب والمرعى. وبناءا عليه يمكن تحديد حدود منطقة مدغرة من الشرق إلى الغرب على مسافة مسيرة يوم واحد عادي، يكون فيه التساوي ما بين الليل والنهار. بمعنى يوم خريفي أو ربيعي - أي يوم معتدل - وهو ما يمكن أن نحدده اليوم من جبل «أَفَــرْدُو» غربا إلى حدود الجبل المسمى «أَمَسْــدُورْ» شرقا، أي على مسافة عشرين كلم من الشرق إلى الغرب. ويبدو أن هذا التحديد من الشرق إلى الغرب لمدغرة لم يكن ثابتا بل كانت الظروف تتحكم فيه، وكان يتغير بحسب قوة أو ضعف منطقة مدغرة. فإلى عهد قريب منا تذكر الحافظة الشعبية المحلية أن أهل مدغرة كانوا على خلاف مع أهل عين الشواطر بخصوص مجال امتداد محتطب مدغرة من الجهة الشرقية، حيث كان أهل مدغرة يودون إيصاله إلى عين الشواطر. انطلاقا من التحديد أعلاه يظهر أن مدغرة كانت تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية الممتدة على وادي زيز. فهي ترتبط بواحة الرتب عن طريق ممر شعبة اللحم ومنها بتافيلالت وسائر الأصقاع الصحراوية الأخرى، مما له بالغ الأهمية في ربط منطقة مدغرة بواحات تافيلالت وتوات وبالتالي السودان الغربي. لأن الرتب لم تكن تشكل حاجزا طبيعيا أمام استمرار التواصل، بل هي قبل كل شيء ممر ملائم لتدعيم العلاقات المختلفة بين منطقة مدغرة وما يواليها من مناطق لقاء الجنوب. وأن ما كان يقف في وجه هذا التواصل هو سيطرة قبائل المنابهة المعقليين خلال القرن 10هـ / 16م. وفي زمن متأخر عن مرحلة الدراسة، قبائل أيت عطة الصنهاجيين. مما كان يعرقل عملية تنظيم واستمرار التواصل بوجه عام. لأن هذه القبائل المهيمنة لم تكن تكتفي بفرض الضرائب على القوافل التجارية المترددة بين الشمال والجنوب، بل كانت تسيطر على ساكنة قصور الرتب. فقد أشار الوزان أن الرتب هي أيضا: «دائرة تتاخم مضغرة وتمتد على طول وادي زيز شطر الجنوب على مسافة خمسين ميلا إلى إقليم سجلماسة. وبها عدد لا يحصى من القصور وبساتين النخيل، والسكان خاضعون للأعراب بخلاء

خاضعون للأعراب بخلاء جداء. لا يقدر مائة من خيرة فرسانهم على مجابهة عشرة من فرسان الأعراب، يخدمون أراضيهم كما لو كانوا عبيدا لهم. وتتاخم هذه الدائرة من الشرق جبل غير مأهول. ومن الغرب سهلا خاليا رمليا يخيم فيه الأعراب عند عودتهم من الصحراء».(17) وأضاف مارمول أن هؤلاء الأعراب لا يقومون بعملية نهب هذه القصور إلا عند ضعف السلطة المركزية. قال: «...ويتحينون الفرص لابتزاز أهالي الإقليم إذا ما تبين لهم أن السلطات الحاكمة غير قادرة على منعهم من ذلك».(18)

إذا كان مارمول قد أورد نفس المعلومات التي ذكرها الوزان إلا أنه أضاف أن المتسلطين على قصور الرتب لا ينحصرون فقط في قبائل المنابهة المعقليين، كما جاء في رواية الوزان. لكنه أشار إلى قبائل أيت غريس.(19) وهي إشارة واضحة إلى المد العطاوي وحلفائه أيت مرغاد الذي اكتسح هذا الإقليم منذ النصف الثاني من القرن 16م. فقد اهتدى مؤرخ الأحلاف القبلية المغربية مولاي التقي العلوي المدغري إلى أن اتحادية أيت عطاء لا ينحصر نفوذها في المربع الممتد من مرتفعات الأطلس شمالا وحوض درعة غربا وواحات تافيلالت شرقا وجنوبا الصحراء، التي هي أصل مددهم وينبوع عناصرهم ومنطلق تحركاتهم، بل هي منتشرة في جميع مجتمعات صنهاجة الجنوب وغيرها بالأطلس وخارجه.(20) وبذلك يمكن تحديد مناطق نفوذهم من توات شرقا إلى جبل باني غربا، ومن درعة إلى بلاد أيت يوسي من الجنوب إلى الشمال. وتندرج ضمن هذا الإطار الجغرافي منطقة الرتب التي شكلت إحدى الجهات التي خضعت للسيطرة العطاوية.

وإذا كنا لا نستطيع تحديد تاريخ وصولهم إلى منطقة الرتب إلا أنه بالنظر إلى زمن تأليف كتاب «إفريقيا» لمارمول الغرناطي، يظهر أن البداية الأولى لتمركز القبائل العطاوية ومن يدور في حلفهم تعود إلى النصف الثاني

---

17) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 124.

18) مارمول : إفريقيا، ج 3 ص 154.

19) مارمول : إفريقيا، ج 3 ص 154.

20) التقي العلوي : أصول المغاربة القسم البربري. مجلة البحث العلمي، عدد 23 سنة 1974 ص 117.

من القرن 16م. فقد ورد اسم أيت عطـاء لأول مرة في التـاريخ بعد تأسيس الاتحاد بواحـد وعشرين سنة وذلـك حوالي 978هـ / 1570م عند مارمول الغرنـاطي الذي يظهر أنـه شارك في حملة من حملات الصحـراء، التي كان يقوم بها السعـديون. وقد نـوه بشجاعتهم وقوتهم وفـروسيتهم وكفاءتهم الحربيـة، وتلك صفـات تزكيهـا كثـرة صراعاتهم المريـرة مع جميع قبـائل الجنـوب خصـوصـا مع أشقـائهم أيت يفلمان. ومع كل هـذا يبقى هـذا الافتراض باهت لا سيما مع غياب أي نص صريح عن ذلك. إلا أن الأكيد أن الإجتياح العطـاوي لقصور الرتب بـدأ منذ نهاية النصف الثـاني من القرن 18م وبداية 19م. فقـد ذكر الأستـاذ العـربي مزين اعتمادا على روايـة أبي القاسم الزياني في ترجمانه(21) أن أيت عطة احتلت قصـور تافيـلالت منذ سنة 1198هـ / 1783 ـ 1784م، وأن السلطـان سيدي محمـد بن عبد اللـه دفعهم عن مدغـرة والرتب وقصر السوق وأولاد عيسـى خـلال نفس السنة المذكورة أعلاه، على حد رأي الضعيف.(22) ومعلوم أن هذه القصور كانت معمورة من طرف الشرفاء وفصائل من عرب المعقل: عرب الصباح – روحة – البلاغمة – المحارزة إلى حدود القرن 17م بل وحتى القرن 18م. مما يعني أن الكلكلة العطـاوية بـدأت منذ مـرحلة ضعف الحكـم المركزي بعـد غياب شخصية السلطان مولاي إسماعيل القوية.(23)

وقـد كان أيت عطـة مصدر تعب وفـزع لسكان الـواحات والجبـال من مناطق توات إلى جبل باني، ومن بـلاد وادي درعة إلى بلاد أيت يوسي.(24) وهذا ما توضحه الرسـالة الجوابية للحسن بن مسعود اليوسي إلى السلطان المولى إسماعيل والمؤرخة بسنة 1096هـ / 1686م. حيث تشير هذه الرسـالة

---

21) أبو القـاسم الـزياني : نشره هوداس تحت عنـوان: المغرب مـن سنة 1631، إلى 1812 ص 84. أيرنيست لورو، باريس 1881.

22) محمـد الضعيف الربـاطي : تاريخ الـدولـة السعيدة (تـاريخ الضعيف). تحقيق أحمد العماري الرباط 1986، ص 184.

23) Mezzine (L) : tàqquit de Ait Atman. in H.T vol XIX fasicule unique هامش 19 .1980-81 p 93.

24) التقي العلوي : أصول المغاربة، م. س ص 118.

إلى تسلط هـــذه القبـــائل وقطع الطـريـق وبسط النفـــوذ على الـــواحـــات الصحراوية، وضمنها واحة الرتب.(25) قـال: «... وأما قطع الطـريق فإنما كان في أيت عطاء وذلك ديدانهم من قديم الـزمان... وما تركوا ذلك قط ولا دخلوا في الطـاعة دخول غيرهـم وإنما يخادعون تارة على التمـر وتارة على الزرع، وسرياهم سـارية في كل أرض من هاهنا – يعنـي بلاد أيت يوسي – إلى درعة لا في هذه الأرض وحدها، ومـا تحركوا هنا حتى قضوا الغرض في الصحراء. فقتلوا الفقراء من أولاد من لا يخاف(26) خارج النخل واستباحوا تلك البلاد كلهـا كما بلغكم. فلا يسافـر أحد إلا على خطـر وكم أغنام نهبت لأهل الرتب وكم قافلة وكم جريح وكم قتيل....».(27)

كما ترتبط مدغـرة شمالا بمنطقة الخنكَ أو ما عبر عنه مـارمول بإقليم كنانة: «التي تشكل إقليما آخر من نوميديا. يخترقه نهر زيز ويحده الأطلس الكبير شمالا وإقليم مدغرة جنوبا، وتوجـد به عدة قرى ومداشر كان أهلها قديما خاضعين للأعراب أو لحكام غريس العيون.(28) أما غيرهـم من الأهـالي الـذين كانـوا يقطنون شمال الإقليم فكـانوا يتمتعـون بحريتهم ويبسطـون سيطرتهم على الطريق الرابطة بين فاس وسجلماسة، ويستخلصـون مكوس المرور من التجار والقوافل».(29) ويضيف الـــوزان أن إقليم الخنكَ يشتمل على ثـلاثـة قصور رئيسيـة التي هي بمثـابـة ممرات طبيعيـة ذات أهميـة استراتيجية كبرى، لأن عبرها كان يتم التواصل بين مدغرة وأقاليم الشمال. قال: «وبهذا الخنكَ ثـلاثة قصور رئيسية. الأول يسمى زَعْـبَـلْ(30) ويقع

---

25) هم أهل الترتيب الـذين يجمعون ضريبـة الترتيب المفـروضة على الفـلاحين. والمقصود هنـا هي مقاطعـة جغرافية تلي منطقة مـدغرة جنوبـا ابتداءا من شعبة اللحم إلى منطقة «إيـردي» المنطقة الرمليـة الجرداء، ويعتبر الرتب قيـادة خاصة تـابعة لعمالة الـرشيديـة ومركزهـا الإداري هو أوفوس في الوقت الحالي.

26) زاوية توجد بتافيلالت.

27) فاطمة خليل القبلي : رسائل أبي علي لحسن بن مسعود اليوسي. مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1981. ص ص 211 – 212.

28) يعني غرسلـوين وهي ترجمة خاطئة، ولا عجب في ذلـك فالأمر يتعلق برحـالة أجنبي لا يضبط جيدا أسماء الأماكن المغربية.

29) مارمول : إفريقيا، م. س، ج 3 ص 155.

30) يوجد هذا القصر عند الممر الذي ينسب إليه حاليا «غار زعبل» على الضفة اليمنى من وادي زيز.

على أعلى صخرة عند مدخل الخنَك. كما أنها تبلغ السماء طولا لشدة علوها، ويقف في أسفل الصخرة الحرس الذي يستخلص واجب المرور وهو ربع مثقال للحمل. ويسمى القصر الثاني كَسْتْرِينْ،(31) ويقع على بعد خمسة وعشرين ميلا(32) من السابق. إلا أنه على منحدر الجبل تقريبا في السهل، وهو أشرف وأغنى من الأول. والثالث يسمى تَمَرَّاكَشْتْ(33) ويقع على بعد نحو عشرين ميلا من كستريت على الطريق الكبرى».(34)

يظهر من كلام الوزان ومارمول أن منطقة الخنَك كانت ذات أهمية كبرى في ربط أو حبس الاتصال ليس فقط بين مدغرة وشمال الخنك، بل وأيضا بين المغرب الجنوبي والمغرب الشمالي. حيث نلاحظ أن الصعوبة لا تكمن فقط في الحواجز الجبلية والخوانق الضيقة بل كذلك في سيطرة الأعراب على هذه المناطق. وهذه الوضعية البيئية الفريدة هي التي أضفت على هذه المنطقة سمة الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية باعتبارها قناة مرور إجبارية للقوافل والتجار والرائدين بين جنوب المغرب وشماله.

إن المراقبة الصارمة التي كانت تمارسها القبائل الأعرابية على هذه القصور والممرات المؤدية إليها لها ما يبررها. فإقليم الخنَك هو قبل كل شيء إقليم فقير من حيث الإنتاج الفلاحي، وهذا ما نستشفه من كلام الوزان. قال: «يتاخم الخنَك جبال الأطلس ويشتمل على عدة قصور ومداشر وبساتين نخل صغيرة. الأراضي الزراعية فيه هزيلة ضيقة، إنما هي عبارة عن شرائط على حافة النهر على قدم الجبل لا يسع أحيانا مرمى حجر، ويزرع فيها قليل من الشعير».(35) ومن ثم نفهم لماذا نعت الوزان هذه

---

31) يحتمل أن يكون «كْسَا أُورِينْ» بالبربرية ومعناها مكس الجبل. أي إعطي ضريبة الجبل.

32) هذه المسافة تقديرية اعتبارية فالميل يساوي 1848م وهذا يعطي 1848م × 25 = 46200م. مما يناسب 200.46 كلم، وهو رقم لايتناسب مع المسافة الحقيقية التي هي أقل بكثير من هذه المسافة التقديرية.

33) أحد القصور التي توجد إلى الشمال من قصر أيت عثمان، والكلمة مصمودية بربرية. فقد جاء في البيان المغرب ج4 ص 123 كما هو الشأن كذلك بالنسبة للمعجب للمراكشي ص 48 هامش 1 أن اسم مراكش معناه بلغة المصامدة «إمش مسرعا» لأن الموضع الذي أطلق عليه هذا الاسم كان مأوى للصوص. ومن اسم مراكش اشتقت كلمة تمراكشت. الموجودة بالخنَك.

34) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 122.

35) الوزان وصف م. س، ج 2 ص 122.

المنـاطق بالبـؤس والفقـر لدرجـة جعلت سكـان هـذه الجهات يلجئـون إلى التســول. إلا أنه مع ذلك لابـد من الإشـارة إلى أن ظـاهرة الفقـر هاتـه التي تحدث عنها الوزان لم تكن عامة.

فقـد ميز هـذا الأخير بين المنطقة الشماليـة والجنـوبية من هـذا الإقليم، فسكان الشطر الجنوبي من إقليم الخنكَ كانوا أغنياء، لأنهم كانوا يسيطرون على الطريق المؤدية من فاس إلى سجلماســة ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مرتفع.(36) ومعلوم أن وجـود الإنسان بـالمضيق لم يكن للإقـامة بل لأخذ ضريبـة المرور فقط، ومن تم كان مضيق زعبل بمثـابة مجمع للتمثيل القبلي. في حين كـان سكـان الشطـر الشمالي خاضعين لـلأعـراب أو لمدينـة غارسلوان وهم فقراء لحد أنهم أصبحوا يتسولون.(37)

فالشريط السهلي لإقليم الخنكَ الممتـد على طول وادي زيز كـان لا يعول إلا عـددا قليلا من السكـان. لذا كـان لـزاما على هـذه الجموع التعـاطي – وبالضرورة – إلى حرفة الـرعي لتقويم النقص الحاصل في المردود الزراعي. وفي هذا الصدد أشار الـوزان: «أن لديهم كثيرا من الماعز»،(38) وهذا يفضي إلى نتيجة كبرى مفادها أن المجتمعات التي تتصف بالقلة اقتصاديا غالبا ما يتم الجمع فيها وبكيفية موازيـة ما بين الأعمال الحقلية الضعيفة المحصول والقيام بـالعمل الرعـوي لتحقيق الاكتفـاء الذاتي المعيشي، وهذا النـوع من الاقتصاد هو الذي يسميه الباحثون المحدثون باقتصاد القلة، لأنه كان دوما على حافة المجاعة.(39) وكان الاهتمام بهذه الازدواجية (الزراعة والرعي) في جل الحالات غير كافي لضمان الاستقرار المعيشي. مما كان يدفع بسكان هذا الإقليم إلى القيام بعمليـة مراقبة الطرق وفـرض ضرائب المرور على القوافل. خاصة أوقات الأزمـات المناخية والسياسية. ومعلوم أن الجفـاف الذي كان يكتسح المغـرب الجنوبي كـان يأتي على المحصـول الزراعي – إن وجـد – وعلى مـردودية الماشيـة. ممـا كان يـدفع الأهـالي إلى القيام بعمليـات نهب

---

36) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 122.

37) الوزان : وصف : م. س، ج 2 ص 122.

38) الوزان وصف : م. س، ج 2 ص 122.

39) أحمد التوفيق : المجتمع المغـربي في القرن 19 (إينولتان 1850 – 1912)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1980، ج 2 ص 264.

الدشور المجاورة وقطع السبل، سيما إذا تزامنت هذا مع أزمة سياسية. فقد سبق أن ذكر مارمول أن الأعراب بواحة الرتب كانوا يتحينون الفرص لابتزاز أهالي الإقليم إذا ما تبين لهم أن السلطات الحاكمة غير قادرة على منعهم من ذلك»،(40) لأن بلاد ما وراء الأطلس خلال هذه الفترة كانت موكولة إلى نفسها ولا أثر لسلطة الوطاسيين فيها، ولم يبرز من رؤساء القبائل من يستطيع فرض سلطته على المنطقة كلها.(41) غير أن حركة الأولياء والمتصوفة المتمكنة الجذور في البلاد منذ قرون، وجدت في تلك الظروف السياسية الصعبة بيئة صالحة لنموها وانتشارها. فقد ظهر على مسرح الأحداث رجال وأولياء لعبوا أدوارا حاسمة في حل المشاكل القائمة. وهذا يعني أن الأولياء خلال مراحل الفراغ السلطوي كانوا يقومون مقام الدولة ليس فقط في إقرار الأمن، بل وأيضا في ضبط المجتمع وتنظيم العلاقات بين أفراده. وقد تصدر لهذه الوظيفة أحد أبرز أولياء منطقة مدغرة وثالث حفاظ المغرب وأشهر علماء تافيلالت في عصره. ويتعلق الأمر بمولاي عبد الله بن علي بن طاهر.(42) فقد ذكر العباس بن إبراهيم التعارجي في كتابه الإعلام ما يلي: «ومن مناقبه الشهيرة أنه كان مرة صحبة بعض قوافل سجلماسة إذ خرج عليهم قطاع أيت يوسي فالتجأ الناس إليه لما يعلمون من ولايته فحذرهم وأنذرهم فلم ينتهوا، فاغتاظ وحصلت فيه حالة ربانية وكان بقرب جبل فاتكأ بيده على صخرة فلانت ودخلت يده إلى المرفق. فقال إيت يا جبل بإذن الله فتضعضع الجبل وانشق وتساقطت حجارته فاعتذروا وتابوا فأشار بيده إلى الجبل فكف. ولم يزل أثر ذلك إلى الآن وكذا محل يده يقصده ذوو العاهات والأسقام».(43)

رغم ما تحمله هذه الكرامة من خوارق لا تستساغ، إلا أنه بالنظر إلى الظروف والملابسات المحيطة بها تفيد في فك طلاسيمها وكشف القناع عن خباياها الدلالية والتاريخية.

40) مارمول : إفريقيا، م. س، ج 3 ص 154.

41) الحركة الفكرية : محمد حجي، م. س، ج 1 ص 41.

42) محمد حجي : الحركة الفكرية، م. س، ج 2 ص 522.

43) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام : العباس بن إبراهيم التعارجي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية 1977، ج 3 ص 308.

إن المنطقة التي وقعت فيهـا هذه الكـرامة هي منطقـة الخنك، وقد سبق الحديث أن هذا الإقليم كان فقيرا من حيث المردود الفلاحي زراعيا ورعويا. لهذا كـانت القبـائل المحلية تلجأ إلى القيـام بعمليـات النهب وقطع الطـريق وفرض جباية الخفارة (الزطاطـة) وفرض ضريبة القبالة القبلية، بل الأكثر من ذلك كانت القبـائل تتنافس على مراقبـة هذا الممر والاستفادة ممـا كانت تؤديـه القوافل للمسيطرين على المضيق، لاسيما خلال الحالات الاستثنـائية مناخيا وسياسيا.

كما أن التاريخ الـذي حدثت فيه هـذه الكرامـة يتزامن مع بدايـة القرن 11هـ / 17م، لأن مولاي عبد الله بن علي بن طاهـر لم يعد من مراكش بعد طرده من قبل المنصـور الذهبي إلى مدغرة إلا بعـد سنة 1004هـ / 1596م. وهي فترة شهد فيها المغـرب فراغا سلطويا، حيث أنـه خلال هذه الفترة أو بعـدها بقليل سيسقط المغـرب في أزمة سيـاسية كبيرة، فقـدت على إثرهـا الدولة السعدية مشروعيتها وعوضت بزعامات دينية محلية التي كانت تقوم مقام المخزن في تنظيم العلاقات بين الجهات. وما مولاي عبد الله بن علي بن طاهـر إلا واحد من أولائك الأوليـاء الذين تم استدعـاؤهم للتحكيم وتنظيم هذه العـلاقات لضمان استمـرار التواصل التجـاري بين الشمال والجنوب. خـاصة وأن مـولاي عبد اللـه بن علي بن طـاهر كـان من رجال الشفـوف الديني والنسبي الذين كان لهم اعتبار تقديري عند القبائل المتنافسة، ولعب بـذلك دور الحكم لحل مشكلـة التنـافس بين القبـائل في النصف الأول من القرن 17م. خصـوصا بعـد غيـاب شخصيـة السلطان المنصـور الـذهبي السعدي القـوية، مع العلم أن مولاي عبد اللـه بن علي بن طاهر تـوفي سنة 1042هـ / 1632م. ويندرج في هذا الإطار - بمعنى تنافس القبائل للسيطرة على المضيق - ما أورده العبـاس بن إبراهيم التعارجي في إعلامـه، نقلا عن صاحب الصفوة.(44) قال: «وحـدث عنه - أي عن مولاي عبـد الله بن علي بن طاهـر - تلميذه العـلامة أبو بكـر التيطافي رحمه اللـه، قال: دخلت على شيخنا العلامة الـزاهد سيدي عبد الله بن علي بن طاهـر يوما، وهو إذ ذاك

---

44) الإفراني سيدي محمد الصغير بن عبد اللـه المراكشي : صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية فاس. د. ت ص 3.

بقرية أولاد الحاج من بلده مضغرة، فقـال لي إن: « بني إيفوس» وهم قرية من الخنكَ(45) وقع بينهم قتال قـال: فقلت: ياسيدي أجاء أحـد من هناك؟ قال لا. ولكـن أخبرني بذلك قلبي وقلبي لا يكـذب، وكان بينـه وبين هؤلاء مرحلة. قال فجاء الخبر بوقوع الأمر كما أخبر به».(46) وهذا يدعم ما ذهبنا إليه سابقا من كون منطقة المضيق كانت بمثابة مجمع للتمثيل القبلي وكانت القبـائل تتنافس من أجـل السيطرة عليـه، وبـالتالي الاستفـادة من ضرائب المرور المفروضة على القوافل. ويعني هذا من جهة ثانية ومن خلال الكرامة السابقة الذكر أن مبدأ الشرف كان يتدخل في حياة القبائل، فعلي يد الشريف تجد بعض النزاعات التي تحدث بين القبـائل أو بين العائلات أو بين القبائل والمخـزن حلا لها. وعـلاوة على ذلك هنـاك من الدارسين من يـذهب إلى أن الشرفاء كانوا يكلفون بطلب الشفاعة لدى السلطان.(47) كما يكون الشريف «الزطاط» لعبور المنطقـة التي يكون له فيها نفوذ والحمايـة وإعطاء العناية للقوافل التجاريـة التي ترغب في الوصول إلى الأسـواق. وفي هذا الخصوص نشير إلى أننا نتوفر على إحدى الوثائق المحلية التي تثبت أن أسرة أهل قصر حم داوود إحدى الأسر الشريفة التي انتقلت من تافيـلالت إلى مدغرة خلال القرن 10هـ / 16م كانت تضمن شرخـا كبيرا من الطريق التجـاري الرابط بين فاس ومدغرة، وهذا على العموم مـا سنحاول تحليله وتفصيله في الباب الخاص بالحياة الاقتصادية بمدغرة خلال العصر الحديث.

وبالفعل لم يكن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر غريبا عن هذه القبائل، فقد سبق لـه قبل أن يستقر بقريـة أولاد الحاج من عمل مدغـرة أن استقر بالخنكَ حسب ما جاء في مخطوط خاص. قال في فتح القدوس: «كان سيدنا

---

45) كان هذا القصر يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز بمنطقة الخنكَ بين قصري تنكَبيت وأيت مولاي محمد انظر شـارل دفوكو charles de Faucauld : Reonnaissance au Maroc, paris 1888 p 351. إلا أن فيضان وادي زيز لسنة 1965 أتى على مجموعة من القصور وضمنها بني إيفوس، والآن وفي إطار إعادة بعث القصور القديمة يـوجد هذا القصر على شكل قرية نموذجية فيما يسمى بالخنكَ التحتاني في حريم مدغرة الغربي.

46) العباس بن إبراهيم التعارجي : الإعلام : م. س، ج 3 ص 303.

47) رحمة بورقية : الدولة والسلطة والمجتمع. دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان 1991، ص 46.

ومولانـا عبد الله بن علي بن طاهـر بن الحسن بن يوسف بن علي الشريف دفين سجلماسـة... مستوطنـا بسجلماسة تـافيلالت وطن أسـلافه الكـرام بقصر حم داوود، فلما وقع بينـه وبين الفقيه ابن أبي محلي من أهل زاويـة القاضي ما وقع وأرسل إليه أعوانه من رجال حاشيته لأجل إذايته خرج من سجلماسـة مع بعض البرابـرة من قبيلة أيت عطـة كـانت لهم معـرفة بـه، فذهبوا به لجبلهم المسمى صاغـرو... فمكث سنة كاملة ثم انتقل لبلاد أيت عيسى بوادي كَير واستـوطن قرية يقـال لها الكَرعان ثم انتقل منهـا لبلاد كَرس مكتب قيـادة الريش الآن، ثم منـه لأيت عثمان بالخنكَ ثم منهـا لبلد مـدغرة وسكن بقـرية يقـال لها أولاد الحاج».(48) فكل هـذه القـرائن تقيم الدليل على أن مـولاي عبد الله بن علي بن طـاهر لم يكن غريبـا عن القبائل التي كانت تتنافس على مراقبة مضيق زعبل الذي كان بمثابة مجمع للتمثيل القبلي. كما تكشف كذلك عن الـدور التحكيمي الذي كان يقوم بـه هذا الولي والذي ورثتـه عنه أسرة آل حم داوود لتنظيم العـلاقات الشمالية الجنـوبية المغربية عبر هذا المضيق. وبهذا الخصـوص نشير إلى إحدى الوثائق المحلية النادرة التي تفضل الأستاذ العربي مزين بنشرها بمجلة هيسبيريس تامودا Hesperis Tamuda (49) والتي تثبت أن أولاد مولاي عبـد الله بن علي بن طـاهر استمروا يصلحون ذات البين بين القبائل المتصـارعة بمنطقة مضيق الخنكَ. فقد جاء في الفصل الثاني من اتفاقية قصر أيت عثمان والمؤرخ في 12 جمادى الأولى من عام 1333هـ / 28 مارس 1915م(50) ما يلي: «الحمد لله لما وقع الخلف – يعني الخلاف – بين أيت مَـنْـزُو وأيت عثمان دخلـوا – بمعنى دخل – بينهم الشرفاء آل سيـدنا ومولانا عبد اللـه بن علي بن طاهير – أي طاهـر – نفعنا اللـه ببركته آمين فـاصطلحوا على أيـديهم ودخلوا – بمعنى دخل – أيت مَـنْـزُ مع أيت عثمان ومزوج – أي أمَـزُّوجْ – وأهل إفْـرِي الفوقانيين وأهل إنَـجْـبِي وإمَـزَّوْراَ وجددوا العهد والأخوة».(51)

48) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس، م. س، ص ص 3 – 4.

49) Mezzine (L) :tàqqit de Ait Atman, op cit, pp 89 - 121.

50) Mezzine (L) : tàqquit de Ait Atman, op cit, p 90.

51) Mezzine (L) : tàqquit de Ait Atman, op cit, p 90.

إن منطقة الخنك على العموم كـانت تعتبر كممر استراتيجي هام في ربط الاتصال والتـواصل بين المغرب الجنوبي والشمالي سيما وأن هـذا الاتصال قـد يستعصي عبر مناطق أخـرى. ومن تم كان لهذه الممـرات الضيقة بـالغ الأهميـة سـواء في فترات السلم كما في فترات الأزمـــات. وسعيـا وراء ربط الإتصال من جهـة وتحقيق الربح المادي من جهة ثانيـة افترض الوزان أن يكون أهالي المنطقة هـم الذين عملوا على حفرها. قال: «... ومـدخلها في غاية الضيق لا يصعد إليهـا إلا من ممرات صنعتها يـد الإنسان، بحيث يستطيع شخصان أن يصمـدا أمام هجـوم الإقليم بأجمعه، ويمتـد هذا المضيق على نحو أربعين ميلا».(52)

كما ترتبط مدغرة بمدينة غرسلوين التي توجد في الشطر الشمالي لمنطقة الخنك. فقد أشار الوزان في تحديده لإقليم سجلماســة، أن مدينة غارسلوان توجد بـالقرب من مضيق الخنك. قال: «يبتدىء إقليـم سجلماسة على طول وادي زيز ويبتدىء من المضيق القريب من مدينة غارسلوان».(53)

نعتقـد أن كلمـة غارسلـوان أو غـرسلـوين(54) هي تحريف لكلمـــة أقرسلوين التي ذكرها ابن الخطيب في القرن 8هـ / 14م بقوله : «فما تقول في أقرسلوين؟ قال واد عجيب وبلد لداعي الإيناع مجيب مخضر الوهاد كثير شجر الجوز والزيتون. كنفته الجبـال الشم وحنا عليه الطود كما تحنو على ولدها الأم فهواؤها مـلائم. والعنب على الفصول دائم... فجوه عديم الطلاوة وعنبه للبرد قليل الحلاوة».(55)

إن أوصـــاف ابن الخطيب لمدينـة غـــارسلـوان لا سيما تلك المرتبطـة بالمعطيات البيئية والإنتاج الزراعي تتعارض مع ما جاء عند الوزان. فقد أكد هـذا الأخير: «أن ليس هناك إلا قليل من الأراضي الصـالحة للزراعـة، والحق

52) الوزان : وصف، م. س ج 2 ص 123. وذهب محققوا هذا الكتاب أن مسافتها 20 ميلا فقط وهي بدورها مسافة تقديرية اعتبارية.

53) الوزان : وصف، م. س ج 2 ص 120.

54) أورد الحسن الوزان مرة اسم هذه المدينة بغرسلوين ج 1 ص 288 / ج 2 ص 254 ومرة ثانية بغارسلوان ج 2 ص 122.

55) ابن الخطيب : معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ص 179، فضالة المحمدية 1976.

أننا إذا استثنينا القسم الشمالي فإن جميع ضواحيها محدبة حجرية.(56) فهل يتعلق الأمر بمدينتين تحمل كل واحدة منها اسم غرسلوين؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون بأن المدينة التي وصفها ابن الخطيب خلال القرن 8هـ / 14م تطورت وشمل مجالها محيطها؟ وهذا ما يمكن أن نستشفه من شهادة الوزان. فالمدينة التي تكلم عنها ابن الخطيب أصبحت زمن الوزان لا تمثل إلا الشطر الشمالي لمدينة غارسلوان خلال القرن 10هـ / 16م، مما يدل على أن المدينة خلال الفترة الممتدة من القرن 8هـ / 14م إلى القرن 10هـ / 16م عرفت تطورا عمرانيا نتيجة – على ما نعتقد – لاكتضاض بشري فرض عليها أن توسع إعمارها ومجالها نحو الجنوب، الذي لا يشتمل إلا على الأراضي الحجرية المحدبة. وبناءا على وصف الحسن الوزان لشطر مدينة غارسلوان الجنوبي يظهر أن هذا القسم كان من نصيب فئات بشرية وضيعة وخاضعة لا سيما للأعراب الذين اكتسحوا هذه المدينة، حيث كان سكان غرسلوين الجنوبيون يسكنون أكواخ حقيرة.(57) مما أثر على المنظر الجمالي الخارجي للمدينة. فقد أشار الوزان إلى أن هذه المدينة: «تبدو عندما يراها المَرْءُ من بعيد شيئا جميلا جدا لكنها بئيسة في الداخل، ليس بها غير أكواخ حقيرة».(58) ويرجع الوزان الفقر والبؤس الذي أصاب سكان غرسلوين إلى سطوة الأعراب وإلى قلة الأراضي الزراعية. الشيء الذي أثر على انتعاش اقتصاديات المدينة، وجعل سكانها يعانون من الفقر المدقع لدرجة التسول، وذلك بسبب انعدام أي دخل للمدينة. قال: «وليس بها غير أكواخ حقيرة وسكان قليلين وذلك بسبب الأعراب. ولا يمكن استخراج أي دخل من هذه المدينة لأن جميع سكانها في فقر مدقع، وليس هناك إلا القليل من الأراضي الزراعية».(59)

يبدو أن قلة الأراضي الزراعية التي كانت تشكو منها المدينة أثر على وضع سكانها المعيشي، فقد كان السكان حسب رواية الوزان يجففون ثمار

56) الوزان : وصف، م. س، ج 1 ص 288.

57) الوزان : وصف، م. س، ج 1 ص 288.

58) الوزان : وصف، م. س، ج 1 ص 288.

59) الوزان : وصف، م. س، ج 1 ص 288.

الخوخ والكـروم ويتخذونها كـوجبـات مع أطعمـة أخرى يـأكلونها طـول السنة.(60) الشيء الـذي يستنهض الـدليل على أن المدينـة لم تكن تعتمـد في معاشها فقط على ما تهبـه لها أرضها وإنما كانت تعوض النقص الحاصل في المردود الفلاحي بما تستخلصـه من ضرائب عينية كانت أم نقـدية، التي كانت تفرضها على القوافل التجارية المارة بمجالها.

إذا كنا لا نستطيع تحديد موقع مدينة غرسلوين اليوم إلا أن وصف ابن الخطيب لأقـرسلوين يوحـي بأن المقصود بها هي مـدينة غرسلـوين، التي ذكرها الوزان خلال القرن 10هـ / 16م بأعلى وادي زيز. وهـذا ما عبر عنه ابن الخطيب بقوله: «واد عجيب» مما يـدل على أنها كانت قائمة على ضفاف نهر محاط بجبال عالية هي جبال زيز التي ينبع منها النهر المذكور. كما أن وجود شجـر الزيتون والجوز والعنب بهذه المدينة خـلال العصر الإسلامي الـوسيط يؤكـده وصف الوزان خـلال المرحلة الحديثـة لهذه المدينة. قـال: «...وتظهر على ضفـاف النهر بعض الطاحـونات وعـدد عظيم من البساتين المزروعة بالكروم وأشجار الخوخ»،(61) وتؤكده كذلك كثـرة هذا النوع من الأشجـار بـالمنطقـة التي تحمل اليـوم اسـم «كَـرس» التي هي عبـارة عن مجموعـة من القصور الممتدة جنـوب مركز الـريش، وتختص حتى الوقت الحاضر بهذه المواصفات الشجرية.(62)

إن بناء مـدينة غـارسلوان بـالقرب من منابـع وادي زيز شمال مضيق الخنكَ حسب رواية الوزان، كان الهدف منه هو مراقبة الطرق التجارية المارة عبر مدغرة من سجلماسة إلى منـاطق شمال المغرب وموانـيء البحر الأبيض المتوسط. فالقـوافل التجارية كانت تتبـع مجرى وادي زيز على امتداده من الجنوب إلى الشمال، غير أنها بعـد خروجهـا من منطقـة مدغـرة تضطر إلى اختراق خانق ضيـق وسط جبال عاليـة هو مضيق جبل تـاغيا، ولا يـوجد مكـان ملائم لـلإستراحة بعـده إلا في منطقة «كَـــرس»، التي تم فيها بنـاء مـدينة أقـرسلوين على مشـارف الحدود الشمالية لإقليم سجلماسـة. حتى

60) الوزان : وصف، م. س، ج 1 ص 288.

61) الوزان : وصف، م. س ج 1 ص 288.

62) لحسن حافظي علوي : سجلماسة، م. س، ص 16.

تـوفـر للقوافل لـوازم السفـر استعـدادا للدخـول في مملكـــة فـــاس، التي تبتـدئ حســـب الـوزان: «من نهر أم الربيع غربـا لتنتهي إلى نهر ملويـة شرقـا»(63) عبـر ممــر تيـزي ـ ن ــ تالغمـت بعـد مرحلــة واحـدة من السيــر.

تفيد تسمية ممر تيزي ـ ن ـ تـالغمت البربرية التي تعني ممر الناقة في فهم الإرتباط الوثيـق لهذه المناطق بأشكال الحياة في الأصقـاع الصحراوية. ولا يستبعد أن تكـون قبائل الـرحل التي كانت تتنقل عبر هـذا الممر ذهـابا وإيابا في رحلة الإنتجاع، هي التي أطلقت هذه التسمية على هذا الفج. كما لا يستبعد كذلك أن تكون هذه التسمية مرتبطة بالوظيفة التي كان يلعبها هذا الممر، حيث كان يسهل عملية عبـور القوافل التجارية بين الشمال والجنوب. سيما وأن الجمل كـان هـــو الـوسيلـة المستعملـة في مثل هـــذه العمليـات النقلية.(64)

إن الموقـع الاسـتراتيجي ألهام الـذي كانـت تحتله مـدينـة غرسلـوين في منطقة حساسة تتحكم في ربـط الإتصال والتواصل بين الشمال والجنوب ـ أي بين المغرب الصحـراوي والمغرب الشمالي – جعل منها محطـة تتجاذبها سيطرة القوات المحليـة والوطنية، بل إن احتلالها كـان يعبر عن إزاحة نظام وإحلالـه بآخـر. وهذا يدل على كبير أهميتهـا السياسيـة والاستراتيجية في التحكم في هذه الجهـات وما يـواليها إلى الجنوب. كما تعتبر السيطـرة عليها هي السيطـرة على طريق القوافـل الآتية من سجلماسة. ولا يخفـى ما لهذه الموارد التجاريـة الصحـراوية من أهميـــة في تدعيم سياســـات الدول التي تعاقبـــت على حكـم المغـــرب. لهذا نفهـــم لماذا كــانت القـــوات المحليـــة والوطنيـة تعتبر السيطـرة عليها هـــي السيطرة على ما يـواليها مـن مناطـق لقـــاء الجنوب الشرقي المغـربي. وهـذا ما نستشفـه من شهـادة مارمـول الغرناطـي. قال: «وفي سـنة 1534م انتــزع الشريف – يعني مـولاي أحمد الأعرج – هـذه المدينة من ملـك فـــاس – يعني السلطـان الوطـاسي محمد الشيـخ – الـذي استرجعهـا فيما بعـد، ثم احتلهـــا الشريـــف مرة ثانيـــة،

---

63) الوزان : وصف، ج 1 ص 153.

64) لحسن حافظي : سجلماسة، م. س، ص 16.

وأقـام فيهـا حامـيـة مـا تــزال موجـودة في دولـــة الأمير الحـالي – يعني مولاي عبد الله الغالــب».(65)

إذا كان تحديـد مكان وجـود مدينــة غارسلـوان لم يعد يطـرح مشكلة تـوطينهـا اعتمادا على ما ورد عنـد ابن الخطيب والـوزان ومـارمـول. فإن المشكلة الأساسية التي بقيت عالقة تتعلق بمـدلول كلمة غرسلوين، فالكلمة هي قبل كل شيء كلمة بربرية. ممـا يحمل على الإعتقاد أن المدينة كانت من بناء العناصر البربريــة التي ترددت على هذه المناطق منذ عهـود غابرة. فقد أشار مـارمول اعتمادا على روايــة الوزان: «أن مـدينة غـرسلوين تـوجد في سفح الجبال... في جهة الجنوب أسسـها الأفارقة القدامى على ضفة نهر زيز وقد خربها الموحدون عندما أزاحـوا المرابطين عن الحكم، ثم أعاد بناءها بنو مرين فعمـروها من جديد وزينـوها بمباني ممتازة لكنهـا انحطت بعد ذلك حتى لم يبق منهـا إلا الأسوار».(66) ولا تتعارض الرواية الشفـوية المحلية حول بعض أسباب بنـاء المدينة مع ما جاء عند الوزان ومـارمول، إذ تذكر الحافظة الشعبية المحلية أن السلطان الأكحل – ونفترض أن يكون المقصود بالسلطان الأكحل هـو عيسى بن يزيد الأسود بـاعتباره أول من وُلِّــيَ على سجلماسة خلال سنة 140هـ – كما لا يستبعد كذلـك أن يكون المقصود به هـو أبو القـاسم سمغو بن واســول صاحب الفضل في نشر تعـاليم المذهب الخارجي الصفري بسجلماسة.(67) وحجتنا على ذلك أن كلمة «سَـــمْـغُـو أو سَــمْـكُو» تعني بالبربرية الأكحل – فرض على سكان هذه الجهات القيام ببناء حصن لأحدى بناته المسماة «الغالية»، وكانت عملية البناء تتم بواسطة العمل المتسلسل المفروض le travail à la chaîne، وكان الأهالي المكرهون على ذلك يرددون كلمتي: «كَرْ» بمعنى ارم «وسلـويل» – بمعنى الويل – إشارة إلى مـادة البناء من حجـر وطين وغير ذلك. ومع الزمن ضمت الكلمتــان إلى بعضها البعـض، وأصبحت هذه القلعـة تعرف بكَـرسلويل، وأخـذت الكلمة معنـاهـا النهـائي بعـدما استبـدل حـرف الـلام بـالنـون وأصبحت تنطق كَرسلوين.

65) مارمول : إفريقيا، م. س ج 2. ص 276.
66) مارمول : إفريقيا، م. س ج 2. ص 275.
67) محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب.-م. س، ص ص 116 – 117.

كما أن محاولة القيام بتفكيك كلمة كَرسلوين ومقارنة أقسامها ببعض الألفاظ البربرية، قد يفيد في الكشف عما اختصت به مدينة غرسلوين من مؤهلات طبيعية. فالإسم يتكون من كلمتين هما: «كَر» التي تعني كذلك بالبربرية اذهب. ويمكن أن نشتق من الكلمة الثانية مصطلح «تِيسَنْتْ» الذي يعني الملح، والجمع بين الكلمتين يعني إذهب إلى بلد الملح. ومعلوم أن منطقة غرسلوين احتضنت في الماضي ولازالت لحد الآن منجما للملح يعرف «بملاحة» وسنثبت بعض الوثائق الخاصة في الملحق الخاص بالوثائق التي تؤكد وجود هذا المنجم بالمناطق القريبة من مركز الريش. وهو على العموم المجال الذي كانت توجد به المدينة البائدة. وهذا يدل على أن مدينة غرسلوين فضلا عما امتازت به من غطاء شجري ذي أهمية خاصة فإنها بالإضافة إلى ذلك امتازت بتجارة الملح، وعلاوة على هذا وذلك فقد كانت مدينة غرسلوين بمثابة حصن لمراقبة طريق القوافل التجارية المتنقلة بين الشمال والجنوب. لهذا لا غرو إذا وجدنا عبد الله الغالب السلطان السعدي يقيم بها قلعة وحامية عسكرية للقيام بهذه الوظيفة لضمان استمرار هذه العملية بكيفية منظمة ومحكمة، ومن جهة أخرى لمراقبة القبائل لأنها منطقة انتقال القبائل البربرية والعربية، وستخلفها الزاوية الحمزاوية التي ظهرت في المرحلة الانتقالية بين السعديين والعلويين وخلالها ضعفت قلعة غرسلوين ولم تعد لها أهمية تذكر وتحولت هذه الأهمية إلى مناطق أخرى مجاورة كالزاوية الحمزاوية مثلا، ولو استمرت أهميتها لأكدتها المصادر اللاحقة.

تبدو حدود منطقة مدغرة من الشمال والجنوب بارزة المعالم، وذلك اعتمادا على ما ورد في كتب الجغرافية والرحلات، لأن اهتمام أصحاب هذه المؤلفات اقتصر فقط على المناطق الشمالية والجنوبية لمنطقة مدغرة دون المناطق الواقعة إلى الغرب والشرق منها. ويرجع السبب في ذلك – على ما نعتقد – إلى غياب الطرق الرئيسية الرابطة بين شرق وغرب منطقة مدغرة. وأن ما كان يوصل حقل الدراسة بالمناطق الغربية والشرقية المتصلة به هو عبارة عن مجموعة من الطرق الثانوية القليلة الاستعمال في الغالب، لا سيما من طرف القوافل التجارية. وهذا ما يفسر شح المعلومات التي تخص

ارتباط مدغرة بالمناطق الشرقية بما في ذلك المغرب الأوسط، والغربية بما في ذلك درعة وطريق مملكة مراكش المجاورة لها.

تزامنت العصـور الحديثة في المغرب مع تحول الطـرق التجارية العـالمية نحو الغرب، حيث أصبح التـوجه نحو المحيط الأطلسي ونحو معـرفة أهمية البحر، نتيجة للتدخل الأجنبي عكس ما كـانت عليه البلاد قبل هذه المرحلة، حيث كـان التوجـه نحو الطـرق البرية. الشيء الـذي أدى إلى تراجع طـريق سجلماسة فاس وعوضت بطريق درعـة مراكش، لأن منطقة السوس خلال مرحلة حكم الأشراف السعديين أصبحت محور الاستقطـاب. هذه الوضعية هي التي فـرضت على مدغـرة الانفتـاح على المناطق المحـاذية لها من جهـة الغرب، حيث وجود واحـات حوض غريس وروافده فركلـة وتدغة ودادس. وكانت الصـلات التجارية أهم مـا يربط حقل الدراسـة بهذه المناطق، سيما وأن مدغـرة وفركلة وتينجداد وتـدغة ما هي في الواقع إلا محطـات تجارية متناثرة على المحـاور الجنوبية الشرقية والجنـوبية الغربية للطـرق التجارية المغربية.

إن الموقع الاستراتيجي الهام الذي كان يحتله مركز تينجداد على ضفاف نهر غريس جعل منه منطقة فلاحية بالأساس، مما له بالغ الأهمية في توفير اكتفـاء ذاتي من حيث الغـداء. كما أن توفـره على سـوق جعل منه محطـة تجارية يقصدها التجار والقوافل من كل جهة، ولم يقتصر الأمر على التجار المغاربة الـذين كانوا يختلفون على هذه السـوق، بل شمل ذلك حتى التجار النصارى. مما له بـالغ الأهمية في جعله كمركز تجاري يقـوم بعملية تزويد الأجانب بما هم في حاجة إليه من بضـائع محلية وسودانية. لأن هذا المركز كان على اتصـال بطريـق درعة السـودان الغربي وسجلماسـة والسودان. ومقابل ذلك كـان التجار الأجانـب يغرقون هـذه المنطقة بالأقمشـة القطنية وغير ذلك من البضـائع الأروبيـة. وهذا مـا نلتقطـه من شهـادة مارمـول الغـرنـاطي. قـال: «تقع هـذه المدينـة - يعني تينجـداد - على جـانب من النهر(68) بين النخيل في منطقة فلاحيـة خصبة تنتج التمر والقمح والشعير

68) لعله يقصد نهر غريس.

زيادة على النيلة وعرق اللؤلؤ(69) اللذان يوجدان بكثرة هناك، ومن نوع جيد يتهافت عليها التجار من كل جهة. ويوجد بالمدينة سوق كبير يأتيه التجار من إفريقيا ومن أوروبا لبيع الثياب الصوفية والأقمشة القطنية وبضائع أخرى. ونشير إلى أن عددا من التجار النصارى والبرابرة استوطنوا المدينة».(70)

يظهر من كلام مارمول أن منطقة تينجداد كانت همزة وصل ما بين الجنوب الشرقي المغربي الذي تندرج ضمنه منطقة مدغرة والجناح الجنوبي الغربي منه. إن سيادة عنصر الأمن سهل على منطقة تينجداد القيام بهذه الوظائف التجارية، فقد ذكر مارمول أن هذه المنطقة كانت تتمتع بنوع من الأمن أكثر مما هو سائد في كثير من المدن والأقاليم. قال: «وقد مكثنا فيها نحو يومين رفقة والي مكناس وشاهدنا ازدهارها ولاحظنا أن الأمن سائد بها أكثر مما هو عليه الحال في غيرها من المدن والأقاليم».(71) وهذا ما شجع كذلك عددا من التجار المغاربة والنصارى على الاستقرار بها، الشيء الذي يحمل أكثر من معنى. فهو من جهة يعبر عن نوع من الانتعاش الاقتصادي الذي عرفته المنطقة والمرتبط أساسا بسيادة عنصر الأمن، الذي وفر ظروفا ملائمة للاستقرار والقيام بالعمليات التجارية المختلفة. ومن جهة ثانية يعبر هذا الاستقرار على أن التجار سواء النصارى أو المغاربة كانوا يقومون بدور لسان الميزان الذي يمكنهم من معرفة حالة السوق والتجارة بهذه الجهات. ولا نستبعد في هذا الخصوص أن يكون هؤلاء التجار يندمجون في إطار شركات تجارية تبعث بممثليها إلى كل الجهات التي تعرف نشاطا تجاريا متميزا. وهذا – على ما نعتقد – ما يفسر استقرار التجار النصارى(72) والمغاربة على حد سواء بمدينة تينجداد، للقيام بوظائف مراقبة السوق من حيث العرض والطلب. وهذا بدوره يعبر عن مد

69) نستغرب لذكره اللؤلؤ بهذا المجال شبه الصحراوي.

70) مارمول : إفريقيا، م. س ج 3 ص 149.

71) مارمول : إفريقيا، م. س ج 3 ص 149.

72) رغم ملابسات العصر التي لا تسمح بوجود نصارى في العمق الداخلي المغربي وخاصة في سجلماسة، فإننا نستغرب إشارة مارمول التي تؤكد على وجود نصارى في منطقة مدغرة وما =

تجاري أجنبي إلى هذه الجهات. مما يدل على أن النصارى زمن مارمول لم يقتصر انتشارهم بالمغرب على مملكة مراكش وأحوازها، بل امتد نفوذهم إلى المناطق الجنوبية الشرقية المغربية، وهذا ما نلتقطه كذلك في المصادر الدفينة لتاريخ المغرب التي تزخر بعدة إشارات تفيد باستقرار عدد كبير من التجار النصارى بمجالات تافيلالت.(73)

إذا كانت المادة المصدرية لا تشير مباشرة إلى ارتباط منطقة مدغرة بمركز تينجداد، إلا أن إشارة مارمول السالفة الذكر تثبت ذلك سيما وأن إشعاع تينجداد كمحطة تجارية تربط المحاور الجنوبية الشرقية بالمحاور الجنوبية الغربية، وكسوق تقصده القوافل التجارية من جهة الشرق والغرب. فالمعطيات البيئية لم تكن لتشكل عائقا أمام هذا الاتصال علاوة على أن شرط الأمن الذي ساد المنطقة حسب رواية مارمول من شأنه أن يغري تجار المناطق المجاورة بالتردد عليها، خاصة وأن سوق تينجداد كان يوفر مجموعة من المواد والبضائع التي يقبل عليها التجار الأفارقة والنصارى على حد سواء، وهذا ما نستشفه من إشارة مارمول عندما قال: «ويوجد بالمدينة سوق كبير توجد فيه مختلف المنتوجات، يأتيه التجار من إفريقيا وأوروبا لبيع الثياب الصوفية والأقمشة القطنية وبضائع أخرى».(74) وأن ما كان يقف في وجه هذا الارتباط هو قبائل أيت عطة وحلفاؤهم أيت مرغاد أو ما عبر عنه مارمول بقبائل أيت غريس، الذين كانوا يسيطرون على حوض غريس. فقد جاء عند مارمول أن منطقة فركلة وهو رافد من روافد وادي غريس: «كان يعمرها قوم من أجلاف البرابر لا

= إليها، رغم أن هناك إشارة طوبنيمية محلية تؤكد ما قاله مارمول ونخص بالذكر قصر «إغْـرَمْ إرُومِيْن» بمدغرة والموجود بين قصري بني محلي وأسرير على الضفة اليسرى من وادي زيز في اتجاهه نحو تافيلالت، وهو من بين القصور القديمة المندرسة، أنظر الجدول الخاص بالقصور القديمة المندرسة في الفصل اللاحق. ونفترض أن يكون الوجود الأجنبي عامة بهذه الجهات استمرار لديانات أخرى.

73) انظر على الخصوص وفي مواضع متعددة المصادر الدفينة لتاريخ المغرب السلسلة الفرنسية والهولاندية.

74) مارمول : إفريقيا، م. س، ج 3 ص 157.

يعرفـون للأخــلاق معنى ولا للإنسانيـة مدلـولا ينتسبـون لقبيلــة أيـت غريــس».(75)

إن أعمال النهب وقطع السبل التي كـانت تقوم بها قبـائل وادي غريس وخاصة قبـائل أيت مرغاد لها ما يبررها، فالفترة الـزمنية التي تحدث فيها مارمول عن قبائل أيت غريس الغلاض كانت فيها الدولة السعدية لم تتمكن بعد من بسط نفوذها على مجموع أطراف المغرب، سيما وأن مناطق ما وراء جبال الأطلس – جبـال دْرْنْ – ظلت ومنذ نهاية الحكم المريني موكـولة إلى نفسها، مما كان يساهم بشكل فعال في استمرار ظاهرة البداوة والجفاء التي ميزت هـؤلاء البرابرة. كما أن الـوسط البيئي الـذي وجدت فيه قبـائل أيت غريس – منطقة فركلة لا سيما المجال الرعوي منها – كان وسطا فقيرا من حيث الإنتاج الفـلاحي وما يـزال، مما كـان يحتم على هذه الجمـوع تقويم النقص الحاصل فيـه عن طريق القيـام بعمليات النهب وقطع السبيل، فقـد أشار مــارمول الغـرناطي إلى: «أن أراضي هـذه المنطقة – يعني فـركلة – لا تصلح للفلاحة ولئن كانت تنتج أصنافا من الفواكه تسقى أشجارها من ماء النهر، ولا يملك الأهالي إلا قليلا من الأغنام والماعز».(76) إن الوسط البيئي الذي وجـدت قبائل أيت مـرغاد نفسها حبيســة له فـرض عليها ليس فقط القيام بأعمال النهب وقطع السبل، بل حتى القيام بالإغارة على ما يجاورها من الواحات. وهـذا ما سيتضـح أكثر بعد انفصـال أيت مـرغاد عن اتحادية أيت عطة. حيث ظل الخطر المرغـادي يشكل هاجسا بالنسبة لمنطقـة مدغرة وإلى عصور متأخرة جـدا. سيما وأن واحة مدغرة لا تبعد عن فركلـة مركز أيت مرغاد حسب رواية مارمول إلا بعشرين فرسخا.(77) وهو ما يمكن أن

---

75) مارمول : إفـريقيا، م. س، ج 3 ص 157. والمقصود بقبـائل أيت غريس هو قبائل أيت مـرغاد، وإشارة مارمول هذه دليل على أنه لا يعرف القبائل المغربية، وإنما يكتفي بنسبتها إلى موطنها.

76) مارمول: إفريقيا، م. س، ج 3 ص 158.

77) مارمول : إفريقيا، م. س، ج 3 ص 158. وذهب محمد عبد الستار عثمان ـ انظر الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي م. س، ص 168 – أن الفرسخ يساوي 5544م. وعليه تكون المسافة الفاصلة بين مدغرة وفـركلة هي 5544 × 20 = 110880م وهو مـا يعادل 880.110 كلم، وهي مســافة تقديرية اعتبارية فقط لأن المسافة الحقيقية تقل عن هذا الرقم بكثير.

نحدده في مسيرة يومين. وتذكر الرواية الشفوية المحلية أن قبائل أيت مرغاد كانوا مصدر إزعاج وخطر بالنسبة لاستقرار الأوضاع بمنطقة مدغرة، لأنهم عندما يغيرون على المنطقة، - خصوصا أوقات الأزمات السياسية والمناخية - كانوا يفرضون الإثارات والمغارم على السكان ويبثون الخوف والرعب في أوساط السكان. وفي هذه المقولة(78) تعبير عن مدى الخوف والفزع الذي كان يخلفه الغزو المرغادي، ويظهر آثار هذا الغزو كذلك في مورفولوجية بناء قصور مدغرة، لا سيما تلك المتواجدة على الضفة اليمنى من وادي زيز. حيث نلاحظ أن جل القصور المواجهة لمجالات تحرك البطون المرغادية تطغى عليها سمة التحصين، حيث لا يكاد يخلو أي قصر من قصور مدغرة على ضفة وادي زيز اليمنى من وجود أبراج عالية وأسوار كبيرة وضخمة، بل الأكثر من ذلك توجد بعض المحطات التي تدعى محليا «بالعسة». وتقام غالبا بعيدة شيئا ما عن القصور السكنية لمراقبة ورصد تحرك قبائل أيت مرغاد وللقيام بوظيفة الإنذار المبكر استعدادا لرد ودفع الغزاة. كما أن أبواب القصور الموالية لهذه الجهات غالبا ما تكون جانبية ومتينة البناء لعرقلة الهجوم. ونعتقد أنه أمام كثرة الهجومات المرغادية والعطاوية تكفلت إحدى قصور مدغرة بمهمة دفع الغزو. وفي هذا الخصوص تذكر الحافظة الشعبية المحلية أن قصر بني محلي(79) كان يقوم بهذه الوظيفة على اعتبار أن هذا القصر من جهة كان يتوفر على ما يشبه ثكنة عسكرية أو ما يعبر عنه محليا «بدار المحلة» التي تتجمع فيها العساكر والعدة لمواجهة هذا الخطر. فالمصادر التي تحدثت عن مدغرة لم تدرج هذا القصر ضمن القصور التي كانت بها نيابة دار المخزن أو محلا للقواد المخزنيين - كما هو الحال بالنسبة لقصر تاوريرت خلال مرحلة حكم الأشراف السعديين أو قصر سيدي أبو عبد الله خلال المراحل المتأخرة وخاصة خلال القرن 19م - ورغم ذلك فهو يتوفر على دار المحلة التي تغيب عن كل قصور مدغرة حتى المخزنية منها. الشيء الذي يوحي بأن هذا

---

78) مازال سكان مدغرة يرددون مقولة مشهورة ونصها «الْوَادْ وَلاَ مَرْغَادْ، مَرْغَادْ وَلاَ وَلْدُو، وَلْدُو وَلاَ بَنْتُو بَنْتُو وَلاَ كَلْبُو».

79) يوجد قصر بني محلي على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة بين قصري أسرير والحيبوس.

القصر بحكم وجوده وجهـا لوجه بمجـالات تحرك قبائل أيت مرغـاد كان يقوم بمهمة دفع الخطر، ووجود دار المحلة بداخله يثبت إلى حد ما ذلك.

كما ترتبط منطقـة مدغرة بمنطقـة تدغة، هـذه الأخيرة التي لا تبعد عن إقليم سجلماسة حسب رواية مارمول إلا بخمسة عشر فرسخا.(80) لكن إذا كان مـارمول قد اقتصر على ذكـر أهمية المنطقة من حيث الإنتـاج الفلاحي فإن جهود روزان بيرجي(81) أثبتت أن منطقة تدغة اشتهرت بمنجم الفضة والصناعات التعدينية الحديديـة التي ميزتها عن سائر المناطق المجاورة لها، علاوة على أنها كانت مدينة قائمة بذاتها منذ القرن 2هـ / 8م اعتمادا على ما ذكره البكري. قال: «ومدينـة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت مدينة زيز أيضا».(82)

إذا كـان موقع مـدينـة زيز غير معـروف لحد الآن فإن مـدينـة ترغـة أصبحت معروفة بفضل جهود بعض الدارسين في تفسير نص البكري. فقد ذهب مترجم كتاب: «الروايات التاريخيـة عن تأسيس سجلماسة وغانة» إلى القول بأن مـدينة ترغـة هي الأصل لما يزال يعرف حتى الآن بقصر تـرغة (تاركَة) قرب قصر السوق،(83) وهو احتمال غير بعيد لأن المسافة الفاصلة بين قصر تاركَة بمدغرة وسجلماسة تساير هذا الرأي.

يظهر من تسمية قصر «تـاركَة» أنه كان مكـانا لسكنى بعض الجماعات من قبيلـة تاركَـة إحدى فـروع قبائل صنهـاجة، يشـار إليها بلفظ تـاركَي والجمـــع تـوارك حُـــرِّفَ على لســـان المشـارقـة إلى طـوارق. وتـاركَـة في الاصطـلاح اللغـوي البربـري كلمـــة بربريـة معناهـا القنـاة.(84) وقـصر تاركَة الموجود بمدغرة(85) ليس هو المكـان الوحيد الـذي ارتبطت تسميته

80) مارمول : إفريقيا، م. س، ج 3 ص 159.

81) Rosenberger (B) : les vieilles exploitations minières et les centres métalurgiques du Maroc, essaie de cartes historiques, 1ère partie R.G.M n° 17, p 93, 1970.

82) البكري : المغرب، م. س ص 148.

83) ماك كوك : الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، البيضاء 1319هـ ، ص 12 هامش 3.

84) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 150 هامش 70، ص 152 هامشة 73.

85) يوجد هـذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بقسم مدغرة العليـا جنوب قصر أزمور على نفس الضفة. انظر الخريطة رقم : 6.

بقبيلة تاركَة في كل مجالات إقليم سجلماسة، بل هناك قصر توروكَ، الذي تذكر الرواية المحلية أنه كان مقر سكنى جماعة من التواركَ قبل أن ترغمهم قبائل أيت عطة على إخلائه في القرن 19م، ويوجد هذا القصر على الضفة اليمنى لوادي غريس في المكان الذي يلتقي فيه برافده الأساسي وادي فركلة.(86)

وذهبت دوزي جاك مونيي بأن كلمة ترغة هي تحريف لكلمة تدغة التي تطلق الآن على أحد روافد وادي غريس.(87) فيكون استبدال حرف الراء بحرف الدال في نص البكري من خطأ النساخين أو من عدم تأكد المؤلف نفسه من الكلمة. خاصة وأن البكري اكتفى بتلخيص مؤلفات محمد بن يوسف الوراق الذي وضع مؤلفا له حول سجلماسة خلال نهاية القرن الرابع الهجري وبداية الخامس، لأن الوراق توفي سنة 423هـ وانتهى البكري من عمله سنة 460هـ وتوفي سنة 487هـ. وكتب روزان بيرجي حول هذا الموضوع قائلا: «إن مدينة تدغة التي اندثرت في تاريخ غير معروف لابد من البحث عنها على طول المجرى المائي الذي يحمل إلى اليوم نفس الاسم، خاصة وأننا نتوفر على عملات فضية ضربت بها. وبما أن منجم الفضة لإيمِيضَرْ كان مستغلا منذ القرن 8م، فمن غير المستبعد أن يكون هو منجم تدغة الذي تحدثت عنه المصادر».(88) ولا تختلف دوزي جاك مونيي مع هذا الرأي حيث جعلت مكان تدغة بالقرب من المنجم الذي تم اكتشافه مؤخرا في جبل صاغرو وجنوب المجرى الأعلى لوادي إيميضر على بعد حوالي 30 كلم جنوب غرب مدينة تينغير.(89) وفضلا عن العملات التي اشتهرت بها تدغة فقد عرفت كذلك بصناعة أدوات مختلفة من المعادن كان يتم نقلها إلى تافيلالت.(90) وإلى عهد قريب استمرت المنطقة في إنتاج مصنوعات حديدية لها شهرة كبيرة بين سكان مدغرة وتافيلالت، ويتعلق الأمر

86) لحسن حافضي علوي : سجلماسة، م. س، ص 19.

87) Meunié (D.J) : le Maroc saharien, op. cit. T.1 p. 220.

88) Rosenberger (B) : les vieilles exploitations, op. cit. p. 85.

89) Meunié (D.J) le Maroc saharien, op. cit. T. 1 p. 220.

90) Rosenberger (B) : les vieilles exploitations, op. cit. p. 76.

بـالفؤوس التـي تتم بها عملية قلب الأرض أثنـاء الحرث وكنس السـواقي. وهذه الأدوات الفلاحيـة معروفة عند المحليين بـاسم «الفأس التدغي» نسبة لتدغة رغم أن صناعتها اليوم تتـم بمدينة تنغير. هذا وإن كان قصر سيدي أبو عبـد الله بمدغـرة قد نافس تـدغة في هذه الصنـاعة لا سيما في المراحل المتأخرة، وهذا على العموم ما سنحاول توضيحه في الفصل اللاحق.

إن موقع منطقـة تدغـة بين حوض وادي دادس وحـوض وادي غريس جعل منها همزة وصل بين أحواض غريس زيز كَير وحوض درعة، وهذا ما جعل دوزي جاك مونيي تعتبر أن منطقتا تـدغة وتازارين حلقة وسطى بين منطقتين مختلفتين في الجنـوب المغـربي من حيث الخصـوصيـة اللغـويـة والتوجه الحضـاري: منطقة غـربية مثلها وادي دادس ووادي درعة توجهت في تاريخها سياسيا واقتصاديا ولغـويا نحو منطقة سوس ومراكش، واللغة المستعملة هنـاك هي تشلحيت. ومنطقة شرقية تضم وادي فركلـة وغريس وزيـز وكَير وتوجهها كـان أكثـر نحو الشمال والشرق أي بـاتجاه فـاس والمغرب الأوسط، واللهجـة المستعملة عند العنـاصر البربرية المستـوطنة بها هي تمازيغت، وبينهما تـدغة وتـازارين اللتـان شـاركتا مع المنطقتين معـا وتأثرتا بدرعة كما تأثرتا بزيز وكَير.(91)

صحيح أن ارتباط مدغـرة بمناطق : فركلة تينجداد كَولميمـة وتدغة من النـاحية الغـربية لا يـرقى إلى درجة أو مستـوى ارتباط مـدغرة بمنـاطق الشمال عبر غرسلوين ومـدينة فاس، أو بمناطق الجنـوب عبر واحة الرتب وتافيلالت وصـولا إلى بلاد السودان الغربي. إلا أنـه مع ذلك يمكن اعتبار هذا الارتباط بمثابة انفتاح على درعـة وسوس ومملكة مراكش. وهذا يعني أن مدغـرة كانت بمثابة محطـة تربط بين كَير وغريس، وبـذلك كانت تلعب الدور البرزخي بين منـاطق متباعدة جغـرافيا ومختلفة بيئيا وبنيـويا وهي على العموم سمـة خاصـة ميزت حقل الـدراسة. ممـا انعكس على تشكيلها البشري ومورفولوجيتها السكنية ونمط عيشها بسمات مستمدة من جهات مختلفة، وهذا مـا سيؤهلها للعب دور التواصل السيـاسي والثقافي والفكري،

---

(91) Meunié (D.J) : hiérarchie sociale au Maroc présaharien, in Hesp. 1958 1er et 2ème trimestre p. 256.

وكل هذا يؤكد صلاحيتها لكي تكون نقطة انطلاق لدراسة تاريخ المغرب من الجزء إلى الكل. ولهذا السبب اخترناهـا كموضـوع لبحثنا في هذه الـدراسـة الجامعية. فمحـوريتها المكـانية والاجتماعيـة وفعاليتهـا التاريخيـة جعلتها مؤهلة لتكون نقطة البدايـة فيما يمكن أن نسميه بالتاريخ المجهري للمغرب Micro-histoire.

أما من النـاحية الشرقية فقد ارتبطـت مدغرة بحوض كَير الـذي يرتبط بفكَيك وبوعنان، وينفتح بالتـالي على المغرب الأوسط. – فاعتماداً على إشـارة الوزان – أن إقليم سجلماسـة الذي تندرج ضمنه منطقة مدغرة يمتد ليشمل بعض مناطق وادي كَير شرقـا، ويظهر ذلك من خلال حديثـه عن قرى بني بصري – أي أَيْـتْ أُوبَـسْـرِي – بوادي بـوعنان، التي كـانت تضم خلال القرن 10هـ / 16م «ثلاثة قصور في سفح الأطلس وتكثر فيه الفواكه، ولكن لا ينبت فيـه نخل ولا حبـوب وهنـاك منجـم حـديـد يـزود جميع إقليم سجلماسة».(92)

إن قرى بني بصرى أو «أيت أُوبَـسْـرِي» التي تحدث عنها الوزان توجد على وادي أيت عيسى الـذي هو رافـد من روافد وادي بـوعنان تضم اليـوم خمسة قصور، وتظهر بقايا الهدم بـالقرب من ثلاثة منها وهي: أيت يحيى وأيت عيسى أو علي وتخوالت. ويحمل واحد من هذه القصور الخمسة اسم مدرار نسبة لـلأمير الرابع في إمارة الخوارج الصفرية بسجلماسـة. وتوجد بضواحي هذه المنطقـة أربعة مناجم لمعدن الحديـد تم التخلي عن استغلالها منذ مدة.(93)

إن ارتباط مـدغرة بمنـاطق وادي كَير لا يفسر فقط بما تـزخر بـه هذه المناطـق من مؤهـلات طبيعيـة معدنيـة، فالسمـة الطـاغية هي استمـرار التواصـل البشـري بين زيـز وكَير، فمخطوط فتح القدوس يزخر بـالعديد من الإشـارات التي تثبت وجـود واستمـرار التواصل البشري بين مـدغـرة ومناطـق كَير، فالعديـد من شرفاء مدغـرة ظلـوا يتـرددون علـى مجـالات كَير بقـرى أيت أوبسـري وألْـمُـو، حيـث توجد قصيـرة الشرفاء المنتقلين

92) الوزان : وصف، م. س ج 2 ص 132.

93) Rosenberger (B) : les vièilles exploitations, op. cit. p. 93.

من مدغـــرة إلى بني تجيـــت وأُموكّـــرْ وبَاكْـــنــُـــو ومَلاَّحَـــةْ وغيرهـــا من الدشـــــور الأخـــرى كقضاة أو مـــدرسين للقـــرآن العظيم بـــالجوامع وأيضـــا للإمامـــة والخطابة برســـم المشارطة.(94) وغـــالبا مـــا كـــان هؤلاء الشرفـــاء يتخـــــذون هـــذه المواطـــــن كنقط انطـــلاق نحو مجالات أيت يـــوسي، كما أن قبائل أيت عيسى أو علي ظلـــوا يختلفون على مـــدغرة للتبرك بالـــولي الصالح أبي محمـــــد عبـــد اللـــه بن علي بن طـــاهـــر منـــــذ كرامـــــة الجبل التي سبق الحديـــث عنهـــا.

وكل هـــذه القـــرائن تثبت استمـــــرار التـــواصل البشري المتبـــادل بين كَير ومنطقة مـــدغرة، ويعني هـــذا أن ارتباط مـــدغرة بمناطـــق كَير كان يبيح لها الارتباط والاتصـــال بواحة فكَيك والمغـــرب الأوسط، سيما وأنه لا يوجـــد ما يعرقل هذا التواصل. إذ إلى الجنوب الشرقي من مدغرة توجد واحة بودنيب المتصلة بدورها بتوات وما يواليها من الأصقاع الصحراوية. ويكفي التذكير بأن الاستعمار الفرنسي استعمل واحة بودنيب كمنطلق لغزو منطقة مدغرة. ممـــا يعطي الـــدليل على أن الارتباط كـــان سهـــلا بين المنطقتين. وأن المعطى الجغرافي لم يكن يشكل حـــاجزا أمـــام هذا التواصل وأن الـــذي كان يعـــرقله أحيـــانا لا سيما خـــلال الأزمـــات السياسيـــة والمنـــاخية. ومـــا يتبع ذلك من اضطرابـــات اجتماعية هو خطـــر قبائل ذوي منيع، التي كـــانت لا تقوم فقط بكبح جماح هـــذا الارتباط وإنما كـــانت تغير على منطقة مـــدغرة. فـــالحافظة الشعبية المحلية تصنف قبائل ذوي منيع ضمن القبائل التي كانت تغير على منطقة مدغرة من الجهة الشرقية.

إن ارتباط مـــدغرة بمنطقـــة فكَيك عبر حوض كَير يعنـــي ارتباط مـــدغرة بـــالمغـــرب الأوسط وإقليم وجـــدة ومـــــا إليهما، خـــاصـــة وأن لفكَيك مـــوقع استراتيجي هـــام على ملتقى الطـــرق الـــرئيسية في منطقـــة الجنـــوب الشرقي الرابطة ما بين الشمال والجنوب (ما بين تلمسان وواحة كَورارة وتوات) وما بين الغرب والشرق، «حيث تحتل المركز في الطريـــق المؤدية من تافيلالت إلى

94) المشارطة نسبة إلى الشرط وهي مهمة خدمة المســـاجد براتب تقدره جماعة القصر أو القبيلة لقاء ما يقوم به الشخص من مهام.

الأغواط والزاب».(95) وبالجملـة تعتبر فجيج بحكم وضعها الجغـرافي ليس فقط أحد الأبواب المنفتحة على الصحراء باعتبارها قاعدة الصحراء ومركزها استـوت خطوط البـلادات إليها كما يقـول بذلك علي السـوسي.(96) فوادي زورفانـة الذي يمتد مجراه شرق منخفض فكَيكَ كـان يشكل في السابق مع الأبـار المحفورة على جـوانبه الطـرق الرئيسيـة التي كـانت تعبرها القـوافل المنطلقـة من فكَيكَ أو التي تعبرهـا في اتجاه توات أو السـودان.(97) بل أن فجيج بـالإضافة إلى ذلـك هي بوابـة المغرب الجنوبي الشرقـي المنفتحة على المغرب الأوسط.

إن الوضعية الفـريدة التي تحتلها منطقة مدغـرة من حوض زيز وسط تلك الأصقاع الشبه الصحراوية، جعل منها همزة وصل بين مختلف المناطق التي ترتبط بها. وهناك عاملان لعبـا دورا رئيسيا ليس فقط في ربط مدغرة بما يحط بها من مجالات بل في توجيه تاريخها عبر الزمن:

1 – الوضعيـة الجغرافيـة الممتازة وسـط الواحـات الصحراويـة وشبه الصحراوية المتنـاثرة على أودية الجنوب: كَير – زيـز – غريس والتي تحيط بها من كل الجهـات جعلهـا – أي مدغـرة – تتحكم عن طـريق ذلك في أهم المنافـذ والفجاج، سواء تلك المفتوحـة منها على الصحراء جنوبـا أو المتصلة بالهضاب والجبال العالية في الشمال والغرب والشرق. رغم أن وجود الجبال في المدخل الشمالي لمدغـرة حتـم على سكـانها الانفتـاح أكثـر على المنـاطق الجنوبية، مما انعكس بشكل بين على البناء المجتمعي العام لمدغرة.

2 – توفر الماء الذي تقوم على أساسه الحياة بـالواحة، فالمياه بمدغرة لا تقتصر على ما يـوفره نهر زيـز من مصدر مـائي شبه دائم بـل في انتشار مجموعة من العيون والآبار، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في الباب الأول.(98)

---

95) أحمد مزيان : فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19، د.د.ع التاريخ الرباط 1988 ص 25.

96) علي السوسي : منتهى النقول ومشتهى العقول، مخ.خ.ع الرباط رقم د 633 ص 31.

97) Device (J) : routes de commerce et échange en Afrique occidentale en relation avec la méditerrannée : un essai sur le cmmerce Africain médivale du 11 au 16 siècle, Revue de l'histoire économique et sociale, 1972 p. 389.

98) انظر الفصل الثاني من الباب الأول.

وكـــان من شـــأن هــذا أن أصبحـــت المنطقــة محطــة جــذب لعناصـــر سكانيــة مختلـفــة غــادرت مــواطنهـــا الأصلية لأسباب مختلفة ومتباينــة أيضـا في فتـــرات زمنيـــة غير محـــددة طـــوال قـــرون عـديـدة، وأصبح التشكيـــــل البشـــري لمدغـــرة منصـهــر مـــع هــذه المميـــزات الخاصـــة للواحــة.

فهــذا الموقع البيئي المتميــز كحلقــة وسطى في سلسلــة الواحــات جعلــه يخالط كل الجهات المحيطــة به ويقــوم بعملية الــربط بين الشمال والجنوب ويــوصل الشرق بالغــرب، وذلك لأجل الحفاظ على دور مــدغرة المتميــزة في التجارة بــاعتبارهــا مركــزا تجاريا محليــا وممرا للقــوافل. وهذا مــا جعلها تلامس منــاطق بعيدة عنها. فالمجــال الاقتصادي الذي كان على مــدغرة أن تراقبــه وتخالطه بــاستمرار كــان يمتد من مــرتفعات جبــال الأطلس الكبير الشرقي شمالا حيث تتوفــر المنتوجــات الحيوانيــة من لحوم وسمن وجلود وأصواف فضلا عن المعادن، فقد أشار الوزان أن برابرة جبال زيز (الأطلس الكبير الشرقي) كانوا يحملون السمن والصــوف إلى الصحراء لاسيما عندما يغادرها الأعراب.(99)

كما كان عليها أن تتشــوف إلى سهل تافيلالت وما يواليــه جنوبا، سيما أمام ما يوفره هذا الصقع من منتجــات فلاحية وطبيعية ومؤهلات تجارية. كما امتد هذا المجــال غربا إلى فركلــة وتينجداد وكَولميمة وتــازارين وتدغة. ومن تم كان الانفتاح على مملكة مــراكش والسوس عبر وادي درعة. إن هذا التوجه نحــو الغرب له ما يبرره، فمنــاطق تينجداد وتدغة تــزخر بمنتجات فلاحية ومعــدنية ومؤهلات تجارية كــذلك، أسهمت جميعها إلى حد كبير في إنعاش اقتصــاد مدغرة خــاصة مع الفتــور الذي أصاب طــريق سجلماسة فاس، والــذي أدى إلى تهميش منطقة تافيــلالت. فالطرق التجــارية أصبحت مع مطلع العصر الحديث ذات محور جنوبي غربي نحو الشمال لأن المغرب تحول خلال هــذه الفترة نحو معرفــة أهمية البحر نتيجــة التدخل الأجنبي، ومن تم أصبح التوجه نحو المحيط الأطلسي.

---

99) الوزان : وصف، م. س ج 1 ص 288.

وانفتحت مدغرة على الشرق واتصلت بكَير وما يواليه من واحات خاصة فكَيك وبودنيب، ومن تم اتصلت بإقليم وجدة والمغرب الأوسط وصحرائه.

إن المجال الذي كانت منطقة مدغرة تراقبه وتخالطه للحفاظ على دورها المتميز لم يكن محصورا فقط في العوامل الاقتصادية وما يرتبط بها. بل ارتبط أيضا بالإشعاع السياسي والعلمي بحكم الدور الفعال الذي لعبته مدغرة في بلورة المشاريع السياسية لعدد من الإمارات والدول التي تعاقبت على حكم المغرب عبر التاريخ، كما هو الحال مع أمراء الخوارج الصفرية في سجلماسة وشرفاء تكَمادارت الزيدانيين السعديين بدرعة وبنو عمهم أشراف تافيلالت بوادي إفلي. وعلاوة على ذلك كانت مدغرة مركزا دينيا وثقافيا استقطبت عددا من العلماء والصلحاء منهم من أسس زوايا لتدريس العلم ونشر طريقة التصوف قصدها الطلاب والمريدون من مناطق بعيدة. وقد ساعدت هذه الأهمية الثقافية والاقتصادية لواحة مدغرة منذ مرحلة العصر الحديث بوجه التخصيص على انتشار تمثيليات لزوايا مختلفة في بعض قصورها، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه في الباب الخاص بالجانب الفكري والعلمي لمدغرة.

ومنذ القرن 10هـ / 16 م انتقلت من تافيلالت إلى مدغرة ثلاثة أسر كبرى من شرفاء سجلماسة الحسنيين وهم أسرة شرفاء أهل تعرمت وشرفاء قصر حم داوود وشرفاء قصر بوحامد، وشهدت مدغرة بهذا التعمير الجديد حياة علمية ودينية هامة جدا، حيث أصبحت منطقة مدغرة إحدى المراكز الفكرية المعطاء بالمغرب،(100) فقد أشار الأستاذ محمد حجي أنه بعد انتقال هؤلاء الأشراف تصدرت العلم أسرتين كبيرتين هما أسرة آل بن عمر المدغريون وآل بن طاهر الحسنيون.(101)

إن الأهمية الثقافية والدور العلمي الذي أصبحت مدغرة تلعبه منذ القرن 10هـ / 16م جعلها تتخطى حدودها لتشمل جهات بعيدة عنها، وهذا ما نلاحظه في مواضع متعددة من مخطوط فتح القدوس. حيث يشير إلى أن عددا من شرفاء مدغرة كانوا يقومون بالوظيفة التعليمية التثقيفية الدينية في

---

100) التقاط الدرر، م.س ص 98 هامش 3.

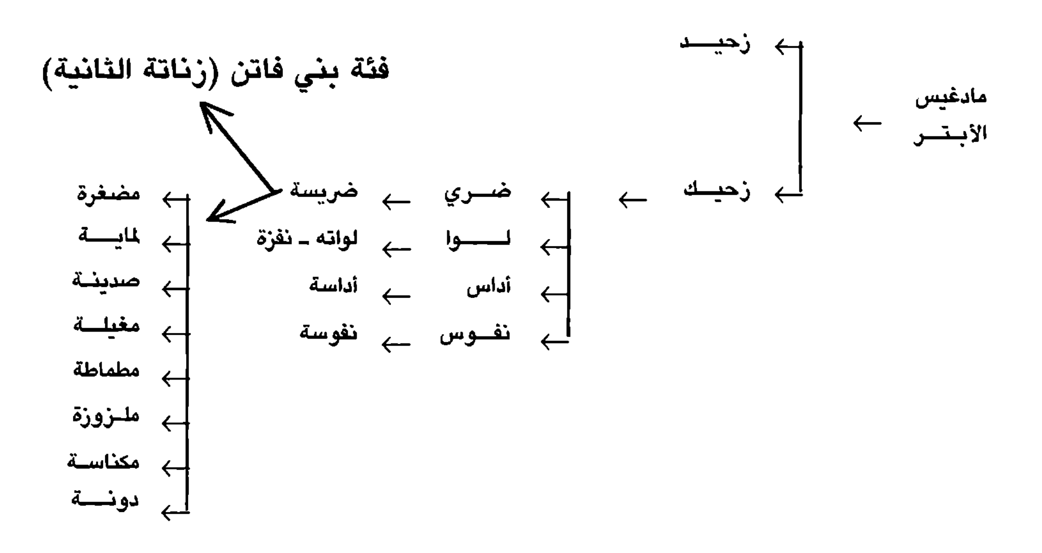
101) محمد حجي الحركة الفكرية، م. س، ج 2 ص 520.

المجـالات المحاديــة لمدغرة. وهــذا يعني أن الإشعاع العلمي لمنطقــة مدغــرة تخطى حدودهــا. مما يجعل منهــا حقلا خصبــا لأبحاث مستقبليــة في إطار الدراسات الانطروبولوجية والاجتماعية والتاريخية معا. وما توصلنا إليه في البحث يؤكد غنى وصــلاحية هذه المنطقة لتكون في مستــوى هذا النوع من الأبحاث العلمية المتجهة في هذا التخصص التي أهملت المنطقة.

2 - **مدغــــــرة :**

إن الأبحاث والــدراسات التقليـدية ظلت تسايــر طرح ابن خلــدون الذي يؤكد على التصنيف النسبي. وسعيا وراء ضبط وتتبع هذا التسلسل اكتفينا بوضع جـدول يسايــر هذا الطــرح التقليدي الذي تتبنـاه الأبحاث الســالفة الـذكر. ولمزيـد من التوسع والإحــاطة يكفي الــرجوع إلى كتــاب العبر لابن خلدون ومن يدور في فلكه للمزيـد من التثبت والتحقق من السلالة النسبية لقبيلة مــدغرة. وهــو أمر - على مــا نعتقد - لن يفيـد البحث في شيء سوى التأكيد على الأصل الــواحد. وهذا مــن شأنه أن يزج بنــا في حيثيات لا تمت للبحث بأيــة صلة فعالــة في تقدمــه. ومن جهة ثــانية إن الأبحــاث الجديدة أصبحت تتجاوز هذا الطرح النسبي السلالي العرقي ومقابل ذلك تؤكد على ضرورة التأريخ للجماعــات البشريــة المتســاكنــة وأهميــة أدوارهــا في صنع الأحداث، دونما الرجوع أو التأكيد على أصــولها السلالية. لأن مسألة تتبع الأنساب لم تستأثر باهتمام أصحاب هــذه التآليف إلا مع نهاية القرن 2هـ أي بعدمــا تم الانتهاء من ضبط الأنســاب العربيــة الفاتحة للمغــرب. وهذا يعني أن هذا الأمــر لم يكن معروفا ومتــداولا عند البربر قبل هــذا التاريخ. وعلى هذا الأساس نــرى من المفيد عوض تتبع أصول قبيلة مدغــرة سلاليا ونسبيا وعرقيا الاكتفاء بمعرفة الأدوار الهامة التي لعبتها هذه القبيلة سواء في الشمال أو في الجنــوب في السيــاق التــاريخي العــام للمغــرب. لكن مع ضرورة التأكيد على مدغــرة تافيلالت محور بحثنا ومــا قامت به من أدوار، ليس فقط في صنع الأحــداث المحليــة الإقليمية للمنطقــة. بل أيضــا في رسم المعالم الكبرى لهذه المنطقة في علاقتها مع المنــاطق المغربية الأخرى لا سيما خلال المرحلة الحديثة من تاريخ المغرب.

جدول خاص بالسلالة النسبية لقبيلة مدغرة



فمن اسم هذه القبيلة – أي مدغرة – استمدت هذه المنطقة تسميتها، فصار اسم القبيلة علما على منطقة محدودة جغرافيا. والسؤال المطروح هو لماذا أصبح اسم القبيلة محدودا لهذا النطاق الجغرافي الذي حددناه كموضوع لبحثنا؟ وما هي أدواره التاريخية بعد ذلك؟ وعلاقاته بالجهات الأخرى من المغرب الأقصى؟

تعتبر مدغرة من القبائل البربرية الكبرى السبع التي كانت متوفرة على الشهرة الواسعة والصيت الدائع زمن الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي وذلك بشهادة ابن خلدون. قال: «كانت البطون التي فيها الغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس، ونفوسة وزناتة ومضغرة ونفزاوة من البتر».(102) وتمدنا رواية ابن خلدون أن مضغرة هي التي أشعلت نار حرب المقاومة المعروفة بحرب الردة، وكانت لها فيها مقامات ومواقف، وساهمت في فتح الأندلس إسهاما كبيرا

102) ابن خلدون : العبر، م. س، ج 6 ص 192.

واستقرت منها جماعة في ذلك القطر الجديد. ولما سرى دين الخارجية في البربر اعتنقت مدغرة عقيدة الخوارج وناضلت دونها نضالا كبيرا.(103) ولم يكن ظهور الأدارسة بالمغرب ليغير من مواقف مدغرة العدائية التي كانت لها في المرحلة الأولى للحكم العربي. ذلك أنه حينما ظهر الأدارسة بالمغرب استنكف المدغريون عن مشايعتهم ومالوا إلى أعدائهم العباسيين. فقد ذكر ابن خلدون: «أنه كان على مضغرة يومئذ شيخهم بهلول عبد الواحد، فانحرف مالك عن إدريس إلى طاعة هارون الرشيد بمداخلة إبراهيم ابن الأغلب عامل القيروان فصالحه إدريس وأنبأه بالسلم».(104)

ثم أيدت مدغرة نحلة بورغواطة وكانوا من حلفائهم المخلصين، ثم ركد ريح مدغرة بعد ذلك وافترق جمعهم وجرت الدول عليهم أديالها واندمجت عناصرهم في قبائل المغرب الأقصى كغياتة وبني وراين بتلول المغرب وصحرائه، وفي كومية وولهاصة بنواحي تلمسان وخدموا الموحدين. قال ابن خلدون: «واندمجوا من لدن الدعوة الموحدية».(105) وأصبحوا بعد ذلك من أهم القبائل التي ناصرت دعوة بني مرين، فقد جاء في العبر أنه: «لما انصرفت دولة بني عبد المومن واستولى بنو مرين على المغرب قام هارون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم».(106)

وبعد هذا التاريخ توزعت قبائل مدغرة في المغرب الأوسط حيث يوجدون بتوات وتلمسان وفي طنجة وفي سهول أنكاد. أما في نواحي سجلماسة فلم يعودوا يذكرون إلا في اسم مقاطعة جغرافية ماتزال تحمل اسمهم إلى الآن وهي واقعة على وادي زيز، حيث تمتد من جنوب مضيق منطقة الخنك أي جنوب جبل تاغيا إلى قرب شعبة اللحم أو شعبة الروح جنوب العين الزرقاء لمسكي على امتداد 35 كلم من الشمال إلى الجنوب على امتداد وادي زيز.(107)

---

103) ابن خلدون : العبر، م.س، ج 6 ص 155.

104) ابن خلدون : العبر، م.س، ج 6 ص 157.

105) ابن خلدون : العبر، م.س، ج 6 ص 157.

106) ابن خلدون : العبر، م.س، ج 6 ص 157.

107) التقاط الدرر : م. س، ص 98 هامش 3.

واندمجت القبيلة المدغرية في العنصر العربي وأصبحنا نتحدث عن عناصر بشرية متعددة تحمل اسم المكان المدغري الذي أخذته المنطقة من القبيلة، لأن المنطقة منطقة مرور. ونقدر أن غياب القبيلة – مدغرة – التي استمدت منها هذه المقاطعة الجغرافية الاسم كان ابتداء من الانتصار المرابطي، لتبقى هذه المنطقة انطلاقا من هذا العهد لا تحمل من القبيلة إلا الاسم. ومقابل ذلك تواجدت بها – أي بهذه المقاطعة الجغرافية – عناصر بشرية متعددة صنهاجية وعربية وربما مصمودية ونستشف ذلك انطلاقا من أسماء الأماكن والقصور. مما يعني أن ساكنة هذه المنطقة كانت تتجدد باستمرار عبر الحقب والعصور. الشيء الذي يفيد في كون هذه المنطقة لم تعرف ثباتا بشريا أو سيادة إثنية بشرية واحدة، وهذا من شأنه أيضا أن يكشف القناع عن البنية البشرية المتعددة الأصول، ويبين بجلاء تام الامتزاج والتساكن بين إثنيات بشرية متعددة التي ظلت تشكل حتى الوقت الحاضر مجتمعات قصور مدغرة.

وخلال القرن 10هـ / 16م ذكر الوزان ومارمول أن مدغرة – المقاطعة الجغرافية – كانت لعهدهما تحت هيمنة المنابهة المعقليين. أن المنبات الذين سيطروا على سجلماسة منذ أواخر القرن 7هـ / 13م وأعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد يعتبرون القوة الرئيسية فيما يسمى بالأحلاف. وقد استقرت المنبات زمن الوزان بمنطقتي الرتب ومدغرة، كما هو الشأن كذلك بالنسبة لإخوانهم العمارنة. وفي هذا الخصوص نشير إلى أن أحد القصور القديمة المندرسة بمدغرة يستمد اسمه من هذا القبيل المعقلي ويتعلق الأمر بقصر العمارنة.(108) مما يبعث على الاعتقاد أن عرب المعقل قد تلمسوا طريقهم نحو الاستقرار بهذه الواحة منذ هذا التاريخ، ولم يقتصروا على الاكتساح والاجتياح الظرفي. فقد ذكر الوزان أن أمير المنبات كان يقيم بأحد القصور بمدغرة يحمل اسم هلال.(109) لا

108 ـ 109) يعتبر هذان القصران من القصور القديمة المندرسة التي لم تعد مكانا للسكن، وإنما هي الآن كمحل للزراعة. فقصر العمارنة يوجد على الضفة اليسرى لوادي زيز جنوب مدينة الرشيدية بحوالي 6 كلم. أما قصر هلال فلا يبعد عن مدينة الرشيدية إلا بحوالي 3 كلم. في اتجاه الجنوب كذلك على طريق القوافل. وهو الآن محل للزراعة بغابة أولاد أبي ناجي، وسنحاول الوقوف على موقعه وأهميته في الباب اللاحق. انظر الفصل الثاني.

يستطيع أحـد أن يخترق إقليمه دون إذنـه الصريح... وإذا صادف جنـوده قافلـة بدون رخصة مـرور نهبوهـا فورا.(110) وظلت الحافظـة الشعبيـة المحلية تـردد حتى الوقت الحاضر مقولـة مفادها «لَـوْلاَ المنبات مَـايْـكَّـدْ حَـدْ إيبات» بمعنى لولا سيادة عرب المنبات لما ساد الأمن بهذه الجهة. وهذا ما يعكس القوة والنفـوذ الواسع الذي كانت تتمتع به قبيلـة المنبات المعقلية بمنطقة مدغـرة لدرجة حتمت على المخزن القيام بعمليـات تمشيطية لحماية الأهالي من سطـوة الأعراب. فقـد أشار مارمـول الغرنـاطي : «أن السلطات المركـزيـة كـانت تبعث بحـاميـة إلى الإقليم لحمايـة المواطنين من المنبهيين ولضمان أمن الطرق والقوافل».(111)

إن أول الإشارات التـاريخية التي تشير إلى استقرار قبائل مـدغرة بحقل الدراسـة أفادنـا بها ابن عذاري المراكشي في نهايـة النصف الأول من القرن 4هـ / 10م. إذ إلى هـذا القبيل يرجع الفضل في معـرفة مخبأ الشـاكر للـه وتسليمه إلى القـائد جوهر الصقلي قـائد أبى تميم. وهذا نص كـلامه: «وفي سنة 347هـ(112) دخل جـوهر الصقلي قـائد أبى تميم إلى المغرب واستـولى على مدينـة فاس ثم توجه إلى تيطـاون فلم يقدر عليها ورجع عنهـا وقصد بعساكره إلى سجلماسة، ففر أمامه صاحبها محمد بن الأمير الفتح وتحصن في حصن على اثنى عشر ميلا من سجلماسة فملكها. وخرج محمد بن الفتح بأهله وماله وبعض أصحابه وكـان يلقب الشاكر لله... واستولى جوهر على سجلماسة فملكها وخرج محمد بن الفتح من الحصن في نفر يسير ليتعرف الأخبار مستترا فغدره قـوم من مدغرة عـرفوه وأتوا به إلى جـوهر فقتله في رجب، وبقي جوهر في المغرب نحو سنة وتوجه إلى إفريقية».(113) إن نص ابن عذاري هـذا يحمل أكثر من دلالـة. فهو من جهـة يؤكـد أنه منـذ سنة 347هـ / 958 - 959م أي زمن اعتقـال الشاكر للـه بل وقبله كـان القبيل المدغري قد تلمس طريقه نحو الاستقرار بهذه الـربوع المعروفة اليوم باسم

110) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123.

111) مارمول : إفريقيا م. س، ج 3 ص 155.

112) وهو ما يوافق 958 - 959م.

113) البيان المغرب : ابن عذاري المراكشي م. س، ج 1 ص 222.

مدغـرة. وهو من جهة ثانيـة تعبير صريح على أن قبيلة مدغـرة سجلماسة أصبحت تشكل معارضة داخليـة قوية ضد الخوارج الصفـرية بسجلماسة على الأقل منذ هذا التـاريخ. بدليل أنها اعتقلت محمد الفتح الملقب بـالشاكر لله الخارجي وسلمتـه إلى ند الخارجية الصفـرية جوهـر الصقلي قائد أبى تميم الفاطمي. وهذا يدل على أن قبيلة مـدغرة أدارت وجهها نحو الفاطميين ورفعت رايـة المعـارضـة ضـد الخوارج الصفـريـة أو على الأقل بقـايـاهم بسجلماسة بعدما كانت في السابق من أبرز أنصار الحركة الخارجية، وهذا ما تؤكده عبارة «غـدر» في نص ابن عذاري قال: «...وخرج محمد الفتح من الحصن في نفر يسير ليتعرف الأخبار مستترا فغدره قـوم من مدغرة عرفوه وأتوا به إلى جوهر»،(114) وهـذا من شأنه أن يستنهض الـدليل على التغير المذهبي الذي حدث في عقيدة المداغرة سياسيـا سيما وأنه يتزامن مع مرحلة فتور المد الخارجـي الصفري في المغرب الجنـوبي الشرقي، وخـلالها احتدم الصراع بين الفـاطميين والخوارج لـدرجـة دفعت الأمير الخارجي الصفـري محمد بن الفتح يلوذ بالفرار أمام الـزحف الفاطمي نحو حصن تاسجدالت. وبالتـالي لم يعد المذهب الخارجي الصفري كما قـال بذلك الدكتـور محمود إسماعيل يطـال قبـائل كبيرة من المغـــرب كمضغـرة ومكنـاسـة وزنـاتـة وبورغواطة وعنصري الأفارقة والسودان.(115)

نعتقد أن الحصن الـذي تحدث عنه ابن عـذاري والمعروف بتـاسجدالت حسب ما يمكن أن نستشفه من رواية البكري. قال: «فخرج – يعني الشاكر للـه – من سجلماسة بأهلـه ومالـه وولده وخـاصته وصـار بتاسجـدالت حصن منيع على اثنى عشر ميـلا من سجلماسة»،(116) الذي اتخذه محمد ابن الفتح مخبأ لـه ولأولاده وخاصتـه ومالـه هو القصر الذي يحمـل اليوم اسم «أولاد شاكـر» بواحة الـرتب. على اعتبار أن الشاكـر لله عندمـا خرج ليتعرف الأخبـار ترك ذريتـه هناك، وبعـد اعتقالـه ومقتله على يـد جوهـر

---

114) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب م. س، ج 1 ص 222.

115) محمـود إسماعيل عبـد الرزاق : الخوارج في بـلاد المغـرب حتى منتصف القـرن 4هـ، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1976 ص 62.

116) البكري : المغرب م. س، ص 151.

الصقلي أصبح هذا الحصن يعرف بقصر أو حصن أولاد شاكر، إشارة إلى المكان الذي ترك فيه الشاكر لله ذريته وماله. علاوة على أن المسافة الفاصلة بين سجلماسة وحصن تاسجدالت حسب رواية البكري، توافق بالتقريب(117) المسافة الفاصلة اليوم بين قصر أولاد شاكر وما كان يعرف آنفا بسجلماسة.

أكد الأستاذ أحمد التوفيق أن قبيلة مدغرة كانت تتنقل بين فجيج وسجلماسة في عهد أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات صاحب كتاب التشوف أي خلال القرن 7هـ / 13م وما بعده.(118) وهي نفس الإشارة التي أوردها ابن خلدون خلال القرن 8هـ/ 14م. قال: «ومنهم أيضا – أي قبائل مدغرة – بصحراء المغرب كثيرون بنواحي سجلماسة وأكثر أهلها منهم وربما حدثت عصبية من جراهم، ومن قبائل مضغرة أيضا كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب، فمنهم بتوات قبيلة من سجلماسة إلى تمنطيت آخر عملها قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر».(119) وهذا ما علق عليه الباحث عبد العزيز بن عبد الله بكون المسافة الفاصلة بين سجلماسة وفجيج كانت مراكز صحراوية مأهولة بالمدغريين مما يبرز الصلة السلالية بين أجزاء هذا القسم من الصحراء.(120)

وعلى هذا الأساس نستنتج أن استقرار قبائل مدغرة بهذه الأصقاع الصحراوية لم يرتبط بالطبيعة البدوية كما يلاحظ ذلك مثلا مع قبائل بني معقل بعد حين بقدر ما يفسر بالعامل السياسي والمذهبي، فقد ذهب مؤرخ

---

117) إن تقديرات الجغرافيين القدامى هي اعتبارية وغير مضبوطة، مما لا يساعد على ضبط المسافات الحقيقية كما هو الحال الآن.

118) التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عرف بابن الزيات (617 هـ)، تحقيق أحمد التوفيق مطبعة النجاح الجديدة البيضاء 1984، ص 384 هامش 193.

119) العبر : ابن خلدون م. س، ج 6 ص ص 157 – 158.

120) عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل ص 347، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ملحق 2 الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية. مطبعة فضالة المحمدية 1977.

الأحلاف القبليـة المغربيـة التقي العلوي أن الـروح الثوريـة التي اتسم بها تاريخ قبيلة مدغرة منذ مرحلة الفتح الإسلامي كانت هي سبب اضمحلالهم وانقراضـهم بل واستقرارهم بهذه المناطق النائية.(121) كما هو الشأن كذلك بالنسبة لإحدى فروع قبائل مديونة التي تعايشت مع مدغرة في مجال وادي زيز الأوسط والـذي مازال أحد قصـور مدغرة السفلى يستمد اسمـه منها، ويتعلق الأمر هنا بقصر مديونة.(122)

لما كانت كلمة «مدغرة» ترجع في نطقها إلى جـذور بربرية وجدنا الكتاب قد اختلفـوا في رسمها، فتارة يكتبون اسم هـذه القبيلة بالضـاد للـدلالة على مضغرة شمال المغرب وحين يكتبونها بالطاء المشالة يعنون مطغرة تلمسان أما عندما يكتبـونها بالدال اليابسة يعنون بها مدغـرة تافيلالت والصحراء. وذلك محاولـة من المؤرخين والنسابـة للتمييز والتفـريق بين هذه الجمـوع القبلية المنحـدرة من بني فاتن بن تمزيت. فقـد كتبها البكري خـلال القرن 5هـ / 11م بالطـاء للدلالـة على مدغـرة سجلماسة. قـال: «ودخل جـوهر سجلماسـة وملكهـا وذلك سنـة 347هـ وخـرج محمـد من الحصن (تـاسجدالت) في نفـر يسير من أصحـابه إلى سجلماسـة ليتعرف الأخبـار مستترا، فعرفه قوم من مطغرة في بعض الطـريق وأتوابه إلى جوهر في رجب العام».(123)

وكتبها ابن عذاري المراكشي خلال القرن 7هـ / 13م بالدال. قال: «وخرج محمد الفتح من الحصن في نفـر يسير ليتعرف الأخبار مستترا فغـدره قوم من مدغـرة عرفوه وأتوا بـه إلى جوهر».(124) كما كتب ابن خلـدون خلال

121) التقي العلوي : أصول المغاربة القسم البربري، عدد 33 السنة الثامنة عشرة نونبر 1982 م.س ص 83.

122) الواقع أن هناك قصرين الأول يحمل اسم قصر «مديونـة الحدادة»، وسنحاول الوقوف عليه في الفصل اللاحق. والثاني يحمل اسم قصر «مديونة سيدي بن الحسن». والغالب على الظن أن هذا القصر الأخير ارتبط وجوده بعـد انتقال بعض الأسر الحسنية الشريفـة إلى مدغرة خـلال القرن 10هـ / 16م. وهذا على العموم ما سنحاول الوقوف عليه في الفصل اللاحق والفصل الذي يليه.

123) البكري : المغرب م. س، ص 151.

124) ابن عذاري : البيان م. س، ج 1 ص 222.

القرن 8هـ / 14م اسم هذه القبيلة لا سيما الفرع الذي استقر بوادي زيز بالضاد. قال: «ومن قبائل مضغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب».(125)

في حين يلاحظ أن التآليف التي وصلت إلينا بعد زمن ابن خلدون أي بعد القرن 8هـ / 14م كتب أصحابها اسم هذه القبيلة التي استقرت بالصحراء بالدال. فقد كتبها الإمام أحمد المنجور في فهرسته بالدال قال: «مدغرة سجلماسة وهي بالدال بخلاف مطغرة تلمسان وتازا فبالطاء».(126) وهذا ما حاول أحمد بن عبد العزيز الهلالي شرحه قال : «والمراد بمدغرة التي هي من عمل سجلماسة وهي بالدال المهملة، وأما مطغرة التي هي من عمل تازا والتي من عمل تلمسان فبالطاء المهملة كما ذكره المنجور في الفهرسة. وذكر أن سيدي علي بن هارون من التي بعمل تلمسان، وإنما نبهت على هذا لأن بعض شيوخنا من غير أهل الصحراء كان يكتب مدغرة الأولى بالطاء والصواب الدال وهو الجاري على ألسنة أهل الصحراء إلى الآن».(127)

إن منشأ هذا الخلاف حسب رواية التقي العلوي مؤرخ الأحلاف القبلية المغربية(128) راجع إلى أن هذا الحرف لا مقابل له في الأبجدية العربية،

---

125) ابن خلدون : العبر م.س، ج 6 ص ص 157 – 158.

126) أحمد المنجور : فهرس أحمد المنجور ص 60. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر سلسلة للفهارس (1) تحقيق محمد حجي مطبعة دار المغرب الرباط 1976.

127) أحمد بن عبد العزيز الهيلالي : شرح خطبة مختصر خليل، طبعة حجرية فاس د.ت ملزمة 2 ص 4.

128) حسب وثائق الحالة المدنية الرسمية هو مولاي التقي بن محمد بن محمد العلوي المدغري من شرفاء أهل بوحامد. ولد بقصر تازناقت قرب عين مسكي بقبيلة مدغرة (جماعة شرفاء مدغرة) وذلك حوالي 1910م وتوفي بالدار البيضاء بعد مرض عضال يوم فاتح يناير 1995. عاش معظم حياته بمدينة فاس، بعد أن درس بجامعة القرويين ودرَّس بها طيلة المدة التي التحق بها بهيئة التدريس بالقرويين، متخصصا في تدريس تاريخ المغرب الذي انقطع للكتابة فيه. حيث نشر سلسلة من المقالات العلمية الرصينة تناولت الأصول السلالية للمجموعات البشرية المغربية والجغرافية التاريخية للأحلاف القبلية المغربية. وكانت هذه الأبحاث تصدر بالدورية العلمية التابعة للمركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس الرباط. وتخرج على يده علماء أجلاء من جامعة القرويين وثانوية مولاي إدريس. والجدير بالملاحظة أنه لم يعقب ذكرا وإنما خلف أربع بنات أمهن من فاس من أولاد بن موسى. وكان يسكن بحي الدُّوح البطحاء بفاس. والتحق للسكن بسيدي الخياط.

وإنما له قرب أو شبه قرب بكل واحد من الحروف الثلاثة: الضاد – الطاء – الدال ويستطرد قائلا: «وبذلك نعلم فساد القاعدة التي وضعها بعض المتحدلقين والتي تقول بأن مدغرة الإقليم الفلاني تكتب بالطاء والأخرى بالضاد والثالثة بالدال».(129) مبررا طرحه هذا بأن النسابة والكتاب كانوا يهتمون بأصول التجمعات البشرية فرأوا في التجمعات العربية أنها ترجع إلى شخص اسمه يعرب وفي التجمعات القبطية أنها ترجع إلى شخص اسمه قبط، وهكذا الحال في تجمعات بني فاتن بن تمزيت، وتندرج مدغرة وصدينة ومديونة في هذا النهج.(130) مما يعني أنه مهما كان الاختلاف بين النسابة والمؤرخين في طريقة كتابة اسم هذه القبيلة فإنها تدل جميعها على تجمع قبلي واحد. فقد جاء في أحد هوامش كتاب جدوة الاقتباس لأحمد ابن القاضي المكناسي ما يلي: «يفرق المؤرخون بين مطغرة بالطاء ومدغرة بالدال وبالضاد وأصلهما واحد، فما كان منها بالطاء فمطغرة تلمسان وما كان منها بالدال فمدغرة سجلماسة».(131)

إن هذا الاختلاف بين المؤرخين والنسابة من شأنه أن يدفع الباحث إلى ضرورة التحقق من مدلول كلمة مدغرة البربرية الأصل، فقد ذهب مؤرخ الأحلاف القبلية المغربية حسب ما استقاه من المنجد الفرنسي لشارل دوفوكو أن مادة: م – د – غ – ر تدل في أصل وضعها البربري على معنيين مختلفين، أحدهما الاختيار والاصطفاء والثاني الالتصاق والالتحام.(132) ويرى الأستاذ أحمد التوفيق أن الكلمة البربرية «ورتطغير» تعني غير ساكنة(133) بمعنى متنقلة، وذلك اعتمادا على ما جاء عند المؤرخ الإدريسي (القرن 6هـ / 12م) قال: «وبين مدينة تلمسان وتاهرت يسكن بنو

---

129) التقي العلوي : مجلة البحث العلمي م. س، عدد 33 ص 83.

130) التقي العلوي: مجلة البحث العلمي م. س، عدد 33 ص 83.

131) أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس. ج 2 ص 477 هامش 608 دار المنصور للطباعة الرباط 1973.

132) التقي العلوي : مجلة البحث العلمي م. س، ع 33 ص 83.

133) التشوف إلى رجال التصوف : م. س، ص 379 هامش 176.

مرين وورتطغير وزير... وكل هـذه القبائل بطون زناتـة وهم أصحاب هذه الفحـوص وهم قـوم رحالـة طـوائف ينتجعون مـن مكان إلى آخـر».(134) وحسب هذا البـاحث فإن ما يقـابل كلمة ورتطغير بمعنى المتنقل أو المنتجع هو الكلمة البربريـة «أضغر» أو «أدغر» بمعنى المقر أو السكن،(135) والفعل هو «امضغرن» أو «إمدغرن» (مداغرة) بمعنى الساكنون والمستقرون.(136)

إن محاولة القيام بمقارنة ما تـوصل إليه البحاثة التقي العلوي اعتمادا على تفسير دوفوكـو لمادة مدغرة ومـا أفضت إليه اجتهـادات الأستاذ أحمد التـوفيق في ذكر معنـى كلمة «أدغـر»، يبين بجـلاء تام أن لا تعـارض بين الـرأيين، بل بالعكس يثبت تـرابطهما وتكاملهما. على اعتبـار أن كلمة أدغـر تعني في الاصطلاح اللغوي البربري السكن أو المقر، ومعلوم أن الاستقرار لا يتم إلا بعـد عمليـــة الاختيـار والاصطفـاء بمعنى اختيـار المكـــان الـلائق للاستقرار. من حيث تـوفر شروط الاستقرار من ماء وكـلأ ووضعية بيئية واستراتيجيـة ملائمـة، وقد حـدد ابن أبي زرع أحسن مـواضع التجمع في خمسة شروط هي «النهر الجاري والمحرث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان، إذ به صلاح أهلهـا وأمن سبلها وكف جبابرتها».(137) وهي على العموم مواصفات تنطبق إلى حد كبير على مجال زيز الأوسط الذي استقرت به قبائل مدغرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الاستقرار يتم في إطـار الجماعـة وذلك لاعتبـارات أمنيـة ودفاعيـة أسـاسـا، عـلاوة على الاعتبارات المعيشية التي يفرضها الاستقرار.

3 – مدغرة وطرق القوافل :

لما كانت منطقة مـدغرة تتوسط الواحات الصحراويـة المتناثرة على طول وادي زيز حيث ترتبط عبر مضيق جبل تاغيا بإقليم الخنكَ المؤدي إلى فاس وأسواق البحر الأبيض المتوسط، كما تتصل بالصحراء عبر ممر شعبة اللحم

---

134) الإدريسي : وصف إفريقيا م. س، ص 60.

135) التشوف إلى رجال التصوف : م. س، ص 384 هامش 193.

136) التشوف إلى رجال التصوف : م. س، ص 379 هامش 176.

137) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب م. س، ص 33.

وواحة الرتب وبسيط تافيلالت وبالتالي بالصحراء الكبرى المؤدية إلى السودان الغربي. وتتصل بواحة فركلة وتازارين وتدغة للانفتاح على مراكش وإقليم السوس عبر ممر تيزي – ن – تيشكا وحوض وادي درعة. وتباشر واحة فكَيك، ومنها إلى المغرب الأوسط عبر وادي كَير. كل هذا جعل منها ممرا للقوافل ومركزا تجاريا محليا من الجنوب إلى الشمال ومن شرق إلى غرب مدغرة.

إن الممرات الطبيعية الموجودة بالمناطق الواقعة إلى الشمال والغرب من إقليم مدغرة كانت تلعب دورا كبيرا في ربط الاتصال بينها وبين المناطق المغربية الأخرى. فممر تيزي – ن – تالغمت كان هو الممر الأساسي في ربط هذه المنطقة بمناطق الشمال. كما أن ممر تيزي – ن – مقورن كان يربط مدغرة بمراكش وفاس عبر تادلة. وارتبطت مدغرة بالجنوب الغربي المغربي عبر ممرات طبيعية أهمها وادي «ركَ» ما بين جبل أوكَنات وجبل صاغرو. وممرات تيزي – ن – بجو وتيزي – ن – تلكات التي كانت تربط بينها وبين مناطق درعة عبر حوض غريس، وإلى الجنوب من هذه الأخيرة يوجد ممر تيزي – ن – تافيلالت الذي يتصل بجبل باني. وهذه الممرات الطبيعية هي التي استعملتها القوافل التجارية في تنقلاتها بين إقليم سجلماسة بواحاته المختلفة وإقليم درعة ومن هناك إلى باقي المناطق الجنوبية بما فيها الحواضر المغربية في إقليم سوس ومملكة مراكش وحواضر بلاد السودان الغربي.(138) وقد اعتبر بعض الدارسين وجود هذه الممرات بجبال الأطلس الكبير والصغير هو الذي منح إقليم سجلماسة نزعته التجارية وأهميته في المبادلات بين البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء.(139)

وبالجملة تعتبر مدغرة بحكم وضعها الجغرافي هذا أحد الأبواب المنفتحة ليس فقط على الصحراء، بل كانت تعتبر محطة استراتيجية في الطريق المنطلق من سجلماسة في اتجاه فاس أي طريق السلطان أو طريق التمر. وهذا يعني أن التحكم في مدغرة هو التحكم في طريق التمر، لهذا لا غرو إذا

---

138) لحسن حافظي علوي : سجلماسة وإقليمها م. س، ص 340.

139) ماجدة كريمي : العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني 668 – 759هـ / 1269 – 1358م د.د.ع التاريخ الرباط سنة 1988 ص 134.

كانت القبائل العربية المعقلية (المنابهة – المنبات – العمارنة) خلال المرحلة الحديثة تراقب بصرامة هذه الطريق بمجال مدغرة والرتب، وتعاقب كل قافلة لا تؤدي واجب المرور «الزطاطة». وهذا يدل على كبير أهميتها الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية. وهذا ما يفسر – على ما نعتقد – لماذا أبدى محمد الحاج الدلائي في صراعه مع أشراف وادي إفلي مع بداية النصف الثاني من القرن 11هـ / 17م رغبة شديدة في مراقبة الممرات والشعاب التي توصل المغرب الجنوبي بمناطق الشمال. وكانت مدغرة واحدة من هذه الممرات لا سيما في قسمها الأعلى، فجميع مؤرخي العصر العلوي الأول من المؤرخ الإفراني إلى الناصري أشاروا إلى الصلح الذي انبرم بين محمد الحاج الدلائي ومولاي محمد بن الشريف العلوي بعد معركة القاعة المؤرخة سنة 1056هـ / 1646م، والذي تم بموجبه تقسيم مناطق النفوذ حيث أصبح جبل العياشي هو الحد الفاصل بينهما. قال الضعيف: «فانبرم الصلح بينهما على سليم ما حازه للصحاري طود بني عياش ماعدا خمسة أماكن لا يحرك لهم مولاي محمد فيها ساكنا: الشيخ مغفر في أولاد عيسى من بلد الرتب والسيد الطيب في قصر السوق من بلد مضغرة والشيخ أحمد بن علي العثماني، في قصر بني عثمان – يعني أيت عثمان – من بلد الخنكَ وقصر كَلميمة في وطن غريس وقصر أسرير في بلد فركلة من ناحية سيدي محمد الحاج الدلائي، لا يتصرف فيها مولاي محمد بن الشريف».(140) وهذا يدل على كبير أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية.

ونعتقد أنه نظرا لهذه الأهمية فقد كانت مدغرة معرضة باستمرار إلى هجومات قبائل أيت غريس لاسيما أيت مرغاد وحلفائهم أيت عطة غربا وقبائل ذوي منيع من ناحية الشرق، علاوة على القبائل العربية المعقلية هذه الأخيرة التي لم تكن تكتفي بالإغارة المفاجئة والوقتية، بل إنها اتخذت منها قاعدة لتنظيم حملاتها العسكرية. وهذا ما نستشفه من إشارة الوزان، قال: «وفيه – أي إقليم مدغرة – كان يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخذ من

140) الضعيف الرباطي : تاريخ الدولة السعيدة م. س، ص 13.
– الناصري : أحمد بن خالد السلاوي : الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى ج 7 ص 17 البيضاء 1954.

قبيلته تعيش في البادية تحت الخيـام لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح. فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا وجردوا التجار والرائدين».(141)

إن اختيـار مـدغرة من قبل المنـابهة كمـركـز للقرار السيـاسي والإمـداد العسكـري لا يمكن أن يعتبر من قبيل الصـدفـة، بل هـو نـاتج عن خطـة وتخطيط ودراية عميقة بأهمية هذا الإقليم الاستراتيجية. لأنه يتحكم أو على الأقل يلامس جميع الشعاب والممرات الجنوبية المرتبطة بطرق القوافل الممتدة من الجنوب إلى الشمال، وإلا كيف يمكن تفسير استقرار هـذا القائد العربي بهذا المركز بالذات دون غيره من المراكز الأخرى؟ صحيح أن اقتصاد مدغرة الفلاحي ينـدرج ضمن اقتصاديـات مجتمعات القلة. إلا أن مـوقعها في قلب حوض وادي زيز وارتباطهـا بالمسالك الشمالية الجنوبيـة والشرقية الغربية جعلهـا تستفيد أكثـر من غيرها من أربـاح ضرائب المرور ووفرة البضـائع المتنوعة التي تحملها القوافل التجاريـة، سيما أمام استمرار وكثافة الصلات الجنوبية الشمالية خاصة. ويعني هـذا كذلك أن مدغرة لم تكن فقط محطة إجبـارية للقـوافل والتجـار والرائديـن المتنقلين من جنوب المغـرب في اتجاه الشمال والعكس بل أيضا منطقـة مرور ركب الحجيج، وحجتنـا في ذلك ما جاء في فتح القدوس. قال: «قال أبو سالم زرنا قبر أبيه – يعني قبر مولاي عبد اللـه بن علي بن طاهـر – والضمير هنا يعـود على مولاي بن علي الابن الثالث لمولاي عبد الله ابن علي بن طاهر(142) – الحافظ أبو محمد عبد الله ابن علي بن طاهـر بمدغـرة، وبتنا عنـد ولده العالم العـلامة الـولي الصالح سيدي محمد المدعو مولاي بن علي بن عبد الله في زاويته، فرحب بنا وفرح فرحا شديدا، فهش وبش ومن كل خير رش وعلف الدواب».(143) وهذا ما يضفي على إقليم مدغرة صفة الاستراتيجية السياسية والدينية والاقتصادية في عملية الـربط والتحكم في طريق التمر. ومن جهـة ثانية يشرح بـوضوح

---

141) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123.

142) خلف مولاي عبـد الله بن علي بن طاهـر ثلاثة أبنـاء هم : مولاي عبد الهادي وسيـدي محمد ضما وسيدي مولاي محمد المدعو مولاي بن علي. من الذكور.

143) مولاي علي بن المصطفى : فتح م. س، ص 68.

لماذا تم اختيـاره من طـرف المنابهة ليس فقط لـلاستقـرار ومـراقبة طـرق القوافل، بل كذلك لاتخاذه كمركز لقيادة محلية تنطلق منها الحملات باتجاه المناطق المتصلة به. والغالب على الظن أن اتخاذ مدغرة كقاعدة لقيادة محلية سواء كانت تـابعة أو مستقلة لم يكن إلا تقليدا كانت تسنه الـدول السابقة واللاحقـة عن استقرار القبائل المعقليـة بها. وهذا ما يمكن استخـلاصه من إشارة صـاحب فتح القدوس الـذي أشار إلى أن قصر تـاوريرت(144) كان محل عمال الملوك السعديين.(145) كما أن قصر سيدي أبـو عبد اللـه كان بمثابة نيـابة لدار المخزن في العهـد العلوي المتأخر، وذلك لأجل مـراقبة هذا الصقع وما يواليه من المناطق الأخرى المتصلة به.

يظهر من خلال مـواكبتنا ومتابعتنا لموقع مدغـرة من حوض وادي زيز وأهميتها كحلقة وسطى بين سلسلـة الواحات المتناثـرة على طول وادي زيز أن أهميتهـا الاستراتيجية والسيـاسية والاقتصـادية والعلميـة تستجيب في أغلبها لوضعيتهـا البيئية الفريدة. مما بـوأها مكانة خـاصة في تاريخ إقليم سجلماسة القـديم، وأهلها للعب دور هام وأسـاسي ليس فقط على المستوى المحلي الإقليمي بل وحتى على المستوى الوطني، لا سيما مع مطلع العصور الحديثة سياسيا واستراتيجيا وعلميا. بفعل استفادتها من المؤهلات السابقة الذكر علاوة على ما عرفتـه بنيتها البشرية من تطعيم الشيء الذي حولها إلى إحدى المراكز الفكرية المعطاء بالمغرب. وهذا على العموم ما سنحاول الوقوف عليه في الفصول اللاحقة.

144) يقع قصر تـاوريرت على الضفـة اليسرى من وادي زيـز وهو الآن مـن المساكن المهجـورة، تم إخلاؤه بعد فيضان وادي زيز لسنة 1965م، ويبعد عن مدينة الرشيدية بحوالي 6 كلم في اتجاه الجنوب.

145) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س، ص 69.

الفصل الثاني :

السكن بواحة مدغرة

مقدمـــة :

1 ـ القصور القديمة المندرسة :

* جدول خاص بالقصور القديمة المندرسة :

أ ـ القصور القديمة المندرسة بمدغرة :

ب ـ القصور القديمة المندرسة بالخنكَ :

2 ـ القصور القائمة :

ـ جدول خاص بالقصور القائمة بمدغرة :

قصر قلعة تاوريرت :

قصر السوق «كَصر السوكَ» :

قصر مسكي :

قصر بني محلي :

3 ـ مورفولوجية البناء : نموذج قصر سيدي أبو عبد الله

ـ نموذج المسجد (الجامع) بمدغرة.

1 ـ قسم الطهارة

2 ـ قسم تعليم الصبيان

3 ـ قسم الصلاة

المعصـــرة :

أجزاء المعصرة :

١ـ المثقل :

٢ـ اللُّولَبْ :

٣ـ الحجرة :

٤ـ الركَعة :

٥ـ الشَّمَّاشْ :

٦ـ الشوامي :

الباب الثاني :

السكن والسكان وتقسيماته بمدغرة

الفصل الثاني :

السكن بواحة مدغرة

مقدمـــــــــة :

يشكل السكن بواحة مدغرة واجهة أخرى تبرز التطورات التاريخية التي عرفتهـا هذه المنطقة، وقـد سبق أن أوضحنا في فصـول سابقة أن مـدغرة كانت منطقة مرور إجباريـة. تربط خيط الإتصال والتواصل ليس فقط بين الشمال والجنوب، بل كذلك بين شرق وغرب مـدغرة. فهي الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية المتناثرة على طول وادي زيز. مما جعل منها معبرا لعدة إثنيات بشرية بأنشطتهم الاقتصادية وإرثهم الحضاري، ويتجلى ذلك في البصمات البـارزة التي تركتهـا هذه الإثنيـات المختلفة سواء كـانت بـربريـة أو صحراويـة محضة أو مشرقيـة عربيـة. ليس فقط على ساكنـة ومجتمع المنطقة المدغرية. وما انطوى عليـه هذا المجتمع من عادات وتقاليد مختلفة الأصـول، بل كذلك في الآثـار العمرانيـة التي هي شاهـد إثبات على التطور التاريخي والبشري، والتي لم تتمكن عوامل الإدماج والذوبان وعوامل الزمن الأخرى أن تجردها من رسمها ومن خصوصياتها المتميزة.

ويمكن أن نميـز بمنطقة مـدغرة بين قصـور قـديمة تـرجع نشأتها إلى المرحلة البربـرية، وأخرى إلى المرحلـة العربية. وكل منهما يعكس نـوعا من التطـور التاريخي الـذي عرفتـه المنطقـة. مما يـدل على أن مدغـرة لم تكن لتعرف ثباتا بشريـا على مر العصور والأزمان باعتبارهـا منطقة مرور، هذا

من جهة، ومن جهة أخرى يعكس أن المنطقـة عرفت الاستقرار البشري منذ مـراحل قديمـة جـدا، يصعب تحديدهـا بـدقة، سيما مع غيـاب أي معطى تاريخي عن ذلك. وقد لعب عـامل الزمن والسيرورة التاريخية دورا كبيرا في طمس العديد من المعالم العمرانية ذات الدلالة الواضحة على التطور العمراني والبشري والتاريخي الذي شهدته المنطقـة. وعليه يمكن التمييز بين المنشآت العمرانيـة التي لم تعد باقية ولم نعـد نحتفظ إلا باسمها، ومنشـآت أخرى مازالت قائمة رغم قدمها وتوغلها في أعماق الزمن. مما يستنهض الدليل على أن تقنية بنائها كانت متكيفة مع المعطيـات البيئية القاسية وقاومت الأزمات السيـاسية والاجتماعيـة والاقتصـادية المختلفـة، وهـذا بدوره على أن هـذه القصور لم تكن منشآت عادية وبسيطة البناء.

1 – القصور القديمة المندرسة :

من خلال تفحصنا لما استطعنا جمعه من مـادة وثائقية مصدرية كانت أو مرجعية، وما عـايناه ميدانيا مدعوما بما لازالت الـذاكرة الشعبية المحلية تحتفظ به لحد الآن، نلاحظ أن أغلبية قصور مدغرة التي عفى رسمها ولم تعد حـاضرة إلا من خلال إسمها أنها تعـود في أغلبها إلى المرحلة البربـرية. ويظهر ذلك من خـلال أسماء القصور، ممـا له دلالـة واضحة على أن أولى مؤشرات الاستقرار البشري بالمنطقة تعود إلى هذه المرحلة. أي زمن استقرار قبيلة مدغـرة بهذه المقاطعة الجغرافيـة، التي مازالت لحد الآن تحمل اسمها. وقد سبق أن أوضحنـا أن غياب القبيلـة التي استمدت منهـا المنطقة الإسم قدرنـاه ابتداء من الانتصار المرابطي، وأصبحت مـدغرة منذ العهـد المذكور تتواجد فيها عناصر متعددة صنهاجية وعربية وربما مصمودية.(1) وعلاوة على ذلك تـذكر الحوليات وكتـب الجغرافيـة والرحلات بعـض القصور ذات أسماء عربية. مما يعطي الدليل على أن العنـاصر العربية طبعت المنطقة منذ العهد المرابطي وهي الفترة التي تزامن بداية انـدماج قبيلة مدغرة في العنصر العربي. وتمتـد هذه المرحلـة من الانتصار المرابطي، إلى فترة انتقـال بعض

1) انظر الباب الثاني الفصل الأول ص : 148.

الأسر الحسنية الشريفة إلى مدغرة. وهو ما يمكن أن نحدده تاريخيا من بداية القرن 5هـ/11م إلى بداية القرن 11هـ/17م.

إن محاولة القيام بعملية استخراج المعاني التاريخية من أصلها الطوبينيمي للمنطقة وعدم الاقتصار على الوصف، قد يفيد من جهة في معرفة التحولات والنتائج التي أفرزها التطور التاريخي لمنطقة مدغرة. ومن جهة ثانية يفيد في معرفة تاريخ تعمير مدغرة. بمعنى أين كانت القاعدة وإلى أين تحولت؟ وما هي الملابسات والحيثيات المرتبطة بذلك؟

إن أغلبية القصور القديمة المندرسة توجد بمدغرة السفلى والوسطى، فعلى جنبات وادي زيز بهذين القسمين من مدغرة كانت توجد العديد من القصور القديمة التي عفى رسمها ولم نعد نحتفظ إلا بإسمها، وترتبط على الراجح بالموجات البشرية التي عبرت أو استقرت بمدغرة، وتركت لنا بصمات أقدامها كشاهد إثبات.

كما أن محاولة القيام بفك رموز أسماء بعض هذه القصور قد يساعد في تحديد الإثنيات البشرية المختلفة التي استوطنت المنطقة أو خالطتها، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق نحو الغرب.

إن التأثير الزناتي المكناسي وبعده الصنهاجي وارد الحضور في منطقة مدغرة سواء من حيث أسماء الحقول بالغابة – أي بالمزرعة – أو من خلال بعض أسماء القصور، سواء المندرسة منها أو التي مازالت قائمة مهجورة كانت أو مسكونة. ويرجع تاريخ بناء مجموعة من قصور مدغرة إلى المرحلة الأولى لبداية الزحف الصنهاجي المرابطي في أواسط القرن 5هـ/11م بل وإلى أبعد من ذلك. لهذا لا غرو إذا كنا نصادف مجموعة من أسماء القصور بمنطقة مدغرة تتكرر في المناطق التي شملها الزحف الصنهاجي بالمناطق الشمالية والغربية المغربية فضلا عن الجنوبية منها. مثل قصور: أزمور – بني مكَور – تازناقت – جاوز – تسكَدلت تازروت – تاوريرت – أسرير – تاغزوت – تازوكا إلخ... ومرد ذلك – على ما نعتقد – أن القبيل الصنهاجي عندما انطلق من الصحراء في اتجاه الشمال، حملت هذه القبائل، أسماء قصورها بالصحراء واستعملتها في مواطنها الجديدة. وعلى سبيل المثال لا الحصر يكفي التذكير أن ركَراكَة وبني مكَور هم أقارب وينتمون إلى

العصبية الصنهاجية. ففي الوقت الذي قصدت فيه ركَراكَة منطقة دكالة، حيث أسسوا مجموعة من القرى والقصور والمداشر التي تحمل نفس الأسماء لبعض القصور الموجودة بمدغرة. اتجه بني مكَور صوب تافيلالت وأسسوا مجموعة أخرى من القصور، التي هي بمثابة شاهد إثبات على استقرارهم أو على الأقل عبورهم ومخالطتهم لمنطقة مدغرة. ولهذا السبب نجد أن جملة من أسماء قصور هذه الأخيرة تشترك على الأقل من حيث التسمية مع أماكن أخرى بالمناطق الشمالية والغربية من بلاد المغرب الأقصى. مما يعني أن هذه القصور سواء المتواجدة بالشمال المغربي أو جنوبه هي من إنشاء مجموعة بشرية واحدة لها فعاليتها المتميزة.

وانطلاقا من الخريطة الخاصة بالسكن بمدغرة نلاحظ أن أغلبية القصور القديمة المندرسة توجد في المنطقة الممتدة من قصر أيت مسعود(2) إلى قصر مسكي.(3) أي من الكيلومتر 5 إلى الكلم 16 على الطريق الرابط حاليا بين مدينة الرشيدية ومركز أرفود من الشمال إلى الجنوب، وهو على العموم مجال مرور القوافل التجارية. وهذا يعني أن أولى مؤشرات الاستقرار البشري كانت بهذا القسم من مدغرة، وما يعزز ذلك أن أغلبية أسواق مدغرة كانت تتمركز بهذا القسم منها. فقد ذكر شارل دوفوكو: «أن الأسواق التي كانت موجودة بمدغرة خلال نهاية القرن 19م تمركزت بقصر القصبة القديمة وقصر سيدي أبو عبد الله.(4) كما تشير الحافظة الشعبية المحلية من جهتها إلى أن قصر تيطاف(5) كان يوجد به سوق يحج إليه سكان مدغرة أسبوعيا. ويوجد سوق آخر بالبياضة قرب قصر تسكَدلت(6) القديم. ومجموع هذه القصور والأسواق توجد بهذا القسم من مدغرة. ومعلوم أن

2) يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز. انظر تحديده في الجدول الخاص بالقصور المدغرية.

3) يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، وسنحاول تفصيل الحديث عنه في هذا الفصل انظر ص 194.

4) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance au Maroc (1883-1884), paris 1888. p 352.

5) يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز بمدغرة، جنوب قصر القصبة الجديدة.

6) يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة. أنظر تحديده في الجدول الخاص بالقصور القديمة بمدغرة.

ومعلـوم أن المكان الـذي يقام فيـه السوق لا يختـار بحكم الصدفـة وإنما يخضع لمحددات جغرافية اجتماعية سياسيـة، فقد يتم اختيار محل مركزي بحيث يجسم السوق في هذه الحالـة الالتحام القبلي. كما يمكن اختيار محل هـامشي وهنـا يكـون السوق محل الالتقـاء بين جماعتيـن قبليتيـن.(7) ونعتقـد أن الأسواق بمدغرة باعتبـار وجـودها في قلب مدغرة كانت تجسد بـالفعل الالتحام القبلي، وهـذا يعني أن وجـود هذه الأسـواق بهذا القسم بمدغـرة يعتبر كمؤشـر لنـواة مـدغرة، وبـالتالي قاعـدة الاستقرار البشري الأولى لهذه الواحـة.

إن المصادر سواء تعلق الأمر بكتب الجغرافية والرحلات أو كتب الأخبار والحوليـات، لا تشير بنوع من الإسهـاب إلى القصـور القديمـة التي كـانت موجودة بمدغرة. وكل ما هو موجود في الموضوع بعض الإشارات الشاردة هنا وهنـاك حول بعض أسماء القصـور التي كانت لها أهميـة استراتيجية وسيـاسية، لكن دون تحديـد مـوقعها ولا جـوارهـا ولا تـاريخ بنائهـا أو اندراسها. وفي هذا الخصوص أورد الأستاذ عبد الكريم الفيلالي أولى قصور مدغرة قال: «نأتي على ذكر قصور مدغرة الأولى فهي على التوالي: قصر أولاد الحاج – قصر بني محلي قصر أسرير – قصر تسكَدلت – مديـونة – أولاد محمـد الكَروانـي – بني مكَـور، وهي التي حـل محلـهـا قصـر أيـت مسعـود».(8)

لقد حاولنـا أن نستنطق النصوص وأن نستخرج المعاني التـاريخية من أصلها الطوبنيمي للكشف عن أسماء القصـور المندرسة بواحـة مدغرة من خـلال المصـادر، ومع الأسف لم تسعفنـا المادة العلميـة التي استطعنـا الإطلاع عليها إلا بالقليل. هذا وإن كانت الذاكرة الشعبيـة المحلية احتفظـت لنا بمعلومـات قيمة تتعلـق بالقصور التي عفى رسمهـا ولم تعد حاضـرة في الأذهـان إلا من خـلال اسمها، ولا نستطيع أن نثبت من ذلك إلا الجدول التـالي:

---

7) رحمة بورقية : الدولة والسلطة والمجتمع. م.س ص 69.

8) أحمد بن عبـد العـزيز العلـوي المدغـري : الأنـوار السنية في نسبـة من سجلماسـة من الأشراف المحمدية. تحقيق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة المحمدية 1966، ص 74 هامش 1.

جدول خاص بالقصور القديمة المندرسة

أ – القصور القديمة المندرسة بمدغرة :

إسم القصر	موقعه
1 – قصر بْنِي مكَور	حل محله قصر أيت مسعود(9) ويوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز بمدغرة، بمحاذاة الساقية «الماكَورية» بغابة قصر أيت مسعود القديم.
2 – قصر الَحْجْرَاتْ	يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز بمدغرة، قرب قصر سيدي أبو عبد الله.
3 – قصر الْعْمَاَرْنَةْ	يوجد على الضفة اليسرى جنوب قصر هلال، وهو حاليا محل للزراعة وليس محلا للسكن.
4 – قصر لَغْرُوسْ	يوجد على الضفة اليسرى قرب قصر أيت مسعود القديم بمدغرة الوسطى.
5 – قصر هْلاَلْ	يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز، وهو الآن محل للزراعة وليس للسكن بغابة أولاد أبي ناجي.(10)
6 – قصيرة ركْرَاَكَةْ	يوجد جنوب قصر أسرير على الضفة اليمنى من وادي زيز.(11)
7 – قصر سِيبُّو	يقابل قصر تازناقت ويوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى.
8 – قصر تَازْرُوتْ	يوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة جنوب قصر بني محلي.
9 – قصر الْقَاعَةْ	يوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز جنوب قصر بني محلي كذلك.

9) أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري : الأنوار السنية م. س ص 74، هامش 1.

10) سنتناول بالدراسة والتحليل هذا القصر وموقعه وأهميته السياسية والاستراتيجية في الصفحات القادمة من هذا الفصل، انظر الصفحات 175 – 187 وذلك بالاعتماد على إحدى الوثائق المحلية.

11) ونعتقد أن الأسر المدغرية الحالية لا سيما من فئة «الأحرار» والتي مازالت تحمل كنية «الركَراكَي» تنتسب لهذا القصر، ويحتمل أن يكون أسلافهم هجروا هذا القصر. في زمن من الأزمان بعد اندثاره إلى قصر أسرير خاصة، على اعتبار أن هذه الأسر الحاملة لهذه الكنية تقطن حاليا هذا القصر.

إسم القصر	موقعه
10 – قريةاوْلَادْ بُوحُّمَو	نعتقد أنها قصر القصيبة الحالية والموجودة بين قصر تاوريرت العالية وزاوية مولاي البكري(12) على الضفة اليسرى من وادي زيز بمدغرة الوسطى.
11 – الْقَصْبَةْ الْقَدِيمَة	يوجد وسط الغابة على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى قرب قصر بني محلي.
12 – إغْرَمْ الزَّيِّين	يوجد هذا القصر وسط الغابة على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى جنوب قصر بني محلى كذلك.
13 – إغْرَمْ إرُومِيْن	يوجد هذا القصر وسط الغابة على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى، جنوب قصر بني محلي كذلك.
14 – إغْرَمْ أقْدِيمْ	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى كذلك شمال قصر الحيبوس.
15 – القصر الدَّخْلاني القديم	جنوب قصر أولاد الحاج على الضفة اليسرى من وادي زيز.
16 – قصر تِسَكْدَلْتْ التحتانية القديمة	يوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز بمدغرة السفلى قبالة قصر أولاد امحمد على الكيلومتر 14 من الطريق الرابط بين مدينة الرشيدية ومركز أرفود.
17 – قصر كَرِأُو الكَازْ	على الضفة اليسرى من وادي زيز بمدغرة السفلى قبل الوصول إلى العين الزرقاء لمسكي.

12) الغالب على الظن أن قرية أولاد بوحمو كانت تتكون من مجموعة من القصور التي كانت منتشرة بين قصر قلعة تاوريرت وقصر القصيبة الحالية. وذلك بناء على ما جاء في فتح القدوس. قال: «...وقد رغب أولاد بوحمو أولاده – يعني أولاد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر – في السكنى معهم بقراهم قد خربت الآن، وانتقل جلهم لمكناسة الزيتون». أنظر مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس، م.س ص 69.

ب - **القصور القديمة بالخنك**(13) :

إسم القصر	موقعه
1 - أُولِيتْ كِيْر	كان هذا القصر موجودا على الضفة اليمنى من وادي زيز شمال قصر صرغين.
2 - آكْبَا	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز جنوب قصر صرغين.
3 - صْرَغِيْن	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليمنى من وادي زيز شمال قصر اكبا.
4 - ابْنِي إيفُّوسْ	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز جنوب قصر تنكَبيت.
5 - أمَزُّوجْ	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز شمال قصر إنكَبي.
6 - إنْكْبِي	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز شمال تينكَبيت.
7 - تِنكْبِيتْ	كان هذا القصر يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز شمال قصر بني إيفوس.
8 - أيْتْ مُولَايْ مَحْمَّدْ	كان يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز جنوب قصر بني إيفوس.
9 - تِيمْزُوغِيْن	كان يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز جنوب قصر أيت مولاي محمد.

إن القيام بمحاولة التدقيق في أسماء هذه القصور المندرسة يفيد في معرفة أسماء المجموعات البشرية التي استوطنت أو على الأقل خالطت المنطقة، لأن منطقة مدغرة. لم تكن لتعرف الثبات البشري باعتبارها منطقة عبور من الجنوب إلى الشمال ومن شرق إلى غرب مدغرة، حيث تعاقبت على

13) ونشير إلى أن أغلب هذه القصور أعيد بناؤها في الجهة الغربية من حريم مدغرة السفلى والوسطى، وذلك في إطار إعادة بعث القصور القديمة على شكل قرى نموذجية، بعد أن هدمها فيضان وادي زيز خلال سنة 1965م.

هذه المنطقة مجموعات بشرية مختلفة الأصول خلفت بصمات أقدامها سواء على الإعمار أو المجتمع.

فمن جهة نلاحظ انطلاقا من أسماء القصور بمنطقة مدغرة أن مجموعات قبلية أخرى استوطنت مدغرة قبل السيطرة المعقلية على هذه الأخيرة، أثناء وبعد الاكتساح الصنهاجي للمنطقة مع بداية القرن 5هـ/11م. ففي أعلى مدغرة نجد قصر بني وراين، وهي إشارة إلى استيطان قبيلة بني وراين بهذا القسم من مدغرة.

تعتبر قبيلة بني وراين التي استوطنت خلال القرنين 17 و18م منطقة غرب ملوية الوسطى وشمال الأطلس المتوسط من أهم ممثلي اتحادية بني تاركَة، وقد انتقلت قبيلة بني وراين إلى المنطقة المذكورة خلال مراحل متلاحقة عبر مضيق تيزى - ن - تالغمت على حد رأي أحد الباحثين.(14) وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أعلاه من أن قبيلة بني وراين الصنهاجية استقرت بمنطقة مدغرة في الوقت الذي زحفت فيه القبائل الصنهاجية نحو المناطق الجنوبية الشرقية على غرار بني مكَور وركَراكَة، إبان ظهور نجم الدولة المرابطية بالمغرب مع مطلع القرن 5هـ/11م. ويشير الدكتور التازي سعود أن إسم بني وراين هو تحريف لاسم قبيلة كانت توجد هي الأخرى شمال الأطلس المتوسط منذ العصر الروماني على الأقل وهي بنيور baniure.(15) وإذا صح ذلك تاريخيا فيمكن اعتبارها أقدم التجمعات المنحدرة من صنهاجة التي استوطنت المنطقة المذكورة، وربما حدثت هجرة عكسية لهذه القبيلة نحو منطقة مدغرة وما إليها بسبب الضغوط المختلفة التي تلقتها أو بسبب حدوث انشطار في هذه القبيلة. حيث استمر الشطر الأول منها مستقرا بمنطقة شمال الأطلس المتوسط والشطر الثاني عرج على منطقة مدغرة واستقر في قسمها الأعلى، ولن يلتئم الشمل إلا في المراحل اللاحقة. ومع كل ذلك بقيت بقايا نرجح أنها منهم امتزجوا مع قبيلة صنهاجية

---

14) عبد الرحيم برادة : ظاهرة التنقلات القبلية في تاريخ المغرب الحديث نموذج القبائل الصنهاجية بين ملوية وغرب الأطلس المتوسط. د.د.ع التاريخ فاس 1988، ص 90.

15) محمد سعود التازي : سكان أرض المغارب في عصور التاريخ القديم. مجلة كلية الآداب فاس عدد 2 - 3، السنة 79 - 1980 ص 55.

أخـرى هي قبيلـــة أيت إزدكٍ من حلف أيت يفلمان. واستمـــر الجميع يقيم بتجمع سكني مازال يعرف لحد الآن بقصر أيت وراين.

وقد ظل قصر «بْنِي وَرَايَنْ أوْ أيْتَ وَرَايْنْ» بهذا القسم الأعلى من مـدغرة مستمر الوجود حتى نهاية القرن 19م بل وحتى الوقت الحاضر. فقـد ذكر شارل دفوكو(16) خلال نهايـة القرن 19م قصر بني وراين ضمن قصـور مـدغـرة العليـا، وكـان آنـذاك يتكـون من ثـلاثـة قصـور تقع بين قصري الرحبة(17) وتيغيورين.(18)

ومن جهة أخـرى نلاحظ أن من بين قصور مدغـرة السفلى يوجد قصر «مَـدْيُونَـةْ» الذي يتمـوضـع جنوب قصر بني محلي على الضفـة اليمنى من وادي زيز وقبالة قصر تازناقت على الضفة اليسرى من وادي زيز. نعتقد أن وجود هـذا القصر في مجال قبيلة مـدغرة مرتبـط بوجود جماعـة مديـونة البربرية ولاء بهذه المنطقة. فقد أشار مؤرخ الأحلاف البربرية المغربية التقي العلوي أن مديونة هي عبارة عن تجمع بـربري كانوا زمن الفتح الإسلامي العربي يقطنـون النواحي المجاورة لتلمسان ابتـداء من الجبل المعروف الآن بجبل بني راشــد إلى الجبال الواقعــة قبلة وجـدة والتي تحمل اسمهم الآن، ومنــذ ذلك التاريخ بـدأت جموعهم ترحل نحـو الأندلس والمغـرب الأقصى وخاصة عنـدما عجزوا عن مقاومة زناتــة من بني توجين وبني راشد التي غزت المغـرب الأوسط.(19) وقـد ارتبطت فرق مـديـونة بعـدة نـواحي من المغـرب الأقصى فبعض تلك الفـرق انقرضت وانمحت مـن الوجـود. وذلك باندماجها في الغير ونسيان الأصـول الأولى، لكن مواقعهم الجغرافية ماتزال بمثابة بصمات أقدام وبمنزلـة دليل محسوس على ارتباطهم بذلك الموقع في زمان من الأزمان. وبعضـها ما يزال معروفا بالأسماء القديمة إلى اليوم، فمن النوع الأول نـذكر بعض المواقع على سبيل المثـال لا الحصر: جبال مديـونة

---

16) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance au Maroc, op cit, p 351.

17) يوجد هذا القصر في أعلى مدغرة على الضفـة اليسرى من وادي زيز. ويتكون حاليا من قصرين : الرحبة الجديدة والرحبة القديمة.

18) يوجد هذا القصر في أعلى مدغرة على الضفة اليسرى من وادي زيز، شمال قصر بني وراين.

19) عبد الرحمان ابن خلدون : العبر م.س، ج 6 ص 165.

الواقعة جنوب وجدة، وعين مديونة التـابعة لثلاثاء بني وليد بورغة العليا، وتجمع سكنى بوادي مـدغرة إخـوانهم بناحيـة الرشيديـة. ومديـونة التي استوطنت بين فاس وصفرو. ومن النوع الثاني قبيلة هامة التحقت بأرض تامسنـا في وقت من الأوقات والتجأت إلى جوار من تجمعهم وأيـاهم اللحمة الزناتية، وشكلت معهم حلفا للدفاع عن المصالح المشتركة، وارتبطت بالمواقع التي نهضت فيها مدينة الدار البيضاء، وتنحصر بلادهم الآن فيما بين بلاد زناتـة شرقا، وبلاد أولاد زيـان وأولاد حريز جنوبـا، وبلاد السوالم غـربا، وميـاه المحيط شمالا، ويشق ترابهـم وادي بـوسكـورة المنحدر من تـــراب أولاد حريـز.

أما مـديونـة فاس فلم يعـد باقيـا منها لا اسم ولا رسم، ولـو لم يكن البكري قد سجـل لنا أن جبل مديونة واقـع بقبلة فاس(20) الذي يمكن أن نترجمه بجبل كندر ومـا يليه لما اهتدينـا حتى إلى مواقعهـا. ذلك أنها كانت ضمن حلف سبو المؤلف من قبائل بني فاتن وغيرهم، ذلك الحلف الذي أخذ على عاتقـه مهمة الصمـود أمام هجـومات ابـن تاشفين على المنطقـة. وبعد الحروب الطاحنة التي انتهت إلى تشتيت شملهم وتدمير حصونهم أكثر مما أصابهم.(21)

وعلى العموم تتركب قبيلة مديونة من ثمانية فرق وهي : أولاد مجاط – حارث – أهل التيرس – أولاد حدو – أولاد مسعـود – جعافرة – أولاد عمر وعمامرة.(22) ونعتقد أن قصر أيت مسعود الموجود على الضفة اليسرى من وادي زيز بمـدغرة الوسطى بين قصري القصيبة وتـاوريرت له عـلاقة مع إحدى فـرق مديونة – افتراضـا – ويتعلق الأمر بالفرقـة الخامسة المسماة «أولاد مسعود» على الأقل من حيث التسمية.

نعتقد أن تسميـة مديونة آتيـة من التمدين على اعتبار أن اسم مديـونة ليس لها معنى في الاصطلاح اللغوي البربري – فيما نعلم – فهل هذا يعني أنها من القبائل العربية؟

---

20) البكري : المغرب م.س ص 145.

21) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب م.س، ص 87.

22) Villes et tribus du Maroc. casa 1960, t III p 15.

من خلال رصـدنا لمختلف المواطن التي استقرت بها مديـونة في مختلف البقاع بـالغرب الإسلامي، نـلاحظ أنها توجـد على طرق القوافل وبجـوارها السكن العمراني المبني. ويحتمل ابن خلدون أن تكون قبيلة مـديونة بربرية بالولاء وليس بـالأصل والنسب، مما يعني أن مديونـة هم رعاة يسيطرون على الطـرق القوافليـة من أجل أخـد «الزطـاطـة»، الشيء الذي كـان يتحكم وبشكل كبير في انتشـارهم في منـاطق متعـددة لاسيما على حـوافي الطـرق التجـارية، وكـان هذا التحكم يتـذبـذب إلى حد كبير مع تغير المعطى العـام لتطـور الأحداث بـالمغـرب، مما جعلهم يتـأرجحون بين التنقل والانقـراض أحيانا.

كما أن قصر بني مكَور(23) وقصيرة ركَراكَة(24) يحملان أكثر من دلالة فهما معا يرتبطان بالزحف الصنهاجي. ذلك أن هذا القبيل عندما انطلق من الصحـراء في اتجاه الشمال حمل أسماء قصـوره بالصحـراء واستعملهـا في مواطنه الجديدة. فقد أشار محمد المختار السوسي إلى أن «صنهاجة وركْراكَة ودغوغ اقتسمـوا البلاد بينهـم، فصح لرجـراجة ما حـول البحر كلـه حتى وادي شيشاوة إلى فم القاهرة وحاحة والشياظمة وأحوازها جميعا والسوس كله والصحراء إلى الساقية الحمراء...».(25) وإن كان هـذا طبعا لا ينفي أن تكون بعض البطـون والأفخاذ من فرقـة ركَراكَـة قد اندست في فـرقة بني مكَور وقصدت بـدورها تافيلالت، وخلفت لنا بصمات أقدامهـا الذي تشهد به معلمـة طوبنيميـة بمدغـرة السفلى: فالـذاكرة الشعبيـة المحلية تشير إلى وجود قصيرة رَكَـراَكَةْ على الضفـة اليمنى لنهر زيـز بمدغـرة جنوب قصر أسرير.(26) بينما استقـرت فرقـة بْنِي مَكَـورْ بمدغـرة الـوسطى وأسست تجمعـا سكنيـا يحمل اسمهم ويتعلق الأمـر بقصر بْنِي مَكَـورْ (27) الذي

23 ـ 24) انظر موقع هذين القصرين بالخريطة الخاصة بالسكن رقم : 5. والجدول الخاص بالقصور القديمة المندرسة.

25) محمد المختار السوسي : المعسول، ج 4 ص 9. الدار البيضاء 1960.

26 ـ 27) وقد سبق أن أثبتنـا موقع القصرين بـالجدول الخاص بالقصور القـديمة المندرسـة. انظر الصفحة 175 – 190.

تنتسب إليه «الساقية الماكَورية». كما أن بعض الأسر لا سيما من فئة «الحراطين» مازالت لحد الآن تحمل كنية «الماكَوري» نسبة للقصر وقبله الفرقة الصنهاجية السالفة الذكر. وبني مكَور في الاصطلاح اللغوي البربري كلمة بربرية معناها بالعربية الأرملة أو المعلقة.(28) وقد أدرج الأستاذ عبد الكريم الفيلالي هذا القصر ضمن القصور القديمة المندرسة بمدغرة، وهو القصر الذي حل محله قصر أيت مسعود.(29) وإلى هذا القبيل الصنهاجي تنتسب أيضا مجموعة من القصور الأخرى سواء تلك التي مازالت قائمة أو اندرست بفعل عامل الزمن، ونشير في هذا الخصوص إلى قصور تاوريرت – تاركَة – أزمور – أسرير تسكَدلت وغيرها، وكلها تسميات نجد لها مثيلا في سوس ودكالة. أي المناطق التي عبرتها أو استقرت بها القبائل الصنهاجية بمختلف فرقها وبطونها.

هْلاَلْ من القصر إلى المزرعة :

إلى جانب هذه القصور التي نعتقد أنها شيدت على الراجح خلال المرحلتين الزناتية والصنهاجية، هناك قصور أخرى مندرسة شيدت على عهد الانتشار المعقلي على مناطق الواحات أي خلال مرحلة القرنين 7 و8هـ/13 – 14م. وفي هذا الخصوص نشير إلى قصر هلال. فقد أورد المقدسي خلال القرن 4هـ/10م اسم هذا القصر ضمن المناطق الواقعة في طريق سجلماسة. قال: «وأما سجلماسة فهي اسم القصبة ولها من المدن: درعة تادنيقوست أثريلا – يلميس – حصن ابن صالح – النحاس – حصن السودان – هلال – أمصلي – دار الأمير برارة – الخيامات – تازروت».(30)

---

28) التشوف إلى رجال التصوف م.س ص 215 هامش 482. ص 408 هامش 267.

29) أحمد بن عبد العزيز العلوي : الأنوار. م.س، ص 74 هامش 1.

30) المقديسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليدن 1909 ص 219.

إن مواقع أغلب هذه الأماكن التي ذكرهـا المقديسي يظل مجهولا وغامضا في ضوء معلـوماتنـا الحالية، ولا نتـوفر على مـا يقابل أسمائهـا بالمنـاطق المختلفـة لإقليم سجلماســة، وهذا مـا يـؤكـد التغييرات الكبيرة التي لحقت أسماء الأماكن نتيجـة التحولات الاجتماعية المهمـة التي عرفها تـاريخ هذه المناطق منذ القرن 4هـ/10م إلى الفترة المعاصرة.

لقد اقتصر فهمنا لكلام المقديسي في النص أعلاه على تحديد بعض المواقع فقط، فقولـه بأن سجلماسة كانت تضم مدينـة درعة لا يخرج عما ورد في النصوص الجغـرافية القديمـة من كون منطقة درعة كـانت تابعة لـلإمارة الخارجية الصفرية.

كما أن كلمـة «تـادنيقـوست» لا يـوجـد مـا يقـابلهـا سـوى كلمـة: «تَـادِيغُـوسْتْ» وهي التي تطلق على القسم الأعلى مـن وادي غريـس على الطـريق الرابــط بين هذا الـوادي والقسم الأعلى من وادي زيـز، كما هـو واضــح في الخريطـــة الخاصــة بــالـوحــدات التضاريسيـــة لإقليـــم سجلماســة.(31)

أما لفظ يلميس فلا وجود لـه في أسماء الأماكن التابعة لسجلماسة. غير أنه إسم يطلق على منطقـة تقع على الطريق التجاري الـرابط بين سجلماسة وفاس في مجالات قبائل أيت يـوسي على بعد مرحلة من صفرو، ومـركزها الحضري يحمل اليوم إسم «أَلميس كَيكَو».(32)

أما كلمـة تازروت فقد أكـد أحد الباحثين أنها اسم لمنطقـة تضم مناجم فضة مستغلة منذ وقت مبكـر في جبل أُوكَنَاتْ، ويعرف أهم منجم بها اليوم باسم : «بُومَعْدَنْ» الذي يقـع على بعد خمسة وخمسين كلم شمال غرب ما كان يعرف بمـدينة «سجلماسة» في منطقة تحمل اليـوم اسم تازروت.(33) وقد سبق أن أوضحنـا كذلك أن تازروت هـو اسم لأحد القصور القـديمة المندرسة بمدغرة.(34)

---

31) أنظر الخريطة رقم : 3.

32) لحسن حافظي علوي : سجلماسة وإقليمها ص 23.

33) Meunie (D.J) : le Maroc saharien, op cit, t 1 p 220.

34) انظر الجدول الخاص بالقصور القديمة المندرسة بمدغرة جدول «أ» ص : 168.

ويمكن أن نقابل كلمة «أثريلا» التي ذكرها المقديسي في النص أعلاه باسم منطقة من عمل مدغرة مازالت حتى الوقت الحاضر تعرف باسم «تَارْدَا» والموجودة بحريم مدغرة العليا إلى الجهة الشمالية الغربية منها.

كما أن كلمة «هْلاَلْ» التي ذكرها المقديسي في النص أعلاه. قد وردت عند الحسن الوزان خلال القرن 10هـ/16م كإسم لأحد القصور الكبرى بمنطقة مدغرة على بعد مرحلتين أو ثلاثة مما كان يعرف سابقا بمدينة «سجلماسة» باتجاه الشمال. وهذا نص كلام الوزان: «مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة - يعني دائرة الخنكَ - في اتجاه الجنوب خارج المضيق وتحتوي على قصور عديدة أهمها القصر المسمى هلال، وفيه يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخذ من قبيلته تعيش في البادية تحت الخيام وأخرى كذلك بالقصر مع بعض الجنود».(35) وهذا يعني أن مدغرة أصبحت معقلية تعربت سلاليا وأصبحت السيادة في التسيير لعرب المعقل وذلك منذ بداية القرن 16م أي زمن مرور الوزان بها. وإذا صح أن منطقة هلال التي كانت تابعة لسجلماسة زمن المقديسي هي قصر هلال الذي تحدث عنه الوزان خلال القرن 10هـ/16م، فإن هذا يعني أن هذا القصر كان موجودا منذ مرحلة ما قبل سيطرة قبائل بني معقل على الواحات الجنوبية. فقد ذكر هلال قبل المرابطين عند المقديسي ونعتقد أن إسم هلال جاء من الشعار الإسلامي «الْهِلاَلْ» أو ربما يرتبط بالمجموعة الهلالية العربية التي أتت إلى المغرب، لأن المقديسي عاش خلال بداية مرحلة وصول قبائل بني هلال إلى إفريقية هذا من جهة. ومن جهة أخرى يبدو أن استقرار حاكم الدائرة المدغرية العربي المعقلي بهذا القصر الذي أصبح خلال هذه المرحلة قاعدة للقرار السياسي والإمداد العسكري ما هو في حقيقة الأمر إلا إحياء للدور الذي كان يلعبه هذا القصر منذ زمن ما قبل المقديسي. وذلك لاعتبارات ترتبط أساسا بأهميته الاستراتيجية في مدغرة، إذ لا يستبعد أن يكون هذا القصر بمثابة مركز يراقب جميع الطرق التي كانت تمر عبر مدغرة بمعنى أنه كان مركز مراقبة أكثر منه منشأة عمرانية وسكنية عادية، ويعني هذا

35) الوزان : وصف م. س. ج 2 . ص: 123.

من جهة ثانية أن منطقة مـدغرة لم تعرف لمدة تزيد عن 5 قرون فيضانات خطيرة بـدليل استمـرار وجـود هـذا القصر منـــذ عهـد المقـديسي إلى زمن الـوزان. أي من القـرن 5هـ/11م إلى القرن 10هـ/16م أو أنه تـم تجديده ولم يقـــع فيه أي تغييــر يمكـن أن يأتي عليـــه، واستمـر قائــمـا لمـــدة خمســة قـرون.

إن قصر هْلاَلْ الذي استمر قائما بمدغرة خلال زمن عبور الوزان لها لم يعـد يذكـر في الوقت الحاضر حتى بـالإسم. فصاحب الـدرر البهية الـذي تحدث عن مجموعة من القصور التي انتقل إليهـا بعض شرفاء تافيلالت،لم يـدرج قصر هلال ضمن هـذه المنشآت السكنيـة، مما يعني أن قصر هــلال إندثر منذ زمن انتقال هؤلاء الأشراف إلى مدغرة،أو أنه لم يكن يحظى برغبة الشرفاء كمستقر جديد لهم. لاعتبارات قد ترتبط بكونه كان مستقرا للحاكم العربي المعقلي حسب روايـة الوزان، سيما وأن انتقـال بعض الأسر الشريفة من وادي إفلي إلى مدغـرة زامن مرحلـة السيطرة المعقليـة على مدغـرة. قال الفضيلي: «...وبعده انتقلوا لمدغرة وغيرها فنزلوا من مدغرة بقصبة تازناقت والقصر البراني وقصر أيت مسعـود وقصر أزمـور وقصر لغـروس وقصر العمارنة بـالنون وتـاركَة والقصبـة القديمـة والقصبة الجديـدة والحيبوس وزاويـة مديـونة وتيطـاف وقصر سيدي أبـو عبد اللـه والقصر الدخـلاني والقصر الجديد وتـاوريرت والقلعة والحوش وقصر مـولاي البكري وقصر بني موسي وقصر كَرأوالكَاز وقصر جاوز، وهذه القصـور كلها بمدغرة».(36) وأغلب هذه القصور مازالت قائمــة وحديثة العهد. لأن الفضيـلي يتكلم بروح عصره نهاية القرن 19 ومطلع 20م. ومن خلال هذه الشهــادة لا نجد إشارة إلى قصر هلال. إلا أنه إذا عدنا إلى الوثائق والـرسوم العدلية المتعلقة بمدغرة نجدهـا تنص على إسم «هْلاَلْ» كإســم وعلم على ساقيه مـاء تسقي المزارع واسما يطلق أيضا على حقـل فلاحي بغابـة مدغـرة. مما يثبت انـدراسه في المراحل المتأخرة.

---

36) مولاي إدريس الفضيلي : الـدرر البهية والجواهر النبـوية في الفروع الحسنية والحسينيـة، طبعة حجرية فاس 1314هـ، ج 1، ص 231.

كما أن الرحالة شارل دفوكو الذي زار منطقة مدغرة خلال نهاية القرن 19م لم يدرج إسم هلال ضمن قصور مدغرة التي كانت قائمة آنذاك. ومعلوم أن هذا الرحالة دخل المغرب متقمصا شخصية تاجر يهودي كان يقوم بجمع كل المعلومات لصالح الدولة الفرنسية التي كانت تستعد آنذاك لغزو المغرب. بمعنى أنه لم تكن تغيب عنه لا صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها، وغياب إسم قصر هلال ضمن القصور التي ذكرها هذا الأخير بمدغرة(37) دليل على عدم وجوده خلال نهاية القرن 19م. مما يستنهض الدليل على أن هذا القصر لم يبق له وجود منذ مراحل سابقة عن القرن 19م. بدليل أن كل المصادر والمراجع التي واكبت وتابعت تطور الأحداث بمدغرة قبل القرن 19م لم تذكر هذا القصر، باستثناء ما جاء عند المقديسي والوزان ومارمول.(38) وهذا ما لا ينطبق على قصور العمارنة ولغروس المندرسة كذلك الآن، التي ذكرها الفضيلي(39) ودوفوكو.(40)

إن القيام بمحاولة توطين هذا القصر بواحة مدغرة يبدو أمرا في غاية الصعوبة: فالمقديسي الذي ذكر هذا القصر لأول مرة كما لاحظنا ذلك من خلال النص، أعلاه أدرجه مع مجموعة مناطق أخرى تختلف بيئيا وتتباعد جغرافيا، كما أن الوزان الذي ذكره كذلك خلال القرن 10هـ/16م لم يذكر لا موقعه ولا جواره ولا حتى الضفة التي يتموضع فوقها. قال: «مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة في اتجاه الجنوب خارج المضيق وتحتوى على قصور عديدة تقع كذلك على وادي زيز وأهمها القصر المسمى هْلاَلْ، وفيه يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخذ من قبيلته تعيش في البادية... وهناك قصور ومداشر أخرى كما شاهدت ذلك بنفسي لكنها كلها بائسة».(41) نعتقد أن اقتصار الوزان على ذكر قصر هلال دون الإشارة لا إلى موقعه ولا إلى جواره مرتبط بصعوبة المرحلة التي مر الوزان خلالها بمنطقة مدغرة. ذلك أن هذه

37) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance au Maroc, op cit, pp 351-352.

38) مارمول : إفريقيا، ج 3 ص 155.

39) الفضيلي : الدرر البهية م. س، ج 1 ص 231.

40) Faucauld (ch. de) : op cit, ibidem.

41) الوزان : وصف، م. س، ج 2 ص 123.

الفترة تميزت بالفراغ السياسي بالمغرب عامة والمغرب الصحراوي بوجه التخصيص، ففي هذه الفترة كان المغرب تتوزعه القيادات المحلية ولم يكن بإمكان السلطة الوطاسية مراقبة كل الأقاليم المغربية، لا سيما النائية منها التي كانت تحكم نفسها بنفسها، وقد كانت بلاد ما وراء الأطلس التي تندرج منطقة مدغرة ضمنها موكولة إلى نفسها، وخاضعة لسلطة الأعراب وفي كلام الوزان ما يؤكد ذلك. قال: «... وفيه – أي قصر هلال – يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخذ من قبيلته تعيش في البادية تحت الخيام وأخرى كذلك بالقصر مع بعض الجنود لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح. فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا وجردوا التجار والرائدين».(42)

إن شح المعلومات التي ميزت وصف الحسن الوزان وقبله المقديسي لقصر هلال لم تكن كعامل يعرقل عملية البحث عن مكان وجوده بمنطقة مدغرة. فقد وجدنا ضالتنا في إحدى الرسوم العدلية المحلية التي تشير إلى وجود فَرْدِي(43) بغابة أولاد أبي ناجي(44) يحمل إسم هلال وبمحاذاته تجري ساقية كبيرة تعرف باسم الساقية الْهْلَالِيَّةْ. ومما جاء في هذا الرسم: «الحمد لله اشترى بحول الله التهامي بن علي بو بكر من حراطين توريرت مدغرة من البائع له بلديه الشريف سيدي محمد بن علي بن محمد ما له معه شيوعا ببقعة هْلَالْ من مزارع أولاد أبي ناجي، وهو الربع من الفردي بما اشتمل عليه بياضا وسوادا من الزيتون والنخيل الذي له معه داخل الفردي المذكور وخارجه، قرب الساقية الكبيرة المسماة بالْهْلَالِيَّةْ».(45) ومعلوم أنه في منطقة مدغرة تحمل السواقي أسماء القصور التي تزعمت تشييدها لسقي مزارعها. فعلى سبيل المثال يكفي التذكير بالساقية

42) الوزان : وصف، م. س، ج 2 ص 123.

43) الفردي هو الحقل الزراعي الذي يحرث ويزرع. ونستشف من رسوم الملكية العقارية بمنطقة مدغرة أن الفردي غالبا ما كان يخصص لزراعة منتوج القمح أو الفصة، وليس له قياس مساحي محدد. إلا أن الأكيد أنه أكبر الوحدات الإنتاجية، ويشتمل على البياض والسواد معا.

44) يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي مدغرة قرب قصر أولاد الحاج. ويبعد عن مدينة الرشيدية باتجاه الجنوب بحوالي 3 كلم.

45) أنظر الوثيقة رقم : 3 في الملحق الوثائقي الخاص.

«اَلْمَاكَورِيَّـةْ» نسبة لقصر بني مكّـور السالف الذكـر والساقيـة «الْـحَاجِيَّةْ» نسبة لقصر أولاد الحاج، والساقية «اَلْمْحَلَّوِيَّةْ» نسبة لقصر بني محلي، وهكذا دواليك. من هنا لا يستبعـد أن تكون السـاقية الهلالية التي ورد ذكـرها في هذه الوثيقة ترتبط بقصر هلال المندثر هذا من جهة، ومن جهة أخرى نعلم أن بعض أسماء الأمـاكن «بالغـابة» – أي المزرعـة – ما هي في الغـالب إلا أسماء قصور كانت قائمة إما داخلهـا أو بجانبها لضرورة مرتبطة بمباشرة العمل الزراعي وحماية الغلل. ويدخل في هذا الخصوص أن القصور القديمة المتلاشية البناء التي تكون وسط المزارع تهدم ليستغل ترابها أو ما يصطلح عليه محليـا «تْرَابْ الرْدَّمْ» في العمليـة الزراعية، وذلك لجودة هـذا النوع من التربة في العمل الفلاحي وأهمية مـردوديته. وقد سبق أن أوضحنا في الباب الأول أهمية تراب الحفاري الموجودة بجـانب القصور في «الرَّكَزْ» وفي العمل الزراعي.(46) وقد عـاينا أن عددا من قصـور مدغرة القـديمة كانت تـوجد داخل الغـابة، وذلك لاعتبـارات مرتبطـة بمباشرة العمل الـزراعي وحراسـة الحقول من هجومات قبائل الرحل خاصة. من هنا – على ما نعتقد – جاءت تسمية القصر الـدخلاني – أي القصر الذي يـوجد داخل الغـابة – والقصر البراني أي الذي يوجد على حافة الغـابة. وعلى هذا الأساس أيضا نعتقد أن بقعة هلال التي ورد ذكرها في هذا الـرسم كإسم لأحد فدادين مزرعة قصر أولاد أبي ناجي، ما هـو في حقيقة الأمر إلا إسم للمكان الذي كان يـوجد به قصر هلال الذي ذكره المقديسي خلال القرن 4هـ/10م، والوزان خلال القرن 10هـ/16م، ومع مـرور الـزمن أصبـح هـذا القصر محلا لمزاولـة النشـاط الزراعي بعدما اندثر، ولم يعد مكانا للسكن كما كان من قبل.

وبخصوص تحول القصور القديمة المندرسة إلى محلات لمزاولة النشاط الزراعي لا يقتصر الأمر على قصر هلال. فقصر تازناقت القديم كان موجودا داخل الغابة، وقد عـاينا موضعه في فدان(47) كبير مـازال يحمل لحد الآن اسم فدان تازناقت. وكذلك قصر العمارنة الـذي لم يعد حاليا مكانا للسكن

---

46) انظر الباب الأول الفصل الثاني.

47) الفدان هـو بصورة عـامة الأرض التي تحرث وتـزرع، وحسب ما تفيدنـا به الـرسوم العـدلية المتعلقة بـالعقار أن الفـدان بمدغـرة ليس له قيـاس مساحي محدد. وهو إلى جـانب ذلك الحقل المشتمل على البياض والسواد معا.

بل أصبح محلا زراعيا، ونفس الشيء بالنسبة لقصر أيت مسعود القديم(48) وقصر لغروس.(49)

كما إن قصر العمارنـة الذي ذكـره مـولاي إدريس الفضيلي كواحـد من القصور التي استوطنها شرفاء قصور وادي إفلي بعد انتقالهم إلى مدغرة، لم يعد له وجود خـلال نهاية القرن 19م، بدليل أن شارل دوفـوكو لم يدرجه ضمن قصور مدغرة. والراجح أنه لم يعد له وجود خلال الفترة التي مر بها هذا الرحالة بالمنطقة والتي توافق سنتا 1883 – 1884م، أما في الوقت الحاضر فلا يذكر إلا كمحل للغراسة وليس كمحل للسكن كما كان من قبل.

نعتقد أن هذا القصر يستمـد إسمه من القبيلة العربيـة المعقلية العمارنة من فرقة بني عـامر التي كانت تسيطر على واحـات زيز الأوسط إلى جانب المنابهة المعقليين كذلك. وخلفت لنـا بصمات أقدامها، ويشهد على ذلك قصر العمارنة بمـدغرة وقصر آخر يحمل نفس الاسم بمنطقة الـرتب إلى الجنوب من مدغرة. ويتعلق الأمر هنا بقصر أَوْلَادْ عْمِيَرَة.

إلا أن ما يستـوقفنا بخصوص قصر هلال أن هـذا القصر حسب رواية الوزان كان بمثـابة محل إقامة لأمير دائرة مـدغرة بمعنى أنه كـان عاصمة لهذا الإقليم وكمـركز لـلإمداد العسكـري والقـرار السياسي خـلال مرحلـة السيطرة المعقلية على الواحات، وهذا يدل بصورة أكثر تدقيقا، أنه كان ثكنة عسكريـة وقلعة. وليس بخاف على أحـد أن القصبات والقلاع كـانت تتميز بمتانـة البناء، الشيء الذي كان يـؤهلها للصمود أمـام أي هجوم محتمل أو أمام عوامل الإندثار المختلفة. وغالبا مـا يختار لها موضعا عاليا فوق كدية أو ربوة لتمييـزها وتجنيبها أخطـار الهجومـات والإندثار، وذلك استجـابة للظروف السيـاسية والاقتصـادية والأمنيـة. إلا أن هذه المواصفـات على ما يظهر، لم تكن تميـز قصر هلال وإلا كيف يمكن تفسير اندثاره خـلال هذه المدة الزمنية الوجيزة؟ بعدما حافظ على وجوده لمدة تزيد عن خمسة قرون كما أسلفنا سابقا، خاصة إذا قارناه ببعض القلاع الأخرى الموجودة بمدغرة

---

48) كان قصر أيت مسعود القديم يوجد وسط الغابة بمحاذاة الوادي – زيز – على ضفته اليسرى.

49) كان قصر لغروس يوجد على الضفة اليسرى من وادي زيز جنوب القصر الدخلاني، أما الآن فلم يعد يذكر إلا كمحل للزراعة.

والتي مـازالت تحافظ لحد الآن على تماسكهـا وبنيانها المتراص ومميـزاتها التحصينية والـدفاعية. وفي هـذا الخصوص نشير إلى قلعة قصر تـاوريرت، فقد جاء في مخطوط فتح القدوس أن «قلعة قصر تاوريرت كانت محل عمال الملوك السعديين».(50) وقـد سبق أن أوضحنـا أن اتخاذ قلعـة تـاوريـرت كمحل للعمال والولاة من قبل الدولة السعدية لم يكن إلا تقليدا كانت تسنه الدول السـابقة واللاحقة. لهذا حـافظت هذه القلعة – على مـا نعتقد – على متانة بنائها وأصبحت من الثـوابت الشاهدة على الأدوار التي لعبتها على مر التاريخ منذ تم تخطيطها كقلعة من قبل القبـائل الصنهاجية. وهذا بإمكانه أن يؤكـد أن قصر هلال الـذي تحدث عنه الـوزان خلال القـرن 10هـ/16م والـذي كـان بمثـابـة إقـامة لأمير الـدائرة المدغـريـة، لم يكن يتـوفـر على التحصينات الكافية التي تجعل منه معلمة حربية، باستطاعتها الصمود أمام عـوامل الإنـدثـار بشكل عـام. والأرجح أن يكـون قصر هـلال من المعـالم العمرانيـة التي سهر على إنشائها الأهـالي. مما انعكس انعكاسـا مباشرا على هيئـة تحصيناتـه وتصميمهـا إذا ما قـورنت بأسـوار وتحصينات المراكـز والقلاع الكبيرة، التي تتولى السلطـة الدفاع عنها من الأخطـار الخارجية هذا من جهـة. ومن جهة أخـرى، نـلاحظ أن القبيل العـربي المعقلي الذي كـان يسيطر على منطقة مدغرة خلال هذه الفترة والذي اتخد قصر هلال كمقر له لم يكن بعد – على مـا نعتقد – قد تلمس طريقه نحـو الإستقرار بشكل كلي وبالتـالي التفكير في التحصين والتشييد والبناء. فقد ذكـر الوزان أن في قصر هلال هذا كان: «يقييم أمير الدائرة وهو عربي وله فخد من قبيلته تعيش في البـادية تحت الخيـام وأخـرى كذلك بـالقصر مع بعض الجنـود».(51) ولا نستبعد أن يكون المقصود بالمكـان الذي كان يقيم فيه الفريق المعقلي المتنقل «البادية تحت الخيام حسب تعبير الوزان في النص أعلاه» هو جبل «أفردو» إلى الغـرب من مـدغرة أو «الـدار الحمـراء» إلى الشرق منهـا. وهذه المعـالم الجغرافيـة هي بمثابة حدود لحريم مـدغرة، وهذا يعني وانطـلاقا من نص الحسن الوزان أن ظـاهرة البداوة هي السمـة الطاغية على هـذا القبيل الذي

50) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 69.

51) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123.

سيطر على منطقة مدغرة وما إليها. وأن همه ليس هو الإستقرار وما يرتبط به من تحصين وبناء، ولا حتى تغيير مجال بآخر. ولكن كان هو مراقبة طرق القوافل ونهب التجار والرائدين. وذلك بشهادة الوزان قال: «فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا وجردوا التجار والرائدين».(52)

إن الهيمنة والسيطرة التي مارستها القبائل العربية المعقلية على منطقة مدغرة قد تكون علاوة على الصعوبة السياسية والأزمات المناخية هي السبب في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بهذه المنطقة، فقد ذكر الوزان أن القصور الأخرى الموجودة بمدغرة باستثناء قصر هلال،محل إقامة القائد العربي، كانت تعرف أوضاعا متردية إلى درجة البؤس،قال: «وهناك أيضا قصور ومداشر أخرى كما شاهدت ذلك بنفسي لكنها كلها بائسة».(53) لأن الإعتماد على الحياة الفلاحية كان لا يكفي لتحقيق العيش الكريم للساكنة المحلية. فطبيعة التقشف هي السمة التاريخية الطاغية، ومن ثم كان اللجوء إلى نهب القوافل. ولهذا السبب أيضا لم يتمكن الوزان من المكوث بهذه المنطقة،وإنما اتخذها كنقطة عبور وذلك لاعتبارات أمنية أساسا. الشيء الذي جعل معلوماته حول منطقة مدغرة تتسم بالشح المفرط. لأن الفترة الزمنية التي خضعت فيها مدغرة لسيطرة الأعراب اتصفت بالتذبذب بين الولاء للقيادات المحلية والولاء للدولة المركزية سواء بفاس أو مراكش، وهذا ما يفسر لماذا لم يفكر ذلك القائد العربي المعقلي الذي استقر بقصر هلال بمدغرة في تحصين هذا القصر بما يتناسب مع استراتيجيته في هذه المنطقة الحساسة.

فكل هذه العوامل مجتمعة – على ما نعتقد – قد تفيد في تفسير لماذا اندثر هذا القصر واختفى بهذه السهولة خلال هذه المدة الوجيزة، وتحول بسرعة كبيرة من منشأة حربية إلى مجرد إسم لأحد «فدادين» غابة قصر أولاد أبي ناجي، حسب ما نصت عليه الوثيقة المنصوص عليها سابقا. ومن خلال المواصفات المسطرة في هذا الرسم العقاري وما عايناه ميدانيا فإن

52) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123.

53) الوزان : وصف. م. س، ج 2 ص 123.

موضع قصر هلال يوجد في الوقت الحاضر بين قصر أولاد أبي ناجي والقصر الدخلاني في موضع وسط الغابة يعرف «بِالبِيَّاضَةْ»، وسمته الخاصة هي كثرة وجود الملح. مما يجعل نباته الزراعي ضعيفا جدا حسب ما أفادتنا به الرواية الشفوية.

صحيح أن عامل الحروب والصراعات بين القصور كانت واحدا من بين مجموعة الأسباب والعوامل التي كانت تتسبب في تدمير المنشآت السكنية. إلا أنها مع ذلك، تبقى ظرفية من جهة وغير فعالة في إقبار هذه المعالم السكنية بشكل كلي. حيث إن الحروب والصراعات بين القصور كانت تتسبب في تدمير واجهة منها في الحالات الشاذة ولا تأتي عليها كلها، ليبقى للكوارث الطبيعية وفي مقدمتها الفيضان النهري الدور الفعال في اندراس مجموعة من القصور. وبهذا الخصوص نشير إلى الفيضانات التي كانت تتردد على منطقة مدغرة، وقد سبق أن أوضحنا فيما سبق(54) أن مدغرة كانت تعرف فيضانات مهولة ومع أنها محدودة إلا أنها تتسبب في إلحاق أضرار بالغة وكبيرة بالمنتوجات الزراعية لا سيما الخريفية منها، لأن الفيضان النهري غالبا ما يتزامن مع هذا الفصل. ولا يشمل ضرره المنتوج الفلاحي فحسب، بل يطال حتى السكن العمراني المبني. وبهذا الصدد تكفي الإشارة إلى فيضان وادي زيز لسنة 1965.(55) وهذا يعني أن الكوارث الطبيعية لا سيما الفيضانات كانت من أبرز العوامل المسببة في اندراس مجموعة كبيرة من قصور مدغرة، سيما إذا كانت هذه الأخيرة تفتقر لأدنى وسائل التحصين كأن يتم بناؤها فوق ربوة أو كدية أو أن تكون بعيدة شيئا ما عن مجرى وادي زيز. ولم ينج من الآثار السلبية التي خلفها وادي زيز خلال السنة المذكورة أعلاه إلا العدد القليل والنادر جدا من قصور منطقة واحة مدغرة. وهذا يعكس بجلاء مدى الخطورة التي كانت تمثلها الفيضانات على استمرار المنشآت السكنية، وبالتالي على الإستقرار البشري بهذه المنطقة.(56)

54) أنظر الباب الأول الفصل الأول.

55) أنظر ما جاء في تقرير مديرية هندسة المياه بالرشيدية.

56) وبالرجوع إلى الآثار السلبية لفيضان وادي زيز لسنة 1965، نلاحظ أن مجموعة من قصور الخنك لم تعد باقية. حيث أتى عليها الفيضان وعلى المزارع كذلك. وفي إطار إحياء القصور القديمة بالخنك ومدغرة تم بناء مجموعة من القرى النموذجية في مجموع مناطق واحة مدغرة =

وبسبب العوامل السالفة الذكر نجد أن قصرين أو أكثر يحملان إسما واحدا، فهناك مثلا القصر والقصيرة ومحليا تنطق «الكَصِيَرةْ» والقصبة القديمة والقصبة الجديدة، والقصبة والقصيبة «الكَصِيبَةْ». ومع ذلك لا يجب أن نعتبر أن عامل الفيضان هو وحده المسؤول عن تعدد أسماء القصور والأماكن وإنما تتداخل في ذلك عوامل أمنية دفاعية. إلا أن ما يثير الإنتباه بالنسبة لمدغرة أنه لا يوجد فيها «الـرِّبَاطْ» كرباط تازة مثلا أو رباط تيط وإن كانت توجد بها الزاوية: الزاوية الفوقانية والزاوية التحتانية، ومرد ذلك – على ما نعتقد – أن المنطقة لا تعتبر ثغرا ولا نهاية لحدود داخلية. كما أن كلمة القصيبة والقصبة مبنية على أساس الحجم السكني. ومن ناحية تاريخ العمران نلاحظ أن القصبة بدأت تظهر مع السعديين وأخدت طابعها المفاهيمي مع السلطان العلوي مولاي إسماعيل، والقصيبة ظهرت مع المرابطين وكانت تسمى «الْـمَـحْـرَسْ». وهو إسم عربي، مما يدفعنا لطرح السؤال التالي: كيف تطور المحرس أو القصبة أو القصيبة عمرانيا بناء على وظيفته الأساسية الدفاعية الأمنية؟ هل تطور على أساس الرباط الإسلامي السابق والذي سينتهي إلى زاوية؟ أم تطور على أساس عسكري؟ وهل يمكن لهذه المعالم في مدغرة أن تمثل نموذجا من هذا التطور، سيما وأننا نعلم أن القصبة هي مناطق التعبئة للدفاع عن الداخل ولضرب الداخل نفسه؟

إن خطر الفيضان وعامل الصراعات والحروب المتلاحقة لم تكن لتؤثر فقط على استمرار المنشآت السكنية فحسب، بل كذلك على الإستقرار البشري بهذه المنطقة، فأصبح للإنسان المدغري شعور حاد بالخوف على نفسه وذويه وأملاكه. وذلك لتداخل طغيان الإنسان والطبيعة معا، مما جعل منطقة مدغرة تفقد عددا كبيرا من مهرة صانعي تاريخها، لأن المنطقة لم تكن تشجع على الإستقرار. ولهذا السبب – على ما نعتقد – نجد إسم

= لا سيما تلك القصور القديمة التي إندرست من جراء الفيضان المذكور. وما ذلك في حقيقة الأمر إلا إحياء لمجموعة من المعالم السكنية القديمة التي سبق لها أن لعبت أدوارا هامة في المحافظة على سيرورة تاريخ المنطقة. ومن بين قصور منطقة الخنك التي تم إحياؤها بحريم منطقة مدغرة الغربي نذكر: قصر أمزوج – قصر أيت باموحى – قصر أيت مولاي محمد – قصر إنكَبي – قصر بني إيفوس – قصر أوليت كَير – قصر تيمزوغين وغيرها من القصور التي كانت فيما قبل بالخنك.

المدغـري في كل مكان بـالمغرب، فهل يعنـي هذا أن منطقـة مدغـرة لم يكن بإمكـانها أن تستوعب سكـانها؟ أم أن الظروف البيئيـة القاسيـة لها يد في الهجرات التي تمت من مدغرة إلى مناطق أخرى أكثر خصبا في فترات عديدة من التاريخ؟ وهذا على العموم ما سنحاول مناقشته وتفصيله عند تعرضنا للبنية البشرية بمدغرة في الفصل اللاحق.

2 – القصور القائمة :

إنـه بالنظـر إلى القصـور التي مازالت قـائمـة يلاحظ بأنها عبـارة عن منشآت سكنية ذات ميزة خاصة، فهي من جهة توجد في مناطق استراتيجية هامة، تتحكم في الطـريق التجاري الرابط بين واحة الـرتب والخنك، وبالتالي بين سجلماسة وفـاس. وهي بهذا محطات للقوافـل التجارية ومـراكز لأداء ضرائب المرور، سيما وأن المنطقة تعتبر حلقة وسطى في طريق المخزن الرابط بين فاس وسجلماسـة. بمعنى أنها توجـد في مدخل الشعـاب التي تمر بها القوافل، وذلك يدل على كبير أهميتها الاقتصـادية والاستراتيجية. ومن جهة أخرى نلاحظ أن من بين هذه القصور التي مـازالت قائمة أنها كانت بمثابة قاعدة وإقـامة لمثلي الدول المغربية التي تعـاقبت على حكم المغرب. ومعلوم أن القصور التي تتخذ لهذه الـوظيفة لابد وأن تنال من التحصين مـا يوفر لها أسباب الثبـات والاستمرار والصمود أمام عـوامل الاندثار المشـار إليها سـابقا. ومن جهـة ثالثـه نلاحظ أن المواضع التي تبنى عليهـا هذه المعـالم السكنية ليست اعتباطية، وإنما هي نتيجـة لدراية عميقة وتخطيط دقيق. إذ يختار لها من المواضع التي تمتاز بالمؤهلات الأمنية والدفاعية والاستراتيجية كأساس لبنـاء هذه القصور، ويرتبط بهذا كذلـك المادة المستعملة في البناء، والتي تعتبر عنصرا هامـا للحفاظ على استمرار هـذه المعالم التاريخيـة أمام تقلبـات الزمن، سـواء تعلق الأمـر بطغيان الطبيعـة أو الإنسان. وكل هـذه العوامل مجتمعة قد تفيد في تفسير استمـرار هذه المعالم كشواهد إثبات على ما عرفته المنطقة من تطورات تاريخية جديرة بأن يؤرخ لها، وهذا ما يجعل منطقة مدغـرة حقلا خصبا لأبحاث مستقبليـة في إطار الدراسات العمـرانية والأنطروبولوجيـة والاجتماعية والتاريخية معا. وأن ما تـوصلنا إليه في هذا

البحث من حقائق يؤكد غنى وصلاحية المنطقة لتكون مجالا لأبحاث علمية أكاديمية جامعية، تتماشي وأهميتها ودورها في صنع أحداث تاريخ المغرب عامة والجنوبي منه بوجه خاص.

إن ما يثير انتباه الدارس بالنسبة لما تبقى من القصور التي مازالت قائمة أنها تعود في أغلبها إلى مراحل زمنية غابرة. يغلب على الظن أنها ترجع إلى المرحلة البربرية، أي زمن الزحف الزناتي المكناسي وبعده الصنهاجي. وإن كان هذا لا ينفي بالطبع ارتباط بعض المنشآت الأخرى التي مازالت قائمة كذلك بالوجود العربي المعقلي منه والعلوي. وهذا يعني في العمق التاريخي العام أن منطقة مدغرة لم تكن تعرف ثباتا بشريا أو سيادة إثنية بشرية واحدة، أو على الأقل المنحدرة من قبيلة واحدة. بل إن المنطقة ظلت طوال مراحل تاريخها منطقة مرور لإثنيات بشرية مختلفة، ترددت على مدغرة في مراحل متباينة يصعب تحديد البعض منها تاريخيا، وخلفت لنا بصمات أقدامها كشواهد تؤكد أنها عاشت أو تعايشت مع مجموعات بشرية أخرى. وهذا له ما يبرره من الوجهة التاريخية خاصة إذا علمنا أن مدغرة بحكم وضعيتها البيئية المتميزة هي التي ميزت تاريخها البشري والعمراني باعتبار المنطقة جسرا تاريخيا للهجرات البشرية. وكل هذه القرائن التي سقناها تقيم الدليل على أن منطقة مدغرة عرفت تعاقبا بشريا متنوعا، خلف لنا معالم عمرانية هي بمثابة بصمات أقدام.

لقد حاولنا أن نتتبع ونرصد القصور التي مازالت قائمة، سواء تلك التي أفادتنا بها المادة العلمية التي اطلعنا عليها أو ما أمدتنا به الحافظة الشعبية أو ما عايناه ميدانيا. واستطعنا أن نجمل أهمها في الجدول التالي:

جدول خاص بالقصور القائمة

اسم القصر	موقعه
1- كَصر السوكَ	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بالقسم الأعلى من مدغرة بين قصري تسكَدلت وتاكَنيت.
2- قصر تازوكَا	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بالقسم الأعلى من مدغرة شمال قصر تاكَنيت.

موقعه	اسم القصر
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، بالقسم الأعلى من مدغرة شمال كَـصر السوكَ.	3 – تاكَنيت
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بالقسم الأعلى من مدغرة جنوب كَصْرْ السوكَ.	4 – قصيبة أيت موحى أو علي
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، بالقسم الأعلى من مدغرة جنوب كَصْرْ السوكَ.	5 – قَصْرْ مُوشْقَلاَّل
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، بالقسم الأعلى من مدغرة شمال قصر تازروت ويعرف في الأوساط المحلية بقصر تسكَدلت الفوقانية.	6 – قصر تسكَدلت
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، بالقسم الأعلى من مدغرة جنوب قصر تسكَدلت. وإلى غاية نهاية القرن 19 كان قصر تازروت يتكون من قصرين يحمل كل واحد منهما إسم تازروت. (57)	7 – قصر تازروت
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، وإلى نهاية القرن 19م كان يكون إحدى القصور الخمسة التي يتكون منها كَصْرْ السوكَ.(58)	8 – قصر أزرو
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، وإلى غاية نهاية القرن 19م كان هذا القصر كذلك يكون إحدى القصور الخمسة التي يتكون منها كَصْرْ السوكَ(59) بمدغرة العليا.	9 – قصر الحراطين
يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زين، بقسم مدغرة العليا جنوب قصر تاغزوت.	10 – قصر أزمور

(57 Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351.

(58 Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351.

(59 Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351.

وكان هذا القصر يعرف بقصر السوق،وحاليا يعرف عند فئه «الحراطين» بقصر أزرو تفاديا للتجريح. ويوجد حاليا جنوب سد الحسن الداخل.

اسم القصر	موقعه
11 – قصر تَاغْزُوتْ	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بقسم مدغرة العليا. وإلى غاية نهاية القرن 19م كان هذا القصر يتكون من قصرين يحمل كل واحد منها إسم تاغزوت.(60)
12 – قصر تاركَة	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بقسم مدغرة العليا جنوب قصر أزمور. وإلى غاية نهاية القرن 19مْ كان هذا القصر يتكون من قصرين يحمل كل واحد منهما إسم تاركَة.(61)
13 – قصر تسكَدلت	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بمدغرة الوسطى، شمال قصر بني محلي ويميزه المحليون بقصر تسكَدلت التحتانية.
14 – قصر بني محلي	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بمدغرة الوسطى، جنوب قصر تسكَدلت.
15 – قصر أسرير	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، جنوب قصر بني محلي بمدغرة السفلى.
16 – قصر مديونة	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز جنوب قصر أسرير. وحسب ما استقيناه من الرواية الشفوية وبعض الوثائق المحلية(62) أن قصر مديونة يتكون من قصرين الأول يحمل إسم مديونة الحدادة، والثاني يحمل إسم مديونة السي بن لحسن.(63)
17 – قصر الحيبوس	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بمدغرة السفلى، جنوب قصري مديونة وبه يوجد بقيع(64) مدغرة.
18 – قصر تِـيغِـيوْرِينْ	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة العليا، شمال قصر بني وراين.

Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351. (60

Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351. (61

62 ـ 63) والغالب على الظن أن قصر مديونه السي بن لحسن هو القصر الذي استوطن به شرفاء وادي إفلي المنتقلين إلى مدغرة انظر الوثيقة رقم: 1 – 2. هذا إن لم يكن الشرفاء هم الذين شيدوه.

64) والبقيع في اللغة هو المكان المتسع ذو أشجار مختلفة. أنظر المقري أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير المكتبة العلمية بيروت 1957 ص 157، المعجم الوسيط م. س ج 1 ص 66. ولا يسمى المكان بقيعا إلا إذا كان فيه شجر وأصول. والبقيع بمدغرة هي بقعة وسط غابة قصر=

اسم القصر	موقعه
19 - قصر بني وراين أو أيت وراين	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة العليا جنوب قصر تِيغِيوِّرِينْ. وإلى غاية نهاية القرن 19م كان قصر بني وراين يتكون من ثلاثة قصور صغيرة يحمل كل واحد منها إسم قصر بني وراين.(65) أو أيت وراين.
20 - قصر الرحبة	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، جنوب قصر بني وراين، وتذكر الرواية الشفوية أن قصر الرحبة كان يتكون من قصرين: الأول يحمل إسم قصر الرحبة القديمة، والثاني يحمل إسم الرحبة الجديدة.
21 - قصر جديد أيت حَـمُّـو	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة العليا جنوب قصر الرحبة. وإلى غاية نهاية القرن 19م كان قصر جديد أيت حمو يتكون من ثلاثة قصور صغيرة تحمل إسم قصر جديد أيت حمو.(66)
22 - قصر أولاد الحاج	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز شمال القصر الدخلاني بمدغرة الوسطى، وقد عاينا ميدانيا أن قصر أولاد الحاج يتكون من قصرين يحمل كل واحد منهما إسم قصر أولاد الحاج. هذا فضلا عن القرية النموذجية التي أحدثت بعد فيضان وادي زيز لسنة 1965 بمحاذاة الطريق رقم 21 الرابطة بين مدينة الرشيدية ومركز أرفود من الشمال إلى الجنوب.
23 - قصر أولاد أبي ناجي	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة الوسطى، جنوب قصر أولاد الحاج.

= الحيبوس كان يجتمع فيها علماء وطلبة مـدغرة قاطبة، لا سيما القسم الأوسط والأسفل منها لتلاوة القرآن العظيم بغية استنزال المطر وجريان نهر زيز. وقد استمرت هذه العادة بمدغرة إلى عهد قريب قبل أن تندثر منذ بضع سنين.

65) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351.

66) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 351.

اسم القصر	موقعه
24 – القصر الدَّخْلاَنِي	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة الوسطى جنوب قصر أولاد الحاج. وقد عاينا ميدانيا أن هذا القصر يتكون من قصرين الأول يحمل إسم القصر الدخلاني القديم والثاني إسم القصر الدخلاني الجديد.
25 – قصر زاوية مولاي البكري	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة الوسطى، ويدعى كذلك زاوية مولاي عبد الله جنوب قصر الجديد ويعرف هذا القصر في الأوساط المحلية بالزاوية الفوقانية.
26 – القصر الْبَـرَّانِـي	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة الوسطى، جنوب القصر الدخلاني.
27 – القصر الجديد	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة الوسطى، جنوب زاوية مولاي البكري.
28 – قصر الكَـصيبة	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة الوسطى، شمال قصر تاوريرت.
29 – قصر زاوية مولاي بن علي	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة الوسطى، جنوب قصر الكَـصيبة. وتعرف هذه الزاوية كذلك بزاوية تاوريرت أو الزاوية التحتانية.
30 – قصر أيت مسعود	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز شمال قصر الكَـصيبة. وقد عاينا في الميدان أن قصر أيت مسعود يتكون من قصرين الأول يحمل إسم قصر أيت مسعود القديم،وهو من القصور القديمة المندرسة، والثاني إسم قصر أيت مسعود الجديد.
31 – قصر قلعة تاوريرت	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز بقسم مدغرة الوسطى، جنوب قصر زاوية مولاي بن علي. وتعرف في الأوساط المحلية باسم تاوريرت العالية

اسم القصر	موقعه
32 – قصر الحوش	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة الوسطى، بمحاذاة قصر قلعة تاوريرت.
33 – قصر سيدي أبو عبد الله	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة السفلى، جنوب قصر قلعة تاوريرت وقصر الحوش.
34 – قصر الكَـصْـبَـةْ الجديدة	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة السفلى، جنوب قصر سيدي أبو عبد الله.
35 – قصر تيطاف	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة السفلى، جنوب قصر القصبة الجديدة.
36 – قصر أولاد امحمد الكَرواني	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة السفلى، جنوب قصر تيطاف.
37 – قصر بني موسي	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بقسم مدغرة السفلى، جنوب قصر أولاد امحمد.
38 – قصر كَـاوْزْ	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة السفلى، جنوب قصر بني موسى. وبه يوجد ضريح زعيم تمثيلية الزاوية الدرقاوية بمدغرة الشيخ محمد العربي العلوي.
39 – قصر كَـرِأُو الكَازْ	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، جنوب قصر كَاوز بمدغرة السفلى. ويتكون هذا القصر من قصرين يحمل كل واحد منهما إسم قصر كَر أو الكَاز. الأول مندرس والثاني مازال قائما.
40 – قصر تازناقت	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز، بمدغرة السفلى جنوب قصر كَرأو الكَاز. وقد عاينا في الميدان أن قصر تازناقت يتكون من قصرين: الأول وسط الغابة، وهو مندرس، ولم يعد يعرف إلا كمحل للزراعة بأحد فدادين غابة قصر تازناقت، والثاني بمحاذاة الغابة.

اسم القصر	موقعه
41 – قصر مسكي	يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز، بمدغرة السفلى، جنوب قصر مديونة اَلَحـدَّادَةْ. وإلى غاية نهاية القرن 19 م كان هذا القصر يعرف بقصبة تازناقت.(67)
42 – قصر بوسعيد	يوجد هذا القصر على الضفة اليسرى من وادي زيز جنوب قصر تازناقت. ويعتبر هذا القصر هو الحد الفاصل بين منطقة مدغرة ومنطقة الرتب في اتجاه الجنوب، وبالقرب منه توجد شعبه اللحم أو شعبة الروح.

وسنختار عينـات ممثلة في الجدول أعلاه، تفيـدنا في موضـوع دراستنا لامتيازهـا بثبات الظاهرة العمـرانية فيها، وبما لها من أقدميـة وحضور في الوثـائق المعتمدة في دراستنـا هذا من جهـة. ومن جهة أخـرى لإبراز بعض أسباب ثبات وصمـود هذه المنشآت السكنية أمام عوامل الإنـدثار المختلفة. وذلك مرتبـط أساسا بما كـان لهذه القصور من أهميـة خاصـة. سواء من الـوجهة السيـاسيـة والإدارية لأن بعضهـا كـان محل عمال ملوك الـدول المغربيـة التي تعاقبت على سدة الحكـم بالمغرب. وهي أيضـا القصور التي كـانت حاضرة في ذاكـرة السلطـة المركزيـة (دار المخـزن المغربي) ونظمـه الإدارية، ومن الوجهة الاستراتيجية والاقتصـادية، كان بعض هذه القصور بمثابة ديوانة تـؤدى بها الضرائب المستحقة على القوافل والتجار. ومن جهة ثالثـة وقوعهـا على مدخل الشعاب التي تمر بها القـوافل الرابطـة بين فاس وتافيلالـت. وهذا يدل على كبير أهميتها الاقتصـادية والاستراتيجية، الشيء الذي يعني أن تقنية بناء هذه القصور سواء منها القصور ذات الخصوصية السياسية والإدارية أو ذات الوظيفة الاقتصادية والاستراتيجية تستجيب في أغلبها لهذه الميزة.

وعلى هذا الأساس، يمكـن التمييز بين القصور ذات الوظيفـة السياسية والإدارية والقصور ذات الوظيفة الاقتصـادية والاستراتيجية. وإن كان هذا لا ينفي بالطبع أن تجتمع الوظيفتان معا في قصر واحد. ولتقريب هذا الواقع

67) أنظر الباب الثاني الفصل الثاني. ص ص 201 – 205.

سوف نقف على القصور التالية : كَصر السوكَ – قصر تاوريرت – قصر سيدي أبو عبد الله – قصر مسكي وقصر بني محلي.

من خلال ما استطعنا جمعه من مادة علمية والتي تعالج مرحلة النصف الأول من القرن 11هـ/17م أي فترة الفوضى السياسية والشتات السلطوي التي تلت اختفاء شخصية المنصور القوية، يظهر أن مدغرة لم تكن غائبة عن هذه الأحداث الحاسمة، والتي أفضت فيما أفضت إليه إلى استتباب الأمر للأسرة العلوية الحسنية، ويظهر هذا على الأقل من خلال الأدوار التي لعبتها هذه المنطقة في صنع أحداث هذا المشروع التاريخي والسياسي الكبير، على اعتبار أن المنطقة كانت تلامس جميع القوى المتصارعة على السلطة بسفوح الأطلس الكبير الشرقي. فالوضعية البيئية الفريدة لهذه الواحة كهمزة وصل بين تافيلالت معقل الحركة الحسنية العلوية وسفوح الأطلس الكبير الشرقي، حيث وجود القوى الوطنية الأخرى، ويتعلق الأمر بالحركة الدلائية ومجال المد السملالي السوسي. جعلها تشارك بصورة مباشرة أو غير مباشرة في صنع الأحداث التي شملت جميع الميادين والقطاعات، وهو ما انعكس على القصور وتقنيات بنائها. وما يرتبط بهذا من تحصينات دفاعية أمنية تستجيب في أغلبها لهذه المعطيات، سواء تعلق الأمر بالمستجدة أو الثابتة. إلا أنه لابد من التذكير أن هذه الخصوصية لا ترتبط بأحداث هذه الفترة بل هي ضاربة في عمق الزمن، ويشهد على ذلك أن أسماء معظم قصور مدغرة خاصة تلك التي كانت لها أهمية استراتيجية وسياسية واقتصادية، ترتبط بفترات سابقة عن مرحلة القرن 11هـ/17م بكثير. مما يعني أن هذه المنشآت السكنية التي مازالت قائمة كانت تلعب هذه الأدوار على مر التاريخ المغربي المحلي الإقليمي، وتتكرر خلال الفترات التاريخية، مما سمح بتجديدها وترميمها لأجل أن تكون قادرة على مقاومة عوامل الاندثار المختلفة، وذلك لأهميتها كمراكز إدارية واستراتيجية واقتصادية.

إن أغلب القصور التي مازالت قائمة كشواهد مهجورة كانت أو مسكونة والمثبتة في الجدول السابق، ظلت قائمة خلال مراحل زمنية متعددة. فأغلب هذه القصور ذكرها مولاي إدريس الفضيلي كمستقر جديد لشرفاء وادي إفلي المنتقلين إلى مدغرة وما إليها. قال: «وبعده انتقلوا إلى مدغرة فنزلوا من

مدغـرة بقصبة تازناقت والقصر البراني وقصر أيت مسعـود وقصر أزمور وقصر لغروس وقصر العمارنة... وقصر تـاركَة والقصبة القديمـة والقصبة الجديدة والحيبوس ومـديونة وتيطاف وقصر سيدي أبـو عبد الله والقصر الدخلاني والقصر الجديد وتاوريرت والقلعة والحوش وقصر مولاي البكري وقصر بني مـوسى وقصر كَـر كَـاوز وقصر كَاوز، وهـذه القصـور كلهـا بمدغرة».(68) وهـذا يعني أن هذه القصـور كانـت قائمـة وموجـودة قبل وصول الأسر العلوية الحسنية إلى منطقة مـدغرة وما إليها. كما يعني كذلك استمرارهـا إلى عصر الفضيلي. إلا أن هناك ملاحظـة أساسيـة يجب التنبيه إليهـا، وهي أن إسم القصر ينتقل من داخل المزارع حيث تـدركـه ميـاه الفيضـان إلى مكان أعلى، قد لا تدركه فيـه تلك المياه، فالقصر يحتفظ باسمه ولا يحتفظ بمكانه.

وظلت هذه القصـور في أغلبها قـائمة حتى نهايـة القرن 19م، فقد ذكر شـارل دفوكـو جميع هذه القصـور المثبتة في الجدول أعـلاه ما عـدا قصر العمارنة،(69) واستمرت هذه القصور قـائمة حتى الوقت الحاضر وإن كان قد اندثر منها عدد يسير، من جراء فيضان وادي زيز لسنة 1965م.

إن صمود هذه القصور أمام عوامل الاندثار المشار إليها سابقا، لا يمكن أن يفهم إلا في إطـار أنها ليست منشـآت سكنيـة عاديـة وبسيطـة البنـاء، فأغلبها كان بمثـابة قلع وحصون استأثرت بالوظـائف السياسية والإدارية والاقتصـادية. وهـذا مـا جعلها - على مـا نعتقـد - تحافظ على ديمومتهـا وسيرورتها على مر التاريخ.

قصر قلعة تاوريرت :

ويندرج في هـذا السياق قصر قلعـة تاوريـرت الذي كـان بمثابـة قلعة ومحل لعمال الملوك السعـديين، ولهذا السبب حافـظ على استمراريتـه. فقد جاء في مخطوط فتح القدوس ما يلي: «لما انتقل أنجال المولى عبد الله بن علي ابن طاهر إلى تاوريرت وأسكنوهم - يعني أولاد بوحمو - في القلعة العالية

68) إدريس الفضيلي : الدرر م. س، ج 1 ص 231.

69) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, au Maroc, op cit, pp 351-352.

لأنها كانت بين أيديهم وكانت محل عمال الملوك السعديين. فلما انقرضت دولتهم بقيت القرية تحت يدي أولاد بوحمو وهم خدام الدولة السعدية التي كان مقرها بمراكش... وهذه القلعة، قلعة تاوريرت مبنية على صخرة عالية والخندق مستدير عليها».(70) وهذا النص يستنهض الدليل على أن قصر قلعة تاوريرت لم يكن قصرا عاديا، بل كان بمثابة عاصمة لإقليم مدغرة على الأقل خلال مرحلة حكم الأشراف السعديين. ولن تنعدم أهمية قصر قلعة تاوريرت إلا مع المرحلة العلوية. فقد جاءت زاوية مولاي بن علي بديلا لقصر قلعة تاوريرت من حيث الاعتبار الديني باعتبار هذه الأخيرة قاعدة للسعديين. وبوجود الزاوية انعدمت أهمية تاوريرت باعتبار أن العلويين كانوا بديلا للسعديين. كما أن قصر سيدي أبو عبد الله لن يصبح مقرا إداريا إلا بعد اختفاء أهمية تاوريرت، وبالتالي فإن تحصيناته العمرانية أخذها مع العلويين.

فالوظيفة الإدارية وما يرتبط بها من حيثيات أخرى أهلت قصر قلعة تاوريرت للحفاظ على ديمومته على مر التاريخ. وإلا كيف يمكن أن نفهم استمراره وصموده أمام عوامل الزمن ؟ ومعلوم أن القصور التي تُتَّخَذُ كإقامة لنيابة دار المخزن لابد وأن تنال من التحصين ما يوفر لها الثبات والصمود أمام عوامل الاندثار المختلفة. سيما وأن إنشاء التحصينات بقدرات الأهالي الإنشائية ينعكس انعكاسا مباشرا على هيئة التحصينات وتصميمها إذا ما قورنت بأسوار وتحصينات المراكز الكبرى التي تتولى إنشاءها السلطة للدفاع عنها من الأخطار الخارجية. فالأسوار والتحصينات التي ينشئها الأهالي تقوم بوظيفة دفاعية سلبية تتمثل في منع القبائل المهاجمة من السطو على الدور في حين نجد أن المراكز التي تتولى الدولة تحصينها(71) تكون بمثابة ثكنات عسكرية وقصبات للإمداد العسكري لردع القبائل ومراقبة سلامة الطرق القوافلية. ونعتقد أن إقدام الدولة السعدية على اتخاد قصر قلعة تاوريرت كمحل لعمالها لم يكن إلا تقليدا كانت تسنه الدول السابقة واللاحقة عن المرحلة السعدية.

---

70) فتح القدوس. م. س، ص ص 69 – 70.

71) الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، تحقيق محمد عثمان عبد الستار مصر 1988، ص ص 101 – 102.

وبالرجوع إلى كلام صاحب فتح القدوس، نلاحظ أن قلعة قصر تاوريرت بنيت بتقنية عالية، حيث توفرت فيها جميع شروط التحصين والدفاع قلما حظيت بها قصور أخرى بمدغرة. وهذا يدل في عمق التاريخ العمراني المحلي على أهميتها كمركز سياسي وإداري واستراتيجي أكثر منه منشأة عادية، قال في فتح القدوس: «...وهذه القلعة، قلعة تاوريرت مبنية على صخرة عالية والخندق مستدير عليها وفيها من الديار قرب العشرين».(72)

لقد استمد هذا القصر إسمه من الموضع الذي هو جاثم وثاو عليه، ذلك أن كلمة «تَاوْرِيْرتْ» الصنهاجية البربرية يقابلها في الإصطلاح اللغوي العربي مصطلح «الْكُدْيَةْ» أو المرتفع، أو ما عبر عنه صاحب فتح القدوس بالصخرة العالية. وكلمة «تَاوْرِيْرتْ» جاءت من «أوْرِيرْ» ومعناها الجبل، وتاوريرت تصغير لـ «أوْرِيرْ أدَّنْ» وهو المرتفع الصغير. وفي إطار سياق كلام مولاي علي بن المصطفى صاحب فتح القدوس وفحوى هذه الدلالة المعجمية، يظهر أن مصطلح «تاوريرت» هو الأرض الغليظة أو الصلبة التي تستغل للبناء لعدم صلاحيتها التامة للزراعة.(73) ويستطرد صاحب فتح القدوس قائلا : والخندق مستدير عليها. وهذا الخندق مازال لحد الآن يحمل إسم «أَحْفِيْر» بمعنى الحفير الذي هو الخندق حسب ما توصل إليه الدكتور محمد عثمان عبد الستار.(74) وهو المعنى الذي أراده صاحب فتح القدوس عندما استعمل مصطلح «خندق» الذي يقابله الحفير.(75)

ومعلوم أن الحفير عنصر مهم من عناصر تحصين القصور السكنية، والهدف منه هو إقامة العراقيل أمام المهاجمين، وتوفير فرصة سانحة للمدافعين أثناء محاوله اجتياز المهاجمين له. وكانت تستخدم المواد الناتجة

---

72) فتح القدوس م. س، ص 70.

73) الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، م. س، ص 205.
- المعجم الوسيط م. س، ج 2 ص 708.

74) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص 156.

75) يحمل الحفير معاني أخرى، فهو خزان الماء على شكل حوض. انظر دوزي تكمله المعجم م. س، ج 3 ص 24 والإعلان بأحكام البنيان، م. س، ص 156. كما يعني كذلك البئر الموسعة فوق قدرها، كما يعني القبر انظر الإعلان م.س، ص 156.

عن الحفر في إقامة دورة ترابية مرتفعة على الجانب الذي يقع فيه القصر السكني هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد سبق أن أوضحنا في الباب الأول(76) أن الحفاري بمنطقة مدغرة كان يؤخد منها التراب لركز الدور أو لنقله إلى المزارع، وهذا تمييز محلي خاص بمنطقة مدغرة. وغالبا ما كانت تنشأ فوق هذه الدور شرافات تحمي المدافعين بعد أن يقوموا بضرب الأعداء. ويذهب محمد عبد الستار عثمان أن هذه الدورة بالشرافات المقامة على مسافات منتظمة ومحسوبة هي البداية في إنشاء الأسوار، التي أنشئت فيما بعد بالطوب أو الآجر أو الحجر، وارتفعت ارتفاعا كبيرا لتوفر خطا دفاعيا قويا آخر يلي الحفير أو الخندق. وإمعانا في عرقلة المهاجمين عبر الحفير الذي كان يملا بالماء من مصادر متوفرة، فيصبح الحفير بمثابة عائق مائي.(77)

إلا أن حفير قصر تاوريرت كان يملأ بالوحل، ويقوم الأهالي بذر التبن فوقه لا سيما تبن الشعير لعرقلة هجوم الأعداء أو لاستعماله في عملية «تَمْلاَسْ» «النَّوَادْرَاتْ» أي الأنادر والجدران والأسطح، لتفادي خطر «السِّيلَةْ». ويختار تبن الشعير لأنه قصير الطول. مما كان يسهل عملية البناء عن طريق «العَجْنَةْ»، وتتضح قيمته أكثر في «النَّوَادْرَاتْ» بحيث لا يؤثر فيه حفير البهيمة، كما يستعمل كزبول للمزارع والحقول.

إلا أن ما يستوقفنا بهذا الخصوص، هو أن تقنية الحفير حسب رواية محقق كتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي كانت معروفة ومنذ وقت مبكر في بعض المدن الإسلامية بالمشرق. فقد أشار محمد عبد الستار عثمان أن: «بغداد كانت من نماذج المدن الإسلامية التي اتبعت هذا النهج».(78) وعلى هذا الأساس نطرح السؤال الإجرائي التالي كيف يمكن تفسير وجود هذا النوع من التقنية المتطورة حسب عصرها في مناطق متباعدة فيما بينها جغرافيا؟ وبعبارة أدق هل هي مغربية محضة؟ أم هناك دخل للعناصر المشرقية والأندلسية التي ترددت على المنطقة خلال مراحل مختلفة ومعلومة

---

76) أنظر الباب الأول الفصل الثاني 106.

77) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص 156.

78) الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي. م. س، ص 156.

من التـاريخ الإسلامي، لا سيما الحركـة الخارجية الصفـرية بسجلماسـة خلال النصف الأول من القرن 2هـ ؟

قصر قصر السوق(79) «كَصر السوكَ» :

يعتبر قصر قصر الســوق أو بـالتعبير المحلي «كَصر الســوكَ» من بين القصور التي مازالت قائمة، كمعلمة سكنية اقتصادية هامة في تاريخ منطقة مدغرة.

فخلال نهاية القرن 19م نلاحظ أن شارل دفوكو ذكر هذا القصر ضمن قصـور مـدغرة العليـا، قال: «يتكـون قصر السوق من خمسـة قصـور هـي: قصر مـوشقلال – قصر الحراطين – قصر أزرو – قصيبـة أيت مـوحى أو علي – قصر أكـون، وهـذه القصـور كلها تكـون دائرة يتـوسطهـا الســوق والملاح».(80) ومازالت لحد الآن بقايا هذا القصر بالمنطقة المذكورة أعلاه.

إن المصـادر التي أرخت لمرحلة النصف الأول من القرن 17 م ذكرت هذا القصر وأهميتـه كمحطـة تجاريـة تتـوقف بها القـوافل المتنقلـة بين فـاس وسجلماسة. سيما وأن هذه المنطقة أو على الأرجح هذا القصر كان يوجد به ســوق. وما يشـهـد على ذلك إسمه ووصـف دفـوكو لـه، ومن جهة أخـرى

---

79) سمي هذا القصر بقصر الســوق إشارة إلى الـوظيفة الاقتصاديـة التي كان يقـوم بها، حيث كان محطة لتوقف القوافل المترددة بين سجلماسة وفاس، والغالب على الظن أن إسم مدينة الرشيدية القديم «قصر السوق» استمـد من هذا القصر. وقد سميت مدينـة قصر السوق بالرشيـدية تلبية لطلب سكانها وتخليدا لذكرى السلطان مولاي رشيـد بن الشريف العلوي. أنظر عبد العزيز بن عبـد الله : معلمـة المدن والقبـائل م. س، ص 203، ومعلوم أن مـدينة الرشيديـة «قصر السوق سابقا» بنيت حوالي 1334هـ / 1916م، وحجتنا في ذلك ما جـاء في المعسول. قال: «وفي 12 ذي الحجة – أي مـن عام 1334هـ – رجع – يعني المحتلـون الفرنسيـون – فنزلوا في محل مـدينة قصر السوق وكـان في المكان أنذاك دويـرة صغيرة لأخوين ينـزل عليهما اللصوص فنزلـوا فيها بعـدما هـرب الأخوان، تم أعطـاهما المحتلـون قيمة دارهما فـابتدأ البنـاء في ذلك الحين في قصر السوق. ومحل هذه الـدويرة الآن هو مكتب القـائد الخاص الذي يكون فيه القـائد ابا سيدي – وهو والـد الباحث واسمـه الكامل هو محمـد المبارك بن التهامي المدعـو ابا سيـدي بن التهامي العلوي من قصر تاوريرت مدغرة وسوف نفـرد له ترجمة خاصة في الفصل اللاحق – فاتخذوا المحل مركـزا خاصا فصاروا يحصنـونه، ومن هناك كانت تـوجه الحملات إلى تافيـلالت» أنظر محمد المختار السوسي: المعسول، ج 16 ص 307 البيضاء 1961.

80) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, au Maroc, op cit, p 351.

ذكرت نفس هـذه المصادر أنه كـان بمثابـة محطة خضعت لمراقبة الـزاوية الدلائية في صراعهـا مع الإمارة العلوية الناشئـة، خلال نهاية النصف الأول من القرن 17م/بداية النصف الثاني من القرن 11هـ. فقد جاء في النزهة ما يلي «وفي ضحى يـوم السبت ثاني عشر ربيـع النبوي سنـة ست وخمسين وألف (1056هـ)(81) كانت وقعة الكَارة بينه - يعني محمد الحاج الدلائي - وبين صاحب سجلماسـة، فوقعت الهزيمة على السيـد محمد الشريف... تم انبرم الصلح بينهما على أن من الصحـراء إلى جبل بني عيـاش فهـو لمولاي محمـد بن الشريف ومـا دونه لأهـل الدلاء. وشرط أهل الـدلاء على مـولاي محمد خمسة مواضـع مما هـو تحت يده وجعلوها لهم. وهي: الشيخ مغفر في أولاد عيسى(82) والسيـد الطيب في قصر السـوق وأحمد بن علي في قصر بني عثمان - يعني أيت عثمان - وقصر حليمـة في وطـن غـريس - يعني قصر كَلميمة - وأسريـر بفركلة. فهـذه الأماكن الخمسة شرطـوا عليه أن لا يحرك لهم فيها سـاكنا».(83) ممـا يدل على كبير أهميـة هـذه المواقع التي ينـدرج ضمنها قصر السـوق الاستراتيجية والاقتصـادية في مـراقبة طـرق القـوافل والمد العلوي الطمـوح، وهذه الأهميـة - على ما نعتقـد - هي التي كانت وراء صمود وبقاء هذا القصر كمعلمـة سكنية اقتصادية واستراتيجية مستمرة الـوجود. ليس فقط خـلال مرحلـة القرن 17م بل في جـل المراحل التاريخية.

قصر مسكي(84) :

يندرج قصر مسكي ضمن المعالم والمنشآت السكنيـة التي مازالت قائمة حتى الوقت الحالي. إلا أن ما يثير الإنتباه، أن هـذا القصر لم يرد له ذكر في المادة العلمية التي استطعنـا جمعها، فصاحب الـدرر البهية(85) لم يدرجه

81) وهو ما يوافق 1646 م.

82) وراء مركز أوفوس بجهة زاوية سيدي أحمد بن عبد الصادق.

83) الإفراني : النزهة م. س ص 281.

84) يوجد هـذا القصر على الضفة اليمنى لوادي زيز جنوب قصر سيبو المنـدرس، على طريق القوافل وشمال شعبه اللحم.

85) الفضيلي : الدرر م. س، ج 1 ص 231.

ضمن القصـــور التي انتقل إليها شرفـاء وادي إفلي بمدغـرة. كما لم يذكـره الوزان من قبل،(86) ولا شارل دفوكو(87) خلال نهاية القرن 19م في رحلته الاستعلامية حـول المغرب. فهل هذا يعني أن هذا القصر لم يكـن له وجود خلال هذه المراحل التاريخية؟

إذا كنا لا نستطيع أن نـؤكد غيابـه كمعلمة سكنية سيما مع غيـاب أية إشـارة تاريخيـة عن ذلك، إلا أنـه بالنظـر إلى مـوقع هذا القصر في منطقـة حساسة تتحكم في الطريق الرابط بين واحـة منطقة الرتب ومدغرة. إذ يعتبر هذا القصر إضافة إلى قصر بوسعيد آخـر قصور مدغرة لقاء الجنوب، فغير بعيد عنـه توجـد شعبة اللحم أو شعبـة الروح(88) التي هي بمثـابه الحد الفاصل بين مدغرة والرتب كما سبق أن أوضحنا ذلك سابقا.(89)

إن الموقع الاستراتيجي الهام الـذي كـان يحتله قصر مسكي في منطقـة تجعله يشرف على جميـع الشعاب والممرات، ســواء تلك التي كانــت تسلكها القوافل في طريقهـا من سجلماسة إلى فاس مرورا عبر مـدغرة. أو تلك التي كانت تسيطـر عليها قبـائل أيت مرغاد والقبـائل المغيرة الأخرى، وتتخـذها كممرات للسطو على محطات توقف القوافل وكذلك على قصور مدغرة. حيث تذكر الرواية الشفوية أن بهذا القصر كـانت تؤدى «الزطاطة» هذا من جهة. ومن جهة أخـرى كان هذا القصر مبني فـوق صخرة عالية ويشبـه في هذا قصر قلعة تاوريـرت السالف الذكر، الشيء الذي كان يمكنــه من مراقبة كل التحركات الغير عادية التي تحدث بـالمجال الذي يشرف عليه، ويمكن كذلك أن نلاحظ هذه الأهميـة من المادة البنائية المستعملة فيـه. فقد استطعنا عن طـريق المعـاينـة الميـدانيـة أن نسجـل أن قصر مسكي بكل مـرافقـه مبني بالحجارة والطين. سواء تعلق الأمر بـالأسوار الخارجية أو تلك التي تتكون منها المنازل الـداخلية. وهو تمييز خـاص بهذا القصر من بين عموم قصور

---

86) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 123.

87) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, pp 351-352.

88) تذكر الروايـة الشفوية أن سبب تسمية هذه الشعبة بشعبـة اللحم أو شعبة الروح أن أيت عطة كـانوا يغيرون على منطقـة مسكي، واستنجـد أهل قصر قصبة تـازنـاقت بأيت عيسى. ووقعت بينهما وقعة عظيمة سقطت على إثرها عدة رقاب بهذه الشعبة وسميت هذه الشعبة كذلك.

89) أنظر الباب الثاني الفصل الأول.

مدغرة الأخـرى. مما يدل على أنه لم يكن منشأة سكنيـة عادية مجردة من أية خصوصية. وهو الآن – أي قصر مسكى – من الشواهد المهجورة، إذ أن الأهالي هجروه بعد فيضـان وادي زيز لسنة 1965 وأسسوا قصرا آخر على الضفة اليسرى لوادي زيـز جنوب قصر تازناقت عند مـدخل العين الزرقاء لمسكي.

إن هذه الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لهذا القصر لم تكن ترتبط – على مـا نعتقـد – بمـرحلة دون أخـرى، بمعنى أن هـذا القصر قـديم قـدم استيطان القبـائل البربرية التي عـاشت أو تعايشت بهذه المنطقـة منذ زمن غـابر، فحتى على متسـوى التسمية نـلاحظ أن إسم «مَسْـكِـي» البربـري يقابله في الاصطلاح اللغوي العربي محل تجمع المياه حسب ما استقيناه من الرواية الشفوية، ومن إحدى مداخـلات الأستاذ العربي مزين. وهذا أمر لا يتعارض مع مـا هو موجـود على أرض الواقع. إذ بجـانب هذا القصر تنبع العين الزرقاء لمسكي «طوطو جلف».

ومن بـاب الملاحظة نشير إلى أن إسـم «مسكي» يتكـرر في أماكن أخـرى خارج مجال الـدراسة. فاعتمادا على وثيقة لإحـدى مناطق ملويـة الوسطى نجد هـذا الإسـم مع تغيير طفيف من حيث الكتابة وبالتـالي النطق، فالإسم الأول والخاص بمنطقة مدغرة يكتب ب: م. س. ك. ي. والإسم الثاني المتعلق بمنطقة ملوية الوسطى يكتب ب: أ. م. ص. ك. ي. وهناك أيضا نفس الإسم بمنطقة ماسة في سـوس. والغالب على الظن أن هذا الإسم ينتمي إلى اللهجة البربرية المصمودية، مما يجعلنا نـدخل في حسباننا تأثير القبائل المصمودية في المنطقة. وبهذا الخصوص نتوفـر على بعض المعالم السكنية المرتبطة بهذا القبيل، ويتعلق الأمر بقصر تـاغزوت. وننبـه إلى أن إسم تاغـزوت هو إسم شائع من أسماء الأمـاكن في بلاد المصـامدة ويدل على الـوهدة أو المنخفض من الأرض، وهـو مشتق من الفعل «إغْـزَا» بمعنى حفـر.(90) وبالفعل كان قصر تاغزوت القديم(91) الموجود بـالقسم الأعلى من مدغرة يـوجد وسط حفـرة. إلا أن قصر مسكي كان محلا للحـراسة وليس مكـانا للسكن. ممـا

90) التشوف إلى رجال التصوف م. س، ص 295 هامش 766.

91) أنظر تحديد هذا القصر بالجدول الخاص بالقصور القائمة وبالخريطة الخاصة بالسكن الخريطة رقم: 6.

يستنهض الدليل على أن هذه المنشأة العمـرانية ما هي في الواقع إلا بصمات أقدام لإحـدى الإثنيات البشرية التي وجـدت في إحدى مـراحل التاريخ بهذه المنطقة، ويتعلق الأمر بالمد المصمودي الذي اكتسح المنطقة عندما تسنم سدة الحكم بالمغـرب خلال القرن 6هـ/12م والإشارة هنا إلى الدولـة المصمودية الموحدية المهدوية.

فإذا كان صاحب الدرر البهية لم يـذكر هذا القصر ضمن قصور مدغرة التي انتقل إليها الشرفاء الحسنيون، فإن هذا لا يعني أن هذا القصر لم يكن موجودا، ولكن لم يتخـده الشرفاء المنتقلون إلى مدغرة كمستقـر جديد لهم. ومع ذلك نستغـرب لكـون قصر مسكي لم يـرد لـه ذكر في كتـاب شـارل دفوكو،(92) الذي كـان يقوم بمهمه استعـلامية تقضي بجمع كل المعلـومات عن المغـرب لصالح الـدولة الفـرنسية، بما في ذلك رصـد المنشآت الـدينية والحربية. ونعتقـد أن السبب في ذلك راجع إلى أن هذا الـرحالة كـان يعتمد كثيرا على الروايـة الشفويـة في جمع معلوماتـه، ذلك أنه يـذكر إسم القصر وعدد السكـان القادرين على حمل السلاح، والمسـافة الفاصلـة بين القصور والتركبة السكـانية لهذه الأخيرة. ممـا يوحي بـأن مؤلفه هـذا لا يخرج عن كونه استمارة ميـدانية محدودة ومقصودة. كما لا يستبعد كـذلك أن تكون الفترة التي مـر فيها دوفـوكـو بمنطقة مـدغـرة لم تساعـده على جمع كل المعلـومـات، سيما وأنـه زار مـدغرة في وقت كـانت فيـه تمثيليـة الـزاويـة الدرقـاوية بقصر جاوز بمدغـرة في أوج قوتها. ونعلم ما يكنـه رجال العلم والصـلاح لأهل الـذمـة، سيما وأن المؤلف كـان يتقمص شخصيـة تـاجـر يهودي.

فكل هذه العوامل مجتمعة على ما نعتقد – قد تكون وراء غياب جملة من الحقائق، وفي مقدمتها الإشارة إلى وجود هذا القصر. خاصة وأن قصر زعيم تمثيليـة الزاويـة الدرقـاوية بمـدغـرة مولاي العـربي الدرقـاوي الجاوزي المدغري لم يكن يبعد عن قصر مسكي إلا بحوالي ثلاث كيلومترات.

إلا أن هـذا الغمـوض الذي اكتنف مسـألة وجـود هـذا القصر، لم يكن ليستمر طويلا. فالحافظة الشعبية المحلية تذكر أن مزارع غابة قصر مسكي

(92 Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, au Maroc, op cit, pp 351-352.

كانت في ملك سكـان قصر تازناقت، ولم تظهر ملكيـة حراطين قصر مسكي لهذه المزارع إلا في الفترات المتأخرة جـدا. وعلى هذا الأسـاس لا نستبعد أن تكـون قصبة تـازناقت التي تحدث عنهـا الفضيلي هي قصر مسكي. سيما وأنه إذا مـا تفحصنا وبدقـة متناهية القصر القـديم لتازنـاقت الموجود على الضفة اليسرى من وادي مدغرة نلاحظ أنه تنتفي به كل مواصفات القصبة. وهذا يـوضح لماذا لم يذكر الفضيلي هذا القصر بـاسمه الحالي، لا لشيء إلا أنه كـان يعني بـه قصبة تازنـاقت قـال الفضيلي: «...وبعده انتقلـوا لمدغرة وغيرها فنزلـوا من مدغرة بقصبة تـازناقت»،(93) وتشـهد على ذلـك وثائق العقود التي تثبت أن سكـان تازناقت هم أصحـاب الحقول الزراعية بغـابة قصر مسكي الحالي. كما أن نوع العناصر السـوداء الموجودة بقصر مسكي هـو من فصيلـة العبيـد وليـس من فصيلـة الحراطين وهـو أمـر تقتضيـه القصبات.

قصر بني محلي :

يوجد هذا القصر على الضفـة اليمنى من وادي زيز بين قصرا تسكَدلت وأسرير.(94) وتختلف الروايات حول أصل تسمية هذا القصر «ببني محلي». فمنها من يـردها إلى أن هذا القصر كـان يحتوى على محلة أو مـا يعبر عنه محليا «دَارْ الْـمَحَـلَّـةْ» التي كانت بمثـابة محطة لاستراحة القوافل، وتشـهد على ذلك السـاحة الكبيرة المسورة الموجـودة بجانـب القصر. ولا يستبعد أن تكون هذه الساحة كمكان لاستراحـة الدواب المحملة بالبضائع، ويظهر ذلك من خلال الأسـوار الضخمة المحيطة بها. وهذه الخاصية هـي إحدى المهام التي كانت تتكفـل بها المحطات التي تنزل بها القـوافل. فقد أشـار صاحب الإعـلام العباس بن إبـراهيم التعارجي إلى أن: «المنصـور السعدي تمهيـدا للطرق على المسـافرين أقـام منازل وخيام وأمـر بسكناهـا على الطريق بين المنزلة والمنزلة ما يقرب من أربعـة عشر ميلا، يسكنها أهل البادية، وأجرى لهم ما يكفيهم ثوابا على سكناهم وأمرهم ببيع الشعير والطعام... وإن باتت

93) الفضيلي : الدرر، م. س. ج 1 ص 231.

94) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, au Maroc, op cit, p 352.

لهم قافلة يحرسونها ليلا ونهارا وإن ضاع شيئا ضمنوه لربه وإن كان ضياعه بين المنزلتين ضمنه أقربهما منه، ويعطي المسافر على ذلك ربع دينار – 10 دراهم –».(95) إلا أن هذا الرأي يفتقد إلى الحجة الدامغة حيث لم يرد ذكر لهذا القصر، ولا لهذه الوظيفة التي تشير إليها الحافظة الشعبية المحلية كمحطة لاستراحة القوافل. على عكس ما نلاحظه مثلا بالنسبة لقصر سيدي أبو عبد الله. فقد أشار روجي لوطورنو أن قصر سيدي أبو عبد الله كان واحدة من المحطات التي تتوقف بها القوافل التجارية في طريق سجلماسة فاس.(96)

وتذهب رواية أخرى إلى القول أنه لما نشب نزاع بين سكان قصر سيدي أبو عبد الله غادرت فئة «الـرْشِيدِيِّيْن» هذا القصر وطلبوا من سكان قصر بني محلي السكن بجانبهم. ومنحوا مكانا بجانب القصر، ويشهد على ذلك بقايا الأسوار التي تحيط بتلك الساحة التي كانت هذه الفئة تنوي الإقامة بها. ومازال سكان بني محلي يطلقون على هذه الساحة «مَحِلَّةْ الرْشِيدِيِّين». إلا أن هذا الرأي بدوره لا يستند على أي أساس وثائقي، إذ لم نعثر على أية وثيقة يمكنها أن تعززه أو تنفيه.

والرأي الثالث يشير إلى أن هذا القصر كان من إنشاء أتباع ابن أبي محلي الفقيه الثائر. فقد أشار عبد الكريم الفيلالي أن: «قصر بني محلي سمي باسم بن أبي محلي الذي كان والده مؤذنا بزاوية القاضي بسجلماسة، ثم قام سنة 1019هـ عندما بدأ انهيار الدولة السعدية ونظم جيشا قاده إلى مراكش حيث دعا لنفسه، ثم قبضه المولى محمد بن الشريف مؤسس دولة العلويين ثم قتله صبرا. وإليه يرمز بعض المؤرخين بقولهم ابن محلي عاش طيشا».(97) يظهر من كلام عبد الكريم الفيلالي أن قصر بني محلى يستمد إسمه من الفقيه الثائر ابن أبي محلي، مما يدل على أن ابن أبي محلي في رحلته من تافيلالت إلى مراكش عبر درعة قد مر بمنطقة مدغرة التي تعتبر محطة إجبارية في هذا الطريق. وخلف لنا بصمات إقدامه بالضفة اليمنى من

---

95) العباس بن إبراهيم : الإعلام. م. س. ج 2 ص 155.

– عبد العزيز بن عبد الله : معلمة المدن والقبائل م. س ص 82.

96) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية. ج 1 ص 599. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

97) أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري : الأنوار م س، ص 74 هامش 1.

وادي مدغرة التي تجسدها حاليا هذه المنشأة السكنية التي تحمل أو تقترن باسمه. رغم أن المادة العلمية التي اطلعنا عليها وخاصة منها المتعلقة بشخصية هذا الفقيه الثائر لا تشير إلى توقفه بمنطقة مدغرة. فقد أشار الأستاذ عبد المجيد القدوري إلى صعوبة تتبع الطريق الذي سلكه ابن أبي محلي وتحديد المحطات التي توقف بها. قال: «غير أننا لا نستطيع تحديد الطريق الذي سلكه ابن أبي محلي من أجل الإستيلاء على درعة، التي شكلت المرحلة الثانية في حركته».(98)

رغم أهمية النص الذي أورده عبد الكريم الفيلالي والذي يربط من خلاله بين وجود هذا القصر وقيام ابن أبي محلي. إلا أنه مع ذلك لابد من تسجيل الملاحظات التالية :

1 - يبدو أن الأستاذ عبد الكريم الفيلالي قد اختلط عليه الأمر أو أخذته سهوة، وكنى الفقيه الثائر باسم عبد الحق بدل الإسم الحقيقي لابن أبي محلي. قال: «سمي قصر بني محلي باسم ابن أبي محلي عبد الحق، الذي كان والده مؤذنا بزاوية القاضي بسجلماسة».(99) بينما نجد كل المصادر والمراجع التي أرخت لهذا الفقيه، تتفق كلها على أن إسمه الكامل هو أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابن أبي محلي.(100) قال في البستان: «أبو محلي هذا، إسمه أحمد بن عبد الله وينتسب إلى بني العباس ويعرفون في سجلماسة بأولاد بن اليسع أهل زاوية القاضي».(101)

2 - أشار عبد الكريم الفيلالي إلى أن الذي قتل ابن أبي محلي هو مولاي محمد بن الشريف العلوي، قال : «قام - يعني ابن أبي محلي - سنة 1019هـ عندما بدأ انهيار دولة السعديين ونظم جيشا قاده إلى مراكش حيث دعا لنفسه، ثم قبضه المولى محمد بن الشريف مؤسس دولة العلويين ثم قتله صبرا».(102) في حين لا يجادل أحد في أن الذي قتل ابن أبي محلي

98) عبد المجيد القدوري : ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت. م. س، ص 66.

99) الأنوار : م. س، ص 74 هامش 1.

100) أنظر كل المصادر والمراجع من الإفراني إلى الناصري.

101) أبو القاسم الزياني : البستان م. س. تحقيق رشيد الزاوية د. د. ع التاريخ. فاس ص 15.

102) الأنوار : م. س. ص 74 هامش 1.

بمراكش هو الشيخ زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي، بدعوة من زيدان ابن المنصور. قال الناصري: «ثم زحف يحيى إلى مراكش في جموعه فنزل بقرب جلين، جبل مطل على مراكش وبرز إليه أبو محلي والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي. فهلك مكانه واندثرت جموعه ونهبت محلته واحتز رأسه وعلق على سور مراكش».(103)

وبناءا عليه، فالرأي الثالث مردود وهو رأي عبد الكريم الفيلالي، على أساس ما فيه من مغالطات وتمحل. ولا ينبني على أي ضبط للوقائع التاريخية المتعلقة بثورة ابن أبي محلي (1019هـ – 1022هـ) وبين ظهور مولاي محمد بن الشريف، ظهورا سياسيا في إقليم سجلماسة (1043 – 1050هـ). ومن هنا لا يمكن أن نأخذ برأي الأستاذ عبد الكريم الفيلالي. ولذلك نرجح أن تكون التسمية تعتمد على نظام المحلة باعتبارها نظاما عسكريا يحتاج إلى محطات الاستقرار والاستراحة والحراسة في هذه المنطقة، وهذا ما هو موجود بهذا القصر من خلال طبيعة البناء التي نلاحظها ونلمسها في بقاياه. هذا وإن كان تاريخ البناء شيئا غامضا على أمل أن تكشف عنه الوثائق المحلية إستقبالا.

لقد حاولنا أن نتتبع أسماء القصور المدغرية، سواء تعلق الأمر بالقصور المندرسة أو التي مازالت قائمة مهجورة كانت أو مسكونة. واستطعنا أن نعد منها ما يزيد على الستين قصرا. إن وجود هذا العدد الهائل من القصور في مقاطعة جغرافية لا يتعدى طولها 35 كلم من الشمال إلى الجنوب، يدل على أن المنطقة عرفت تعميرا واستقرارا بشريا عبر تاريخها الطويل.

وإلى جانب هذه المنشآت السكنية القديمة المندرسة والقائمة، نجد بمدغرة بعض الخلوات التي كان يتخذها الأولياء والصلحاء كمراكز للعبادة. منها ما تطور إلى زاوية بل وإلى منشأة سكنية تامة وقائمة بذاتها، ومنها ما ظل محتفظا بوظيفته الأولى. فقد جاء في فتح القدوس حول الأسباب التي حدت بمولاي مَحَمَّدْ المدعو مولاي بن علي إلى بناء زاويته. قال: «وسبب بنائه لهذه الزاوية، زاوية تاوريرت التي هدمها طوفان النهر عام 1343هـ. أنه لما

103) الناصري : الاستقصا م. س، ج. 6 ص 26.

توفي والده مولاي عبد الله بقريـة أولاد الحاج مدغرة، ودفن في موقع خلوته التي كـان يختلي فيها للقرائة أي لـلإقراء والتـدريس رحمه الله. وقـد رغب أولاده في سكنى قرية بمدغرة يقال لها قـرية أولاد بوحمو قد خربت الآن... وحين رغبـوهم في السكنى معهم - يعني أولاد بوحمو - لفـرط محبتهم في آل البيت الشريف. انتقل إنجـال المولى عبـد اللـه بن علي إلى تـاوريـرت وأسكنـوهم في القلعة العـالية... فلما سكـن سيدي مـولاي بن علي بالقلعـة وكثرت عليه الـوفود من الزوار وانتشر ذكره في الإقطار والنـاس يأتون إليه أفواجـا رجالا وركبـانا. ضـاق به ذلك المحل بكثـرة الأضياف، فنـزل منها لجنـان قـد اشتراه بينـه وبين القلعة نحـو رمي حجـر وبنى فيـه زاويتـه ومسجده».(104) وهـذا يعني أن تـاريخ بنـاء الـزاويـة هـو نهايـة القـرن 11هـ/17م، أي أنها زامنت عهـد السلطان مولاي إسماعيـل العلوي. كما أن الخلوة التي كـان يتعبد بها مولاي عبد اللـه بن علي بن طاهر بجانب قـرية أولاد الحاج تحولت إلى زاويـة على يد أحد أحفـاده المسمى مـولاي البكري، وهو القصر الـذي يحمل اليوم إسم الزاويـة البكرية أو قصر زاويـة مولاي عبد الله. وقد أثبتنا موقعه في الجدول الخاص بالقصور التي مازالت قائمة.

على أن آخر ما يمكن تسجيله بالنسبة لظاهـرة الزوايا بمدغرة هو زاوية «رْحَـمْـةْ اللَّهْ». فبالحريم الشرقي لمنطقة مـدغرة تنتصب هذه الزاوية، التي كانت محل تعبد مولاي العربي الـدرقاوي المدغري خلال أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م. مـازالت لحد الآن في نفس المكان وتعـرف بنفس الإسم بحريم مدغرة الشرقي قرابة وادي «مـاء يوسف» «بالدار الحمراء». فقد جاء في ترجمة محمد العربي بن الهاشمي المدغري بكتاب الإعلام للتعارجي: أن مولاي العربي الدرقاوي المدغري «كانت لـه دنيا عريضة ببلده - مدغرة - على هيئـة دور الملوك، من كثـرة المرافق لسكنـاه. أحدهما سماه رحمة اللـه والآخـر نعمة اللـه. فكـان بعض الناس يقـول لأصحـابه من أين خـرجتم فيقولون من نعمة الله ومن رحمة الله».(105) وهذا يعني أن الخلوتين معا كانتا متجاورتين. والغـالب على الظن أن المكان الذي توجد فيـه حاليا خلوة

---

104) فتح القدوس : م. س ص ص 69 - 70.

105) التعارجي العباس بن إبراهيم : الإعلام م. س، ج 7 ص 83. وهذا على سبيل الإستملاح.

رحمة الله في حريم مـدغرة الشرقي قباله قصر تاوريرت، مـا هو إلا المكان الثاني الذي انتقلت إليه الخلوة أو الزاويـة. وحجتنا في ذلك أن دوفوكو ذكر أن مـولاي العـربي الـدرقـاوي المدغـري كـان يقيم سنـة 1881م بقصر جاوز،(106) وفيه أو بجـانبه كـانت تـوجد الخلـوتين. كما تذكـر الحافظة الشعبية المحلية من جهـة ثانية أن الخلوتين «رحمة الله – نعمة اللـه» كانتا موجودتين بقصر جاوز الموجود على الضفة اليسرى لوادي زيز شمال قصر تازنـاقت. ولما قرر مولاي العربي بنـاء هذه الزاوية طلب من أهل تـازناقت أعطائه بقعة، أرضية، وتم الاتفاق على البنـاء شريطة احتفاض أهل تازناقت بملكية العقار الذي بنيت فوقه هذه الـزاوية. ونعتقد أن ما يطلق عليه حاليا قرابة القرية النموذجية لقصر تازناقت «بدار الشيخ»، هو المكان الأول الذي كانت تـوجد بـه زاوية الشيخ المذكـور، قبل أن تتوسـع الـزاوية وتنتقل إلى مكانها الحالي المعروف بالدار الحمراء. أو أن المكان الـذي توجد حاليا زاوية «رحمة الله ونعمة الله» بحريم مدغـرة الشرقي كان في ملك سكان تازناقت. وهو رأي مستبعـد، لأن المكان الـذي توجد فيـه زاوية رحمة اللـه أو الدار الحمراء حاليـا يوجد قبالة قصرا القصيبة وتـاوريرت. ومعلوم أن كل قصر كان يتحكم في محطبه ومرعاه.

إنه بالنظر إلى القصور التي ورد ذكرهـا، سواء منها المندرسة والتي لم نعد نحتفظ إلا باسمها أو تلك التي مازالت قـائمة، إما كشواهد مهجورة أو مسكونـة، نلاحظ أن أغلبهـا يرتبط بـالزحف الـزناتي وبعـده الصنهاجي والمصمودي. حيث أصبحت منطـة مدغـرة مطبوعة بشكل بَـيِّـنْ ببصمات أقـدام هذه المجمـوعـات البشرية البربـريـة، ويظهر ذلك من خـلال أسماء القصـور والأمـاكن. كما يرتبـط البعض الآخر من القصـور بمنطقة مـدغرة بالزحف العربي المعقلي الذي اتخد هذه المنطقـة كقاعدة لتنظيم حملاته نحو المناطق الأخرى، ومراقبة طرق القوافل بالأساس. وخلف لنا بصمات أقدامه ممثلـة في بعض المنشـآت السكنيـة أثبتنـاهـا فيما سبق، وهي على العمـوم مرتبطة بهذا التعمير الجديد.

(106 Faucauld (ch. de) : Reconnaissance, op cit, p 352.

كما عمل شرفاء قصور وادي إفلي الذين انتقلوا إلى مدغرة وما إليها خلال المرحلة الحديثة على طبع الظاهرة العمرانية بمدغرة بطابع خاص ومتميز. إذ أن الأمر لا يقتصر على المساهمة في بناء أو إعادة بناء بعض المرافق التابعة للقصور، بل في بناء قصور برمتها، فقد ذكر الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي في إحدى هوامش تحقيقه لكتاب إلتقاط الدرر مولاي عبد الله بن علي بن طاهر ساهم في بناء عتبة قصر تازناقت.(107)

كما أن مولاي محمد المدعو مولاي بن علي – أحد أبناء مولاي عبد الله بن علي بن طاهر – هو الذي بنى زاوية قصر تاوريرت بناءا على ما جاء في مخطوط فتح القدوس. وإليه كذلك يرجع الفضل في بناء قصر الحوش المجاور لقصر تاوريرت، والذي خصصه كمحل لإقامة ابنا أخيه مولاي عبد الهادي بن عبد الله. ويتعلق الأمر بمولاي الشريف ولالة الطَّاهْرَة. قال في فتح القدوس: «وقد دفع – يعني مولاي بن علي – دراهم للإمام أبي سالم العياشي حين قدم للحج ينفقها على ولدا أخيه سيدي مولاي عبد الهادي بن عبد الله، مولاي الشريف ولالة الطاهرة بنت عبد الهادي. والإتيان بهما من المدينة المنورة لما مات والدهما هناك سيدي مولاي عبد الهادي. وأتى بهما أبو سالم العياشي رحمه الله، وبنى لهما عمهما سيدي مولاي بن علي حصنا يقال له الحوش، قبلة تاوريرت العالية».(108)

كما نلاحظ أن مجموعة أخرى من قصور مدغرة ارتبطت بالشرفاء، نذكر منها على الخصوص: قصر مديونة سي بن الحسن قصر الجديد زاوية مولاي عبد الله وقصر أيت مولاي امحمد وغيرها.

إلا أن ما يجب التأكيد عليه بخصوص المسألة العمرانية بمنطقة مدغرة، أن الظاهرة المسيطرة بها هي أن مدغرة ظلت منطقة زراعية ومدنية. وقد لعبت المنطقة دورا كبيرا في الحركة العلوية إذ تم توطين العلويين على حوافي وادي زيز بمدغرة، لتدعيم السلطة العلوية، في صراعها مع الدلاء ومراقبة طريق المخزن. ويظهر ذلك من خلال أن الدلاء لم يتمكنوا من مد نفوذهم إلى مدغرة بفعل الوجود العلوي، وأيضا من خلال تدخل مولاي عبد الله بن

107) كتاب التقاط الدرر. م. س ص 98 هامش 1.

108) فتح القدوس م. س، ص 72.

علي بن طاهر في منطقة الخنك، علاوة على عقد الأخوة الذي عقده مولاي بن علي مع أبي سالم العياشي وكل هذا جعل منطقة مدغرة عرضة لغارات القبائل المجاورة انتقاما منها.

تتمركز أغلب القصور القديمة بمدغرة السفلى والوسطى، مما يعني أن هذا القسم من مدغرة كان هو القاعدة الأولى للإستقرار البشري، ونستشف ذلك من كون هذا القسم من مدغرة ظل يحافظ على أقدم الأسواق. ومعلوم أن السوق لا يختار بحكم الصدفة وإنما يخضع لمحددات جغرافية بشرية سياسية. كما أن أسماء بعض القصور تدل على أن بداية الإستقرار البشري كانت بهذا القسم من مدغرة. وفي هذا الخصوص نشير إلى أن كلمة «تِسَكَدَلْتْ» وهو جمع على «أسَكَدَالْ». وأسكدال في الإصطلاح اللغوي البربري يعني الحصارات بالثوب أو بالشطب المحيط بالخيمة. مما يعني أن طريقة بناء القصور البربرية كانت في بدايتها على شكل خيمة. بمعنى أن بداية التعمير كانت بداية بربرية. وتكون البنايات على شكل دائري والشواهد متعددة فكل القصور ذات الأسماء البربرية هي مدورة أو شبه مدورة ونخص بالذكر قصر مسكي وهو شبه مدور وهو يمثل النموذج البربري وقصر تيطاف القديم مدور وأيت مسعود القديم مدور وقصر أولاد أبي ناجي شبه مدور.

3 – مورفولوجية البناء :

إن مصطلح القصر(109) الذي تقابله كلمة المجشر(110) بباقي مناطق المغرب الأقصى تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. وقبل السيادة العربية كان المصطلح المستعمل بمنطقة مدغرة هو «إغرم» وجمعها «إغرمان». وتختلف القصور بمدغرة عنها بدرعة، لأنها في الثانية تكون محاطة بسورين يتراوح طول السور الداخلي ما بين 1,40 سنتم و1,80 سنتم أما السور الخارجي فيكون

---

109) القصر جمعه قصور، وهو مجموعة سكنية واحدة.

110) كما هو وارد في كتب النوازل الفقهية. أنظر المعيار ونوازل العلمي والمعيار الجديد للمهدي الوزاني.

أعلى من سابقه. ويبنى بمواد صلبة. كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية، أما القصور بمدغرة وتافيلالت فلها سور واحد وغالبا ما تلتصق به جدران المنازل(111) وهذا طبعاً مع بعض الإستثناءات. وتذهب جاك مونيي أن القصور بسجلماسة قديمة مقارنة بدادس ودرعة، هذه الأخيرة التي لم تتبلور إلا في فترة متأخرة حوالي القرن 14 و15م.(112)

وكانت الضروريات الأمنية بالأساس هي التي فرضت وضع سور على جنبات القصر وغالبا ما تكون قاعدة هذا السور مبنية بالحجارة تجنبا لغمر الفيضانات أو لأسباب دفاعية. وإن كان قصر مسكي المشار إليه سابقا يشكل استثناءا بمدغرة، حيث أن هذا القصر مبني كله بالحجارة والطين.

ويرجع أصل القصر عموما إلى الفترة البرونزية (ما بين الألف الثالثة والألف الأولى قبل الميلاد)، فالنتائج التي توصل إليها مركز البحوث والدراسات العلوية بتافيلالت تفيد أن البقايا الأثرية (النقوش الصخرية والمدافن الجنائزية والأدوات النيوليتية) التي تزخر بها منطقة تافيلالت تشهد على قدم الإستقرار البشري بالمنطقة، وعلى المستوى الحضاري الذي وصلت إليه.(113) ويرجع أحد الباحثين J. Hensens حضارة تافيلالت القديمة إلى الحضارة المتوسطية، وبأن القصر وسكانه قد عرفوا تأثيرات شرقية ومتوسطية قبل الإسلام. فالمنازل ذات الحصون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتخطيط العسكري والتنظيم البسيط واستحكام بناء الأسوار الضخمة ووجود النخيل والجمل، كلها معطيات تنتمي إلى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط.(114)

ويرجع الفضل في ظهور هذا النمط السكني بالمناطق الصحراوية إلى قبائل زناتة، لأنها حسب رأي لويكي هي التي أنشئت أغلب واحات المناطق

---

111) Abdel Aziz touri : collègue d' Erfoud. in Italie 1986. p 33.

112) Meunié (D.J) : Abbar cite royale du tafilalet. H 1959. p 51.

113) لحسن تاوشيخت : جامعة مولاي علي الشريف الخريفية الدورة الثانية. مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني دجنبر 1990، ص 178.

114) Hensens (J) : Habitat rurale traditionnelle des Oasis presahariennes : le Ksar problème de Ronovation. in bulletin economique sociale du Maroc - juillet - septembre 1969. n° 14 p 83.

الصحراوية، كواحة سوف وواحة ريغ وورگله وتيدكلت وتوات.(115) وهذا لا يختلف مع ما ذكره ابن خلدون حول نفس الموضوع. حيث أشار إلى أن القبائل الزناتية تركت قصورها جنوب جبل دْرْنْ لعرب المعقل، بعد أن تكونت لها دول ببلاد المغرب متمثلة في المرينيين بفاس والزناتيين بتلمسان. ومما لاشك فيه أن عرب المعقل الذين شغلوا مجالات تافيلالت منذ القرنين 7 و8هـ/13 و14م ومدوا سيطرتهم مع مطلع العصور الحديثة إلى سفوح جبال الأطلس الكبير الشرقي، قد وجودوا هذه القصور قائمة بدون أدنى شك. إلا أن بناء هذه القصور عرف اتساعا وتطورا ملحوظا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، الذين نقلوا معهم أيضا مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى، التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة قبلهم. وإن كان هذا لا ينفي بالطبع أنهم حملوا معهم كذلك من المشرق بعض المؤثرات العمرانية. ويظهر ذلك من خلال مقارنة الظاهرة العمرانية بمدغرة مع ما هو موجود باليمن مثلا، وأيضا من خلال أسماء العديد من المرافق بالقصور ومن أسماء القصور نفسها. ذلك أن الأسماء البربرية للقصور نجدها تتكون من إسم واحد والأسماء العربية مزدوجة الإسم. فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر قصر «تاوريرت» وهو إسم بربري وقصر أولاد الحاج وهو إسم عربي.

فإذا كانت المادة العلمية تعوزنا للوقوف على أثر الوجود العربي في العمارة والفنون بالمنطقة، إلا أن الراجح أنها تأثرت في هذا الصدد بمؤثرات شرقية وأندلسية على حد رأي الدكتور محمود إسماعيل.(116) وهذا لا يتنافى مع ما توصلت إليه جاك موني، حيث أشارت أن نمط العمارة بمنطقة الجنوب الشرقي المغربي وخاصة سجلماسة يشبه إلى حد كبير نمط العمارة بإقليم «سيايزستان» بإيران. وذلك اعتمادا على ما توصل إليه الباحث جوزيف حكيم خلال سنة 1936. فقد أبرزت هذه الدراسة أن سجلماسة وسيايزستان لا ترتبطان فقط من حيث الفن المعماري، بل تشتركان كذلك حتى على مستوى التطور التاريخي. رغم أن الأولى تبعد عن

115) Lewiki (t) : sur le titre libyco - bèrbère. op cit, pp 32-97.

116) محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب م. س، ص 300.

الثانية بحوالي 6000 كلم. فقد دمرت سايـزستان على يد المغول سنة 1384م. في حين خـربت سجلماســة على يد الأعـراب سنــة 1393م. وتستطرد جاك مونيـــي أن هذا التشــابــه من حيث الفن المعماري لــه ما يفسره : فأغلبيــة عناصر الحركة الخارجية الصفريــة تنحدر من أصل فارسي، وقد نقلت هذه العنــاصر المذهب فضـلا عن الثقــافــة والحضــارة الفارسيــة بما في ذلك فن العمــارة.(117)

ورغم أهمية هذه الشـهادة التي تثبت الترابط بين فن العمارة بسجلماسة وما إليهـا بالفن المعماري الفــارسي. إلا أنه مع ذلك لابــد من الوقــوف عند بعض النقط لتــوضيحها تفاديـا للبس: ذلك أن التاريخ الــذي حددتــه جاك مــونيي لتدمير سجلماســة، وهــو على العمــوم تاريخ يتــزامن مع استقــرار القبــائل العـــربيــة المعقليــة. لا يصـــادف تــاريخ تـــدمير المدينــة العظمى «سجلماسة» بل يؤرخ لخروج ساكنــة المدينة السجلماسية إلى الهوامش أي المزارع والقصـــور، على أن التـــدمير العملي لم يتم إلا في مـــراحل لاحقـــة. وتظافرت فيــه مجموعة من العوامل: السياسية والاقتصــادية والطبيعية بما في ذلك هاجس الفيضان النهري الذي كان يتردد على المنطقة.

وهــذه القــرائن تثبت كلهــا أن العمارة بمناطق الــواحــات استفــادت من مجموعــة من المؤثرات. منها ما هــو محلي محض، ومنها ما هــو أفاقي. ولا غـرو في ذلك فالمنطقــة لم تكن معزولــة عن التأثيرات الحضاريــة المغربيــة والمشرقية، ويشـهــد على ذلك التطور التــاريخي الذي عـرفته المنطقــة خلال مراحل بارزة من مسيرتها التاريخية. لهذا مجال للإستغراب إذا وجدنا الأثر المغربي بوجهه الصرف إلى جانب الأثر العــربي بمعناه الواسع. وهذا ما قد يفيد في رسم المعــالم الديمغــرافية من حيث معــرفة القبائل التـــي عاشت أو تعايشت بــالمنطقة خــلال مراحل زمنية معلـومة، وذلك انطــلاقا من أسماء القصور والأماكن. وأيضا من خــلال أسماء المرافق المكونة للدار أو القصور التي تتوزع بين التسميات البربرية والعربية.

---

117) Meunie (D.J) : architècture et Habitat du dades, un ouvrage publié avec le concour de la rechèrche scientifique, librairie c. Klinksieck paris 1962. pp 100-101.

فـالقصور هي قـرى ومساكن تمتـد في الصحراء على طـول مجاري أو ينـابع الماء الجوفية. وهـذا يعني أنها مـرتبطـة بعصب الحياة الأسـاسي في الواحات الذي يتجلى في المنابع المائية. وتتجمع هذه القصور على شكل جزر صحراويـة تتباعـد أحيانا على طـول أودية زيـز وغريس، وكَير وزورفـانة والساورة وتـوات وكَورارة ثم في بـلاد درعة والـدادس، وخط الواحـات من جبل باني إلى وادي نـون. وبذلك يمكن القول أن القصور تكثـر في السـهول والبطاح وكذلك الهضاب.(118)

تتخد القصور في مدغرة أشكالا مـدورة ونصف مدورة خاصة القصور القديمـة وكذلـك أشكالا مـربعة، ترتفـع في جنباتها أبـراج مربعـة. وتكون الجدران الخارجية عريضة السمك تتراوح ما بين 50 و100 سنتم، أما علوها فما بين 5 إلى 10 أمتار.(119)

لكل قصر بابان، يفتح الأول نحو الطرق المؤدية إلى البساتين. بمعنى أنه يوجـد على الجهة المفتوحـة على الغابـة، ويسمى «فم القصر». والثاني يفتح نحو المساحـات والطرق الخارجية التي ترتبط بالقصور أو بخـارج الواحة. وهذا الباب الأخير يسمى «الَخـرَّاجـيَّـةْ». وهذا يعني ومن باب المقارنة فقط أن القصور بمدغـرة كانت تشبه إلى حد كبير بنيـة الجسد البشري، ويظهر ذلك من خلال وجود الفم والمخرج. كما أن كينونة باب «فم القصر» كانت في الغالب تواجه مصدر الخطر الذي يتهدد القصر. وهذا ما قد يفيد في الكشف عن هـاجس الخوف وعـدم الإطمئنـان، وهـو مـا انعكس على تقنيـة بنـاء القصور. كما يكشف كذلك عن إمكانية تحديد مصادر الأخطار الموجهة ضد قصور مـدغرة. ولهذا كان التركيز على مـدخل القصور لغرض الهيبـة عند المدخل. ويمكن للمشاهد أو المطلع أخذ تصـور سريع عن حالة أهمية المبنى لأول مرة من واجهة المدخل.(120) ويكون المدخل دائما مرتفعـا نسبيا عن بقية أجزاء القصر السكني المحيطة به، من جدران مستوية أو وحدات بنائية.

---

118) عبد العزيز بن عبد الله : معلمه المدن والقبائل. م. س، ص 242.

119) Fauré (R) : le tafilalet étude d'un secteur traditionnel d'irrigation. paris 1969, p 140.

120) عبد الستـار العزاوي : المدخل عنصر معماري للبيـوت التراثية في الشـارقة، مجلـة «دراسـات». تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، العدد الثالث السنة الثانية 1991 ص 122.

مما يعني أن المدخل أو «فم القصر»(121) ينسجم مع الهدف والغرض من وجوده كعامل الأبهة والإبداع والزخرفة أو يعطي أهداف الخشوع والسكينة، أو لغرض السيطرة والدفاع، من خلال الهجوم على المباني العسكرية. وغالبا ما يكون موقع المدخل وسط أحد أضلاع القصر السكني.

تغلف هذه الأبواب منذ غروب الشمس من كل يوم إلى طلوع الفجر الموالي، وكان المحليون يصنعونها من خشب النخل وتشد أجزاؤها أعواد من شجر المشمش أو الرمان المتينة. أما القفل (الفرخة) فهو عبارة عن قطعه عود سميكة تكون مستديرة الشكل أو مستطيلته، وذلك باختلاف أبواب القصور التي عايناها. يصل قطرها إلى حوالي 40 سنتم كما هو الحال في قصر سيدي أبو عبد الله. وهي مثبتة في الباب بإحاكم تصل بينه وبين حفرة في الجدار خشبة سميكة عند إغلاقه ليلا. ووجود القفل أيضا يعطي طابعا عسكريا حيث أن السيطرة على الباب يعني السيطرة على القصر.

والأسوار عبارة عن سلسلة متصلة من الجدران العالية، ذات ارتفاعات مختلفة بعض الشيء. وتتراوح على العموم ما بين 5 إلى 7 أمتار وقد تصل أحيانا إلى ما فوق 8 أمتار، كما هو الحال بقصر سيدي أبو عبد الله وقصر مسكي، وسمكها ما بين 50 و100 سنتمتر. تتخللها أبراج مربعة يصعد إلى أجزائها العلوية بواسطة «السَّلُّومْ» بمعنى الأدرج. وفي حلقتها الوسطى نجد شكل حجرة يستريح فيها حارس أو حراس، الذين كانوا يقومون بحراسة القصر ليلا بالتناوب. حسب تعبير محمد بن عبد السلام بن ناصر: «لا يفارقه الحارس في سائر الفصول والأزمان».(122) ولهذه الأبراج طابعها الخاص، فعددها في غالبية القصور أربعة تنتصب في زوايا القصر، وهي مربعة الشكل. عكس ما نجده في واحة فكَيك، حيث أن الأبراج في هذه الأخيرة دائرية.(123)

إن أهم ما يميز القصور بمدغرة هو تموضعها من جهة أولى وسط أو بجانب المساحات الزراعية. ومن باب الملاحظة نشير إلى أن غالبية قصور

121) تُعَرِّفُ القواميس والمعاجم العربية المدخل «فم القصر» بأنه مكان بين المسكن وداخله». أنظر : ابن منظور : المصطلحات الفنية، لسان العرب م.س، ص 220.

122) محمد بن عبد السلام بن ناصر : «الرحلة الكبرى». مخ. خ. ع. الرباط رقم 5658 ص 17.

123) أحمد مزيان : فجيج م. س، ص 56.

مدغرة القديمة استبدلت مواضع نشأتها الأولى من وسط الغابة إلى حوافيها، بفعل الفيضانــات والضغوط الخارجية. ولكنها ظلت محافظـة على أسمائها، وهذا يعني أن القصور ظلت مرتبطة بعصب الحياة الأساسي بالواحات الذي يتجلى في المنابع المائيــة المختلفة. ومن جهة ثـانية نلاحظ أن مواد بنــائها في أغلبها محليـة: (التابوت – الكَـالب – الحجارة – الخشب النخيلي – التبن)، وهي مواد جـد متوفـرة بالمنطقـة، وتتلائم إلى حـد بعيد وطبيعـة الظروف البيئية المحلية، وذلك نتيجة احتكاك الإنسان بالبيئة.

تبنى المساكن بمدغرة «بِـاللُّـوحْ» وقد حددت إحدى الوثائق المحلية بأن: «اللوح يتكون من ثمانية أقدام بقدم(124) الرجل الوافي»،(125) واللوح عبارة عن لوحتين من خشــب الصفصاف، طول الـواحدة منهـا متر واحد ونصف المتر وعرضها مترا واحدا. ولا تستعمل هــذه الأدوات في عملية البناء إلا بعد وضع الأســاس، الــذي يبنى بـالحجـارة والطين. ويمــلأ اللــوح بخليط من الحجارة الصغيرة والتراب الجيري والتبن لا سيما تبن الشعير، ويبلل بقليل من الماء حتى تسهل عمليــة دقــه. ويعـرف هذا النـوع من التربـة الجيريـة البيضــاء في الأوساط المحليـة بـاسم «تِـــيرِيزِيتْ» وهو المستعمل في عمليــة «الركز» وهو الدق.(126).

ومعلــوم أن الركــز لا يــوجـد إلا بالــواحــات أما بــالأنــدلس فإن المادة المستعملة في البناء هي الآجـور المطبوخ. ويتم الركز بمـدغرة وقت الخريف على أن عمليـــة التسقيف لا تتم إلا في فصــل الـــربيع. والجدار المبني بهذه الطريقة يكـون عرضـه 50 سنتم غير أنــه حين يصل ارتفــاعه إلى مستــوى ثــلاثــة أو أربعــة أمتــار يشرع العمل في السقف. وذلك اعتمادا على أعمــدة خشبيـة من الصفصاف أو من خشب النخيل، وهــو مــا يعرف في المعــاجم

---

124) يتراوح طول القدم ما بين 25 و30 سنتمتر.

125) وثيقة خاصة بواحة تيلوين. أنظر الوثيقة رقم 4.

126) وقد وصف ابن خلدون في المقدمة عملية الركز. قال : «.... يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربع أذرع. فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يـراه صاحب البناء في عـرض الأساس. ويوصــل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال... ويسد الجهتان الباقيتــان.. بلوحين أخرين صغيرين. ثم يوضع فيه الـتـراب =

العربية بالجائزة وبالتعبير المحلي «الكَايْزَةْ». والجائزة هي الخشبة الكبيرة المعترضة بين حائطين توضع عليها أطراف الخشب في سقف البيت.(127) وقد جرى استخدام مصطلح الجائزة في العمارة المغربية، وهي كتلة من الخشب قطعها مربعة. تمتد أفقيا من جانبي السقف لتحمل الألواح الخشبية فيما بينها. وتستند الجائزة على ركائن وكعوب خشبية.(128) إلا أنه في واحة مدغرة يوضع القصب وجريد النخل بعد تجريده من سعفه فوق هذه الأعمدة ثم يغطى الكل بالتراب المبلل، ويسمى الكل «اللْصَاقْ». ثم يطمر بالتراب، حتى يصل سمكه إلى حوالي 20 أو 25 سنتم، ثم توضع فوقه طبقة غير سميكة من الطين المختلط بتبن الشعير خاصة. وهذه العملية يصطلح عليها محليا «بالتَّمْلاَسْ».

وتجدر الإشارة إلى أن بناء الطابق العلوي أو ما يصطلح عليه محليا «بالعْلاَلِي»(129) غالبا ما يكون بالطوب، الذي تتم صناعته بأداة تسمى «القالب». وهي عبارة عن ألواح خشبية صغيرة ذات شكل مستطيل طولها 25 سنتمتر وعرضها ما بين 10 و15 سنتمتر، وعلو أضلاعها 10 سنتمترات.(130) ويتم ملأ القالب بالطين ثم يسحب الإطار وتترك اللبنة عرضة لأشعة الشمس حتى تجف وتيبس، فتصبح حينئذ صالحة للإستعمال.

ويرجع تاريخ البناء بالطابية إلى عهد الفاطميين. فقد أشار ابن حماد أن بناء مدينة المنصورة كان سنة 334هـ/946م وذكر أن سورها بني

= مخلطا بالكلس ويركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه. ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا. ثم يعاد نصب اللوحين على صورة ويركز كذلك... إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة...». أنظر المقدمة م.س ص : 408 وما يتبعها.

127) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص 152.

128) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص ص 114 – 115 – 152.

129) مصطلح العلالي مستمد من كلمة العلو، وهو ما ارتفع من أصل البناء. أنظر ابن سيدة م. س، المجلد الثالث ص 124.

130) لحسن حافظي علوي : سجلماسة، م. س، ص 104.

بالطوابي،(131) واستمر البناء بها في المغرب وانتقلت إلى بلاد الأندلس. ويذهب أحد الباحثين أن البناء بالطابية أفضل من استخدام مادة التراب في البناء.(132) ولما كانت مادة الجير متوفرة بكثرة بوادي ماء يوسف بمدغرة، فقد ساهمت إلى حد كبير في توفير مادة بنائية هامة ومتميزة في العملية *البنائية* بمدغرة بوجه *عام. لاسيما* من حيث قوة *وتماسك القالب.*

نموذج قصر سيدي أبو عبد الله :

يأتي اختيارنا لقصر سيدي أبو عبد الله كنموذج لمورفولوجية البناء السكني بواحة مدغرة لاعتبارات شتى، فمن جهة نلاحظ أن هذا القصر الذي تنصب *عليه دراستنا بالتحليل* يعتبر من بين *الشواهد السكنية* التي مازالت قائمة. وهو القصر الذي هجره سكانه بعد فيضان وادي زيز لسنة 1965، إلا أن أغلب المرافق المكونة له مازالت قائمة. وهذا من شأنه أن يساعد الباحث على رصدها ووصفها بدقة، ويكشف بالتالي عن التقنية التي كانت تستعمل في البناء. ليس فقط بمدغرة بل في مجموع الأصقاع الشبه الصحراوية.

ومن جهة ثانية فقد اختص قصر سيدي أبو عبد الله بجملة من الخصائص التي قلما اشتمل عليها قصر واحد. فهو زاوية ومحطة تجارية وقلعة مخزنية، إضافة إلى كونه منشأة سكنية على غرار باقي القصور الأخرى. ومعلوم أن القصور التي اصطبغت بهذه الوظائف المتعددة عبر مراحل تاريخية معينة، تنعكس على مورفولوجية بنائها. وخلفت لنا أشكالا معمارية تنم عن هذه الخصوصية، وعن تقنية عالية في البناء حسب عصرها، تستجيب في أغلبها لموقع وموضع ودور هذا النمط الفريد من القصور. مما يعطي الدلالة القاطعة على أنه لم يكن منشأة سكنية عادية، لا سيما خلال بعض المراحل التاريخية من تطوره.

---

131) ابن حماد بن عبد الله محمد بن علي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تحقيق الدكتور التهامي النقرة والدكتور عبد الحليم عويس، نشر دار العلوم الرباط 1981 ص 61.

132) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. نشر مؤسسة شباب الجامعة الأسكندرية د. ت، ص ص 774 – 775.

يظهر مما استطعنا جمعه من مادة علمية، وما عايناه ميدانيا، وما أفادتنا به الحافظة الشعبية المحلية أن قصر سيدي أبو عبد الله كان في بدايته قصرا عاديا عندما أسس به عبد الله بن عمر المدغري زاويته خلال القرن 10هـ/16م، قبل أن تناط به الوظيفة السياسية والإدارية خلال بداية القرن 20م. ويصبح قصرا مخزنيا أو بالأحرى عاصمة لإقليم مدغرة خلال هذه المرحلة. ذلك أنه بالنظر إلى بقايا القصر القديم التي توجد داخل القصر الجديد بعد توسيعه، يظهر أنه كان لا يختلف عن باقي القصور الأخرى. ويؤكد ذلك التحصين البسيط والمرافق العامة التقليدية الموجودة داخل بقايا القصر القديم، والشواهد متعددة: فمن جهة نجد أن السور الخارجي لبقايا القصر القديم يلتصق بالمنازل المكونة له، كما أن سمكه مقارنة بالسور الخارجي بعد توسيع القصر يبدو هزيلا أمام الثاني من حيث الإرتفاع ومن حيث السمك. وهذا يعني أن إنشاء هذا النوع من التحصين ارتبط بقدرات الأهالي الإنشائية، الشيء الذي انعكس انعكاسا مباشرا على هيئة وطبيعة هذا التحصين. خاصة إذا ما قارناه بالسور الثاني المضاف، والذي نرجح أن يكون للسلطة المحلية دخل في إنشائه. وذلك قصد الدفاع عن هذا القصر، لا سيما بعدما أضحى قصرا مخزنيا. كما يوجد بجانب بقايا القصر القديم ضريح الشيخ عبد الله بن عمر المدغري الذي أسس القصر. ويظهر أن موضع ضريحه ما هو في حقيقة الأمر إلا تلك الخلوة التي كان يتعبد بها مولاي عمر المدغري وتحولت إلى زاوية. وهي الزاوية التي تردد ذكرها في كتب التراجم والمناقب خلال مرحلة العصر الحديث. ومع أن هذه التآليف لم توطن هذه الزاوية بمدغرة. فقد جاء في الدوحة ما يلي: «وتوفي هذا - يعني عبد الله بن عمر المدغري - في آخر العشرة الثالثة - أي 927هـ/1539م - والله أعلم وقبره بمضغرة حيث زاويته رحمه الله».(133) إلا أن الغالب على الظن أن هذه الزاوية كان مقرها بقصر سيدي أبو عبد الله، وحجتنا في ذلك أن جميع الزوايا الموجودة بمنطقة مدغرة لا تنتسب لمولاي عمر إلا الزاوية الموجودة بقصر سيدي أبو عبد الله. وتذكر الحافظة الشعبية المحلية

---

133) ابن عسكر : محمد بن علي الشفشاوني : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. مطبعة دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977 ص 87.

أن إسم القصر مستمد من إسم هذا الرجل.(134) ويوجد ضريحه حاليا في قلب ساحة شاسعة تحيط بها المباني تحمل اليوم إسم «الزيادة». مما يدل قطعا أنه لاعتبارات شتى توسع القصر، وأضيفت إليه بعض المرافق الأخرى سيما بعدما أصبح يقوم بالوظيفة السياسية والإدارية. وشملت الإضافة زاويةهذا الولي، ويشهد على ذلك مصطلح «الزيادة». وقد سبقت الإشارة إلى أن الخلوات التي وجدت بمدغرة كانت تبعد عن القصور وهي كمحل للتعبد، وغالبا ما كانت تتحول إلى مقابر.(135) كما نلمس ذلك واضحا بالنسبة للمقبرة التي يوجد بها ضريح مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. وبالفعل تحولت زاوية عبد الله بن عمر المدغري إلى مقبرة للولي المذكور وساكنة قصر سيدي أبو عبد الله القديم، مع العلم أن المقابر بمنطقة مدغرة توجد عامة خارج القصور. وهذا يفضي إلى نتيجة هامة مفادها أن وجود ضريح هذا الولي داخل القصر بعد توسيعه لاعتبارات مرتبطة بالوظائف التي أنيطت به كمحطة لها أهميتها التجارية حسب رواية لوطورنو،(136) وكمحل للقائد المخزني. حتمت إضافة بعض الأجزاء التي شملت زاوية ومقبرة الولي المذكور، وهي الزاوية التي كانت بجانب بقايا القصر القديم ولهذا السبب سمي هذا الشطر المضاف «بالزيادة».

إنه بالنظر إلى المرافق التي يتكون منها قصر سيدي أبو عبد الله بعد توسيعه، يتبين أنه لم يكن منشأة سكنية عادية. بل عكس ذلك فهو قلعة مخزنية ومحطة تجارية تتوقف بها القوافل. ومعلوم أن هذا النوع من القصور السكنية كان يتوفر على مجموعة من المرافق الإضافية التي تنعدم في غيره، وذلك لاعتبارات مرتبطة بدوره كقلعة مخزنية وكعاصمة لهذا الإقليم، لا سيما خلال الفترات المتأخرة.

فعلى عكس أغلب قصور مدغرة، نلاحظ أن قصر سيدي أبو عبد الله يتوفر على باب واحد ضخم، يقع بين برجين مربعين كبيرين يصل

---

134) ونحن لا نستبعد أن يكون هذا القصر قد استمد إسمه من الوجود العربي المعقلي لا سيما بطن ذوي عبيد الله الذي مد نفوذه إلى مدغرة خلال مرحلة العصر الحديث.

135) الإسم الشعبي الذي تحمله المقبرة بمدغرة هو «الـمْـدِيـنَـةْ».

136) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية م. س، ج 1 ص 599.

ارتفاعهما إلى أكثر من 10 أمتار طـولا. يقوم بحراستـه حارس دائم يسمى بالبواب،(137) حيث توجد بقايا منـزل هذا الأخير بجانب باب القصر ومهمة البواب، هي غلق باب القصر، منذ غروب شمس كل يوم إلى طلوع فجر اليوم الموالي. وكانت الأحكام العرفية المحلية تعاقب كل شخص تجرىء على القيام بهذه المهمة باستثناء البواب. فقد جاء في إحدى شروط إتفاق قصر الكَارة ما يلي: «وأن من حل القفل لفم البلـد – يعني القصر – من غير مفتاح نصـافة عشرين مثقالا».(138)

وبخـلاف بعض قصور مـدغرة كقصر تيطـاف وتاوريـرت وتازنـاقت نلاحظ أن قصر سيدي أبو عبد الله تختفي فيه ما يسمى «بالخراجية»، التي تنفتح على المساحات والطرق الخارجية التي تربط القصر بخارج الواحة.

وهذا القصر عبارة عن مجموعة مـن البنايات المتراصة، يحيط بها سور ضخم وعال قصد الحماية يبلغ علوه 8 أمتار. أما سمكه فيتراوح ما بين 50 و80 سنتم. مع ملاحظـة أن هذا السور مـزدوج لا سيما في نصفه السفلي، وأن مـا يثير الإنتباه بـالنسبة لقصر سيـدي أبـو عبد اللـه هو أن السـور الخارجي لا يلتصق بالمنـازل. بل يوجد هنالك فاصـل مساحي بين المنازل والسور الخارجي على شكل زقاق مفتوح يحيط بكل القصر، ويطلق على هذا الزقاق إسم «أَسْـرَاكْ».(139) نعتقد أن اعتماد هذه التقنية نـابع أساسا من أهميـة هـذا القصر كقلعـة مخزنيـة وجب تحصينهـا بما يليق وأهميتهـا السياسية والإدارية، وهكذا كان هذا السور وهذا الفاصل المجالي يعبران عن تقنية دفـاعية أمنية. تمنع أو على الأقل تعرقل عمل أي مهـاجم من السطو على القصر.

يتوفر قصر سيـدي أبو عبد الله على تسعـة أبراج عالية جـدا. وهذا أمر يخالف جميع قصور مدغرة بوجه خاص والـواحات الصحراوية بوجه عام،

---

137) ومازالت لحد الآن الأسرة – وهي من فئة الحراطين – التي كانت تقـوم بهذه المهمة تكنى حاليا باسم «بوابي».

138) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit, p 145. انظر الشرط : 75.

139) هي كلمة بربرية ويجب التمييز بين «أفراكَ» الذي يعني مصرف خارجي. و«أسراكَ» الذي يعني مصرف داخلي وتتضح أهميته في صرف المياه عن الخيمة بعد سقوط الإمطار.

حيث لا تتوفر هـذه القصور إلا على أربعة أبراج متوسطـة العلو. ومن باب الملاحظة نشير إلى أن أبـراج هذا القصر منفصلة تمامـا عن المنازل، بل أنها تنتصب بمحـادات السـور الخارجي بل وضمنـه. ومعلوم أن وجـود هـذه الأبـراج بهذه الكثافـة وهـذا الشكل ينم على أهميـة هـذا القصر السياسيـة والاستراتيجية. ونـذكر أن الأبراج هـو أسلوب معماري إيراني. فقـد اهتدى محمد عبـد الستار عثمان إلى أن الأبـراج انتشرت بجميع البلاد الإسـلامية، حتى أنها وصلت إلى شمال إفريقيـا وعرفت بـاسم «أفارسيـة» تأكيدا لهذا الأصل. ويدل ذلك على استمرار ظاهـرة الأبراج الدائمة في الحوائط الخارجية في العمارة الإسلامية، نقلا عن أصولها الإيرانية القديمة.(140)

تتكون أبـراج هذا القصر من ثلاثة طـوابق مما يبرز علوهـا على مجموع بنايات القصر الأخرى، وهذا مرتبط على – ما نعتقد – بوظيفة المراقبة التي تقوم بها، على أن أبـراج الزوايـا لها مهمة دفاعيـة أكثر من وظيفـة المراقبة. يصعد إلى الأجزاء العلوية لهذه الأبـراج بواسطة «السلوم»، وفي أسفلها أو في حلقتها نجـد شكل حجرة يستريح فيهـا حارس أو حـراس البرج. إلا أن ما أثار انتباهنا هو أن حلقة البرج القائم على باب القصر إلى جهة اليسار كانت مخصصـة لسجن وحبس المخـالفين من السكـان، وهي عبـارة عن سجن صغير أو حسب التعبير المحلي «البريج الصغير». وهـذا يعني أن هذا القصر المخزني كان يتوفر على أهم مـرافق المنشآت المعمارية ذات الصبغة الإدارية والسياسيـة. وهذه الأبـراج لها طابع خـاص، فهي من جهة مـربعة الشكل وليست دائرية أو نصف دائرية كما هـو الحال بواحة فجيج،(141) ومعلوم أن الأبراج المربعة كما الشأن كذلك بالنسبة للأبار المربعة هي مغربية، عكس الأبـار الـدائريـة فهي عـربية. وهـذا يعني أن المنطقـة حـافظت على إرثهـا الحضـاري القديم، وهي بـذلك استمـرار لما كـان عليه السلـوك الاجتماعي والمعماري في العصور السابقـة. ومن جهة ثانية توجد في أعـالي هذه الأبراج شرافات، والشرفات هي الـزوائد في أطراف الشيء تحلية له،(142) والشرفة في

---

140) الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي : تحقيق محمد عثمان عبد الستار، م. س ص 85.

141) أحمد مزيان : فجيج م. س، ص 56.

142) المعجم الوسيط م. س، ج 1 ص 480.

الإطار المعماري ما يوضع في أعالي القصور والمدن.(143) وقد جرت العادة في بعض البلاد الإسلامية بأن يجعل بأعلى حوائط الدور شرافات كما هي العادة في المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وغيرها، واعتبر في هذه البلاد عدم وجود شرافات على أعلى حيطان الدور من العيوب اليسيرة بها عند تقويمها.(144) والشرافات عنصر معماري نشأ في الأصل في العمارة الحربية، ثم انتقل إلى العمارة الدينية والمدنية. وأصبح عنصرا زخرفيا معماريا شائع الإستعمال، انتقل من الحضارة القديمة إلى الحضارة الإسلامية التي طورته وأبدعت فيه.(145)

عندما نقتحم باب قصر سيدي أبو عبد الله الأولى نجد ما يشبه دكانة مغطاة، وتبنى هذه الأخيرة برسم الجلوس(146) ومناقشة قضايا القصر والساعة وللإستراحة. والملاحظ أن هذه الدكانة الأولى لا ترتبط بأزقة القصر كما هو الشأن بالنسبة لمجموع قصور مدغرة الأخرى، وإنما ترتبط ببعض المرافق الأخرى ذات الصبغة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية. فإلى اليسار تتصل الدكانة عبر باب آخر بزقاق الزيادة، وقد سبق أن أشرنا أنها البقعة التي أضيفت إلى القصر في إطار عملية توسيعه. وإلى اليمين يوجد زقاق «الْـحَـدَّادَةْ» الذي يفضي إلى الجناح الخاص «بدار القائد»، حيث يقطن الممثل المخزني وحاشيته وعبيده. ويوجد بهذا الجناح الأخير مربط أو «ارْوَى» خاص بدواب القائد. وما يلاحظ على هذا الجناح أن بنائه متين جدا، ولا غرو في ذلك فبنائه تولته السلطة المخزنية المحلية. كما تنتصب في هذا الجناح «معصرة» خاصة بالقائد. وهذا يعني أن هذا الجناح كان يتوفر على كل المرافق الضرورية، مما يعكس أهميته كمحل مخزني مسير لشؤون القصر.

كما ترتبط الدكانة عبر باب أمامي بساحة القصر، أو ما يعبر عنه محليا «بِـالرَّحْـبَـةْ». والرحبة هي الأرض الواسعة ورحبة المكان ساحته ومتسعه

143) ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل : المخصص، المجلد الأول السفر الثالث دار الفكر بيروت ص 126.

144) إبراهيم محمد الفائز : البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي. الرياض 1406هـ ص 667.

145) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 187.

146) المعجم الوسيط : م. س ج 1 ص 334.

جمعها رحاب.(147) والرحبة هي مكان عمومي لمجتمع القصر إذ فيها تقام الحفلات الخاصة بالقصر، وتستعمل كذلك استعدادا لعمل حربي أو لسفر جماعي. وهي أيضا محطة للقوافل الجمالة الوافدة على قصر سيدي أبو عبد الله، باعتباره محطة تجارية كما جاء عند روجي لوطورنو.(148) محملة بأحمال الزرع والتمر وبضائع أخرى للتبادل.

واعتمادا على إحدى الوثائق المحلية الخاصة بواحة تلوين،(149) يظهر أن مجتمع القصر كان يمنع أيا كان من استغلال الرحبة لحسابه الخاص. ومما جاء فيها: «وإن شريه – بمعنى اشتراه – (ويتعلق الأمر بشراء عجل) واحد وحده ليدخله لداره ولا يربطه في أرحاب الجمعة – بمعنى الجماعة».(150) وتشير نفس هذه الوثيقة أنه لما كانت الرحبة أو «السْقَالَةْ» حسب تعبير الوثيقة في ملك الجماعة، فإنه يتوجب على سكان القصر أن يلتزموا بنظافتها. بحيث يمنع العرف المحلي رمي الأزبال كيف ما كان نوعها، ومن ثبت عليه أنه رمى عليها غبارا يؤدي على ذلك ذعيرة مالية. تقول الوثيقة: «واسقالة البرانية لا يرمي عليها أحد من جميع أولاد بُوشِحَ وبني محفوض ولا خشب. ومن يرمي عليها يعطي خمسون – خمسين – مثقالا لشيخ – يعني للشيخ – والقبيلة، وكذلك الغبر – أي الغبار – لا يرميه أحد في اسقالة المذكرة – أي المذكورة –. ومن رماه... يرفده – بمعنى يزيله – ... من الرحبة يأخذه... وحده».(151)

وهذه الساحة – أي الرحبة – هي التي تفصل ما بين القصر القديم – النواة – وما أضيف إليه. إذ نجد قبالة هذه الرحبة باب القصر القديم ويحتوي كذلك على دكانة مغطاة، ومنها نقتحم الزقاق الرئيسي الذي تتفرع

---

147) المعجم الوسيط ج 1 ص 334. وللرحبة معاني أخرى فساحة المسجد تسمى رحبة، أنظر : المقريزي أبو الفتح ناصر الدين المغرب في ترتيب المعرب. تحقيق محمد فاخوري وعبد الحميد مختار، نشر مكتبه أسامة بن زيد سوريا 1979 ج 1 ص 323. كما تطلق الرحبة على ساحة السوق الذي يباع فيها الزرع.

148) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية م. س ج 1 ص 599.

149) توجد هذه الوثيقة بخزانة الأستاذ حجامي محمد ثانوية ابن طاهر الرشيدية.

150) أنظر الوثيقة رقم : 4 المثبتة في الملحق الخاص بالوثائق.

151) أنظر الوثيقة رقم : 4 المثبتة في الملحق الخاص بالوثائق.

عنه أزقة ضيقة مغطاة توصل بين مختلف الدور السكنية. وتلعب هذه الأزقة الضيقة عدة أدوار منها ما هو طبيعي (تحرك الهواء داخل القصر ومنع تسرب الرياح الرملية)، ومنها ما هو اجتماعي (التماسك والتعاون الاجتماعيين) ثم اقتصادي. وأخيرا دورا أمنيا. إلا أن قصر سيدي أبو عبد الله لم يكن يحتوى على زقاق رئيسي واحد، وهذا يدل على اتساع حجمه. فالحافظة الشعبية المحلية مازالت تذكر بعض أسماء الحومات والأزقة الرئيسية فهناك: «الراكَوبية» و«زكَاكَ قاع الكَصر» و«أطراس» وأخيرا «زقاق أسراج»، وهو الزقاق الذي يفصل بين منازل ومرافق القصر والسور الخارجي. وكل هذه الأزقة السالفة الذكر رئيسية وتنفتح على مجموعة من الأزقة الضيقة النافدة وغير النافدة.

ويكون الزقاق(152) الرئيسي مفتوحا ولا يوجد بأعلاه سقف ويتصل بجميع الأزقة الضيقة، وهو بمثابة القناة التي تتصل بجميع مرافق القصر، وعبره تمر المارة والدواب. وكانت أحكام الفقهاء مسايرة لتطور حركة العمران والعمارة. ومن هذه الأحكام ما كان يعالج ما ينتج من مشاكل متعلقة بعناصر التهوية والإضائة والإطلال. وكانت غاية هذه الأحكام منع ضرر الكشف والمسائل والقضايا التي تناولها الفقهاء والقضاة بالحكم. كما يعكسه اهتمام السلطة بتطبيق هذه الأحكام، والتدخل لمنع حدوث الضرر. حتى ولو رضي بعض المتضررين بواقع الضرر. لأن في ذلك مخالفة لأحكام الدين والشرع. وأصبح العمل بهذه الأحكام سلوكا عاما متعارفا عليه، فجرت بمرور الزمن عرفا عاما يلتزم به. وفي هذا الإطار وحرصا على عدم تعرض الطابق الأرضي للكشف من جانب المارة بالزقاق، جرت العادة برفع مستوى النوافذ في هذا الطابق ارتفاعا كبيرا. لا يُمَكِّنُ راكب الدابة من كشف الدور من خلال هذه النوافذ، وقد أثر ذلك في مساحة هذه النوافذ. فبدت صغيرة لاسيما وأن العوامل المناخية والأمنية دعت أيضا إلى تضييقها. ومن جهة أخرى وجه المعمار تخطيط الوحدات المطلة على الطريق توجيها

152) والزقاق هو الطريق الضيق نافد أو غير نافد يذكر ويؤنث والجمع أزقة وتجمع أيضا على زقاقات. ويطلق على بداية الزقاق، الغير النافد مصطلح «فم الزقاق» وبالتعبير المحلي «فم الزكَاكَ» أنظر الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، م. س ص 178.

خاصـا يتفق والوقـاية من ضرر الكشـف، ويحقق منفعة في استخـدامها في أغراض معينة لازمـة لأهل الدار. كتخطيط هذه الـوحدات على هيئة مخازن لاسيما وأنها تحتفظ بدرجـة حرارة مناسبة لحفظ المحفـوظات من الحرارة الزائدة.(153)

في نفس هذا السياق كانت الميازيب(154) تمد على الزقاق الرئيسي، وذلك لتفادي الإضرار بمباني الجيران. وقد حـددت الأحكام الفقهية الشروط التي تسمح بـوضـع الميازيب، فقـد جـاء في الإعلان مـا يلي: «فإن بنى رجل دارا وأنشأ ميزابا إلى ماء المطر يصب في الشـارع، فلا يخلو إما أن يضر بالحائط الذي يقابله حين دفع الماء فيه لضيق الطريق. أو لا يضر لوسـع الطريق فإن أضر بجاره منع. قال الشيخ ابن أبي زيـد في النوادر إن كان لا يضر فله أن يسيله»(155) وقال أيضا: «فإن أنشاء الرجل بداره ميزابا لماء المطر وأخرجه على باب الدار إلى الزقاق فخاصمه جاره الذي يسيل عليه فإن شـهد أنه لماء المطـر تـرك وإن شـهد أنـه لماء الغسـالات منع»،(156) كما منعت الأحكـام الشرعية إنشاء الميازيب في الطـرقات الضيقة، لأن ذلك ينجس الثياب لضـيق الطرقات، ولا يمنـع من ذلك في الطريق الـواسـع. ومقابل ذلك أوصـى الفقهاء بـاستخـدام بـديل عن الميـزاب في حـالـة ضيـق الطـريق كأن يعمل مسيل مجصص في الحوائط الخارجيـة ينزل عبرهـا ماء المطـر إلى الأرض دون أن تـؤدي المارة. وقد كـانت هـذه المسـاييل منتشرة في الطـرقات الضيقـة على الخصوص.(157)

وقد كانت هذه الأحكام الشرعية مطبقـة إلى حد كبير بكل قصور مدغرة بدون استثناء. مما يعني أن المنطقة كانت خاضعة ومطبقة للقواعد الشرعية

---

153) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 57.

154) الميزاب هـو أنبوبة أو خشبة مقعـرة توضـع في أعالي البيـوت يجري فيها ماء المطر ويقـال فيه المرزاب بتقويم الـراء وجمعه مرازيب والكلمة فـارسية مكونة من «مـرزي» – أي حد – و«أب» وتعني الماء. وبمدغرة تحدف الراء وينطق «ميـزاب» أنظر المعجم الوسيط : م. س ج 1 ص 391 صـالح عبد السميع: جواهر الإكليل في شرح مختصر خليل.دار الفكر بيروت ج 3، ص 188.
– معروف الرصـافي الألة والأداة وما تبعهما من الملابـس والهنات تحقيق عبد الحميد الرشودي دار الرشيد للنشر العراق 1980، ص ص 325 – 408.

155 ـ 156 ـ 157) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص ص 214 – 241 – 382 – 380.

أكثر من تطبيق الأعراف العامة حتى على مستوى فن الإعمار. فقد نصت القوانين العرفية على ضرورة تنظيف الأزقة، وهذا مثار اندهاش لمجتمع قروي لا تتوفر فيه الأجهزة البلدية المكلفة بهذه المهام. فقد منعت إحدى شروط اتفاق قصر تلوين صب ماء المطر في الأزقة. ومما جاء في هذه الوثيقة: «ومن أراد أن يلوح ماء المطر يلوحه في الزقاق الذي يمشي على غرفته التي على الزقاق».(158) وسعيا وراء الحفاظ على نظافة الأزقة منعت إحدى شروط اتفاق قصر الكَارة التغوط بين الأسوار وداخل المسجد، ومن ثبت عليه ذلك يؤدي غرامة مالية تتراوح ما بين نصف مثقال ومثقال واحد.(159)

كما منعت الأحكام الشرعية والعرفية إقامة الأخاريج وحالات الإعتداء بالبناء على الطريق، أو غرز الأخشاب في جدار الجار. ونتوفر في هذا الخصوص على إحدى الوثائق المحلية(160) التي تمنع غرز الأخشاب في جدار الجار وقطع الطريق منعا كليا. ومما جاء فيها: «الحمد لله تلقى شاهده... إثر تاريخه من الفقيه مولانا علي بن محمد من القصبة الجديدة بمدغرة أن من كان له حائط وبينه وبين غيره زقاق مرور الطريق، وأراد غيره غرز الخشب بحائط جاره الذي بينه وبين الزقاق فليس له ذلك...».(161) وجاء في كتاب الإعلان بأحكام البنيان ما يلي «إن الذي يخرج ببنائه في طريق المسلمين لا يخلو من أن يضر بالناس أو لا يضر، فإن أضر بالناس في ممرهم عليه هدم ما بنى قل أو كثر باتفاق أهل المذهب».(162) وفي نفس هذا السياق منعت إحدى شروط اتفاق قصر تلوين بناء الأخاريج وحالات الإعتداء بالبناء على الطريق وفرضت على كل مخالف لذلك ذعيرة مالية. ومما جاء فيها: «ومن أراد أن يلسس حيط – بمعنى حائط – داره

---

158) أنظر الوثيقة رقم : 4 في الملحق الخاص بالوثائق.

159) Mezzine (L) : le tafilalet, op cit, p 141. خاصة الشرط 33 و35 من اتفاق قصر الكَارة.

160) توجد هذه الوثيقة بخزانة الأستاذ حافظي مولاي الحسن الذي يشغل حاليا منصب مدير المدرسة الابتدائية «شيخ الإسلام الإمام سيدي محمد بن العربي العلوي» مدرسة التطبيقية سابقا» الرشيدية. وعضو المجلس العلمي لإقليمي الرشيدية وورززات.

161) أنظر الوثيقة رقم : 5 في الملحق الخاص بالوثائق.

162) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص ص 83 – 84.

يلبسه بقدره وجهده مما لا يضر الطريق. لا يبني أحد أمداود - أي مْدُودْ(163) - لا في الفحل ولا في الزقاقات وتبقى الطريق واسعة. ومن خرب... يعطي ثمنها بما قوموه - أي قومه - عليه المقومين - أي المقومون - أهل المعرفة، ويزيد مثقالا على ثمنها بما قومت عليه».(164)

إن الزقاق الرئيسي بقصر سيدي أبو عبد الله لم يكن فقط كممر للدواب والمارة أو قناة ترتبط بجميع مرافق القصر عن طريق مجموعة من الأزقة النافدة وغير النافدة، بل الأكثر من ذلك كان بمثابة محل للتزود بكل ما يحتاجه المرىء من مواد غدائية ولباس ووقود. ذلك أنه على جنبات هذا الزقاق تنتصب ثلاثة متاجر، وهذا أمر ينتفي في أغلب القصور الأخرى بمدغرة. إذ أن شراء مستلزمات البيت يتم اقتنائها من الأسواق أو من تاجر متجول كان يتنقل عبر قصور مدغرة، ويتعلق الأمر «بِالْعَطَّارْ». فقد أشار جون فرانسوا طروان في كتابه الأسواق المغربية أن: «المشهد الطبيعي الذي تخلقه الأسواق يتغير شيئا ما حسب المناطق. ففي منطقة الجنوب الشرقي المغربي يشكل ظهور التمور في الأسواق مناسبة لعرض مجموعة من البضائع البسيطة جدا في هذه الأسواق، من طرف مجموعة من صغار التجار المعروفين محليا «بالعطارة». ووجود هؤلاء العطارة ببضائعهم البسيطة الخشنة في أسواق الجنوب الشرقي المغربي يبين مدى درجة فقر هذه المناطق».(165)

وهذا يعني أن قصر سيدي أبو عبد الله كان يشكل استثناءا ليس فقط بالنسبة لمجموع قصور مدغرة، بل في مجمل واحات وادي زيز. ذلك أن وجود الدكاكين يعبر عن حركة تجارية مستمرة و«راقية» تفوق بكثير مستوى «العطارة» حسب ما أفادنا طروان بمعنى أنها غير ظرفية. لأن العطارة لا يترددون على قصور مدغرة إلا خلال فترات معلومة، كمرحلة جني التمور والزيتون والمحاصيل الزراعية الصيفية. ولا عجب في ذلك فقصر

---

163) المدود هو موضع يوجد في «الروى» خاصة ويوضع فيه علف الماشية.

164) أنظر الوثيقة رقم : 14 في الملحق الخاص بالوثائق.

165) Troin (J.F) : les souks marocaines, marchés rureaux et organisation dans la moitiée nord du Maroc. t 1 pp 38-39 imprimerie de France indissud aixe province 1975.

سيدي أبو عبد الله كان بمثابة عاصمة لإقليم مدغرة. خلال المرحلة المتأخرة وتشهد على ذلك البقايا العمرانية داخل القصر، ومن جهة ثانية نلاحظ أنه بجانب هذا القصر كان يوجد سوق. فقد أشار دوفوكو إلى أن مدغرة كانت تتوفر خلال نهاية القرن 19م على سوقين يعمران خلال يومي الخميس والإثنين من كل أسبوع الأول يوجد بقصر القصبة القديمة والثاني بقصر سيدي أبو عبد الله.(166) وهذا من شأنه كذلك أن يدعم الحركة التجارية ويجعلها تتسم بالإستمرارية. ومن جهة ثالثة لا يخفى أن قصر سيدي أبو عبد الله كان محطة تجارية للقوافل المتنقلة بين فاس وسجلماسة حسب ما أفادنا به روجي لوطورنو. قال: «...وكانت صفرو على بعد ست ساعات من فاس كمحطة أولى نحو تافيلالت ونقطة انطلاق الطريق المدعو طريق السلطان. كان الوقوف بعد ذلك بتاغزوت عند أيت مكَيلد وبالنجيل فيما وراء مضايق رصيفة وبقصابي الشرفاء في وادي ملوية وبنزالة بعد اجتياز ممر تالغومت وبكَرس في ناحية الريش وبتعلالين شمالي قصر السوق وبقصر سيدي أبو عبد الله بمدغرة وبالدويرة في الرتب وتحت أسوار المعاضيد، وهو أكبر مركز بتيزيمي. ويكون الوصول أخيرا إلى أبو عم عاصمة تافيلالت بعد مسيرة عشرة أيام على الأقل».(167) وكل هذه العوامل مجتمعة تثبت أن قصر سيدي أبو عبد الله لم يكن منشأة عمرانية عادية. فدوره لا يقتصر على صنع القرارات السياسية والإدارية لمدغرة، لا سيما خلال المراحل المتأخرة. وإنما كان يعتبر محطة تجارية واقتصادية. الشيء الذي يدفع إلى الإعتقاد أنه لم يكن يصنف ضمن مجتمعات اقتصاديات القلة المرتبطة أساسا بالأرض وما تهبه، سيما إذا علمنا أنه يوجد إلى الجهة اليسرى بعد اقتحام باب القصر على إحدى جنبات زقاق الحدادة المؤدي إلى جناح دار القائد فندق الحدادة. ومازالت لحد الآن بقايا آثار الرماد وأطراف القطع الحديدية. كما أن مجموعة من الأسر لا سيما من – فئة الحراطين – مازالت لحد الآن تحمل في أسمائها العائلية إسم

166) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance. op cit, p 352.

167) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية م. س، ج 1 ص 599.

«حــداد» أو «حــدادي» إشارة إلى الحرفــة التــي كان يمارســهــا أســلاف هذه الأســر.(168)

وكان فندق الحدادة يختص في صنع الفؤوس والمساحي لكنس السواقي وقلب الأرض. وقد اشتهـرت الفؤوس البوعبـدلاوية ليس فقط بمـدغرة بل حتى خارجـهـا. فإلى عهـد غير بعيد كان سكان تيعـلالين شمـال مضيـق الخنكَ لا يفضلـون إلا الفؤوس المصنـوعة في هـذا القصر. وهذا يعنـــي في العمـق التاريخي العـام أن قصر سيدي أبـو عبد الله لم يكن فقط عاصمـة إداريـــة لإقليـم مدغـــرة، بل كذلـك القلـب النابـــض اقتصاديـا وحرفيـــا لمدغرة وللمنـاطق المجـاورة لها. ألا يعني هـذا أن هذا القصر استـــطـاع أن يتجــاوز منطقة تدغـــة التي كـانت تـــزود إقـليـــم تافيلالـــت برمـتـــه بالفـؤوس والمســاحي وســائـر الأدوات الأخـــرى التي تتطلبـهـا الحـيـاة الفلاحـيـة؟

حقيقة أن الشخـص الذي كـان يتولى صناعـة هذه الأدوات ينحـدر من منطقة تدغة، حسب بعض الرواة. وهــذا يعني أن ولاة أمر هذا القصر كانوا يجلبون إليــه الحرفيين من مناطق كـانت تشتهر بهذه الخاصيــة أملا وراء تدعيم النشاط الحرفي به.

إن وجـود فندق الحدادة دليـل قاطع على أن هــذا القصر شكل بـالفعل استثنـاءا، وحــاول خلق مجمـوعـة من المرافق المرتبطـة بـالحيـاة المدنيـة والمستجيبة في أغلبها لضروريـات واحتياجات مدغـرة. وبناءا عليه ألا يمكن الحديث عن نواة صناعيــة حربية منها ما هو مكشــوف كصناعة السكاكين والفـؤوس والمســاحي وغيرهــا من الأدوات الأخرى، ومنهــا مـا هــو سري كصناعة السلاح الناري؟

حقيقة أن حجـم خطورة الخلافات بين القصـــور لم تكن كبيرة لــدرجة التفكير في محاولة خلق نواة صناعية حربية نارية، غير أنه من غير المستبعد أن تكون صناعة السلاح الناري من الأمور المسكوت عنها والخاصة بالقائد.

---

168) ونشير إلى أن إسم «حَـــدَّادِي» أو حَـدَّاد» تحمله كـذلك بعض الأسر لاسيما من فئـة الحراطين بإحـدى قصور مـدغرة العليـا، ويتعلق الأمر بقصر تاركَـــة. مما يبعث على الاعتقـاد أن حرفـة الحدادة كانت موجودة بقصور أخرى.

لأن افتراض وجود صناعة حربية نارية تبدو واردة وإلا لا معنى لتلك الوسائل التحصينية والدفاعية المتطورة حسب عصرها.

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد إذ يوجد بنفس الزقاق أي الزقاق المؤدي إلى دار القائد حمام ودكان لإصلاح وصناعة النعال والأحدية وخرازتها. وهذا يعني أن هذا القصر حاول خلق كل الهياكل التحتية الأساسية التي تتطلبها الحياة المدنية اليومية. ومن ثم جمع ما بين الوظيفة السياسية والإدارية (وجود دار القائد) والتجارية (وجود سوق ومجموعة من الدكاكين) التي تزود الأهالي بما هم في حاجة إليه وصناعية (وجود فندق الحدادة ودكان للخرازة وتصفيح الدواب «التسمير»)، وآليات أخرى مرتبطة بالحياة الفلاحية لهذا القصر ولمدغرة ككل. وهذا ما انعكس على نمط فنه المعماري، حيث جمع ما بين العمارة الحربية والعمارة المدنية والدينية. كما انعكس أيضا على طبعية السلوك الاجتماعي لسكانه، فالدارس السوسيولوجي لسكان هذه المنشأة السكنية يلاحظ البون الشاسع في حالة مقارنة مجتمع قصر سيدي أبو عبد الله مع مجتمعات قصور مدغرة الأخرى، سواء تعلق الأمر بقاعدة أو قمة الهرم الاجتماعي ممارسة وسلوكا وتفكيرا.

وإلى جانب هذه المرافق، توفر قصر سيدي أبو عبد الله على مربض لدواب الأجانب. مما يعني أن هذا القصر كان يعرف حركة تجارية وبشرية مستمرة، وذلك مرتبط على ما نعتقد بالوظيفة التي كان يختص بها هذا القصر تجاريا وحرفيا، دون طبعا إغفال الجانب السياسي والإداري. إلا أن ما يجب التأكيد عليه في هذا الخصوص هو أن مربض الدواب المسمى محليا «بالفندق» كان مخصصا فقط للدواب. أما أصحابها فكان مجتمع القصر يتكلف بضيافتهم وقد يتكلف بهم الممثل المخزني «القائد»، خاصة إذا تعلق أمر وجودهم بمهمة سياسية أو إدارية. فقد أشار الأستاذ العربي مزين إلى أن الفندق بالقصور هو عبارة عن ساحة مغلقة لحماية دواب المسافرين العابرين وبضائعهم، أما إيواء واستضافة المسافرين فقد كانت على عاتق سكان القصر. ولا يحتوي الفندق بهذه القصور على غرف كما هو الحال في

الوسط الحضري.(169) وأضاف قائلا أن مجموعة من الفنادق بالقصور تحولت إلى مراكز للتبادل التجاري، وكل قصر بناحية تافيلالت يضم فندقا واحدا أو أكثر.(170) وبالفعل نصادف بقصر سيدي أبو عبد الله فندقين الأول يوجد داخل القصر القديم «نواة القصر» ،وهو خاص بالتجار والرائدين العاديين والثاني يوجد في الجناح الخاص بالقائد. ولا يستبعد أن يكون هذا الأخير خاص بدواب الزوار الذين يفدون على القائد لمهام ترتبط سواء بالتجارة أو بإحدى المهام الرسمية السياسية والإدارية.

نموذج المسجد «الجَامَعْ» بمدغرة :

ومع هذا كله يبقى المسجد أول منشأة معمارية دينية يتم بناؤها داخل القصور. وتنتصب المساجد بصفة عامة في مجموع قصور مدغرة إلى الجهة اليمنى من مدخل كل قصر، بعد اجتياز الدكانة في اتجاه القبلة. ويتكون المسجد في الغالب بمجموع قصور مدغرة من طابق أرضي وسطح.

وينقسم الطابق الأرضي إلى ثلاثة أقسام هي :

1 - **قسم الطهارة** : بمجرد اقتحام باب المسجد نصادف القسم الخاص بالطهارة والوضوء، ويتكون في الغالب من مجموعة من «الْمْطَاهَرْ» و«الحاسي». ومن ضمن أجزاء هذا القسم يوجد «الْمْيَاضِي» وإناء كبير خاص بتسخين الماء للمصلين يعرف محليا «بالسطلة». ووسائل أخرى خاصة بالوضوء تسمى «الْحْلاَلِيبْ»، بالإضافة إلى النعش والمغسل الخاص بأموات القصر.

وجدير بالإشارة أن بئر المسجد «حَاسِي الْجَّامَعْ» الموجود بهذا القسم تستغل لإمداد المصلين بالماء للوضوء كما تزود كذلك سائر ساكنة القصر بالماء الشروب، خاصة أولئك الذين لا يتوفرون على بئر داخل دورهم. ويتعلق الأمر خاصة بفئة الحراطين ومن في زمرتهم. كما يستفيد من مائها كذلك المارة وترتوي منها الدواب، عبر مأجل يبنى في الزقاق يتدفق إليه الماء عبر مخرج أو ثقب في الحائط المحادي لمكان وجود البئر.

---

169) Mezzine (L) : taqquit de Ait Atman. op cit, p 109.

170) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit, p 200. هامش 45.

2 – **قسم تعليم الصبيان** : وهو عبارة عن غرفة خاصة بتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن العظيم، ويطلق على هذا القسم بمدغرة إسم «الْخَرْبِيشْ». وبالإضافة إلى ذلك يستغل الخربيش كمحل لمبيت المرتبين، وهم مجموعة من كبار «المحاضرية»، وتتمثل مهمتهم في مساعدة الأطفال على حفظ القرآن. ويتولى سكان القصر تموينهم وتغديتهم بالتناوب، ويتخذ المرتبون الخربيش كمحل لمبيتهم خاصة في وقت الصيف. أي في الوقت الذي يتم فيه تعليم الأطفال بغرفة توجد بسطح المسجد تحمل هي الأخرى إسم الخربيش. ويحدث العكس خلال الفصل البارد.

كما يعتبر الخربيش كذلك محلا لوضع حطب المسجد وكل الأدوات الأخرى لا سيما البالية منها (الحلاليب – الحصاير – الدلاوة – الحبال – الجرارة الصلصال...). وهذا ما نستشفه من الشرط رقم 244 من شروط اتفاق قصر الكَارة. إذ يشير هذا الشرط إلى أن الخربيش كان محلا خاصا بمؤذن المسجد يجمع فيه الحطب وكل اللوازم التي يحتاجها. ومما جاء فيه «وأما من رفد الحطب في خربيش الموذن فنصافه مثقال».(171)

3 – **قسم الصلاة** : وهو عبارة عن غرفة كبيرة خاصة بأداء الصلاة وتلاوة القرآن الكريم «الحزب» وترديد الأذكار لا سيما خلال المواسم الدينية كعيد المولد النبوي الشريف، حيث تقام وليمة تعرف «بِكَصْعَةْ عِيدْ الْمُولُدْ». وتسمى هذه الغرفة بمجموع قصور مدغرة بيت الله «بيط الله».(172)

وإلى جانب باب غرفة «بيت الله» من جهة اليمين نجد «السلاليم» أي الأدرج المؤدية إلى سطح المسجد. والواضح أن المساجد بمدغرة تتوفر على سطحين: الأول يغطي الخربيش وقسم الطهارة، وبه توجد غرفة تحمل هي الأخرى إسم الخربيش. وهي الغرفة التي سبق أن قلنا عنها أنها تستغل كمحل لمبيت المرتبين خلال الفصل البارد وتعليم الأطفال خلال فصل الصيف.

---

171) Mezzine (L) : tafilelet: op cit, p 264.

172) هكذا تنطق بتضخيم «التاء» لدرجة أنها تسمع «طاء» لا سيما عند العوام.

ويصعد إلى السطح الثاني بواسطة سلاليـم أخرى يتم بناؤها في الزاوية اليمنى من السطح الأول، وتـؤدي إلى السطح الذي يغطي بيت اللـه. وفوق هذا السطح الثاني كـان يتم الأذان. وتوجد بوسط هـذا السطح الثاني قبة تلعـب دور إضائــة بيت الله. وهي بهذا تقــوم بنفس المهمـة التـي تقـوم «عيـن الدار» بـالنسبة للطابق السفلي للمنـازل. كما أن لها وظيفة تعبيريـة من حيث أنها العنصر الـدال على معرفـة كينونـة المسجد لا سيما بـالنسبة للغـرباء، ولمعـرفة كـذلك المساجــد التي كانت تقــام بها خطبـة الجمعـة. ومعلـوم أن القبــة هي بمثابـة علامـة تعبيريـة عن إقـامة صـلاة الجمعـة، سيما إذا علمنـا أن المســاجد بمـدغرة لم تكــن كلهـا مخصصــة لإقامـة صلاة خطبـة الجمعــة، إذ أن بعضهـا كـان يقتصـر على صــلاة الفـرض فقـط.

أدى التمسك الشديد والإلتزام بأحكام منع ضرر كشف سطوح المساجد للـدور المجاورة إلى وجـود ستارة تحيط بسطح المسجـد تحجب على المؤذن الدور المجاورة. ومع البعد والارتفاع النسبي كانت طريقة توجيه الأذان تتم بالـدوران فوق سطح المسجـد، وهذا مـا كان ســائدا بكل مساجـد قصور مدغرة. سيما وأن عـدم ثبات المؤذن في نقطة واحدة من السطح كـان عاملا مساعـدا على عدم إمعان النظر في اتجاه بـذاته. ويدخل في هـذا الخصوص شروط اختيـار المؤذن الـذي غالبـا مـا كـان يختار من أهل الثقـة والـدين والعفاف والصـلاح، وتفضيل فاقـد البصر. كلها من العـوامل المساعـدة مع المواصفات المعماريـة المشار إليهـا، لمنع ضرر الكشف من سطوح المســاجد. سيما وأننا نتعامل مـع مجتمع تأصلت فيه المحافظة إلى حـد بعيد. وبالفعل وإلى عهد قـريب جدا كـان بعض مؤذني مساجـد مدغـرة من أولائك الذين تنعدم عندهم نعمة البصر. فقد كـان مؤذن قصر قلعة تاوريرت(173) فاقد البصر. مما يعني أن اختياره لم يكن اعتباطيا بقدر ما كان يستجيب للذهنية التي تميـز مجتمع مـدغرة ولنمط الفن المعماري المطبـوع بحـرص المجتمع المحلي الشديـد على التمسك بالمبادىء والقيم الـدينية الشرعية. وهـذا بدوره

173) وإسمه أبو الهدى وبالتعبير المحلي «بُوهْـدَا» وكان الأطفال الصغـار ينطقونها «بابا هديدة» على ضرب من التصغير والتجميل وهو إسم شعبي.

يحقق خصوصية متميزة. على أننا سنعالج في المراحل اللاحقة مسألة تسيير المسجد واعتماداته المالية.

وهذا النمط من المساجد نراه بكثرة بمناطق الواحات الصحراوية التي لا تساعد المادة البنائية فيها على الإرتفاع ارتفاعا كبيرا عن مستوى الدور المجاورة. وساد مجتمعاتها حرص شديد على التمسك بالمبادىء والقيم الدينية وتحقيق الخصوصية. وهذا النمط نراه بكثرة بمجمل واحات شمال إفريقيا.(174)

المعصرة :

وإلى جانب هذه المرافق العامة التي يحتوي عليها قصر سيدي أبو عبد الله، وهي على العموم ذات صبغه إدارية سياسية (دار القائد – الأبراج – السجن) أو صبغه اقتصادية تجارية (فندق الحدادة – السوق – الفندق – الدكاكين) أو صبغة دينية (المسجد – الزاوية). توجد معلمة ذات صبغة إنتاجية ويتعلق الأمر بالمعصرة. ومن باب التذكير نشير إلى أن قصر سيدي أبو عبد الله بخلاف جميع قصور مدغرة الأخرى، يتوفر على معصرتين الأولى بجناح دار القائد، وهذا يعني أن القائد كانت له إملاك عقارية عديدة لدرجة جعلته ينفرد بمعصرة لوحده. ومعصرة أخرى توجد في الجناح المسمى بالزيادة، تذكر الرواية الشفوية أنها كانت في ملك بعض الأعيان من شرفاء هذا القصر. وهذا استثناء كذلك، على اعتبار أن كل قصور مدغرة الأخرى كانت لا تحتوي إلا على معصرة واحدة. تكون في ملكية مجتمع القصر. وهذا ما نستشفه من الشرط 92 من اتفاق قصر أيت عثمان قال: «وقد تفاهموا – أي تفاهمت – القبيلة بأن يصنعوا المعصرة للجماعة».(175) وفي نفس هذا الإتجاه منعت إحدى شروط اتفاق قصر الكَارة بناء المعاصر الخاصة بالأفراد، وهذا ما يوضحه الشرط 151 قال: »ومن أراد أن يصنع المعصرة في بلدنا – يعني قصر الكَارة – نصافة مائة مثقال ويهدمها».(176)

174) الإعلان بأحكام البنيان م. س ص ص 62 – 65.

175) Mezzine (L) : ta'qquit de Ait Atman. op cit, p 106.

176) Mezzine (L) : tafilalet. op cit, p 154.

أجزاء المعصرة :

تتكون المعصرة بكل قصور مدغرة من الأجزاء التالية :

1 - **الْـمَـثْـقَـلْ :** وهو عبارة عن شجرة كبيرة من فصيلة شجر الزيتون تدعى محليا «الْـقَـاهْـرَةَ» أو الشَّـخْـشَـةْ». بمعنى الشجرة التي شاخت ولم يعـد بإمكانها إعطـاء مردوديـة كبيرة في الإنتـاج. وتقتلع هذه الشجـرة من جذورها من المزارع مع ضرورة المحافظـة على ما علق بها من تراب، لتوفير شرط الثقل. وغـالبا مـا كان المحليـون يضيفون إلى جـذعها أكـوام الحجر لتحقيق هذا الغرض الوظيفي. ويحمل المثقل مرادفا آخر هو «الْـخَـنْـزِيرَةْ».

ينتصب المثقل في مكـان قـريب من الـرحى حيث يـوضـع الجذع المثقل بالتراب العالق بـه وأكوام الحجر الموضوعة فوقـه على «الشْوَامِـي» المملوءة «بالعصـار» أو «الفيتور»، وهي بقـايا الزيتـون بعد عمليـه طحنه وعصره. والغرض من هـذه العملية هو تعصير الفيتـور للإستفادة ممـا علق به من زيت، التي تقطر في صهـريج أو إناء كبير تتموضـع فوقـه الشوامي. ويلعب اللولب دورا أساسيا في عملية التعصير، إذ بفضله تتم عملية إنزال المثقل على الشـوامي بشكل بطيء من جهة، ولضمان تـوازن المثقل من جهة أخـرى. وتستمـر هذه العمليـة مدة قـد تصل أحيانـا إلى 5 سـاعات. ولا يتم إفـراغ العصار من الشوامي إلا بعد أن يجف العصار تماما من الزيت.

2 - **اللُّـولَـبْ :** هو عبارة عن خشبة سميكة، غالبا ما تكون من فصيلة الرمان أو الزيتون. توضـع فوق حجرة في قلبها حفرة لتسهل عملية دورانه، أما طرفها العلوي فهو ملولب يخترق ثقب نافذ وسط المثقل، وذلك لتسهيل عملية الضغط والكبس الذي يمارسه المثقل على الشـوامي الملوثة بالعصار. ويعمل عمال المعصرة على تدويـر اللولب بـواسطة خشبة متـوسطة الحجم لكنها شديدة السمك، تخترق اللولب في وسطه وهي مشدودة بإحكام كبير. وذلك لغرض تسهيل عملية دوران اللولب، بعد أن يكون رأس اللولب قد بلل بالزيت: أنظر اللوحة رقم 14.

وفي الـوقت الحالي استبـدل المثقل بأداة أخـرى تـدعى «الكـريك»، وهي تعريب للكلمـة الفرنسية cric، وهي آلـة لـرفع الأثقـال. إلا أنـه في المعصرة يستعمل الكريك للكبس والضغط على الشوامي لأجل استخلاص الزيت. لأن

الكريك يثبت بأحكام بين جداريـن في الأعلى. وتوضع بينه وبين الشـوامي مجموعة من الأخشاب على شكل مشرجب، وتتم عملية تـدوير الكريك باليد لممارسة الضغط وبالتالي العصر والتقطير.

3 - **الْحَـجْـرَةْ** : هي عبـارة عن حجـرة مـدورة الشكل على شكل «دقـاقة»، يصل قطـرهـا إلى حوالي مترين، وتختلـف أبعادهـا حسب حجم المعاصر. ويوجد في قلبها ثقب نافـذ تخترقه خشبة تشد بإحكام الحجرة إلى «اللْـزَازْ» وبأحد أطـراف هذه الخشبة يشد بها حبل، ويـربط الطرف الثاني من الحبل إلى عنق البهيمة وتسمى هذه الخشبة «الْـجَـبَّـادْ». وتقوم البهيمة التي غالبـا ما يوضع على عينهـا خمار بعملية تدوير الحجـرة، هذه الأخيرة التي تقوم بعمليـة الضغط وعصر الزيتون المنشور فوق «الرَّكعَـةْ». وكانت الحجرة تنقش كل عام لتتوفـر بها مجموعة من الحوافي والرؤوس الصغيرة لتسهيل عملية الطحن والعصر. وتسمى هذه الحجرة أيضا «بالرحى». أنظر اللوحة رقم: 12.

4 - **الرَّكَـعَـةْ** : تبنى الرَّكـعَـةْ على شكل صهـريج إلا أن شكله الداخلي يكون على شكل نصف دائرة. وفي وسطه الـذي غالبا ما يكـون مبلطا بتربة بيضاء مخلطة بـالجير، وذلك لمنع نفاذ الزيت نجد حفـرة يثبت فيها الطرف السفلي من «اللزاز». أما طرف هذا الأخير العُـلْـوي فيشد إلى «الشماش» عبر ثقب غير نافذ مثبت في هذا الأخير. والغـاية من ذلك هو ضمان دوران اللزاز المشـدود إلى الحجرة بـواسطـة خشبة تخترق ثقبين مـوجـودين بالحجـرة واللزاز، وذلك لضمان ثبات ورسـو الحجرة وتسهيل عملية دورانها. ويصل قطر الركَعة إلى حوالي 3 أمتار وقد يزيد عن ذلك ويقل حسب حجم المعاصر بقصور مدغرة. كما يوجد بالركَعة مجموعة من الثقب قد تصل إلى اثنين أو ثلاثة وعبرهـا يسيل إلى الصهريجْ أو الإناء الزيت المستخلـص من الزيتون المفروش على صحن الركَـعة، والذي تضغط عليه الحجرة بفعل جـر الدابة لها. وكلما زاغ الزيتون عن وجه الحجرة، كان عمال المعصرة يصوبونه أمام حوافيها انظر اللوحة رقم : 12.

وقبل عملية الطحن كـان القائمون بشؤون المعصرة يقـومون بعملية در الملح فوق الزيتون المعد للعصر والطحن، وذلك أملا وراء الحصول على زيت

حلـوة، كما أنهم إذا مـا لاحظـوا أن الزيتـون قـد جف وذبل فإنهم كـانـوا يقومون برش الماء عليه، لتسهل عملية طحنه وليكون مردوده كثير. وتذكر الرواية الشفويـة المحلية أن الزيتون كان يجف عندمـا تطول المدة بين جنيه وطحنه، وغالبا ما كانت تحدث هذه الحالة عندما يكون المردود جيدا. الشيء الذي يضطـر عمال المعصرة إلى اتباع «النوبـة»، وأحيانا كـانت عملية طحن الزيتون تستمر من نهاية شهر يناير وبداية فبراير أي الفترة التي يتم فيها الإنتهاء من عملية جني الزيتون أو ما يعرف محليا بعملية «خْرِيط الزيتون» أي إسقاط حب الزيتون من الشجر إلى ما بعد موسم الحصاد. الشيء الذي يدفع الأهالي إلى ترك عملية الطحـن والاهتمام بالحصاد والدرس. وبعد ذلك تستأنف عملية الطحن وعند ذلك يكون الـزيتون قد جف وذبل، مما يضطر عمال المعصرة إلى رشه بالماء حفاظا على رطوبته.

وكـانت الطحنة هي الـوحدة الأسـاسية للقيـاس، ويميز المحليـون بين الطحنة الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، حسب مـا تحتوي عليه كل طحنة من أمداد. فالطحنـة الكبيرة تساوي حوالي 70 مدا والطحنة المتـوسطة تساوي حوالي 65 مداً. والطحنة الصغيرة تساوي حوالي 60 مداً.

وكانت كل أسرة بعد الإنتهاء بل وأثنـاء جني الزيتون، تحمل محصولها من الغابة إلى المعصرة. وتوضـع حصص الزيتون الخاصة بكل أسرة بساحة المعصرة على شكل «غْـرَارِيمْ» يفصل فيما بينها بواسطـة الأخشاب. وهو ما يعرف في الأوساط المحلية «بالـمَـتْــفَـلْ». أنظر اللوحة رقم: 11. ولا يشرع في عملية الطحن إلا بعد الإنتهاء من عملية «خريط الزيتون» أو عندما تتوفر المعصرة على العدد الكافي من العراريم، ولو لم تتم عملية خريط الزيتون.

5 - **الشَّـمَّـاشْ** : يتكـون الشماش من 3 أخشـاب،تغرز خشبتـان في الأرض الأولى إلى الجهة اليسرى من الـركَعة والثانية إلى الجهـة اليمنى منها في الأرض بأحكام كبير. وغـالبا ما يكون نوع هـاتين الخشبتين من فصيلة شجر الطرفـاء «العدبة». وكان يراعي في عملية غـرز هذه الأخشاب ضرورة ترك فـاصل مجالي قد يصـل أحيانا إلى متر واحـد أو مترا ونصف المتر بين موضع الغرز والركَعة، وذلك لترك مجال مساحي للحيوان الذي يدور حول الركَعة. أما طرفهما العلـوي المرفوع على شكل عمودي إلى السماء فكان على

شكل «تفركة». وتـوضـع فوقهما خشبة سميكة، غالبا مـا تكون من فصيلة الزيتون. ويوجد في وسطها ثقب غير نافذ وهو الثقب الذي يشد فيه الطرف العلوي من اللزاز. كما توضـع على أطراف هذه الخشبة في المكان الذي تلتقي فيه بـالخشبتين المغروزتين في الأرض شامية، وذلك لضمان ثبـات ورسو «الشماش». أنظر اللوحة رقم: 12.

6 - **الشْـوَامِـي** : هي عبـارة عما يشبـه قفف أو قطـاف، وتتخـذ من الخوص وغيره مفـردهـا شـامية. وتملأ الشـوامي بـالعصـار أو الفيتـور المطحون وتوضـع الشوامي بشكل منظم واحدة فوق الأخرى، فوق صـهريج تفصل بينهما أخشاب مشرجبـة. وعند عملية الضغط الـذي يمارسه المثقل تتم عملية تقطيرهـا وتعصير العصار الموجود بـداخلها، لاستخلاص بقـايا الزيت العالق بالعصار.

لقد كانت عملية الطحن تستوجب على المستفيد من الطحن أن يقدم عشر إنتاجـه من الزيت لمقدم المعصرة. إذا كانت هـذه الأخيرة في ملك الجماعة أو للشخص الـذي يملكها. ومقـابل ذلك كان على مقـدم المعصرة أن يستحضر البهيمة والعمال المساعدون، وكان كل خـدام يأخذ كمقابل على عمله 2 كيلو من الزيت كل يوم. أما الآن فقد استبدلت بالأجر اليومي.

ولم يكن يشرع في طحن زيتون فـرد ثاني إلا بعد أن يأخـذ الفرد الأول زيته وعصـاره ويؤدي مـا عليه. وكانت عمليـة «ارْفُـودْ الـزِّيتْ» حسب ما أفـادنا بـه بعض الرواة تتم في سريـة تامـة. حيث كان يغلق بـاب المعصرة ويحضر مقدم المعصرة والمستفيـد والشهود، كما أن هذه العمليـة كانت تتم في الصباح الباكر، والغالب على الظن أن هـذا مرتبط بكون الزيت في الصباح تكون صافية. هذا وإن كان البعض الآخـر يسوق رواية أخرى تطغى عليها الخرافـة والغيبيـة، كوجـود الجن في الصـهـريج ولكـون الزيت والـزيتـون مذكوران في القرآن.

وغالبا مـا كان يضاف شيء من الملح إذا ما لوحظ أن الـزيت مرة. وبعد أخذ الزيت يلقى ما بقي عالقـا في الإناء أو الصهريج من فضالات وتفالات. وتعـرف هذه الحثـالات محليا «بِالنَّـخْـنِيخْ» في حفـرة تتموضع خـارج المعصرة.

وقد كان لكل معصرة مقـدم خاص بها، يهتم برعايتهـا والسهر على ما يوجـد بها وتسييرها. وهذا مـا يفيدنـا به الشرط 54 من اتفـاق قصر أيت عثمان. قال: «...ومن سفه على مقدم المعصرة وهو معلمها فريالين».(177)

ولما كانـت المعصرة إحدى المرافق الحيويـة التي كانت تـذر على مجتمع القصر أرباحا جـزيلة. فقد كانت الأعـراف المحلية تفرض بل وتمنع على أي فرد من سكـان القصر عدم طحن زيتـونه في معصرة أخـرى خارج القصر. وفي حالة ثبوت مثل هذه الحالة، فإن الجماعة لم تكن تتورع في إنزال أقسى العقوبات بالفرد الذي يقدم على مثل هذا السلوك، قد تصل أحيانا إلى طرده من القصر. وهذا ما يؤكده الشرط 92 من اتفاق قصر أيت عثمان، فقد جاء فيه ما يلي: «ومن خَـرَّجَ زيتونه من المعصرة متعت الجماعة فيعطي خمسين ريالا ويخرج من البلد بـلا إقامة».(178) وهـذا يعني في عمقه صـورة من صور التكافل والتضامن الاجتماعيين الذي تمثله المعصرة. ويعني أيضا حدة الصرامة التي كـانت تلجأ إليها الجماعـة إزاء المخالفين، وذلك بغيـة الحفاظ على لحمة مجتمع القصر.

إن وجود المعاصر بمدغرة بوجـه عام لا يعني أنها قديمة قدم الإستقرار البشري بهذه المنطقـة، بل هي متأخـرة عن هـذه المرحلـة بكثير. ومن بـاب التذكير نشير إلى أنه سبق لنـا أن أوضحنا في الباب الأول(179) أن القصور القديمة بمدغرة أي البدائية لا توجد بها معـاصر الزيتون الرومانية القديمة – أي البدائيـة –، وكل ما هو مـوجود معـاصر جاهزة هـذا من جهة. ومن جهة أخرى يـدل هذا على تأخر وجود شجر الـزيتون بهذه الأصقاع. ولعل هذا ما دفع دوزي جاك مونيي إلى القول أن شجـر الزيتون كان منذ القرن 11م إلى 16م لا يحتل على مـا يظهر إلا مكـانة بسيطـة في اقتصاد المغـرب الجنوبي».(180) وغالبـا ما كـانت تذكـر كتب الجغرافيـة والرحـلات خلال العصر الوسيط مادة الزيت ضمن البضائع التي كانت تحمل إلى المنطقة من

---

177) Mezzine (L) : ta'qquit de Ait Atman. op cit, p 106.

178) Mezzine (L) : op cit, p 106.

179) أنظر الباب الأول الفصل الأول ص 72.

180) Meunié (D.J) : le Maroc saharien. op cit, t 1 p 379.

الشمال المغربي. كما كان الشحم يستهلك بشكل كبير في منطقة تافيلالت بأكملها. وكل هذه القرائن وغيرها تقيم الدليل على أن هذه الشجرة لم تكن معروفة بهذه الأوساط خلال المرحلة الوسطى والحديثة، أو على الأقل لم تكن تستحوذ على الغطاء الشجري بمدغرة كما هو الحال الآن. ونفترض أن يكون العرب هم الذين وسعوا انتشار غراسة هذه الشجرة في المراحل المتأخرة بدليل أن لا حديث لا عن الزيت ولا عن معاصر الزيتون خلال المرحلة الحديثة، على الأقل من خلال المادة العلمية التي استطعنا الإطلاع عليها. ومعلوم أن تاريخ المعصرة يحدد معلمة وجود النبات. وما يبرر ذلك من جهة أخرى أن نوع شجر الزيتون الموجود حاليا بمدغرة هو من النوع المسقي وليس من النوع البري. وغني عن البيان أن ما هو غير بري هو غير أصلي، وهذا عكس ما نلاحظه مثلا بالنسبة لشجر النخيل الذي هو من الصنف البري.

يبدو أن المرافق العامة السالفة الذكر (الأبراج – الأسوار – الجامع الفنادق – المعاصر دار القائد وغيرها) كانت تقسم تكاليف إنشائها على عدد سكان القصر. وهذا ما يمكن أن نلمسه ونقف عليه من اتفاق قصرا أيت عثمان والكَارة، فقد جاء في الشرط 309 من اتفاق القصر الأخير ما يلي: «وأما بناء البروج والأسوار الإثنين فإنه على القبيلة».(181)

إن موقع المنازل داخل القصر والحالة المادية للأسر المكونة لمجتمع القصر كانت وراء اختلافات عميقة فيما يخص إنشاء التحصينات، فقد اختلف الفقهاء في أمر إجبار جميع أصحاب الدور على المشاركة في تكاليف إنشاء التحصينات. فمنهم من يرى بوجوب مساهمة أصحاب الدور في القصر المراد تحتصينه أو الواجهة المراد تحصينها بدفع الحصة التي تخصه وإلزام من أبى منهم بهذه المساهمة. فقد جاء عند ابن الرامي(182) أنه: «سأل الفقيه عبد الله بن راشد (توفي سنة 637هـ) في قوم أرادوا أن يحصنوا على

---

181) Mezzine (L) : tafilalet. op cit, p 172.

182) ومبرر اعتمادنا على ابن الرامي هو أن أحكام قضاة مدغرة وفتاوي فقهائها كما هو الحال كذلك بتافيلالت، تعتمد عليه. حيث إن وثائق الأحكام والعقود التي اطلعنا عليها وهي مازالت في ملكية أصحابها من سكان مدغرة تشير إليه وتعتمد آراءه في تطبيق أحكام القضاة.

أنفسهم إما أن يفعلوا دربا أو سورا أو حفيرا أو شيئا يحصنون به على أنفسهم وعلى أموالهم. فمنهم من أراد ذلك ومنهم من أبى على ذلك هل يجبر من أبى أم لا؟ فقال له: نعم يجبر من أبى على ذلك لأن الناس يجبرون على ما فيه المصلحة والمنفعة. ثم سأله ابن الرامي عن الطريقة التي تجمع بها تكاليف الإنشاء فقال: تقوم الدور كل دار وقيمتها فالدار الجديدة بسومها والدار القديمة بسومها، ثم يجعل ثمن الدور كلها جملة واحدة. ومنهم من يرى عدم الإجبار. ويرى فقط في ترغيب الناس في ذلك وحثهم بالحسنى إلى فعل هذا الأمر، وقد رأى ذلك القاضي عبد السلام (توفي 749هـ). وعندما سئل عن كيفية توزيع تكاليف الإنشاء على أصحاب الدور المستفيدة بعد موافقتهم على إنشاء التحصينات، رأى أن تقسم نفقة التحصين نصفين، يقسط النصف الأول على قيمة الديار، ويقسط النصف الثاني على ذوي الأموال، يفرض عليهم بحسب أموالهم».(183) وتعكس هذه الحلول أو بعضها صورة من صور التكافل والتضامن الإجتماعيين، لا سيما تلك التي قدرت حال الفقراء في توزيع نسبة التكاليف. كما أن اتفاق الجميع على إنشاء هذه التصحينات يعطي صورة أخرى من صور التفاهم الإجتماعي بين الذين اتفقوا على إنشائها. كما أن تكرار إنشاء هذه التحصينات والحرص عليها يعكس حالة الحرص في هذا العصر أو ذاك في هذه المنطقة أو تلك، وأثر الظروف الاقتصادية والسياسية والأمنية على تكوينات القصر السكني. فمع الإستقرار والهدوء تنعدم الحاجة إليها وفي حالة الإضطراب والفوضى السياسية يكون الأمر ملحا لإنشائها. ومعلوم أن منطقة مدغرة بحكم موقعها المتميز كنقطة عبور وممر إجباري سواء للمجموعات البشرية المختلفة أو القوافل التجارية ووضعها الاستراتيجي الحساس، أجبرت ساكنة القصور على إنشاء التحصين الذي يستجيب لوضعيتها ودورها وموقعها.

نعتقد أن التحصينات الخاصة بقصر سيدي أبو عبد الله لم تكن تحصينات عادية، ويظهر ذلك من خلال الأسوار وتعدد الأبراج وعلوها

183) الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي. تحقيق محمد عبد الستار عثمان م. س ص ص 102 – 103.

ووجود الباب الـواحد. مما يعني أنها لم تكن بقدرات الأهـالي الإنشائية، بل إن السلطـة المحليـة هي التي تـولت إنشـاءهـا للـدفـاع عنـه من الأخطـار الخارجية. ويشهد على ذلك دار القـائد داخل القصر. وهذا أمر مخالف لكل قصـور مدغـرة. ولا غرو في ذلك فقـد جمع قصر سيدي أبـو عبد اللـه بين مجمـوعـة من الـوظـائف التي حتمت عليـه أن ينشأ تحصينـات تستجيب لأهليته ودوره المتميز في تسيير شؤون مدغرة، ولو كان هذا متعلقا بالفترات المتأخرة.

إن كل هذه المرافـق السالفة الـذكر تتمـوضـع في أطراف القصر، مـا عدا المسجد الـذي يوجـد في الوسط. ومرد ذلك – على مـا نعتقد – لكـون هذه الأطـراف لم تكن مخصصة للسكن لأنها تحاذي السـور الخارجي للقصر، وهذا من شـأنـه أن يعرض أصحابها للخطر لا سيما وقت الهجـوم. وثانيا لكون هذه الأطراف غالبـا ما تحتوي على مرافق لا تتزاوج والسكن البشري، نظرا لـلإزعاج الذي يمكن أن تسببه للسكـان، ليترك وسط القصر لتموضـع المنازل السكنية.

المنازل بقصر سيدي أبو عبد الله متشابهة على العموم. كل منزل يتكون في الغالب من طابقين ونادرا ما نجد ثلاثة طوابق.

بعد اختراق باب المنزل نجد ما يشبه ساحة صغيرة مسقفة تأخذ شكلا مستطيلا تدعى محليـا «السَّكِيفَةْ». والمقصود بها هنا هو مـدخل الدار الذي هو عبارة عن ممـر مسقف، مما يجعلها أكثر ظلمة مقارنـة بالمرافق الأخرى للدار. وللسكَيفـة مهام وظيفية متعددة، فمن جهـة نلاحظ أنها تحافظ على الأمن لأن المهاجم لا يـدرك عند اقتحامه للدار تخطيـط السكَيفة والدار. كما تحافظ السكَيفـة على حجـاب أهل الدار، وذلك على اعتبـار أنها كـانت محل جلوس النساء خاصة للمذاكرة والقيام بعمليات تنقية الزرع وغسل الصوف وغيرهـا من الأعمال المرتبطـة بـربـات البيـوت. ويسمح طـولها وظلمتهـا بإفراغها من طرف النساء عنـد سماع أدنى حركة أو ضجيج غير عادي في مقـدمتها لـلإختفاء بخبـائهن. ومن جهة ثـانية تعمل السكَيفـة على تلطيف الهواء الـذي يـدخل إليهـا حـارا في فصل الصيف وبـاردا في فصل الشتـاء تدريجيا.

وتوجد بالسكَيفة السلاليم التـي تؤدي إلى الطابق العلوي، كما أنه منها تبدأ عملية تجزيىء الـدار. فنقتحم ساحة مغلقة تصل إليهـا أشعة الشمس عبر فتحه في السقف تـدعى محليا «عين الـدار». وعلى جانب من هـذا الفناء الأرضي تصطف مجمـوعة من الحجرات يختلـف عددها مـن دار إلى أخرى، حسب المساحة التي تشغلها الـدار. يخصص بعضها بكل ما يتعلق بأدوات الإنتاج الـزراعي أو حطب الـوقود، وتخصص غـرفة أخـرى لخزن المؤونة ويتولى الإشراف عليهـا رب العائلة لا يفـارقه مفتاحهـا على الدوام. وتسمى هذه الغـرفة بمجمـوع قصور مـدغرة «ببيت الخزين» أو «الـدويرة». ومن محتوياتها الأساسية خـوابي فخارية كبيرة لخزن التمر وأخرى أقل حجما منهـا لخزن الشحـم والسمن. ويسمى هــذا النـــوع الأخير من الخوابي «بالزير». بالإضافة إلى الخضر والحبوب اليابسة التي تركن في أحد الأركان، يحده حاجـز صغير من الطوب يصل بين ضلعي الزاويـة على ارتفاع يصل إلى حوالي 30 أو 40 سنتمتر. وعلى العموم تعتبر هذه الحجـرة أساسية داخل الدار، تلعب دور القلب النـابض لها وتختلف من حيث الإتساع والمحتـويات من أسرة إلى أخرى تبعا لطبيعة الثروة وحسب حجم ويسر الأسرة.

وفي هذا الجزء من الـدار نجد غـرفة كبيرة مخصصـة للضيوف تسمى محليا «الدَّويرِيَّـةْ» على ضرب من التصغير للتمليح، وهي غرفة كبيرة وأنيقة تعكس يسر أو فقر هذه الأسرة أو تلك.

وأما المنسج أو بالتعبير المحلي «المنشج» فيكون مـوضعه مصوب بالدار إلى جانب مـوضـع «الكَلة» أي القلة. التي هي بمثابـة إناء يرتوي منـه أفراد الأسرة خلال فصل الصيف.

وفي نفس هذا الفناء السفلي نجـد ما يشبه حضيرة أو «ارْوَى» للحيوان. والروى اصطلاح عـام بالمغرب، وهو مربط خاص بـالبهائم. ويقسم الروى بمـدغرة إلى قسمين: قسـم لربط البهـائم. وقسم آخـر لخزن التبن والعلف «والكُرْطْ».(184) ويبنى الـرْوَى داخل الـدار كما يبنى كـذلك خـارجهـا. إن

184) والكُرْطْ في الإصطلاح المحلي، يعني رزمات الفصة المجتثة لا سيما في وقت المصيف وتترك حتى تيبس ويتم نقلها إلى الروى وخزنها بـالقسم الخاص بعلف الماشية ويستغل كعلف للماشية. لا سيما خلال الفصل البارد.

وجود الـرْوَى بمنازل القصـور بمدغـرة يعني الجمع بين حرفتي الـزراعة وتربية الماشية، وهـي سمة خاصة بمجتمع الواحات الـذي يتميز باقتصاد القلة. وهـذا على العموم ما سنحـاول الوقـوف عليه بالتحليل والـدراسة في الأبواب اللاحقة. وقد منعت الأحكـام الفقهية بناء الروى مجاورا لدار الجار مباشرة، حيث نصت الأحكام الفقهية بأن تكون هناك وحدة معمارية بالدار تفصل بين الرواء ودار الجار كبيت أو حائط. وذلك لدفع أي ضرر قد يؤذي الجار(185) كالحريق أو ضرر الإزعاج.

وكثيرا ما تحول إحـدى زوايا الأجزاء الأرضيـة إلى مطبخ شتوي ينصب فيه كـانون طيني بمـدخنة في الغـالب، يتم بواسطتهـا سحب الدخـان نحو سطح الدار.

ويتموضــع كذلك في الطـابق الأرضي البئر «الحاسي». ومعلـوم أن وجود البئر بالمنـازل بقصور مدغرة كان يحدد نوعـا ما من التمايز الطبقي. إذ لم تكن كل الأسر الساكنة بالقصر تتوفـر على بئر، وهذا ما يدل على أن امتلاك البئر مـرتبط أساسا بنفوذ هـذه الأسرة أو تلك. من هنا جاء انتشـار الآبار المشتركة لعدم قـدرة كل الأفراد على إنشاء بئر خـاصة بهم. كما أن انتشار الآبار بـالدور من الأمـور المفضلة التي تسـاعد على سترة أهل الـدار وعدم خـروج النســاء لجلب الماء من «حـاسي الجامـــع» لا سيما نســاء الأسر الشريفـة. وغـالبا مـا كـانت النسـاء الحرطـانيات تقمن بعمليـة السقــي «السْكِي» للشرفـــاء لا سيما إذا كـانت أسرهم تــرتبط بـالشرفــاء بعقـد الخماســة.

لقد نظمت الأحكام الفقهيـة حفر الآبار في الدور، بحيث لا يـؤثر بعضـها على بعض سيما في الدور المجـاورة. فهناك من الأحكام ما منع إنشـاء البئر إذا كان إنشاؤها ينزف بئر الدار المجاورة. وفي ضوء هذا الحكم كانت تردم آبار اكتشف بعد حفرها أنها تؤثر على بئر الجار وتنزف ماءها.(186) ومن هنا جـاء ما سمته الأحكـام «بحريم البئـر». وقد اختلف في تحديد المســافة المحرمة حول البئر باختلاف نوعيته، وكذلك اختلف الفقهاء في تحديد حريم

185) الإعلان بأحكام البنيان. م. س، ص 138.

186) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 118.

البئر في النوعية الواحدة. ومنشأ هذا الاختلاف راجع لاختلاف طبيعة الأرض وطريقة استغلال البئر.(187)

أما البناء الواقع في السطح فيخصص غالبا للسكن وتتوزع على جنباته الغرف وتتوسطه الفتحة المسماة «عين الدار» وتحاط بسور على حوافيها يصل طول هذا الأخير أحيانا إلى قامة رجل وافي ويسمى «السْتَارَةْ». وينتصب في إحدى زوايا هذا الجزء من الدار محل النظافة المسمى محليا «شيخ الدار»، الذي يقابله في القواميس والمعاجم اللغوية العربية المرحاض أو الكنيف. قال ابن الرامي: «كنف الدار – أي اتخذ لها كنيفا أي مرحاضا – والكنيف مفرد كنف وهو المرحاض ويسمى الخلاء بالفتح والمد وهو موضع قضاء الحاجة».(188) وقيل للمرحاض كنيفا لأنه يستر قاضي الحاجة من الكنف وهو الستر.(189) وقد استخدم أيضا مصطلح الكرياس بنفس الدلالة. قال السيوطي في النهاية الكراييس يعني الكنف واحدها كرياس وهو المكان الذي يكون مشرفا على سطح بقناة من الأرض. فإذا كان بأسفل فليس بكرياس، سمي بذلك لما تلق به من أقذار ويتكرس ككرسي الدمن.(190) وقد أشار المقريزي أن الكرياس هو المستراح المغلق من السطح.(191) ومما سبق يتضح أن الكرياس الذي يقابله مصطلح «شيخ الدار» بمدغرة يطلق على نوعية معينة من الكنف أو المراحيض التي تكون جاسمة على السطح ولها قناة تصريف تنزل عبرها الفضالات إلى بئر الصرف في تخوم الأرض.

وقد حددت الأحكام الفقهية مكان وجود «شيخ الدار» إذ منعت هذه الأحكام بناء الكراييس في الزاوية المواجهة للقبلة، وذلك بناءا على حديث

187) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 143.

188) الإعلان بأحكام البنيان م. س ص 207.

– المعجم الوسيط م. س ج 2 ص 801.

189) المصباح المنير م. س، ج 2 ص 657.

– الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص 207.

190) جلال الدين السيوطي : سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام المسندي، دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأولى بيروت 1920 ج 1 ص 22.

191) المقريزي : المغرب في ترتيب المعرب، م. س، ج 2 ص 215.

رسـول اللـهﷺ: «وإذا ذهـب أحـدكـم للغـائط فـلا يستقبل القبلـة ولا يستدبرهـا». وندد السيوطي بمراحض الشام لكونها بنيت قبلـة القبلة قال: «قدمنا الشام فوجدنا مراحيض قد بنيت قبلة القبلة، فنخرج عنها ونستغفر الله».(192) لهذا لا غـرو إذا كنا نصـادف في قصور ومسـاجـد مدغـرة أن المراحيض كـانت تبنى في زوايا تستجيب في أغلبهـا للأحكـام الشرعية. ممـا يعني أن نظام تخطيط مورفولوجية بنـاء القصور والمساجد والدور بمدغرة كانت خاضعـة للشرع، ولا غرابة في ذلك فالمنطقة لم تكن منعـزلة عن باقي المنـاطق المغربيـة الأخرى التي عـرفت خـلال مراحل معلـومة من التـاريخ المغربي قيام كيـانات سياسية إسـلامية مبنية على أساس شرعي بـالدرجة الأولى. كما أن المجموعـات البشرية التي تعاقبت على سكنى مـدغرة لا سيما خلال المرحلة الحديثـة، كانت لها ثقافة عـربية إسلامية مبنيـة على القواعد الشرعية. مما أثـر في هذا النمط المعماري بل وأطره وفق أسس تستجيب في أغلبها للقواعد الشرعية الإسلامية.

إن فائدة وجـود المرحاض «شيخ الـدار» بكل منزل من منـازل قصور مدغـرة عامة لا تنحصر فقط في كـونها بمثابة محل قضاء الحاجـة البشرية وسترة لأهل الـدار. وإنما الفـائدة الكبرى منها هـو مـا توفـره من زبـول لمعالجة الأراضي الزراعية، سيما وأن زبول بني آدم حسب مـا يفيدنا به أبو الخير الأندلسي هـو أفضل الزبل. قال: «وأفضل الزبـول زبل بني آدم الذي قد قـدم وعتق في الكنف، وفنيت بعض رطوبتـه. فإنه رطـب حـار يصلـح بـه جميع الشجـر والحبـوب وتصلـح بـه المقـاثي والقـرع إذا توقفـت واصفــرت، وله تأثير في شجـر السفرجل إذا شرف وسـوس ثمره وفسـد واعترته التواليل في أعناق شجره وأغصـانه فإنه يصلحه صـلاحا بينا».(193) وتذكـر الروايـة الشفـوية المحلية أن المرأة باعتبارها ربـة المطبخ كانت تذر مـا يجتمـع لهـا من رماد فـوق الزبـل المتجمـع، وذلك قصـد معالجتـه وتعتيقـه والمحافظـة على قـوة فعاليتـه ورطوبتـه ودرىء ضرر رائحتـه الكريهـة.

192) جلال الدين السيوطي : م. س، ج 1 ص 22.

193) أبو خير الأندلسي : كتاب الفلاحة. الطبعة الأولى ص 89 فاس 1358هـ.

ونظرا للأهمية البالغة في معالجة الأراضي الزراعية التي هي أصلا فقيرة هيكليا، فإن الحاجة إليه ظلت متزايدة. لأن زبل «شيخ الدار» يصلح «للبحاير» أي البحائر وليس للبستنة، لأن هذه الأخيرة متأخرة بمدغرة. ويرجع الفضل في وجودها بها إلى التأثير الأندلسي. لأن الأندلسيين ارتبطوا تجاريا مع مدغرة، وذلك لكونها واقعة على الطريق التجاري الرابط بين تافيلالت والأندلس عبر ميسور المشتهر بالرمان السفري والخوخ. وما يشهد على التأثير الأندلسي بالمنطقة من ناحية المنتوجات، أن مدغرة والأندلس تشتهران بنوع من «اللتشين» الأصفر الرقيق المسمى محليا «بالزَّنْبُوعْ» وهو نفس الإسم الذي يطلق على هذا الصنف من الليمون بالأندلس. ومعلوم أن هذا النبات الشجري يعتبر دخيلا على المنطقة، والراجح أنه يرتبط بالتأثير الأندلسي في الزراعة والغراسة بمنطقة مدغرة.

وقد كان الحراطين يبيعون زبولهم للشرفاء، إلا أن هذا لا يعني أن فئة الحراطين كانت مجردة من تملك الأراضي الزراعية. إذ نتوفر بهذا الخصوص على مجموعة كبيرة من الرسوم العدلية العقارية(194) التي مازالت هذه الفئة من سكان مدغرة تحتفظ بها لحد الآن والضاربة في عمق الزمن، وكلها تثبت أنهم كانوا أصحاب أراضي زراعية. وقد سبق أن أشرنا سابقا(195) إلى وجود معلمة سكنية بالقسم الأعلى من مدغرة تحمل إسم «قصر الحراطين». ومعلوم أنه لا يمكن أن يوجد قصر تعيش فيه مجموعة بشرية مستقلة دون أن تكون لهم أراضي زراعية. وهذا تمييز خاص بمنطقة مدغرة، إذ إلى الجنوب من مدغرة وبالتحديد بواحة الرتب نصت إحدى شروط اتفاق قصر الكَارة على منع فئة الحراطين من حقهم المدني في امتلاك الأراضي. فقد جاء في الشرط 370 ما يلي: «وأما من اشترى من الحراطين شيئا من الأصول والديار فنصافه مائة مثقال».(196)

وبصفة عامة عرفت قصور الجنوب المغربي بحفظ روث البهائم ورجيع الناس، وذلك لتسميد الأرض وتخصيبها أو بيعه للملاكين. فقد أشار الوزان

194) سنثبت البعض منها في الملحق الخاص بالوثائق. انظر الوثائق رقم : 3 – 6 – 7.

195) انظر الباب الثاني الفصل الثاني ص : 189.

196) Mezzine (L) : tafilalet. op cit, p 178.

إلى: «أن أهل تيكَورارين كانوا يسكنون الغرباء بمنازلهم بدون أجر ليحصلوا على سماد الخيل ورجيع الناس، حتى إن أكبر ما يسيء به الغريب لضيفه أن يتغوط خارج بيته».(197) وذكر أحد الباحثين أنــه لشدة الحاجة إلى السماد البشري، فقـد كـان بعض سكـان القصور الفجيجيـة يضطـرون إلى عـزل حجرات خـاصة من منـازلهم وتحويلها إلى مـراحض تفتح لها أبـواب نحو الأزقة والطرقات للإستعمال المجاني. وهي ظاهرة لا يعتقد نفس الباحث أن لها نظيرا في مكان آخر من واحات الجنوب.(198)

كما ينتصب في السطح كذلـك كانون ثـاني داخل أقواس مسقفـة تدعى «الْــكـواسْ». والكـانون هــو مكـان الطبخ ويتركب من فرن «فـران» لطهي الخبز وبجـانبه يـوجد الموقـد «الكانـون» الذي تـوضـع فوقه القـدر لطهي الأطعمة الأخرى. ويستغل هذا الكانـون في فصل الصيف خاصة، وفي أعلاه ينتصب مـا يشبه قِــمَـطْـرْ تـوضـع فـوقه القدرة بعـد الانتهاء مـن عملية الطبخ. ويعرف هذا القمطر محليا باسم «أكْـنِـيـبَـلْ».

على أن أهم مرفق يوجد بالسطح هو «المصرية» وهو مصطلح مشتق من الكلمـة العربيـة مصر. بمعنى مكـان الإقـامة ومنـه أتت الأمصـار ومصر، ويقابلـه اللفظ البربري «تمسريت». والمصريـة في الهندسة المعماريـة المحلية تعني القـاعة أو الغـرفة الموجـودة في السطح فوق «الـدويريـة» وتخصص لاستقبال الأضياف. وتتخـذ شكلا مستطيلا وأوسع من الحجـرات العادية الأخـرى، وتكون المصريـة أكثر إضـائة وتهويـة عن طريق نـوافذ بسيطـة مصنوعة باتقان تسمى محليا «الشَّـرْجَـمْ»، رغم أن الإسم العربي الحقيقي لهذه النـوافـذ هـو «الشرجب». فقـد ورد في الإعـلان لابن الـرامي مصطلح الشرجب قال القاضي أبو عبد الله «وذكر لي ابن رشد إذا جعل الباني شرجبا يمنعه من إخراج رأسه فإن الشيوخ كـانوا يختلفون في ذلك، فمنهم من كان يراه ومنهم من كان لا يراه».(199) وأورد ابن جبير في رحلته وصفا يوضح الدلالـة المعمارية للشرجب قـال: «وفي النصف العُــلْـوِي من قمـة زمزم...

---

197) الوزان : وصف م. س، ج 2 ص 133.

198) أحمد مزيان : فجيج : م. س ص 172.

199) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 186.

صنعة عجيبة... قد تأنق الصانــع وأحدق بـأعلاها شباك مشرجب(200) من الخشب رائع الخلل والتـاريخ... وفي كل جـانب منهـا – أي القبة – ثـلاثـة شراجب مقومة كأنها أبواب قد قامت على أسوارها... وينطبق كل شرجب من شراجيبهـا على أعمـدة حـــديـد تـركب بعضـهـــا على بعض كأنها شراجيب آخر».(201) ويظهر من هذا الوصف أن الشرجب هو شباك يصنع من قوائم من الخشب أو الحديد متقـاطعة مكـونة أشكال المربعـات أو المستطيلات لا تمكن من إخراج الـرأس أو الإطلال.(202) وتنطبق هذه المواصفـات إلى حد كبير على مورفولوجيـة البناء بقصور مدغرة بصورة عـامة، حيث نجد هذا النوع من الشراجيب في القبـب والغرف العليا المطلـة على الزقـاق. إلا أن ما يثير الإنتباه في هذا الخصوص بالنسبة لقصور مدغرة هو أن أسماء المرافق السفلى في الغالب هي بربرية وأسماء المرافق العليا هي عربية. مما يعني أن هناك تداخلا حضاريا بين المجموعتين البربرية والعربية التي تعايشت بحقل الـدراسـة. وانعكس هـذا التلاقح الحضـاري على أسماء المرافق بـالقصـور السكنية. ويبدو أن سيطرت الأسماء البربرية على المرافق السفلى مرتبط على الراجح بعقلية الحياة في الخيام. كما أن هذا التباين في أسماء المرافق السفلى والعليا يفيد في رسم ملامح التشكيل البشري لمدغرة.

وعلى إحـدى الزوايـا من السطوح يبنى السلـوم الثاني الـذي يفضي إلى «العلالي» هذا الأخير الـذي يضم غرفة أو غرفتين، وغالبـا ما تستغل إحدى هذه الغـرف لخزن المواد الثمينة التي لا تتأثـر بحرارة الشمس. أما الغـرفة الثـانية فتسمـى «البريج» وهو تصغير للبرج وتكـون خـاصـة برب الـدار يستكين فيها وقت فراغه. وتتوفر هـذه الغرفة على جملة من الأواني الزاهية «كؤوس البلار خاصة» الخاصة بشرب الشاي بالنسبة للأسر الراقية. وهذا كذلك يفيد في الكشف عن نوع العلاقـة القائمة داخل الدار الواحدة بين رب الأسرة وسائر الأفراد الآخرين.

---

200) المشرجب هو المشبك على هيئة المربعات أو المستطيـلات الصغيرة. أنظر : ابن جبير : الرحلة دار صادر بيروت 1980 ص 77 هامش 4.

201) ابن جبير : الرحلة م. س ص 77.

202) الإعلان بأحكام البنيان : م. س ص 186.

ومع هـذا كله يبقى السطح أهم مـرفق في الجزء الْـعُـلْـوِي من الـدار وذلك لاعتبارات مرتبطة أساسا بوظائفه المتعددة في أغراض الحياة اليومية. من هنـا جاءت حتميـة تحصينه بستـارة، لأن السطح التي كـانت تعلوهـا الستارات الـواقية أكثر كمالا من تلك التي تفتقـد إليها. وهذا يتـوافق تماما وتحقيق الغرض الوظيفي للسطح. إضافة إلى كونه عنصر إنشاء ووقاية من البرد والحر، وهو الغرض الذي لا يتحقق في حالة عدم وجود هذه الستارة. مما يعني أن انعـدام السترات كعنصر واقي مرتبط أسـاسا بعـدم استغلال السطح، وهو المحـور الأساسي الذي اعتمـدت عليه الأحكام الفقهيـة المتعلقة بضرر الكشف من سطـوح الدور. لهذا لا غـرو إذا وجدنـا الأهالي يبـدون حرصا شديدا على بناء ستارات المطالع المؤدية إلى السطوح وحول السطوح نفسها. وحدد الفقهاء ارتفاع هذه الستارة في سبعة أشبار،(203) مما يعادل 1,75م وهو ارتفاع يمنع الناظر غير المتعمد من كشف الدور المجاورة. وكان الإلتزام ببناء هذه الستارات هو المبرر الـوحيد لاستغلال هذه السطوح التي جرت العادة أن تنشر فيها الملابس وتجفف فيها الخضروات والحبوب ونشر التمور لكي يكتمل نضجهـا. رغم ما تسببـه هذه الأخيرة من جمع للـذباب وبالتالي نقل بعض الأمراض.

وفي ليالي الصيف كان السطح يستخدم للنـوم هربا من الحر في المناطق الصحـراويـة. وربما اتخذ السطح لأغراض أخـرى كمسجـد مغلق لا سيما فوق سطـوح وحدات معماريـة كالحوانيت.(204) وجميع هـذه المواصفـات مطبقة إلى حد بعيد بكل قصور مدغرة.

وغير بعيد عن مـؤسسة القصر تنتشر الأندر وبـالتعبير المحلي «النوادر» وهو الموضع الـذي تدرس فيه الحبـوب والجمع أندر(205) ونوادرات. ولا تقتصر وظيفـة الأنادر بمنطقـة مدغـرة وما إليهـا على الدرس، بل وأيضـا

203) الشبر وحدة قياس طولية أمكن تحديد قياسها ب 1.23 سنتمتر، على اعتبار أن الذراع شبران. والذراع يساوي 2.46 سنتمتر. أنظر الإعلان بأحكام البنيان م. س ص 186.

204) الإعلان بأحكام البنيان م. س ص ص 46 – 47.

205) ابن منظور : لسان العرب م. س، ج 3 ص 5.

وحسب ما أفادتنا به إحدى شروط اتفاق قصر الكَارة أنها كانت محلا لتقسيم مادة التمر. فقد جاء في الشرط 207 من اتفاق القصر المذكور ما يلي: «وأما التمر فإنها لا تقسم إلا في النوادر».(206) وقد اعتبر الفقهاء غبار النوادرات من مسببات الضرر لما جاورها من مباني،(207) ولذا جرت العادة بجعلها بعديدة شيئا ما عن المساكن. ونظمت الأحكام الفقهية علاقات النواذرات بما جاورها من منشآت. كما نظمت العلاقة فيما بين النوادرات المتجاورة فيما بينها، بحيث لا يحجب أحدها الرياح عن الآخر.(208) وعلى هذا الأساس يظهر أن للرياح أثر واضح في تحديد مواضع النوادرات بالنسبة القصر السكني. وبمدغرة تسمى الرياح التي تستغل في عملية التذرية «بالعوان» لأنها تعين الشخص الذي يذري.

وكانت النوادرات بمدغرة تقام في الأرض الجماعية وهو نموذج خاص لتداخل الملكية الجماعية والخاصة لأن كل أسرة تتوفر على نوادر خاص بها. وهذا من شأنه أن يكشف عن تطور وتداخل الملكيات الجماعية والخاصة.

وغير بعيد عن مؤسسة القصر كذلك تنتصب المقابر «المدينة» بالتعبير المحلي. فقد كان كل قصر يتوفر على مقبرة خاصة بأمواته.

وجدير بنا أن نشير إلى أن المقابر بمدغرة تنقسم إلى مجموعة من الخانات. وكانت كل فئة من فئات مجتمع للقصر تدفن أمواتها بالخانة الخاصة بها. وأحياناً نجد أن الأسر المكونة للفئة الواحدة كانت تدفن أمواتها بخانة خاصة بها وكأن الأمر يتعلق بمقبرة عائلية.

يعتبر السكن نتاجا ثقافيا(209) واجتماعيا واقتصاديا للمجموعات البشرية ولذلك نلاحظ اختلافا في أشكاله عبر كل المجالات. ويعد القصر أو القرية المحصنة الوحدة السكنية الأكثر شيوعا بمناطق الواحات. ويعكس شكله انعدام الأمن والصراعات وبنياته الاجتماعية المتميزة بعدم التجانس.

(206 Mezzine (L) : tafilalet. op cit, p 160.

207 ـ 208) الإعلان بأحكام البنيان م. س، ص 216.

209) نستعمل هنا مصطلح الثقافة ليس بمعناه المعرفي ولكن بمعناه السوسيولوجي الانطربولوجي.

ويعد القصر في الـواقع شجرة نسبية يتحكم في بنائه وتـوزيع السكن داخله نظـام يحاول الحفـاظ على الرابطـة الـدمـوية للمجمـوعـات التي تتعـايش داخله.(210) ولهذا السبب – على ما نعتقد – ينشطر القصر إلى مجموعة من النطاقات الخاصة بكل سلالة. وتتسع هذه النطاقات وتضيق حسب النفوذ المادي والمعنوي لكـل أسرة أو سلالة، وهـذا التمايز لم يكن يطبـع القصور لوحـدها بل نجد مـا يقابله في تملك الأراضي الـزراعية وحصص الماء، حيث يخضع تقسيم القطع الـزراعية وحصص الماء لنفس الترتيب المميـز للفئات الاجتماعية داخل القصر بل وحسب حوماته.(211) وهذا فعلا ما نستشفه من الوثيقة الخاصـة بواحة تيلوين، فقد جاء فيهـا: «وأما الثلثان منه – أي القصر – لأولاد بشح(212) والثلث الباقي لبني محفوظ».(213)

يذهب J. Hensens(214) أن للوظيفة الدفاعية(215) دور أساسي في توجيه شكل البنـاء في القصور الـواحية، بينما تـأتي الظروف المنـاخية في المرتبـة الثانية. إلا أنـه ونحن ننطلق من قصر سيدي أبو عبد اللـه كنموذج نجد أن العـاملين معـا كـانا يشغـلان بـال سـاكني هـذا القصر، وتحكما في النمط المعماري. فـدأب البناؤون على إعـادة قـواسمه المشتركـة بشكل رتيب منـذ قرون عديدة. كما لا يمكن كذلك أن نغفل عنصر وسائل البناء في هذه البيئة الشبه صحراوية التي يشكل فيها خشب النخيل والطين المادتين الأساسيتين في البناء.

إن الطـرق والأزقـة داخل القصر تتسع وتضيـق حسب الـوظيفـة التي تؤديها، فالطرق الرئيسية أكثر اتساعا وتستجيب لضروريات التنقل السهل

---

210) pascon (P) : types d'habitats et problème d'amènagement du territoire du Maroc, in R.G.M n° 13 1960. pp 85-101.

211) Pascon (P) : ibidem.

212) هم فرقة من عرب الصباح المعقليين بواحة تيلوين.

213) هم من فئة الحراطين بنفس الواحة.

214) Hensens (J) : habitat rurale. op cit. p 91.

215) Martin (A.G.P) : precis de sociologie nord Africain (les Oasis sahariennes) 2eme partie 1980 p 39.

للراجلين والدواب بأحمالها خصوصا منها الطرق التي تربط الأحياء بالمرافق العمومية كالساحات والرحاب والمعصرة والطريق الموصلة إلى المسجد أو إلى المسالك الموصلة إلى الغابة إلخ... وهناك أزقة غير نافذة وهي عبارة عن دروب تنفتح إليها أبواب مجموعة من الدور التي كثيرا ما ينتمي سكانها لأسرة واحدة.(216) فتتخذ مجموعة من هذه الدروب أبوابا تغلق مساءا فيما يشبه أحياءا عائلية صغيرة.

ونظرا لطبيعة الإقتصاد السائد آنذاك والمعتمد أساسا على الحاجيات الضرورية من المأكل والملبس والذي ترتكز قاعدته المعيشية على الغذاء النباتي، فإن ما كان يستغنى عنه من فضالات ونفايات قليل جدا، وكل ما يمكن طرحه من بقايا المواد الغذائية المستهلكة يعطى للماشية والدواجن التي تشغل حيزا بالروى بأسفل الدار. فهذه الحياة المعيشية البسيطة ليس من شأنها أن تخلق أزبالا في الطرقات وهو المشكل الذي تعاني منه في الوقت الحاضر العديد من المنشآة السكنية بما في ذلك الحضرية منها والمتوفرة على الأجهزة البلدية القائمة بهذه الشؤون.

ففي هذه البيئة شبه الصحراوية ذات المناخ القاسي ليس من وسيلة لاتقاء لفح الشمس داخل القصر إلا تحت هذه الأزقة المسقوفة. وليس من مهرب من نور الإشعاع الشمسي القوي صيفا إلا اللجوء إلى حجرات الطابق الأرضي الأكثر ظلمة وبرودة.

فالشكل العام للدار والأزقة نتاج للوسط الطبيعي، حرص البناؤون المحليون منذ القديم على التكيف معه. والمدغري ذو خبرة واسعة توارثها منذ أجيال، فهو يعرف كيف يدعم ويشيد أسس منازل ذات ارتفاع متوسط قاومت عوامل الطبيعة المضادة كالوزابع الرملية والأمطار الطوفانية فلم تؤثر في الشكل العام لكثير منها رغم كونها مبنية من طوب وطين.(217) ورغم بساطة وبدائية الأدوات المستعملة في البناء فقد حاول الإنسان

---

216) pons : l'habitat de Figuig-Revue Marocaine 1931 p 80.

217) أحمد مزيان، فجيج، ص 59 بتصرف.

المدغري أن يبني القبب والأقواس من الطوب الطيني في أشكال تنم عن ذوق فني محترم. وهذا يعني أنــه إذا كانت هناك عوامل شتى قــد دفعت إلى بناء هذه القصور الكثيرة بشكل أو بــآخر، فإن ثمة أسبابا أخــرى قد تدخلت في طريقة تزيينها وزخرفتها باعتبارها مؤسسة تجمع في طياتها الطابع الديني والمدني والعسكــري. وكلهــا عــوامل مــرتبطـــة قبل كل شيء بــواقع الحيــاة الاجتماعية وبظروف المنطقة وبترسبات أحقاب تاريخية متراكمة.(218) وهي على هذا الأســاس - أي المباني التقليديــة - استمرار لما كان عليــه السلوك الاجتماعي والمعماري في العصور السابقة.

---

218) لحسن تاوشيخت : العمارة العلـوية خلال عهـد مولاي إسماعيل، جامعــة مولاي علي الشريف الخريفية الدورة الثانية مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني سنة 1990 ص 791.

الباب الثاني :

الفصل الثالث :

مقدمـــة :

- مراحل التشكيل البشري لمدغرة في التاريخ العام
- العناصر السوداء (الحراطين)
- العناصر البربرية
- اليهود
- عرب بني معقل

الباب الثاني :

الفصل الثالث :

البنية البشرية لمدغرة

مقدمـــــــة :

سبق أن أشرنـا في الفصل السابق، أن منطقـة مـدغرة لم تعـرف ثباتـا بشريا أو استمـرار سيادة إثنية بشريـة واحدة. بل إن المنطقة طـوال مراحل التاريخ ظلت منطقة عبور، مما جعل منهـا همزة وصل وقاعدة مرور لعدد من المجموعات البشرية المختلفة الأصول والمواطن.

إلا أن كون مدغرة منطقة مفتوحة الأبواب عبر مجموعة من الممرات سبق أن أشرنا إليهـا،(1) جعل منهـا معبرا لعـدة إثنيـات بشريـة بأنشطتهم الاقتصادية وإرثهم الحضاري. ويتجلى ذلك في البصمات القوية التي تركتها هذه الإثنيات سـواء أكانت مغربية أو صحراوية محضـة، نازحة من وسط القارة أو عربية مشرقية على شرائح عريضـة من سكان مدغرة. وما انطوى عليـه هذا المجتمع من عـادات وتقـاليـد مختلفة الأصـول، والتي لم تتمكن عوامل الـذوبان والإدمـاج من تجريدها من خصـوصياتها المتميـزة على مر العصـور والأزمان. ممـا يعني أن التشكيل الديمغـرافي لمنطقة مـدغرة كـان يتجدد باستمـرار تبعا لتطور المعطيات السياسية والاقتصـادية والاجتماعية بصفـة عامـة، وتشهد على ذلك أسماء القصـور والأمـاكن التي هي بمثابـة بصمات أقدام الإثنيات البشرية المتعددة التي تعاقبت على الاستقرار بمنطقة مدغـرة. فما هي ياتـرى المراحل الكبرى للتشكيل البشري في التاريـخ العام لمدغرة ؟ وكيف اتسمت طبيعة البنية البشرية لمدغرة خلال المرحلة المدروسة؟

---

1) انظر الباب الثاني الفصل الأول، ص : 155 وما بعدها.

مراحل التشكيل البشري لمدغرة في التاريخ العام :

تعتبر مدغرة من أقدم مراكز الاستقرار البشري بالجنوب الشرقي المغربي، بفضل ما توفر لها من ظروف بيئية ساعدت على قيام حضارة عمرانية على ضفاف وادي زيز. وقد كانت هذه الحضارة ترتكز على الفلاحة والأعمال التجارية. وتدل كل الشواهد والتطورات التاريخية على أن معظم سكان مدغرة تحولوا إلى حياة الاستقرار، حيث كانوا يمارسون الزراعة وبعض الأعمال التجارية. سيما وأن المنطقة كانت تتوفر على بعض الأسواق المحلية، وكانت أيضا ممرا إجباريا للقوافل التجارية. حيث ظهرت مجموعة من القصور كتجمعات سكنية على طول الوادي. في حين ظلت مجموعة قبائل الرحل تمارس الرعي والتنقل وسكنى الخيام في الأطراف الشرقية والغربية والشمالية لمدغرة، قبل أن يتحولوا في أغلبهم بدورهم إلى الاستيطان والاستقرار بالقصور داخل مدغرة. وقد ظلت هذه الثنائية من حيث نمط العيش قائمة منذ العصور القديمة حتى الوقت الحاضر.

ولما كانت حياة الاستقرار داخل مدغرة. تتعرض لهزات عنيفة خلال فترات عديدة من تاريخ المنطقة. حيث كانت قبائل الرحل الصحراوية والجبلية تهاجم الواحات المتناثرة على طول أودية الجنوب، من كَير إلى درعة خاصة أثناء عمليات الدفع الكبرى لهذه القبائل نحو الشمال ونحو الجنوب. تحت تأثير ظروف تتوزع ما بين المناخية والسياسية والاقتصادية وأحيانا الاجتماعية. فإن حياة الاستقرار كانت معرضة باستمرار للإضطراب وبالتالي التجدد. وهي على العموم ظاهرة كانت تتكرر خلال فترات معلومة من المسيرة التاريخية الكبرى للمغرب عامة، وحوض وادي زيز بوجه خاص.

صحيح أنه كان لعامل الفيضان ودورات الجفاف، وهجومات القبائل بالغ الأثر في ضياع التراث المكتوب لمدغرة. فضلا عن تقصير أهلها في كتابة تاريخهم، على غرار ما لاحظه الأستاذ جرمان عياش بالنسبة لباقي سكان المغرب.(2) الأمر الذي جعل الرصيد المعرفي التاريخي ضئيلا جدا، خاصة

---

2) جرمان عياش : دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، البيضاء مطبعة النجاح الجديدة 1986، ص 71.

عندما يتعلق الأمر بمحاولة التعرف على المجموعات القبلية والبشرية بصورة عـامـة، التـي تعـاقبت على سكنى وتعمير مـدغـرة. ومعلـوم أن التشكيل الديمغـرافي لمناطق المغرب بصفة عـامة من المسائل التي مـازالت تطرح على المؤرخ بحدة، خـاصة إذا علمنـا أن الإلمام بمثل هذه المعطيـات والتمكن من الوصـول إلى فرزهـا، يساعـد لا محالة على فهم وتتبع عـدد من الظـواهر التاريخية التي مازال الغموض يكتنفها.

إن مـا استطعنا جمعـه من مادة علميـة فقير كل الفقر في هـذا الجانب. فقليل هي المصادر والمراجع التي تذكر أسماء المجمـوعات البشرية والقبلية، وإن كان هذا لا يقع إلا عندما تتطرق إلى وفاة عالم أو مسقط رأسه. وحتى إن أوردت اسم مجموعة بشرية أو قبيلة فإنها لا تـوطنها جغرافيا ولا تذكر بالتالي حدودها ولا مجال نفوذها. كما لا يتأتى ذكر قبيلة أو فرع من قبيلة إلا في إطار أحداث سيـاسية أو أزمات اقتصاديـة أو هزات اجتماعية، أو في إطار وصف لرحالة مر بمنطقة ما. وهذه الظاهرة لاتخص فترة دون أخرى، بل تمتد لتشمل جميع مـراحل التاريخ المغـربي. إلا أن هذا النقص الكبير في المعلومات الخاص بمسألة التعمير، قـد يصبح متجاوزا وذلك بالاعتماد على الشواهد التي مازالت قائمة بمدغرة. ويتعلق الأمر بالأسماء الأماكنية les mots toponimiques. وتشمل على الخصوص أسماء القصور سواء المندرسة منها أو التي مـازالت قائمـة، إما كشـواهد مهجـورة أو مسكونـة. وأسماء الحقول والمزارع بالغابة وكذلك أسماء الشعاب والممـرات والمدافن القديمة، وما تراكم من آثار في مختلف مناطق الواحـة من أسماء الأماكن وأشكال البناء وأدوات الإستعمال اليومي لـلأغراض المنزلية وطـرق الري. وما تـرسب من عادات وتقاليـد لا سيما المقامة في احتفـالات المواسم. وهذه الشواهـد تعتبر سجلا أمينا لمادة علميـة هامـة بالنسبـة لدراسـة تاريخ المنطقـة. وتساهـم إذا ما تكاملت لها الأدوات العلمية والمنهجية للتحليل والتأويل وفك الألغاز للكشف عن ماضي مـدغرة. كما تسـاعد على إتمام المعلـومات التي جـادت بها علينا المصادر المكتوبـة، لا سيما وأن الكثير من هذه الشواهـد مازال محافظا على خصـوصيـاتـه التي لم يطرأ عليهـا أي تغيير، كما أنها تحمل في ثنـايـاهـا بصمات عديدة للمجمـوعات البشرية التي تعاقبت على سكنى مـدغرة، وهذا

من شأنه أن يبين بوضوح كبير أصل التأثيرات التي تلقتها مدغرة من هذه الجهة أو تلك. هذا وإن كانت هذه الشواهد على أهميتها لا تسمح أحيانا بتفسير بعض الحلقات من تاريخ مدغرة، علاوة على أنها لا تمكن الدارس من الخروج بنتائج قاطعة وجزمية عن بعض المجموعات التي عاشت أو تعايشت بمدغرة، وعن التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية للمنطقة.(3)

إن موقع المنطقة المتميز والحساس جعل منها معبرا ضروريا لكل القبائل المتنقلة من مختلف الجهات المحيطة بها. الشيء الذي يستلزم استعراض كل قبيلة على حدة أمر ضروري وواجب. وذلك بغية فهم واقع الحياة البشرية بالمنطقة، وأدى تحرك هذه المجموعات البشرية إلى خلق وضعية بشرية معينة كانت قابلة للتغير والتحول، مما يعني أن الاستقرار بها كان مرهونا من جهة بقوة السلطات القائمة ومدى تمكنها من تثبيت معطيات غالبا ما تكون في صالح التوازن السياسي، المرتبط في إحدى زواياه بالاستقرار وثبات البنية البشرية. ومن جهة أخرى بقوة هذا القبيل وضعف ذاك. الشيء الذي كان يؤثر بشكل فعال في ثبات أو تحول القاعدة البشرية لمنطقة مدغرة.

إن استعراض تاريخ تعمير منطقة مدغرة يبين بجلاء تام أن هذه الأخيرة استقطبت شرائح إثنية مختلفة، منها من تحرك نحو الاستقرار بحكم شهرتها بالزراعة والري. وتسعى إلى تثبيت الملكية والتشييد والبناء كقبيلة مدغرة الزناتية وبعض العناصر الصنهاجية وبعض بطون المعقل والأشراف العلويين. وتلك تدعو إلى التنقل والحركة الدائبة المرتبطة بطبيعتها وبمعطيات أخرى تلتصق بالبيئة والمناخ. بحكم اعتماد هذه المجموعة الأخيرة على الرعي وتربية الماشية في فترات الاستقرار السياسي والمناخي وبالسلب والنهب وقطع السبل خلال دورات الجفاف، وأيضا خلال فترات الفوضى والفراغ السلطوي. مما يجعلها تضطر إلى عدم الاستقرار والارتباط بالمواطن وبالتالي عدم التشبث بملكية الأرض، وتشارك في عمليات الدفع الكبرى.

---

3) أحمد البوزيدي : درعة 1، م. س، ص 80. بتصرف.

وتصدق هـذه الحالة على مجموع القبـائل التي استمرت تغير على مـدغرة، سواء أكانت بربرية صنهاجية أو عربية معقلية.

إن كل هذه المجموعات سواء تعلق الأمر بالعناصر السوداء على اختلاف شرائحها أو البربرية أو العربيـة ومن انضاف إلى ذلك من أقليات أخرى، قد أثـرت وتأثـرت بحقل الدراسـة طـوال مراحـل استقرارهـا أو تجوالها عبر مجالات مـدغـرة. إذ نجد بصماتها واضحـة على البنيـة المجتمعيـة لمختلف قصـور مدغـرة وعمـران القصر السكني. وأيضا حتى على مستـوى التراث الشعبي الشفوي. والأكيد أن المنطقة عرفت استمرار الوجود البشري على مر مراحل التاريخ عكس ما نصـادفه في مناطق مغربية أخرى.

وقد استمر التركيـب السكاني لإقليم مدغرة على هذه الحالـة من التنوع والتعـدد، ممـا جعل ساكنتهـا خـلال المرحلـة المدروسة - مـرحلـة العصر الحديث - خليطا هائلا من حيث أصول المجموعات البشرية. منها من دخلها في مـراحل تاريخيـة يصعب تحديدهـا بـدقة، ومنهـا من استقر بها خـلال المراحل الأولى والوسطى للعصر الإسلامي، ومنها مـن تزامن زحفه إليها مع مطلع العصور الحديثة، وأخيرا منها من استقـر بها بعد هذه المرحلة. ومما يقيم الدليل على استمرار هذا التنوع خلال مرحلة العصر الحديث، أن سكان قصور مدغرة ينتظمون في هذه القصور السكنية عبر تنظيم اجتماعي معقد. بحيث نجد في أسفل الهرم الاجتماعي على مستـوى القصر الواحـد العناصر الملونة (المحرضنة) جمع «أحـرضان» حسب النطق البربري، وهي العناصر التي اعتـاد العرف الجنـوبي المغـربي أن يطلق عليهم إسم «الحراطين». ثم هناك العوام الذين يصطلح عليهم محليـا بمدغرة بإسم «الأحرار»، وهم على العموم العناصر المنحدرة من أصول بـربرية وعربية معقلية.(4) ثم نجد في قمـة الهرم الإجتماعي الشرفـاء. وهكـذا يمكن أن نميز في منطقـة مـدغـرة العناصر الآتية، وهو تقسيم مبني على أساس إثني :

1 - العناصر السوداء (الحراطين).

2 - العناصر البربرية.

3 - اليهود.

---

4) Mezzine (L) : tafilalet, op cit, p 269.

4 – العناصر العربية المعقلية.
5 – الشرفاء.

العناصر السوداء (الحراطين) :

شكلت العناصر السوداء نسبة مهمة من سكان المناطق الجنوبية المغربية بصفة عامة منذ فترة مبكرة من التاريخ. وقد كانت هذه العناصر تستوطن الأطراف الشمالية الغربية من الصحراء الكبرى الحالية. ويذهب أحد الباحثين أن هذه المجموعات البشرية قد نزحت من الصحراء بعدما داهمها الجفاف على إثر التحولات المناخية التي عرفتها الصحراء.(5) وإذا كنا لا نعلم بالضبط التاريخ الذي بدأت فيه أولى الموجات البشرية السوداء تنزح نحو هذا المجال، فإن جهلنا كان أكبر بخصوص نمط عيش هذه الأقوام. هل تلمسوا طريقهم نحو الاستقرار أم ظلوا رحالة منتجعين؟

إن كينونة مدغرة كممر طبيعي وتاريخي للهجرات البشرية الكبرى يصل ما بين الصحراء في الجنوب والمناطق الجبلية في الشمال، سمح بوصول مجموعات بشرية متعددة إلى واحات زيز، وقد كان ضعف الحواجز الطبيعية بين مدغرة والصحراء عاملا سهل الإتصال بين المنطقتين. ومن غير المستبعد أن تكون أعداد المهاجرين من الصحراء تفوق بكثير أعداد المهاجرين من المناطق الشمالية.

يعتقد سطفان كَزيل Stephan gsel أن الحاشية الشمالية من الصحراء كانت حتى القرون الأولى للميلاد تمثل الحد الفاصل بين السكان ذوي البشرة البيضاء وبين الإثيوبيين، الذين يرجع إليهم الفضل في تأسيس الواحات وتوسيع حقولها على طول الأودية التي تجري بالمناطق الشبه الصحراوية والصحراوية، بفعل تعاطيهم لغراسة النخيل واستغلال المياه. وإلى هؤلاء السود أو الاثيوبيين ينتسب البيروسيون الذين كانوا يستوطنون جنوب المغرب والنيكريطيس: السود المستوطنون جنوب الجزائر.(6) ويستطرد قائلا استنادا على المؤرخين اليونانيين واللاتينيين أمثال بلين وسترابون، أن

---

5) أحمد البوزيدي : التاريخ الاجتماعي لدرعة م. س، ص 81.

6) gsel (stephan) : Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. T V p 7, paris 1921.

السانسكريتيين يجب البحث عنهم في وادي درعـة إلى الشرق أكثر في منطقة زيز ووادي كَير ووادي زوزفـانة. ويضيف بأن هـؤلاء الإثيوبيين المنتشرين بالصحراء لا نعرف متى وكيف طردوا نحو الجنوب من طرف البربر، الذين انتشرت قبائلهم في كل الصحراء فيما بعد.(7)

ويبـدو أن هؤلاء الإثيـوبيين من السود كـانوا يشكلـون أهم مجموعـة سلاليـة في عصور ما قبل الإسلام بـواحات الجنوب المغـربي. فقد أحصى أحد المؤرخين حـوالي 1000 نص وإشـارة تاريخيـة قديمـة تعود إلى الفترة الممتدة من القرن 5 ق.م إلى الفترة البيزنطيـة، تشير كلها إلى انتشـار هؤلاء الإثيوبيين بالجنوب المغربي.(8) ويرى كاركوبيو أن حدود مواطن السود قد تـراجعت خارج حـدود المغرب إلى مـا وراء خليج أرغين Arguin، ويعلل ذلك بسبب الضغط الذي أحدثه السكان البيض (الجمالة) لما طرد الرومان البربر خلال القرن 2 ق.م.(9) مما مكن هؤلاء البيض مـن الانتشار بكل الصحراء حتى السودان.(10)

ومن المسلم به حاليا أن كلمـة الإثيوبيين لا تعني السكان السود، وإنما هي دلالـة على السكان ذوي البشرة المحـروقـة. لذلك فإن محاولـة تفسير تاريخ المنطقة الشبـه الصحراوية والصحراوية، على أسـاس فرضية الصراع بين السود والبيض كما يقول بـذلك كَزيل(11) تبدو في رأي أحـد الباحثين المحدثين نظرية هشة مادامت لا تتوفر على حجج تاريخية ثابتة.(12)

لقد شهد تـاريخ القبائل والأقوام التي كانت تستوطن قـديما بالصحراء وحوافيها، تـوازنا في أنماط العيش بين السكان المستقريـن في الواحات وبين الرحل الذين كانوا يجوبون كل المنطقة. الشيء الذي يُـبْـقِـي مسألة تسطير

7) gsel (S) : H.A.A.N, op cit ,t 1 p 247.

8) camps (G) : rechèrches sur les origines des cultivateurs noirs du sahara. R.O.M.M, t 3 n° 7, 1 trimestre 1970 pp. 35-45.

9) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية. م. س، ج 1، ص 219.

10) carcopinot : le Maroc Atlantique. p 21, galimard 1948.

11) gsel (S) : H.A.A.N, op cit, t V pp 7-9.

12) العميم محمد : قبائل المغرب وأقوامه خـلال القرنين الأولين للميلاد : د. د. ع التاريخ فاس، ص 93.

حدود ثـابتة بين المنـاطق والجهات التي يشغلهـا الرحل وبين المنـاطق التي يستوطنهـا المستقرون، أمرا في غـاية كبيرة من الصعـوبة.(13) لأن طبيعة المنطقة الشبـه الصحراوية والصحـراوية تفرض على السكـان المزاوجة بين استغـلال الواحـات وبين تـربية الماشيـة وهـذه الأخيرة تفـرض نوعـا من الترحال. وعنـد حواشي الصحراء يستحيل وضع حـدود أنطربولـوجية بين البيض والسـود نظـرا لعامل الاختـلاط الحاصل بين الطـرفين، ممـا يجعل مسألـة تـوطين هـذه المجمـوعـات البشريـة التي وردت عنهـا إشـارات في النصوص التاريخية القـديمة بالصحراء وحواشيها، مسألـة نسبية هذا من جهـة. ومن جهة أخـرى لابد من التـذكير أن كل هـذه الأحكام هي أحكـام قياسية فقط، لأنها استنتاجات الأبحاث التي أجريت جنوب الجزائر وطبقت على جنوب المغرب مما يطبعها بالافتراض القياسي فقط.

لقد كـان لعملية طرد البربـر من قبل الرومان خـلال القرن 2 ق.م من أراضيهم بـالشمال، نحو المنـاطق الصحراويـة حسب ما يفيـدنا بـه شارل أندري جـوليان عـواقب حضاريـة واجتماعية واقتصـادية بعيـدة الأثر على البنيـة الاجتماعيـة للـواحات الجنـوبيـة. فمن جهـة أولى نـلاحظ أن هـذه المجموعات البربـرية جاءت بمؤثـرات حضارية جديـدة، الأمر الذي أدى إلى تلاقح حضـاري جمع بين الحضـارة المتوسطية والصحـراوية ذات السمات الإفريقيـة القحة. ومن جهـة ثانيـة دجن الوافـدون الجدد سكان الـواحات الأولـون وأخضعـوهم لإرادتهم بما في ذلك استغـلال مهـارتهم في الأعمال الزراعية.(14) على أن أهم شيء ينبغي التركيز عليه في هذا الخصوص، هو أن عملية دفع البربـر من الجهة الشرقية إلى الجهـة الغربية بعيـدا عن الهيمنة الـرومانيـة، كان لـه بـالغ الأثر في التركيب السكـاني لمجتمعـات الواحـات الجنوبية بصورة عامة.

إن كل هذه الشـواهد التي سقنـاها تؤكـد على أن العناصر الإثيـوبية أو السـوداء، حسب تعبير هيرودوت ومـن جـاء بعـده من الأجـانب وتبعهم المؤرخون الإغـريق. كانت هي أقـدم مجموعـة بشرية استقـرت بالـواحات

---

13) camps (G) : Massinissat et le debut de l'histoire, op cit, p 153 et suite.

14) شارل أندري جوليان؛ تاريخ افريقيا الشمالية، م. س، ج 1، ص 219.

الجنوبية المغربية بصفة عامة وواحات زيز بوجه التخصيص. وتشهد على ذلك الأحداث والتطورات التي عرفها إقليم سجلماسة. فقد كان العنصر الأسود مكثف الوجود خلال النصف الأول من القرن 2هـ أثناء قيام الإمارة الخارجية الصفرية بسجلماسة. فقد أفادنا البكري أن أول من ولي على سجلماسة هو عيسى بن يزيد الأسود، ولا يمكن أن يفهم اختيار عيسى بن يزيد الأسود لقيادة الحركة الخارجية الصفرية بسجلماسة إلا في إطار ثقل العنصر الأسود بهذه المناطق. وبالتالي تشكيله للسواد الأعظم لمجتمع تافيلالت على الأقل خلال مرحلة القرن 2هـ.(15) ومعلوم أن عيسى بن يزيد الأسود كان يلقب بسمكَو، وسمغو في الاصطلاح اللغوي البربري يعني الأكحل. وهذا من شأنه أن يدفع إلى الاعتقاد أن السلطان الأكحل الذي تحدثت عنه النصوص القديمة، قد يكون المقصود به – افتراضا – عيسى ابن يزيد الأسود الملقب بسمغو. وهذا يعني أن هذا الأخير كان زعيما للعصبية السوداء بسجلماسة. مما أهله ليصبح أول زعيم وحاكم للإمارة الخارجية الصفرية. ومن شأنه هذا أن يستنهض الدليل على أهمية العنصر الأسود بهذه الجهة خلال هذه المرحلة الزمنية. فقد ذكر الاصطخري أن العناصر السوداء كانت تتواجد بكثرة في المناطق الصحراوية والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها، وصنف سكان بلاد المغرب حسب لون بشرتهم بناءا على أثر الظروف الطبيعية في ذلك. قال: «وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوه سمرة، وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والشرق ازدادوا سوادا. حتى ينتهوا إلى بلاد السودان، فيكون الناس بها أشد الأمم سودة».(16) ونفس هذه الملاحظة أبداها الإدريسي، إذ ذكر هذا الأخير أن شدة الحر وإحراق الشمس جعل ألوان سكان الصحراء سوداء وشعورهم متفلفلة، كما أن النصوص القديمة كانت تنعت سكان الجنوب عامة ببني السوداء.

إن كلمة السود التي وردت في المصادر تطلق بكل مناطق جنوب المغرب على عنصرين مختلفين هما: العبيد والحراطين. فإذا كان العبيد قد جلبوا عبر

15) محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، م. س، ص ص : 216 ـ 217.

16) الاصطخري : المسالك والممالك، ص 36 القاهرة 1961.

التجارة الصحراوية، فإن الحراطين هم سلالة العناصر التي شغلت مجالات الصحراء منذ فترة مبكرة من التاريخ.(17) وكتب ماك كوك في هذا الموضوع قائلا: «يعتبر بعض الكتاب أن الحراطين منحدرون من العبيد السودانيين الذين جلبهم البربر، وإذا كان ذلك حقا فربما كانوا غير موجودين في القرن 8م/2هـ أو كان عددهم قليلا جدا. وهناك آخرون يعتبرونهم من سكان الصحراء السود الأقدمين. ونحن يمكننا أن نقول أن هذه الجماعة ليست من أعقاب العبيد الذين أتى بهم البرابرة، بل إنها كانت موجودة في ذلك العهد. وعلى هذا يمكن أن ينتسب عيسى بن يزيد الأسود إلى هذه الجماعة».(18) ورغم أهمية هذه الشهادة فإن ماك كوك لم ينتبه إلى أن هناك حراطين بيض، على اعتبار أن مفهوم الحرطاني لا يرتبط فقط بلون بشرته. بل إن الظروف والمراحل الزمنية لعبت دورا في تغيير مفهوم الحرطاني، ليس حسب اللون فقط ولكن أيضا حسب الوضعية الاجتماعية والوظيفية.

لقد شغلت مسألة العناصر السوداء «الحراطين» المغرب بمختلف شرائحه واتخذ الناس منها مواقف متباينة. غير أن محاولة التاريخ لهذه الجماعة تصطدم بصعوبات متعددة يأتي في مقدمتها ندرة المادة العلمية وعمومية المتوفر منها. فإلى حدود اليوم – حسب علمنا – لا نتوفر على دراسة دقيقة عن تاريخ هذه الشريحة الاجتماعية، وكل ما هو موجود في الموضوع بعض الاجتهادات ووجهات النظر قدمت من قبل الدارسين الأجانب في شتى الاختصاصات. مما جعلها مجالا للإفتراضات والتأويلات وهو ما يمكن أن نحصره في أطروحتين:

– فحسب البعض ينحدر الحراطين من العبيد السودانيين الذين جلبوا إلى شمال الصحراء بواسطة التجارة القوافلية، فهم إذا أحرار من الدرجة الثانية، كما يبين ذلك جذع الكلمة في اللغة العربية.(19) إلا أن هذا الطرح ضعيف الحجج وغير مقنع لأنه اختار الطريق السهل واتخذ من مواقع استقرار الحراطين القريب من السودان نسبيا، وتشابههم الفيزيولوجي

---

17) de la chappelle : Esquice d'une histoire du sahara occidentale. H.T. vol XI 1930. p 39.

18) ماك كوك : الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، البيضاء 1395 هـ ص 18.

19) camps (G) : rechèrches sur les origines des cultuvateurs noirs. op cit, pp 38.

مـع الـزنـوج وتـدني وضعهـم الاجتمـاعي ليقـول بـالأصل العبـودي للحراطـيـن.(20)

– أما الرأي الآخر فإن أصحابـه أكثر عددا وأدمغ حججا، فهم ينطلقون من اعتقـاد مفاده أن الصحـراء كانت عـامـرة بالسـاكنة السـوداء. وبتغير المعطيات الجيومنـاخية لهذا المجال تحولت الساكنة السوداء بـالتدريج نحو نوع من القنانة المقنعة بواسطـة السكان البيض الرحل الخيالة ثم الجمالين. ويـرتكز هـذا الطـرح على الكتابـات الـلاتينية والإغـريقيـة التي تتكلم عن الإثيـوبيين بـالمنـاطق التي يستعمل بها لفظ حـراطين. ولـذلك اعتقـدوا أن الحراطين هم بقـايـا الإثيـوبيين القـدامـى، فهم من بين أقـدم المجمـوعـات السكـانية للـواحـات إلى جـانب العناصر البيضـاء.(21) ويـرجع مصطلح الإثيوبيين إلى اللغة الإغريقية وتعني الوجوه المحروقة. ورغم أن هذا الاسم كـان يطلق أحيانـا على الزنـوج. إلا أن الأوصاف التي تحتـوي عليها هـذه الكتابات، تظهر أن الإثيوبيين ذوي البشرة السـوداء ليسوا زنوجا على الأقل من حيث البنية الفيزيولوجية.(22) إذ لاحظ طيراس مجمـوعة من الفـروق بين التكوين الفيـزيولـوجي للعبيد والحراطين،(23) كما ينتقـد كـامبس من جهته الرأي الذي يـرجع الحراطين إلى أصل زنجي سوداني، معتمدا في ذلك على غياب العلائق اللسـانية بين الحراطين واللغات المتداولـة بنطاق الساحل السوداني.(24)

إن أقـوى الآراء هي التي تعتبر الحراطين من بين أقدم سكـان الواحـات الصحراويـة، انحدروا عن الإثيـوبيين وامتزجـوا عبر تاريخ طويـل مع عدة

(20 lucette valensi : la toure de babel; groupes et relations éthniques au moyen orient et en Afrique du Nord. annales économiques et societes. 41 annee n° 4 Juillet - Aoüt 1986 pp 817-838.

(21 Montagne (R) : les bèrbères et le Makhzen dans le sud du Maroc paris. 1930, p 128.

– وذلك بالاعتماد على ما ذكره أحد الباحثين.

انظر : محمد المهناوي : التنظيم العسكري وعلاقته بالمجتمع، م. س، ص ص 109 ـ 121.

(22 colin (G.S) : Encyclopedie de l'islam. edition 1975 t III - Mot Hartin - pp 237-238.

(23 Terrasse (H) : Histoire du Maroc des origines à letablissement du protectorat Français. casablanca 1950 t II p 20.

(24 camps (G) : recherches sur les origines : ibidem.

عناصر أخرى.(25) كالوبيين البيض(26) والسودانيين،(27) غير أن الاختلاف الإثني حول أصل الحراطين لا يمنع من إجماع الكل حول الأصول السوسيو اقتصادية للحراطين. فهم مجموعة من المزارعين خضعوا لقنانة خاصة بواسطة البربر منذ نهاية العصر النيوليتيكي.(28) ثم الفتح العربي الإسلامي خلال العصر الوسيط.(29) وقد ظلت مختلف مناطق واحات الجنوب المغربي بصورة عامة طوال مراحل التاريخ مجالا تعايشت فيه العناصر البيضاء والسوداء جنبا إلى جنب. من هنا لا مجال للإستئناس بآراء أولائك الذين يعتبرون أن العنصر الأبيض كان دخيلا ليس فقط على حاشية الصحراء الشمالية فحسب، ولكن بكل تراب القارة الإفريقية.(29م) وما يشهد على التعايش الذي كان بين هاتين الإثنيتين، أن الحفريات التي أجريت بشمال وغرب المغرب - بالدار البيضاء - وتازة والرباط - أثبتت أن العناصر البيضاء كانت موجودة قبل 120 ألف سنة ق.م، هذا وإن كنا لا نعلم أيهما أسبق.

ومهما كانت الأبحاث المنجزة في هذا السياق يمكن أن نطرح السؤالين التاليين: هل العناصر السوداء أو الحراطين في الجنوب المغربي يمثلون بقايا العناصر السوداء القديمة في المنطقة؟ أم هم عناصر مجلوبة إلى المنطقة مع حركة القوافل التجارية العابرة نحو إفريقيا جنوب الصحراء ؟ أو هم عبارة عن خليط سلالي آخر يختلف عن السلالة الزنجية الإفريقية؟ وعلى كل حال فإن العناصر السوداء أو الحراطين على الأصح يعتبرون حقيقة عنصرا سكانيا محليا في المنطقة، فهم في حقيقة وقرارات أنفسهم ليسوا زنوجا أفارقة. وإنما هم عناصر سكانية يمتازون بواقعهم الحضاري المشترك والممتزج بالعناصر البيضاء، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات في

---

25) Valensi (L) : ibidem.

26) Meunie (D.J) : le Maroc saharien. op cit, t 1 pp 159-167.

27) Montagne (R) : les berberes. op cit, p 25.

28 _ 29) Valensi (L) : ibidem.

29م) من باب التذكير نشير فقط أن من أبرز الرواد المدافعين عن هذه الفكرة هو الرئيس الأسبق لجمهورية السنيغال ليوبور صيدان سانغور. حسب ما أفادنا الأستاذ الدكتور مولاي هاشم العلوي القاسمي.

النظـام الاجتماعي الشمـولي. رغم الاختلافـات التي قـد تميـزهم أو تحدد طبيعتهم الاجتماعية حسب التراتب الاجتماعـي الذي كونـه التاريخ المشترك في المنطقة.

إن تتبع البنية الاجتماعيـة لمنطقة مدغـرة تدفع الباحث إلى طـرح سؤال يتعلق بالمرحلة الـزمنية التي برزت فيه هـذه الفئة كشريحة اجتماعية داخل منظومة مجتمع القصور بمدغرة، ودفعتنـا إلى إفرادها بالدراسة. صحيح أن هؤلاء كانـوا موجودين بالمنطقة بحكم العـلائق بين التابعين والمتبوعين، غير أن الأكيـد أن مـرحلة نفـوذ الأشراف التي بـدأت عمليـا منذ نهايـة القـرن 11هـ/ 17م هي التي قوت من عددهم. نظـرا لحاجتهم إلى خدمة هذا العنصر في الأرض والبيوتات.

لقد شكل الحراطين فئة اجتماعية سجلت حضـورا مكثفا داخل الواحات الجنوبية للمغـرب، إذ لا توجد أية واحة من واحـات الجنوب المغربي تغيب عنها هـذه المجموعـة البشرية. ممـا يستنهض الدليل على أنها حـافظت على استمرار وجودها منذ مراحل تاريخيـة غابرة حتى الوقت الحاضر. وبواحة مدغرة لا تغيب هذه الإثنية عن أي قصر مـن قصورها، حيث استمرت هذه المجموعة تشكل نسبة مهمة في مجتمع القصور المدغرية.

ورغم المشاكل التي يمكن أن يطـرحها تقدير عـدد السكان في منطقة لم تحظى بأي اهتمام من قبل المؤرخين. إلا أن الأكيـد أن الإثنيـة الحرطانيـة سجلت حضورا مستمرا، مع ما يعرفـه هذا الاستمرار من تذبذب من حيث أعدادها حسب المراحل الزمنية، وحسب حجم وأهمية القصور التي تواجدت بها. وقد سبق أن أوضحنا أن مرحلة نفوذ الأشراف كانت هي المرحلة التي تكاثـرت فيها المجموعة الحرطـانية. ويظهر ذلك من عدد الكـوانين الخاصة بهم على مستوى كل قصر، وهـذا ما يـدفع الباحث إلى الاعتقـاد أنها كانت تمثل نصف عدد سكان القصور بمدغـرة في المتوسط العام. مما قد يفيد في الكشف عن نموهم المتزايد داخل المنطقة. وأدى هـذا النمو المتزايد للحراطين ليس فقط إلى الحضور بكل قصـور مدغرة، بل إلى الاستقلال بأحـد المعالم الطـوبنيمية بها، فقـد شغلت المجموعـة الحرطـانية قصرا بـرمته، وفي هـذا الخصوص نتـوفر على معلمـة طوبنيميـة بمدغرة العليـا تحمل إسم «قصر

الحراطين»، وكان هذا القصر يعرف بقصر السوق وحاليا يعرف بقصر أزرو، ويوجد حاليا جنوب سد الحسن الداخل قرب قصر تيغيورين على الضفة اليمنى لزيز.

لقد سبق أن أوضحنا في الفصل السابق أن القصور بمدغرة تنشطر إلى مجموعة من النطاقات الخاصة بكل سلالة، وتتسع هذه النطاقات وتضيق حسب النفوذ المادي والمعنوي لكل سلالة، مما يعني أن السكن بكل قصور مدغرة كان مطبوعا بنوع من التمايز للفئات الاجتماعية داخل القصر. ويتموضع الحراطين داخل القصر الواحد في الأطراف وداخل القصر ضمن حومات خاصة بهم، وأحيانا يسكنون جنبا إلى جنب مع عناصر الفئات الأخرى بما في ذلك الشرفاء. مما يعني أن القصر ما هو في الواقع إلا شجرة نسبية يتحكم في بنائه وتوزيع السكن داخله نظام يحاول الحفاظ على الرابطة الدموية للمجموعات التي تتعايش داخله. ويذهب بول باسكون أن هذا التمايز لم يكن يطبع القصور لوحدها بل نجد ما يقابله في تملك الأراضي الزراعية وحصص الماء داخل الغابة الذي يخضع لترتيب الفئات الاجتماعية داخل القصر وحسب حوماته.(30) إلا أن ما يجب التأكيد عليه في هذا المقام أن الوضعية الاجتماعية والقانونية للحراطين بمدغرة إذا ما قارناها بما كان سائدا بواحات الجنوب المغربي الأخرى كتوات وتافيلالت والرتب، نجد أن بينهم اختلافا بينا. إذ أن حراطين قصور مدغرة لم يكونوا محرومين من حق الملكية، كما كان الحال في قصر الكَارة مثلا بواحة الرتب. فقد ذكر الأستاذ العربي مزين اعتمادا على أحد شروط اتفاق قصر الكَارة بالرتب، أنه في هذا القصر لم يكن يتمتع بحق الملكية غير الشرفاء وأفراد قبيلة أيت عطة.(31) فقد كان حراطين مدغرة ملاكون للقطع الأرضية وحصص الماء والنخيل. ونتوفر على عدد كبير من الرسوم العدلية سنثبت البعض منها في الملحق الخاص بالوثائق، تؤكد كلها تمتع هذه الفئة الاجتماعية بمنطقة مدغرة بهذا الحق المدني. ولم يكن يحد من قيمة أو حجم

---

30) pascon (P) : types d'habitats. op cit, R.G.M n° 13 1960 pp 85-101.

31) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit, p 139.

الشرط 139.

ملكياتهم العقارية أي قانون عرفي. لكن يلاحظ مع ذلك أن حجم الملكيات العقارية التي كانت بحوزة الحراطين بقي محدودا نسبيا. وهذا يدل بالنظر إلى وضعهم المادي الاقتصادي أن الفئات الأخرى لم تكن تمتاز عليهم في شيء ما عدا نظرة هؤلاء الاستعلائية إزاء الحراطين، التي تقرها الأعراف الجماعية في مجموع واحات الجنوب بوجه عام. وحتى في حالة ارتقاء وضع الحراطين المادي والثقافي إذا ظهر من بينهم «طَلْبَةْ» وفقهاء ومؤذنين ومدرسين بالمساجد، فإن نظرة المجتمع إزاءهم لم تتغير كفئة اجتماعية من الدرجة الثانية. ذلك أن الأعراف المحلية لم تكن تبيح للحرطاني أن يقرر لا سياسيا ولا عسكريا وما عدا ذلك فهو حر. كما كان الحراطين مرغمون على العيش داخل فئة اجتماعية مغلقة من حيث المصاهرة فهم يتزاوجون فيما بينهم، وحتى إذا حصل أن تزوج شريف من حرطانية فإن ما تناسل منهم من أولاد يسميهم المجتمع المحلي «بأولاد الحرطانية». ومع كل هذا فقد كان الحراطين يتبادلون عملية الرضاع مع فئة الأشراف في إطار العلاقات الحميمية التي كانت تطبع سلوكاتهم بهم.

ورغم الأهمية والحضور الفعال في كل قصور مدغرة وما متعتهم به القاعدة الشرعية من حقوق، فقد ظل الحراطين في نظر السكان عناصر حرة دينيا واجتماعيا. بمعنى أنهم تمتعوا بحريتهم المدنية كاملة ولا توجد فيها شائبة رق أو عبودية، وإن كانت تمارس الخدمات الاجتماعية الأخرى مثل حرث الأرض وفلاحتها وخدمة البيوت. وكأنهم تخصصوا أو رهنوا أنفسهم في هذا الاتجاه، ولكنهم في وضعية اجتماعية دونية. فهم نظريا في مرتبة بين «فئة الأحرار» و«فئة العبيد» ولكنهم عمليا لا يختلفون في شيء عن العبيد. هذه الفئة الأخيرة التي نجدها أحيانا تشعر بنوع من العلاقة الحميمية بالفئات الاجتماعية الأخرى أكثر من الحراطين، الذين كانوا باستمرار مهددين اقتصاديا وأمنيا لنسبية ملكياتهم العقارية وفي آن الوقت بلا قبيلة.(32) وهذه الجوانب وغيرها هو ما سنحاول التصدي له بالتحليل خلال تعرضنا للحياة الاجتماعية بمدغرة.

---

32) Valensi (L) : la tour de babel. op cit, pp 829.

العناصر البربرية :

كانت المجموعات البربرية التي هاجرت إلى الجنوب المغربي مع بداية العهد الروماني خلال القرن 2 ق.م غامضة الأصول، لا يعرف شيء عن سلالتها إلا كونها تنتمي إلى عناصر بيضاء. ورغم المراعي الشاسعة التي وجدتها هذه الجماعات بالجنوب، إلا أن أنظارها ظلت مشدودة الرحلة إلى المناطق الشمالية.(33) وهذا ما جعل غالبية هؤلاء المنتقلين إلى المناطق الجنوبية، يحافظون على حياة التنقل والإنتجاع بين هوامش الصحراء ومراعي جبال الأطلس الكبير. وكانت هذه الظاهرة تحيي في نفوسهم الحنين إلى المواطن الشمالية، التي انتقلوا منها تحت تأثير الزحف الروماني. وقد كانت مناطق هوامش الصحراء خارجة عن المناطق التي شملها الحكم الروماني، حيث كان جدار اللمس(34) هو الحد الفاصل بين هاذين المجالين. مما جعل هذه المناطق مجالا مستقلا، تحركت فيه هذه الجموع القبلية التي لم يشملها قانون الرومنة إلا في حدود ضيقة. فالتاريخ لم يسجل لنا سوى محاولة رومانية واحدة لتجاوز جبال «دْرْنْ»، ويتعلق الأمر بحملة ستينيوس بلينيوس التي وجهت ضد قبائل الجيتول سنة 41م.(35)

33) عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب، ص 89 الرباط 1984.

34) حسب الدراسات التي أجريت ومازالت تجرى على اللمس الروماني القديم، فإن منطقة مدغرة لا تقع داخله بل خارجه وبعيدة عنه بمسافة بعيدة جدا. ولهذا لا نستطيع أن نتكلم عن تأثير الرومان بالمنطقة، رغم ما تحاول بعض الدراسات (ماك كوك) أن تزعمه من أن الرومان أثروا في منطقة سجلماسة. وننتظر أن تكشف الأبحاث الأثرية الجارية بسجلماسة عن تأثير الرومان في المنطقة. وإلى الآن فالتأثير الروماني لم نلاحظه لا في التراث الشعبي الشفوي ولا في المعالم الطبونيمية ولا في آثار الطرق القديمة، كما أثبت ذلك «بلين» المؤرخ اللاتيني ولا «طولومي» ولا «ماريا» أو ما افترضه «أوزينا» أو «ميرسيي» المتخصص في الطرق التجارية الرومانية، ولا ما حاول أن يفترضه «غوتيه» وكذا الأبحاث التي يقوم بها Rebufa. فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير روماني في إقليم سجلماسة وبالتالي في مدغرة. وكل ما يمكن إثباته هو وجود حركة انتقال بشري من الجنوب إلى الشمال بمعنى أن مدغرة في العصور القديمة كانت معبرا للمجموعات البشرية Transhumain في اتجاه الشمال. وهي الوظيفة التي طبع بها تاريخها في العصور الوسطى والحديثة، وإن تميزت هذه العصور الأخيرة بحركة مزدوجة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب. تبعا لتأثير تجارة القوافل مع إفريقيا جنوب الصحراء وإن كان الغالب من الجنوب إلى الشمال.

35) Meunie (D.J) : le Maroc saharien. op cit, t 1 p 169.

وهي صادقة بالنسبة لجنوب تونس بغدامس أي على الطريق الأوسط إلى حدود ورغلة.

والغالب على الظن أن التاريخ الذي حدده شـارل أندري جوليان لدخول هذه القبائل البربرية إلى الصحـراء، لم يكن في الواقع إلا البدايات الأولى لهذا الدفع. وخلال هذه المرحلة تميز الوجود البربري بهذه الجهات بطابع التنقل والانتجـاع، على أن الاستيطان الفعلي لم يبـدأ إلا مع بـدايـة القرن السـابع الميلادي. فقد قدر «دولا شابيل» delachapelle أن يكون هذا الـدفع حدث زمن الهجرة النبـوية، وشكل دخـولها عامل ضغـط دفع بالعنـاصر السوداء إلى التراجع نحـو الجنـوب. تـاركين مجالاتهم للعنـاصر البيضـاء التي أسست الواحات والقصـور بهذه المناطق.(36) وتزخر الكتـابات التاريخية القـديمة بمجموعة من الإشـارات عن المجموعات البربريـة التي كانت تجوب المناطق الشبـه الصحـراويـة والصحـراويـة مترحلـة مثـل «المازيك» و«الجيتـول» و«الكرامـانت». وقد كانت هـذه المجموعـات تساكن الإثيوبيين في الـواحات والهوامش الصحراوية. وامتدت مجالات انتشـارها من المحيط الأطلسي غربا إلى فزان شرقا، حيث كـانت تراقب سلسلة الواحـات الصحراوية.(37) وهذا يعني أن عمليات الدفع الـداخلي الذي مارسته هذه المجموعـات البربرية على السكان السود، لم تغيب هذه الأخيرة بصورة مطلقة عن هذه المجالات. فقد ذكر لـويكي أن مناطق الصحـراء كانت مسكـونة من طـرف عدد كبير من القبـائل البربريـة التي اختلطت بدم السـود بحكم الجوار في المجال، وهـذه الجماعات الصحراوية بما فيهـا السود والبربر هي التي لعبت دورا مهما في تنظيم علاقات تجارية واسعة بين بلاد المغرب ومصر من جهة، وبينها وبين السودان الغربي من جهة ثانية. وكانت هذه العناصر البربرية تتكون أساسا من العنـاصر الصنهاجية والـزناتيـة، تظم الأولى قبائل الـرحل فقط في حين تظم الثانية الرحل والمستقرين.(38)

لقد كـانت القبائل الزناتيـة تجاور القبائل الصنهاجية في المجـال الشبه الصحراوي، حيث كانت القبائل الزناتية تسيطر على المناطق التي تمتد شرق

---

36) de la chapelle : Esquice d'une histoire du sahara. op cit, p 40.

37) camps (G) : recherches. op cit, p 39.

38) ذكره دولا شابيل في :

Esquice d'une histoire du sahara. op cit, p 40.

وهذه الملاحظة مقبولة إلى حدود المرحلة الفاطمية نهاية القرن الثالث الهجري.

المغـرب، من البحر الأبيض المتـوسط إلى التخوم الصحـراوية. والغـالب على الظن أن زناتة الجنوب كانت تدخـل في صراعات مع صنهاجة الجنوب ومنذ عصور قديمة جـدا، من أجل السيطرة على المراعي وبسط النفوذ على الطرق التجارية الصحراوية. الشيء الذي طبع علاقاتهما بالمد والجزر تبعا للظروف ووفرة الغلبة، وكان من نتائج ذلك أن أصبحت مواطن الكتلتان متداخلة جدا يصعب تحديدها بدقة، لا سيما في غياب المعلومات التاريخية الكافية. إلا أن الأكيد أن الفضل في ظهور واحات الصحراء يـرجع إلى القبائل الزناتية، وإن كـانت العناصر السـوداء قـد وضعت اللبنات الأولى لها قبلهم. وكـان لهذه الجماعات القبلية الزناتية علاقـات واسعة بمناطق الصحراء منذ زمن بعيد، وهي على ما يظهر قبـائل أصيلة بهذه المجالات. وقد لحقها قانـون الرومنة في حدود ضيقة لما كـانت متمركزة بالمغـرب الأوسط. ما بين منطقة شليف وتلمسان ومضيق تـازة بما في ذلك الهضاب الـوهرانيـة العليا. وبـوصول القبائل الـزناتيـة في أقصى امتداد لها غـربا إلى واحـات درعة، تكـون هذه القبائل قد أحكمت مراقبتها على الواحات الجنوبية، التي تمتد من بلاد درعة إلى تيدكلت شرقا،(39) وإليها يعزى إدخال مجموعة من المؤثرات الشرقية إلى الواحات التي شغلتها. وهي مؤثرات ذات طابع مشرقي مازالت بعض آثارها واضحة على الخصـوص في أساليب الزراعـة والري.(40) وسيتأكد الوجود الزناتي بواحات تافيلالت ودرعة من بداية الفتح الإسلامي إلى حدود القرن 5هـ/11م، إذ أنه لما استقرت هذه القبـائل في سفوح الأطلس ساهمت بعض بطونها في أحداث المغرب السياسية إلى غاية القرن 5هـ/11م.(41) علاوة على أن زنـاتة كـانت تحتكر تجارة المغـرب، وتهتم منـذ البدايـة بطرق القـوافل وبالتجارة الذاهبة إلى الجنوب.(42) فلما أصبحت مدينـة سجلماسة وغيرها من واحات الصحـراء وضمنها منطقة مدغـرة بمثابة مـوانىء لهذه التجارة

---

39) التقي العلوي : أصـول المغاربة القسم البربري، مجلـة البحث العلمي عدد 33 السنة 1982 ص 101.

40) Meuniè (D.J) : le Maroc saharien. op cit, t 1 p 175.

41) Colin (G.S) : les origines arabes des grands mouvements de la population bërbëre dans le moyen Atlas. Hesp 1939. p 265.

42) delachapelle : Esquice. op cit, pp 57-58.

النافعة، استولت زناتة على إقليم الواحات لتشدد من قبضتها على هذه التجارة.(43)

إن المجال الذي تحركت فيه القبائل الزناتية كان كبيرا جدا. فقد ذكر ابن خلدون أن مجالات هؤلاء بالقفر امتدت، من فكَيك إلى سجلماسة وملوية وربما تخطوا في ضعنهم إلى الزاب.(44) وهذا يعني من جهة، أن مجال الدراسة - مدغرة - قد تأثر إلى حد كبير بالوجود الزناتي، وتشهد على ذلك أسماء المعالم الطوبنيمية المرتبطة بهذا الوجود. ومن جهة ثانية كان هذا القبيل يشترك مع صنهاجة في القيام برحلات كل سنة من الجنوب إلى الشمال. ويشير دولا شابيل أنه كان لعامل الجفاف دور هام في دفع هذه الجموع إلى التحرك من مناطق استقرارهم بالصحراء صوب الواحات المحادية لها في اتجاه الشمال. ولا يمكن فهم هذه المسيرة نحو المناطق الشمالية إلا في إطار فقر وتضرر المناطق الصحراوية من الأزمات المناخية. مما اضطر زناتة إلى الهجرة بحثا عن مراعي خصبة ودائمة، وهذا ما لا يمكن أن يتحقق في الواحات ومقدمات جبال الأطلس الكبير الشرقي.

إن كثافة الوجود الزناتي بواحات وادي زيز خلال المراحل الأولى للحكم الإسلامي، هو ما حدا بأحد الباحثين إلى اعتبار مرحلة حكم قبائل مكناسة بما فيها مغراوة لمدينة سجلماسة والمناطق التابعة لها، فترة التواجد المكثف للعنصر الزناتي بهذه الأصقاع. لدرجة أن ممثلي عاصمة إقليم سجلماسة كانت من هؤلاء بأعداد كبيرة.(45) فخلال هذه المرحلة التي اشتد فيها الوجود الزناتي على مناطق واحات زيز - أي المرحلة الأولى للحكم الإسلامي - تفيدنا المصادر باستقرار قبيلة «مدغرة» بهذه الأصقاع. وقد سبق أن أوضحنا في الفصل الأول من الباب الثاني أن الروح الثورية التي اتسم بها تاريخ قبيلة مدغرة منذ مرحلة الفتح الإسلامي كانت هي سبب اضمحلالهم وانقراضهم واستقرارهم بهذه المقاطعة الجغرافية التي مازالت لحد الآن تحمل إسم هذه القبيلة،(46) كما هو الشأن كذلك بالنسبة لإحدى

---

43) أحمد حسن محمود : قيام دولة المرابطين م. س : ص 214.

44) ابن خلدون : العبر م. س، ج 7 ص 221.

45) El Mellouki (M) : sigilmassa. op cit, p 226.

46) انظر الفصل الأول من الباب الثاني ص : 152.

فروع قبيلة مديونـة التي استقرت في القسم الأسفل من مدغرة.(47) وفرع من قبيلـة بني وراين التي استقرت في قسمهـا الأعلى.(48) ولا نستطيع أن نقدم إضـافات جديـدة لتوضيح البنيـة البشرية في المنطقة في إطـار السياق الـزنـاتي المكنـاسي بما فيـه مدغـرة. لأن النصـوص لا تسعفنـا في تقـديم معلومات دقيقة وجديدة. وكل مـا يمكن أن نقوم به هو تقديم افتراضات في إطار سياق الأحـداث العامة التي عرفها عصر تكوين الـدويلات المستقلة في بـلاد المغـــرب الأقصى والأوسط خـلال القـرن الثـــاني الهجـري/الثامن الميلادي. وهذا ما سنحاول الـوقوف عليه أو على بعضه في الملحق الخـاص بالأخـبار.

شكل ظهـور المرابطين في تـاريخ المغـــرب السياسي منـاسبـة لزحـــف القبائـــل الصنهاجيـــة الصحراويـــة على مجال الـدراسـة خـــلال القـرن 5هـ/11م. وقـد سبـــق أن أوضحنـا فيمـــا سبـــق من فصـول(49) أن العنـصـر الصنهاجـي كان وارد الحضـور بواحـة مدغـرة خـلال المرحلـة الوســطى الإسلاميـــة من تاريـــخ المـــغـــرب الأقصى؛ ذلك أن القبيـــل الصنهاجي عندمـا انطلق من الصحراء في اتجـاه الشمـال والغرب والجنوب الشرقي، حمـل معـه أسماء قصوره بالصحـــراء واستعملهـا في مواطـــنـه الجديـــدة ومن ضمنهـا منطقـــة مدغـرة. ممـا يعني أن حقـــل الدراســـة انطلاقـا من هـذا التاريـخ لم يبق حكرا على العناصر الزناتيـــة بل طبعـت بنيته البشرية بوجـــود مجموعة من العناصر البربريـــة والعربيـة وأقليـات أخرى مختلفـــة. وسيستمـر هـذا التنـوع والتعـدد حتى مطلـــع العصور الحديثـــة. إذ انطلاقـــا من هـذه المرحـلة الأخيـــرة سنلاحـــظ نوعـــا من التقسيم بمدغـرة، وذلـك بنـاءا على سيـادة المجموعات البشريـة على أقسام مدغـرة. ففي الوقـت الذي خضعت فيـه مدغرة الوسطى والسفلى لسيـادة عـرب المعقل في مرحلـــة أولى ولأشـراف قصـور وادي إفلي المنتقلـــيـن إلى مدغـرة في مرحلـة ثانيـة، ظـل القسم الأعلى من مدغرة في الغالـب خاضعـا

47) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني ص : 152.

48) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني :

49) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني :

لإحدى فروع قبائل صنهاجة. ويتعلق الأمر بقبيلة أيت إزدكَ الصنهاجية.

وكانت مدغرة العليا لا تشكل إلا قسما من مجال نفوذ قبائل أيت إزدكَ. فقد ذكر العربي مزين أن مجال أيت إزدكَ كان يمتد من الأطلس الكبير الشرقي على ملوية العليا وحوض زيز الأعلى.(50) وأضاف بايرون peyron أن هذه القبيلة وجدت كذلك بحوض كَير الأوسط بتالسينت وبودنيب وبحوض زيز الأوسط.(51) مما سمح لقبائل أيت إزدكَ بمراقبة ممر تيزي – ن – تالغمت الذي يتحكم في تجارة تافيلالت. وكانت السيطرة على هذا المجال سببا في اصطدامهم بقبيلة صنهاجية أخرى، ويتعلق الأمر بقبيلة أيت حديدو خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد.(52) هذا الصراع الذي انتهى بسيادة واستقرار بعض أفخاد قبيلة أيت إزدكَ بهذا المجال. ولا تفهم هذه السيادة إلا في إطار ثقل وأهمية دور قبيلة أيت إزدكَ في حلف أيت يفلمان في السياق التاريخي العام لتطور المعطيات السياسية بالمغرب خلال هذه المرحلة، وأهمية الفوائد التي يمكن الاستفادة منها بعد السيطرة عليه، لاسيما تلك المتعلقة منها بفوائد «الزطاطة» المفروضة على القوافل التجارية المتنقلة بين الشمال والجنوب.

إن أول ذكر لقبائل أيت إزدكَ أفادنا به أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق خلال القرن 6هـ/12م، فقد ذكر هذا الأخير قبيلة أيت إزدكَ ضمن أهل تيارات(53) إلى جانب أهل تدغة – فركلة وغريس وأيت إيدراسن

50) Mezzine (L) : le tafilalet. op cit, p 29.

51) peyron (M) : sociètes montagnardes et sahariennes : contribution à l'histoire du haut Atlas central : les Ait yafelman in : R.O.M.M n° 38 2eme semestre 1984. p 127.

52) delachapelle : le sultan M'y Ismail et les bèrbères sanhaja: archives marocaines n° 4 vol XXVIII 1931 p 45 oustry: Notes sur le haut Ziz in (B.S.G.A.O) vol XXX 1910 p 401.

53) البيدق : المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب. تحقيق عبد الوهاب بنمنصور الرباط 1971، ص 54.

وملوانة.(*)(54) وتذكر المراجع والدراسات أن قبيلة أيت إزدكَ كانت خلال القرن 17م تتنقل ما بين منطقة تدغة والمناطق المجاورة لها مثل كَير الأعلى وحوض زيز الأوسط.(55) وهذا يعني أنه إلى حدود القرن 11هـ/17م الذي يصادف بداية قيام الإمارة العلوية بتافيلالت. كانت قبيلة أيت إزدكَ لم تتلمس طريقها بعد نحو الاستقرار الكلي، بل طغت عليها سمة الترحال والإنتجاع بين تدغة وكَير وزيز. حقيقة أن البحث عن المرعى الأكثر خصبا ومحاولة توسيع مجال نفوذها، كلها عوامل لا يجب أن نغفل أهميتها في هذا الامتداد. إلا أن الدافع الأساسي – على ما نعتقد – الذي حدا بهم إلى مد نفوذهم إلى مناطق حوض كَير وزيز الأوسط، راجع إلى استنجاد بربر دخيسة بهم أثناء قيام مولاي محمد بن الشريف العلوي. فقد ذكرت جاك مونيي أن قبائل أيت إزدكَ تلقت في هذه المنطقة الدعوة من أجل مساعدة بربر دخيسة الذين كانوا بمنطقة تالسينت، أثناء حكم مولاي محمد بن الشريف العلوي ضد عبث جيرانهم.(56) مما يطبع تحركهم هذا نحو هذا المجال بطابع سياسي محض. ذلك أن بعض أفخاد هذا القبيل ستحاول الاستقرار في منطقة كَرامة بكَير الأعلى، وبمنطقة بودنيب بكَير الأوسط بعد دعوة دخيسة لهم. هذه الأخيرة التي انتقلت أثناء محاصرة مولاي محمد بن الشريف لفاس سنة 1649م من أجل الاستقرار في منطقة سايس الجنوبي، شمال غرب مكناس.(57)

(*) يحتمل أن يكون إسم ملوانة تعرض لتحريف بعد الانتصار المرابطي الصنهاجي في المنطقة، حيث تم اختفاء إمارة بني توالي بالأطلس المتوسط (تمحضيت – كَيكَو – عين اللوح حاليا). وبقيت بقايا نرجح أنها منهم وهم أيت مولي في عين اللوح الحالية. ثم تطور وضعهم في إطار سياق نظرية الأوزاع الخلدونية التي تفسر ذوبان القوات القديمة في القوات القبلية الجديدة، مع ما تعرضت له هذه المجموعة أيضا خلال عصر الانتصار العربي في العصور الوسطى المتأخرة. وأدى ذلك إلى تحريفات في أسماء المجموعات القبلية البربرية القديمة، وضمنها قبيلة بني «يخفوش» أو «يحفوش» أو «يجبوش» التي ينتسب إليها صاحب الحركة لاستنهاض الوطاسيين للجهاد. وبنو توالي الذين أصبحوا يحملون اسم أيت مولي الموجودين حاليا بعين اللوح ربما اشتق منهم حلف أيت أومالو وهي مجموعة قبلية ثائرة على السلطان مولاي سليمان خلال القرن 19م، وكانوا يكونون قوة كبيرة في الأطلس المتوسط والكبير.

54) البيدق : المقتبس م. س، ص 55.

55) delachapelle : le sultan M'y Ismail. op cit, p 45.

56 _57) Meunie (D.J) : le Maroc saharien. op cit, t 2 p 659.

نعتقد أن استقدام قبيلة أيت إزدكَ لهذا المجال الجديد كانت الغاية منه هو تكوين درع واقي للدولة العلوية الناشئة ومددا لها، من أجل إخضاع القوى القائمة أنذاك بالمغرب، وخاصة القوة الدلائية بالأطلس المتوسط. إذ بعد هذا التاريخ ستكون مساهمة قبيلة أيت إزدكَ بالإضافة إلى القبائل الأخرى ذات الولاء لحلف أيت يفلمان كبيرة، من حيث الدفع الداخلي الذي مارسته على القبائل الصنهاجية. بين ملوية وغرب الأطلس المتوسط ابتداءا من القرن 11هـ/17م من أجل التقدم شمالا. ومن أجل إخضاعها أحيانا لسلطة ومشيئة المخزن العلوي.(58) هذا من جهة، ومن أخرى لمراقبة الطريق التجاري لتافيلالت انطلاقا من مدغرة في اتجاه الشمال.

إن استقرار قبيلة أيت إزدكَ بهذا المجال لم يتم بين عشية وضحاها، ذلك أن استبدال حياة الانتجاع والترحال بحياة الاستقرار والارتباط بالأرض كان يتطلب بعض الوقت. من هنا لا غرو إذا وجدنا بعض الدراسات والمراجع تختلف بخصوص قبيلة أيت إزدكَ هل هي من المستقرين أم من الرحل؟ فقد لاحظ جورج كولان أن فريقا من قبيلة أيت إزدكَ كان مستقرا منذ سنة 1787م – أي خلال نهاية النصف الثاني من القرن الثامن عشر – بعد مضي قرن من دعوة دخيسة لهم.(59) ومقابل ذلك ظلت بعض الأفخاذ الأخرى من نفس القبيلة وفية لحياة الترحال والانتجاع، إلى حدود نهاية القرن 19م حسب ما يفيدنا به شارل دوفوكو.(60) مما يعني أن قبيلة أيت إزدكَ وجد فيها الرحل والمستقرون. وظلت القبيلة محافظة على هذه الازدواجية إلى حدود القرن 20م، وهذا من شأنه أن يشرح مسألة انتشار نفوذ هذه القبيلة على هذا المجال الواسع. ونتوفر على مجموعة من الوثائق المحلية(61) التي تعود إلى مراحل تاريخية متقاربة، أقدمها يعود إلى عهد السلطان العلوي مولاي الحسن الأول. وأقرب هذه الوثائق منا يعود إلى

58) عبد الرحيم برادة : ظاهرة التنقلات القبلية م. س، ص 112.

59) colin (G.S) : un vayage de Fes à tafilalet en 1787. in revue de la gèographie marocaine, n° 1, 1934 p 6.

60) de Faucauld (ch) : reconnaissance. op cit, pp 227-351.

61) سنثبت البعض من هذه الوثائق في الملحق الخاص بالوثائق، أنظر الوثائق رقم : 8 ـ 9.

سنة 1936م. وهذه المرحلة الـزمنية على العموم هي المرحلة التـي اشتد فيها التواجد والحضور المكثف لهذه القبيلـة بمجال زيز الأعلى والخنك وقصابي الشرفاء وملوية العليا والـوسطى. أي أن قبيلة أيت إزدك كانت تسيطر على شرخ هـام من الطريق التجـاري الـرابط بين فـاس وسجلماسة، يمتـد من مدغرة العليا إلى ملوية الوسطى. ولا يخفى ما لهذا المجال من أهمية سواء في ربط الشمال بالجنـوب، أو من حيث دور وأهمية هـذه القبيلة في حلف أيت يفلمان، الذي ساهم إلى حد كبير في تطور الأوضاع الداخلية المغربية انطلاقا من مرحلة القرن 11هـ/17م.

إلا أن ما يجب مـلاحظته بـالنسبة لمدغـرة في الوقت الحالي، أن مـدغرة السفلى والوسطى تنعدم فيها تماما سيطرة العناصر البربرية، إذ لا يوجدون بقسمي مـدغـرة السفلى والوسطـى حتى كأقليـة. فالبنيـة البشريـة لهذين القسمين من مدغرة تتكون من الشرفاء والحراطين، وبقـايا العناصر العربية والبربرية التي يطلق عليها العـرف المحلي إسم «الأحرار». بينما مازالت لحد الآن تطغى على مدغـرة العليا العناصر البربـرية، إذ لا نجـد تلك الازدواجية المكثفة فيما يخص أسماء القصور والمرافق المكونـة لها. فالغالب على القسم الأعلى من مـدغرة هو طغيـان الأسماء البربريـة، سواء تعلق الأمـر بأسماء الأماكـن أو أسماء القصور بالغـابة. في حين ظـل التأثير العربي بـه ضئيلا جـدا، وذلك راجع لضعف وجـوده بهذا القسم من مـدغـرة. فإذا استثنينـا قصـور: قصر السـوق وقصرا الـرحبـة وقصر أيت مـولاي محمـد وقصر تيغيورين وزاوية قصر تازوكا التي هي مسكونـة من غالبية عربية وعلوية، لا نجد سوى العنصر البربري والعنصر المحـرضن بباقي القصور مع بعض الأقليات الأخرى. ونعتقد أن سبب ذلك هو أن مـدغرة العليا كانت جزءا من المنطقة التي احتـدم فيها الصراع الـدلائي المعتمد على العصبية الصنهـاجية والعلـوي الذي سـاندتـه اتحاديـة أيت يفلمان المكونـة في أغلبها من قبـائل بربرية. ممـا أدى إلى تركيز هذه العصبية بكثافـة في هذا القسم من مدغرة، والذي كان يعتبر كحـد فاصل بين الكيان العلوي بتـافيلالت والدلائي بأيت إسحاق خلال القرن 11هـ/17م. كما تعتبر كذلك الجسر التجاري الرابط بين الشمال والجنـوب. هـذا علاوة على قـرب منطقـة مـدغرة العليـا من جبـال

الأطلس خزان الاثنية البربرية على اختلاف أصولها لا سيما الصنهاجية منها. كما أن هذا القسم العُلْوِي من مدغرة لم يحظى بنفس الكثافة من حيث الهجرات العربية المعقلية والانتقال العلوي من تافيلالت إلى مدغرة. فالقصور ذات الأسماء العربية بمدغرة العليا معدودة على رؤوس الأصابع. وكل هذه العوامل وغيرها ساهمت في احتفاظ مدغرة العليا على طابعها البربري سكنا وسكانا، ولم يلحقها التعريب الشامل إلا في حدود نسبية.

اليهود :

يكتنف تاريخ اليهود الغموض بواحات وادي زيز لدرجة جعلت تحديد تاريخ وجود اليهود ليس فقط في هذا الصقع بل في مجموع بلاد المغرب أمرا في غاية الصعوبة، وذلك راجع لاختلاف الباحثين في هذا الباب. فقد ذهب الأستاذ إبراهيم حركات أن اليهود استقروا بشمال إفريقيا منذ عهود سحيقة قادمين من فلسطين أفواجا متتالية. كما تقاطرت أفواج أخرى منهم من الأندلس بعد استردادها، وكانوا يوجدون في كل التجمعات السكنية تقريبا في المغرب. ففيهم من استقروا بالمدن ومن عايشوا سكان الجبال ومن استوطنوا الجهات الصحراوية.(62) وهو نفس ما ذهب إليه مونطاي ch. Monteil، إذ ميز في هذا الباب بين جماعتين يهوديتين بشمال إفريقيا: يهود المشرق الذين هاجروا في تاريخ مبكر واستقروا بالمناطق الجنوبية للمغرب الأقصى بجبال الأطلس الصغير في إيفرن ووادي نون. ويهود الغرب الذين كانوا بشبه الجزيرة الإيبيرية وعادوا منها إلى المغرب بعد سقوط غرناطة.(63) ويرى دولا شابيل أن تواجد العنصر اليهودي بالمناطق الجنوبية المغربية، يعود للفترة التي احتكت فيها القبائل البربرية بهذه المجالات، بعد أن فرت من مناطق نفوذ الهيمنة الرومانية. وقد ساهم كل هؤلاء في تعمير الواحات، بما فيها وادي نون ودرعة وسجلماسة وتوات. ويظهر أن البربر واليهود على حد سواء أسسوا مراكز تجارية مهمة في

62) إبراهيم حركات : السياسة والمجتمع في العهد السعدي، دار الرشاد الحديثة البيضاء 1987، ص 34.

63) Monteil (ch) : problème du soudan occidental, juif et judaïse. Hesp 3-4 trimestre 1976, p 270.

القرون العشرة الأولى للميلاد. كما لا يستبعد هذا الباحث أن يكون اليهود الذين استقروا بهذه المناطق قد قدموا إليها من طرابلس، كما هو الشأن بالنسبة للقبائل الزناتية. وكان لتحالف الجماعتين أثره في اندفاع اليهود نحو الغرب، واندفاع البعض الآخر نحو بلاد السودان. غير أن وضع تاريخ محدد لهذه التحولات يبدو من الأمور الصعبة جدا.(64) وذكرت جاك مونيي من جهتها أن الجماعات اليهودية تركزت بأعداد كبيرة في شرق حوض وادي زيز منذ زمن بعيد. بدليل أنها كانت تشكل في القرن 10م الجماعات الأكثر غنى بهذه المناطق. وفي سياق حديثها عن سكان المناطق الجنوبية أشارت إلى أن بعض سكان واحات دادس وفركلة وغريس تنتمي للجماعات اليهودية، لكنها اليوم نسيت معتقداتها واندمجت كلية في الأهالي. مما يؤكد قدم استقرارها بهذه الواحات. ولا يقتصر الأمر على انتشار اليهودية بالمغرب الجنوبي، بل شمل ذلك حتى انتشار النصرانية. فقد أشار دولافوسdelafosse أن اليهودية والنصرانية انتشرتا في توات وتافيلالت ووادي درعة ووادي نون، وظلت باقية هناك حتى القرن 5هـ(65) الذي يصادف أولى الإشارات العربية الإسلامية عن الوجود اليهودي بإقليم سجلماسة القديم. مما يدل على أن حضارة البحر الأبيض المتوسط انتقلت إلى الصحراء عبر المغرب ،وتركت بهذه القبائل آثارا مازالت باقية حتى اليوم كما يقول بذلك الرحالة رود Redd.(66)

إن جميع هذه الآراء تشير إلى قدم استقرار العنصر اليهودي بالواحات الجنوبية وإن كانت تفتقر إلى الدليل المحسوس، الذي من شأنه أن يمكنها من ضبط تواريخ وجودهم بها، مما طبعها بالإفتراض والتخمين. وهذا ما يعاكس ما جاءت به الروايات التاريخية الإسلامية،(67) ذلك أن هذه الأخيرة لا تشير قط إلى دور العناصر اليهودية بالمناطق الجنوبية إلا مع بداية القرن

---

64) delachapelle : esquice. op cit, p 52.

65) delafosse (M) : chronique du fouta senegalaise, revue du monde musulman. tome 25 p 105. 1913.

66) Redd (F.R) : people of the viel. I london 1926 p 275.

67) حافظي : سجلماسة، م. س، ص 168.

5هـ/11م، وهذا ما يدفعنا إلى عدم مسايرة الاراء الشابقة التي تعود بتاريخ وجود هـذه الجماعات اليهـوديَة إلى عصـور غابرة من التـاريخ. وحتى إذا كانت بعض الجماعات اليهـودية قد استقرت في بعض المدن المغـربية خلال فترة الحكم الروماني، فإنها لم تكن بالحجم الذي ذكـرته الكتابات الأروبية المنصوص عليها سابقا.

يعتبر البكري القـرن 5هـ/11م أول من ذكـر اليهود بإقليم سجلماسـة، وكانت هذه الفئة متخصصة في البنـاء. قال: «البناؤون عندهم اليهود».(68) وهذا لا يتنافى مع ما اشتهرت به العناصر اليهودية التي اشتغلت بالصياغة وصناعـة الذهب وضرب السكـة وسبك الحلي، باعتبـارهم كانـوا يمارسون جميع الحرف. ممـا لا يدع مجالا للشـك أن العنصر اليهودي عمل إلى حـد كبير على تعليم البربر حـرف التمدن. فبخصـوص صياغـة المعادن وضرب العملة أشار روزان بيرجـي أن اليهود كانوا متخصصين في صنـاعة المعادن منذ فترة غـابرة، فكثير من المناجم التي تم استغلالها قبل الإسـلام أو بعد الفتوحات الإسـلامية أو حتى في الفترة المتأخرة ببلاد المغـرب كانت تشرف عليها هذه الجماعة، فضلا عن اختصاصها بضرب العملة أيضا.(69)

وإذا كانت العناصر اليهودية تدعي أن أسباب اشتغالهم وتخصصهم في الصياغـة وكل ما يتعلق بالمعـادن، مرتبط بسر أسطـوري أخذوه عن النبي داوود.(70) إلا أن علي بن يـوسف الحكيم يفصـل الأسبـاب التي جعلت اليهود يختصـون في صناعة الـذهب دون غيرها. قال: «وكـان سبب دخول أهل الذمـة في الصياغة والمصـارفة، أنه لما اتسع نطـاق ملك المغرب وسمت همة أمـرائه أن يتميـز مكانهم بـالأمتعـة والأسلحـة المصنوعـة من الـذهب والفضـة المموهـة بهما والمكللة بـالأحجار النفيسـة الرفيعـة أبهة للإسـلام ونكاية لعبدة الأصنام. استدعوا الصياغ من سائر الأفاق والأصقاع واجتمع منهم جملة وافـرة فابدعوا الصنـائع العجيبة الفاخـرة، فداخلهم إذ ذاك أهل

---

68) البكري : المغرب، م. س، ص ص 148 ـ 149.

69) Rosenberger (B) : les vieilles exploitations minieres et les centres métalurgiques du Maroc : essaie de carte historique. 2eme partie R.G.M n° 18. 1970 p 69.

70) Rosenberger (B) : les vieilles exploitations minieres R.G.M. op cit, p 79.

الـذمة من اليهـود بصنـاعة الصيـاغـة واختلفوا، بها وأقـامـوا بها سوقـا لأنفسهم».(71) إن نص علي بن يـوسف الحكيم يوضح التطـور الذي لحق الحرفة الخاصة بـاليهود في المجتمع المغربي عامـة، سيما وأن المؤلف نفسه كان صيرفيا، واشتغل بـدار السكة بفاس في عهد السلطـان المريني أبا عنان فارس. وحول أنواع الغش والتدليـس التي مارسـها اليهود في النقود والحلي ذكر المؤلف أن لذلك علاقة بمعتقـدات اليهود في علاقتهم بالمسلمين، ويظهر ذلك من قوله: «ولما استولوا على الصيـاغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة في الصرف، وقد سـاعدهم في ذلك الـولاة والعمال لقبض المجابي والأمـوال من سـائر الأشغـــال. فعظم بـلاؤهم في الـدين وضررهـم بـالمسلمين حتى أن أحبارهـم كانوا يبيحـون لهم الغش ويكـذبون لهم على أنبيائهـم في وجوب إباحتـه لهم... ويقولـون لهم في مجالس وعظهم اعلموا أن أبـا القاسم نبي العرب قال لأمته : «من غشنا فليس منا» فإن غششتم فلستم منهم وإن لم تغشوا فأنتم منهم».(72)

نعتقد أن أنواع الغش والخداع التي طبعت ممارسات الجماعات اليهودية هو السبب الذي دفع سكان إقليم سجلماسة إلى تشغيل اليهود ليس فقط في حرفة البناء، بل شغلوهم حتى في حرفـة الكنافة. فقد أشار الاصطخري أن من دخـل في الكنافيـن من أصنـاف الناس سموهـم المجرميـن لاجترامهـم على حرفـة موقوفة على اليهـود، وقصـروا عليهـم في البناء لأنهم خائفـون أبـدا.(73)

إذا كانت العنـاصر اليهوديـة قد عرفت حضـورا متميزا في اقتصـاديات الدول المغـربية السابقة، لا سيما خـلال المرحلة المرينية المتأخـرة. إذ خلال هذه المرحلة ولت الدولة المرينية بعض العناصر اليهودية «شاويل» على رأس بيت مال المسلمين. فإن دور اليهـود في الميدان الاقتصادي عامـة والتجاري بوجـه التخصيص، سيزداد أهميـة مع مطلع العصور الحديثـة خلال فترة

71) علي بن يـوسف الحكيم : الـدوحـة المشتبكة في ضـوابط دار السكـة «مجلـة معهد الـدراسـات الإسلامية، مدريد 1958، ص ص 177 ـ 178.

72) علي بن يوسف الحكيم : نفس المجلة ونفس الصفحة.

73) مجهول الاستبصار : م. س ص 210 / حافظي : سجلماسة، ص 170.

حكم الأشراف السعديين.(74) وذلك بسبب مجموعة من المتغيرات، منها تزايد أعداد اليهود بالمغرب منذ نهاية القرن 15 وبداية 16م إذ هاجرت إليه أعداد كبيرة منهم بعد أن تم طردهم من إسبانيا سنة 1492 ومن البرتغال سنة 1497.(75) فقد كانت محاكم التفتيش تضطهد المسلمين كما تضطهد اليهود باعتبارهم جميعا مارقين عن الديانة الكاثوليكية، بل أن تلك المحاكم اعتبرت اليهود المتنصرين منافقين انتهازيين شرا على البلاد من اليهود الباقين على ديانتهم، فلاحقوهم بأنواع التضييق. واحرقوا الآلاف منهم. لذلك كانت موجات الهجرات من الأندلس تقذف خلال القرنين 9 و10هـ/15 و16م بمجموعات من المسلمين واليهود إلى الضفة الجنوبية من حوض البحر الأبيض المتوسط، فاستقر عدد غير قليل من اليهود ببلاد المغرب ونزح آخرون إلى بلاد أروبية بروتستانية كأنجلترا والبلاد المنخفضة.(76)

لقد تزايدت أهمية اليهود تبعا لتزايد نفوذ السعديين وتطور سياستهم الاحتكارية، فازدادت أعداد اليهود بالمغرب وتعاظمت أهميتهم التجارية.(77) حيث خولت الدولة السعدية للعناصر اليهودية مسؤولية إدارة أهم المواد التي يأتي التجار الأجانب من أجلها إلى المغرب مثل السكر وملح البارود.(78) وهكذا أضحت العناصر اليهودية تهيمن على الميدان التجاري والديبلوماسي، وأدت هذه «الحظوة» إلى إضعاف التاجر المغربي وتهميشه وهددته بالاختفاء لانعدام رأس المال لديه.(79) وهذا ما أثار حفيظة بعض فقهاء المغرب. فقد استنكر الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي سيطرة اليهود على الاقتصاد وما خولهم ذلك من شفوف ودالة على رجال السلطة

---

74) حول أهمية اليهود في التجارة السعدية انظر المصادر الدفينة لتاريخ المغرب، بمواضع متعددة السلسلة الانجليزية وسلسلة الأراضي المنخفضة.

75) محمد المهناوي : السلاح الناري بمغرب القرن 16 د.د.ع التاريخ فاس 1988، ص 263.

76) محمد حجي : الحركة الفكرية، م. س، ج 1، ص 267.

77) S.I.H.M serie angletaire. t 1 p 328.

78) عبد العزيز بن محمد الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، م. س، ص 210 الرباط 1972.

Berthier (P) : les anciennes sucreries du Maroc et leur receaux hydroliques. imprimerie Française et Marocaine. Rabat 1966. t 1 pp 228-229.

79) محمد المهناوي : السلاح الناري بمغرب السعديين د.د.ع، التاريخ فاس 1988، ص 263.

واستخفاف بالأحكام الشرعية واحتقارا لفقراء المسلمين. ورأى المغيلي أن اليهود نقضوا بذلك عهد الذمة المبني أساسا على الخضوع التام لسلطة المسلمين مقابل حمايتهم والسماح لهم بالعيش بين اظهرهم. وألف في ذلك كتابا سماه: «ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار»،(80) إلا أن صرخة المغيلي على ما يظهر لم تلق أذانا صاغية، إذ عارض معظم الفقهاء رأي المغيلي وردوا على كتابه بردود مختلفة إتسم بعضها بالعنف والتجريح. واعتبر رد الفقيه بن غازي معتدلا لخصه في جملة مسجعة كتبها على ظهر الكتاب ونصها: «هذا كتاب جليل صدر عن نص عليل وعلم بالصواب كفيل وصاحبه غريب في هذا الجيل، بيد أنه أطلق الكفر على التضليل».(81) في حين نجد أن بعض أفكار المغيلي ظل صداها يتردد في أرجاء المغرب طوال العهد السعدي، إذ كان من بين مؤيدي أفكار المغيلي الفقيه أبا القاسم ابن خجو في الشاون ومولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني بمدغرة وغيرهما من الذين يرون في اليهود رأي المغيلي.(82)

نعتقد أن الحرب التي أعلنها هذا الفقيه على اليهود بتوات والسودان الغربي كانت سببا في تدفق إعداد كبيرة منهم نحو الواحات الكائنة إلى الشمال من توات، بواحات إقليم سجلماسة المختلفة بما في ذلك منطقة مدغرة. مما يوحي أن العنصر اليهودي استوطن المنطقة إلا أن وجود مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الذي كان واحدا من أولئك الفقهاء الذين أيدوا رأي المغيلي واستجابوا لصرخته، قد حد من وجود هذا العنصر بهذه الجهة. وحجتنا في ذلك أن هذا الأخير كان يغمى عليه عند رؤية اليهود،(83)

---

80) ذكر الأستاذ محمد حجي أن هذا الكتاب طبع مرتين على الحجر، انظر الحركة الفكرية، ج 1 ص 268 هامش 4.

81) محمد حجي : الحركة الفكرية م. س، ج 1 ص 269.

– ابن عسكر : الدوحة، م. س، ص 96.

82) محمد حجي : الحركة الفكرية م. س، ج 1، ص 270.

– الدوحة م. س، ص 97.

83) إدريس الفضيلي، الدرر البهية، م. س، ج 1 ص 264.

ويندرج في هذا كذلك ما نقلته المصادر التي واكبت المرحلة. حكايته الشهيرة مع السلطان أحمد المنصور والتي أخذت أبعادها من رأي المغيلي.(84)

إنه بالنظر إلى موقع مدغرة كحلقة وسطى وسط تلك الأصقاع الشبه الصحراوية، وكشرخ هام من الطريق التجاري الرابط بين الشمال والجنوب ومعبرا للقوافل التجارية. كلها عوامل جعلت منها محطة جدب للعنصر اليهودي، سيما وأن هذا الأخير انتشر من أقصى الشمال المغربي إلى تخوم الصحراء. واستوطن بالخصوص المراكز التجارية التي تمر عبرها أو تنتهي إليها قوافل الذهب، الرابطة بين شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء. ومن تم نستنتج أنه لا يوجد أي مبرر للقول بعدم استيطان اليهود بمدغرة. هذا الوجود الذي لم يقتصر على العبور والتردد على أسواق المنطقة المختلفة. بل أن وجوده إتسم بطابع الاستقرار بصورة تكاد تكون شبه نهائية. ونتوفر في هذا الخصوص على معلمة سكنية تدل دلالة قطعية على وجود العنصر اليهودي بمدغرة لاسيما بالقسم الأعلى منها، ويتعلق الأمر بقصر مُوشْقَلاَّلْ.(85)

فإذا كانت دلالة إسم هذا القصر غير واضحة ومبهمة في الإصطلاح اللغوي البربري والعربي معا، فهذا يعني أنها من إطلاق العناصر اليهودية - إفتراضا -. وهو اسم مكون من «مُوشِي» و«أقَلاَّلْ» ويدل هذا على أن اليهود ليسوا أقلية بل أنهم شكلوا إحدى المجموعات البشرية التي تتكون منها البنية المجتمعية لمدغرة. وقد حافظت هذه المجموعة البشرية على وجودها بمدغرة إلى بداية القرن 20م. فقد ذكر شارل دوفوكو هذا القصر

84) جرت هذه الحكاية عندما زار مولاي عبد الله بن علي بن طاهر السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي بمراكش ليقرئه القرآن بالسبع. وحدث أن رأى يهوديا بباب الأمير يتبعه المسلمون وهو راكب بغلة لها شأن عظيم. واتفق له ذلك أن بلغ في التجويد مع السلطان قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ فأعاد الشيخ مع السلطان الآية بالسبع ولم يرد أن يتجاوزها. ففهم الأمير مراد الشيخ فأمر السلطان وزيره بقطع رأس اليهودي وعلق خارج المشور. وكانت عادتهما أن يفترقا من موضع الإقراء في فراش السلطان. وذلك اليوم خرج مع شيخه حتى رأى رأس اليهودي فقال الشيخ الآن لست منهم.

- انظر الأنوار السنية م. س، ص 65 / الدرر البهية م. س، ج 1 ص 264.

85) انظر تحديد هذا القصر بالجدول الخاص بالقصور بمدغرة.

ولاحظ أن ساكنته تتكون خلال نهاية القرن 19م من غالبية يهودية وأسست ملاَّحاً به. قال: «يتكون قصر السوق من خمسة قصور هي: موشقلال، قصيبة أيت موحى أو علي، قصر الحراطين قصر أكوز وقصر أزرو، وتكون هذه القصور دائرة يتوسطها السوق والملاح».(86) ومعلوم أن وجود الملاح مرتبط بوجود العنصر اليهودي. وذكر إميل لااووست Emile laoust من جهته أن قصرا موشقلال وقصيبة أيت موحى أو علي كانت توجد بهما عناصر يهودية في بداية القرن 20م.(87) ومن جهتنا نتوفر على بعض الوثائق المحلية(88) يعود أغلبها إلى بداية القرن 20م والتي تثبت أن اليهود كانوا يملكون العقار ببعض قصور مدغرة العليا، وضمنها القصران المنصوص عليهما سابقا. ومعلوم أن تملك العقار يعني في صورته النهائية الاستقرار ومباشرة العمل الزراعي، هذا علاوة على الوظيفة التجارية التي هي أساس وجودهم بمدغرة عامة والقسم العُلْوِي منها بوجه التخصيص.

إن وجود العنصر اليهودي بهذا القسم من مدغرة له ما يبرره فمن جهة كانت المنطقة بمثابة سوق تجاري، وما يشهد على ذلك هو وجود السوق بهذا القسم من مدغرة. ومن جهة ثانية ضئالة الوجود العربي والعلوي بهذا القسم من مدغرة. والذي كان خاضعا وكما أشرنا إلى ذلك سابقا لقبيلة أيت إزدكَ الصنهاجية وبقايا بني ورابن.

وإلى عهد قريب جدا استمر الوجود اليهودي بمدينة الرشيدية حيث مازالت دورهم ودكاكينهم وبياعهم ماثلة للعيان، وما زالت بعض بقاياهم حتى الوقت الحالي. ومعلوم أن مدينة الرشيدية – قصر السوق سابقا خلال عهد الحماية – كانت حكرا على النصارى واليهود، فكان الشخص يُعَيِّرُ الآخر إذا ما ثبت أن هذا الأخير نوى هجرة قصره والسكن «بِالْفِيلاَجْ»(89) بجوار اليهود والنصارى.

---

86) de Faucauld (ch) : Reconnaissance. op cit, p 351.

87) Laoust (E) : l'habitation chez les transhumants du Moyen Atlas. in Hesp 1934. p 164.

88) سنثبت هذه الوثائق في الملحق الخاص بالوثائق، انظر الوثائق رقم : 10 – 11 – 12 – 13 – 14.

89) المقصود «بالفيلاج» هو القرية الجديدة واصطلاح الفيلاج هو تدريج للكلمة الفرنسية village من طرف المحليين.

أما في مـدغرة السفلى والـوسطى، فإننا لا نكـاد نعثر على أيـة معلمة أو إشارة تثبت وجود العنصر اليهودي بهذيـن القسمين من مدغرة. ونعتقد أن السبب في ذلك راجع بالأساس إلى كـون هذان القسمان بمدغرة كانـا بمثابة مراكز علمية وروحية دينيـة، بعد انتقال شرفاء قصور وادي إفلي إليهما مع مطلع العصر الحديث وتأسيس مجموعة من الزوايا. الشيء الذي لم يؤهلهما لاحتضان العنصر اليهودي رغم كـونهما منطقة عبور إجباريـة، وتوفرهما على أسواق تجارية محلية كما سبق أن أثبتنا ذلك في الفصل السابق.(90)

إن النفوذ الروحي الذي أصبح يمارسه الشرفاء وتشبتهم بالقيم الدينية المتشددة قد تكون وراء اختفاء هذا العنصر بمدغرة السفلى والوسطى. سيما إذا علمنا أن مولاي عبـد الله بن علي بن طاهر كان يغمى عليه عنـدما يرى اليهود. لأنه لم يتعود على رؤية اليهود بمدغرة الوسطى والسفلى ولو حدث لما تعود على ذلك. ممـا يعني أن العنصر اليهودي خلال مرحلـة مولاي عبد الله بن علي بن طـاهر كان عـدده قليلا بـالمنطقة. وقد يفسر ذلك بـالصدى الذي لقيته دعوة الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي بمدغرة. ويدخل في هذا السياق أيضـا أن من بين الأشيـاء المتعارف في بنـاء القصور أو تجديـدها، هناك بعض المأثورات الشعبية التي تحرم دخـول اليهودي إلى القصور ولو كان عـابر سبيـل أو يؤدي خدمـة من أي نوع كـانت (عطـار – سكاك – رفـاء). هـذا وإن كـانت الـذاكـرة الشعبيـة المحليـة تـذكـر أن قصر بني موسى(91) يـرتبط إسمـه بـالحرفـة التـي تخصص فيهـا اليهـود بإقليم سجلماسة.(92) وهـذا على العمـوم يوافق روايـة البكـري التي تشير إلى أن يهود سجلماسـة اختصوا في البنـاء، وإذا كـان ذلك حقا فإن هـذا يعني أن العنصر اليهودي ساهم في تطوير مورفولوجية البناء بقصور مدغرة. سيما

---

90) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني، ص :

91) انظر تحديد هذا القصر بجدول القصور بمدغرة.

92) تذكر الحافظة الشعبية المحليـة أن قصر بني موسي سمي بهذا الاسم لأن يهوديا بنى فيه بعض الأقواس، وأصبح يقال هذا بني موشي. بمعنى هذا البناء هو من إنجاز يهودي يدعى موشي ومع الـزمن استبدل حـوف الشين بـالسين وأصبح ينطق قصر بني مـوسي على ضرب من التخفيف وتفاديا للتجريح.

وأننا نعلم بنـاءا على مازالت الحافظـة الشعبية تذكـره من أن اليهود كـانوا متخصصين في بناء الأقواس والقبب.

نعتقـد أن الوجـود اليهودي بـالقصر المذكور لم يكن يقتصر على البنـاء فقط، بل كذلك من أجل الغرض التجاري. سيما وأن قصر بني موسي ينفتح على الطريق الـؤدية إلى تافيـلالت وإلى واحة بـودنيب بحوض كَير الأوسط، وحجتنـا في ذلك مـا نقلـه محمـد المختـار الســوسي. قـال: «قـال الحاكي اباسيـدي بن التهـامي(93) لما خـرجت تغمـرت آخـر سنـة 1336هـ عين

93) هو والد الباحث واسمـه الكامل عبد اللوي علوي محمد المبارك بن التهـامي المدعو اباسيدي بن التهـامي من قصر تاوريـرت مدغـرة. ازداد حوالي سنـة 1904م / 1321 – 1322 هـ بقصر تاوريرت مدغرة وتوفي يومه الأحد 8 يناير 1979م، بعد أن قضى مدة تزيد عن أربعة عشر سنة وستة أشهر، وهو طريح الفراش من جراء صدمة وأهوال فيضان وادي زيز لسنة 1965م. وقد تـرجم لنفسه في مخطـوط فتح القدوس قـال: «فأمـا كاتبـه محمد المبـارك بن التهامي المدعـو اباسيدي فهو طالب يحفظ القـرآن العظيم ويقرأ كتب التفسير والحديث والفقه والعربية والسيرة والتاريخ، ولـه خزانة من الكتب على اختـلاف أنواعها. تقـدر الآن – أي سنة 1972 وهـي السنة التي توافق إعادة كتابـة المخطوط أي فتح القدوس للمرة الثالثة. وتم ذلك بأمـر منه على يد ابنه الأكبر مولاي علي الشريف، وهـو الأخ الأكبر للباحث – بمأتي ألف ريال. وهو مشتغل بـالقراءة والمطالعة أثناء الليل والنهـار وهو الواصي من قبل والده ووالدته رحمهما الله على إخـوانه الذكور والإيناث وله أولاد ثلاثة هم:

– السيد مولاي علي الشريف بن محمد المبارك.

– السيد مولاي أحمد بن محمد المبارك – وهو الباحث –

– السيد مولاي محمد المدعو مولاي بن علي بن محمد المبارك.

وقد تقلب محمد المبـارك بن التهامي في مناصب شتى، كان واصيا على اليتـامى إخوانه من قبل والديه وصيـة هي مكتوبة. وكان من رجال جماعـة القصور بمدغرة الـذين بيدهم الحل والعقد أيام الاستعمار البغيض.

وقد تولى خطـة شيخ كبير على الثلث الفوقاني من مدغرة نحـو إحدى عشر قصرا. ومكث شيخا نحـو خمسة عشر عـاما بـلا أجرة، تحت قيـادة سيدي مـولاي التقي بن الشيخ سيدي محمـد العربي الجاوزي من قصر جاوز مدغرة وولده القائد اباسيدي بن التقي. وفي الأخير عزل وعذب وسجن نحو تسعة أعوام أيام محنة المغرب والمغـاربة في عهد السلطان سيدي محمد بن يوسف رحمه الله تعالى وأسكنه بحبوح جنته.

وحين رجع السلطان من منفـاه واستولى على عرش أسـلافه – 1956م – وأخذ المغـرب الحرية والاستقلال من دولة فرنسا الحامية. جعلني قائدا على مدغرة وقصر السوق والخنكَ وقبيلة أيت خليفة الـرحالـة وقصر تاردة ومكثـت فيها مدة سبعـة عشر سنة. وأنعـم علي جلالـة السلطان مولاي الحسن الثاني بالتقاعد نصره الله وخلد في الصالحات ذكره – وذلك سنة 1972 –. =

الـتوزنوني(94) مـولاي امبـــارك بن إدريس من شرفـاء القـــريـة المسماة لوجارشة في مفتتح 1337هـ. ومعه جيش من أصحــاب التوزنوني، فنزل في قصر أولاد الحاج من مضغـرة فـاستـولى على جميع نـواحي قصر الســوق. فحوصر في هــذا المركز، فحـاول امبارك وأصحــابه نسف الســور ليقتحموا المركز، ولكن لم يتمكنوا من ذلك. وقد أمر امبارك الناس أن يمونوا من معه فتأتي الأطعمة الكثيرة حتى يكتفي امبارك وحاشيته. وقد قتل امبارك حزانا يهوديا وحرطانيا من قصر بني موسي من مضغرة كانا يرافقان القوافل التي تأتي بالمؤمن من بوذنيب».(95)

فكل هذه القرائن التي سقناها هــي بمنزلة دليل محسوس على استمرار وجود العنصر اليهـودي بمدغـرة. على أن أقوى هــذه الأدلة هي المقــابر، إذ نعثر حــاليا بمــدغرة على مقبرتين: الأولى تـوجد بقصر مــوشقلال بــالقسم الْـعُـلْـوِي من مدغرة. والثانية توجد بالضاحية الجنوبية الغربية من مدينة الـرشيـــديـة، وهــو الموضع الـــذي نهض فيــه حي المسيرة الخضراء.(96) ونفترض أن تكون هناك مقابر أخـرى لليهود ننتظر أن يكشف عنها البحث الأثري بقصري بني موسي وأسرير.

إن وجود المقــابر الخاصـــة باليهــود بمدغــرة لا يعبر فقط على استمرار الوجود اليهودي بها، بل أنه يعكس نوعا من التعايش بين اليهود والمسلمين. سيما إذا علمنا أن سكان مدغرة يطلقون على المقبرة إسم «الْـمْـدِينَـةْ» سواء

= وقد من الله تبـارك وتعالى علي وحجيت بيت الله الحرام بمكة المكرمـة، وزرت قبر نبينا عليه السلام بالمدينة المنورة وطفت بتلك البقاع المقدسة مهبط الوحي ومنبع الرسل ثلاث حجات.

– الأولى عن نفسي أديت بها فريضة الإسلام.

– والثانية وهبتها على والدي مولاي التهامي رحمه الله، لأنه فاتته حجة الإسلام في حياته.

– والثالثة نويتها على والدتي لالة الصافية بنـت عبد الله رحمها الله، لأنها فاتتها حجة الإسلام في حياتها». انظر مخطوط فتح القدوس : م. س، ص ص 35 – 36 – 37.

94) التوزونوني نسبة إلى قصر من قصور وادي درعة يدعى أوتوزنون.

95) محمد المختار السوسي : المعسول م. س ج 16 ص 307.

96) ويعـرف كــذلك بحي «أوكَنـــان». على أن الإسم الشعبي لهذا الحي المتـداول على الألســن هـو «الْـحْـدَبْ». وقد نهض حي المسيرة الخضراء على إثر تـدمير وادي زيز لحي «الواد الحمر» الذي كان موجودا جنوب حي «لابيطا القديمة» على الضفة اليمنى من وادي زيز قبالة غابة قصر أولاد أبي ناجي إلى الشمال.

تعلق الأمر بالمقابر الخاصة بالمسلمين أو غيرهم، عكس ما نلاحظه مثلا بفاس. إذ كان ومازال أهل فاس يطلقون على مقابر اليهود إسم «الْجِيَافْ». ولن يتم غياب هذا العنصر الشبه الكلي عن هذه المقاطعة الجغرافية إلا في المراحل المتأخرة جدا، عندما بدأ اليهود ينزحون نحو المدن المغربية الكبرى كالدار البيضاء أو إلى أروبا وفلسطين المحتلة.

إلا أن ما يستوقفنا بخصوص وجود العنصر اليهودي بمدغرة هو ما تتناقله الذاكرة الشعبية من اتهام بعض سكان قصور مدغرة وعلاقتهم بأهل الذمة على مستويات مختلفة. ورغم أن الوثائق لا تثبت شيئا، إلا أن الشيء الأكيد علميا هو وجود نوع من التعايش بين جميع الفئات التي سكنت مدغرة تعايشا روحيا، قد يقنع البعض بالتوحد المطلق وقد يبقي البعض على حالته الأصلية.

عرب بني معقل :

شكل دخول عرب المعقل إلى واحات زيز متغيرا كبيرا في التركيبة السكانية لمجالات ما قبل الصحراء عموما. ورغم الفترة الوجيزة التي تمت فيها السيطرة المعقلية على هذه المناطق. إلا أنها أحدثت تحولات عميقة في البنية البشرية ليس فقط بالنسبة لمنطقة مدغرة، بل في مجموع واحات الجنوب المغربي. الشيء الذي أدى إلى اختفاء نسبي للعناصر البشرية التي استقرت قبلهم بهذه المجالات، والتي كانت تشير إليها المصادر القديمة.

ومع هذا التحول الذي عرفته البنية لواحات زيز أصبحت الخريطة البشرية بعد وصول عرب المعقل تتسم بسيطرة شبه كلية للوافدين الجدد، الشيء الذي انعكس على التراث المكتوب. ذلك أن المصادر التي واكبت المرحلة أصبحت تولي أهمية كبرى للعنصر العربي المعقلي المسير الفعلي لمجريات الأحداث بهذه الجهات خلال مرحلة سيطرته عليها. ونفترض أن تكون العناصر التي كانت مستقرة بهذه المناطق قبل السيطرة المعقلية قد اضطرت إلى الهجرة نحو مناطق أخرى تحت ضغط تأثير القادمين الجدد، وما تبقى منها دجن وأخضع لمشيئة العصبية المعقلية التي أصبحت صاحبة السيادة والقرار في مجموع مناطق جنوب وشرق الأطلس، وتلك أبرز السمات التي

أفرزها التحول الحاصل في البنية والخريطة البشرية خلال نهاية العصر الوسيط ومطلع العصور الحديثة بالمغرب.

اتفقت المصادر أن الزحف المعقلي على المغرب كان منذ النصف الثاني من القرن 6هـ/12م بعد الهجرة الهلالية إلى المغرب، وكانوا آنذاك متحالفين مع القبائل الزناتية المرينية. على أن البداية الفعلية لهذه الهجرة كانت مع أواسط الموحدين، فقد أشار أحد الباحثين أن ذلك حدث عندما نقل المنصور الموحدي بعض القبائل الهلالية من صحراء إفريقية إلى صحراء المغرب خلال القرن 6هـ/12م. ورافق هذه القبائل عدد لا يتجاوز المائتين من عرب المعقل نزلوا المنطقة التي تلي ملوية حتى رمال تافيلالت، حيث ازداد عددهم وعمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه وحالف عرب المعقل زناتة.(97) مما لا يدع مجالا للشك أنهم - أي عرب المعقل - لم يدخلوا إلى المغرب خلال الفترة التي قدم فيها مولاي الحسن بن قاسم، كما قد يوحي بذلك كلام طيراس. إذ يشير هذا الأخير أن مولاي الحسن بن قاسم دخل المغرب في الوقت الذي استقرت فيه العرب به، ويستطرد متسائلا هل الشرفاء العلويون والسعديون دخلوا إلى المغرب مع الموجة المعقلية التي تمت مع بداية المرينيين؟(98)

إن المصادر التي أرخت لقدوم شريف الينبوع مولاي الحسن بن قاسم إلى المغرب تتفق كلها على أن ذلك حدث في عهد الدولة المرينية. فقد جاء في الأنوار السنية أن قدوم المولى حسن بن قاسم كان في أواسط المائة السابعة قال: «وكان وروده على سجلماسة في الدولة المرينية على ما روي عن العالم سيدي إبراهيم بن هلال في مناسكه، وعن العالم العلامة الحافظ أبا محمد عبد الله بن علي بن طاهر... وذلك سنة 664هـ».(99) وذكر المرغيثي صاحب مقدمة المقنع أن شيخه الشريف العلامة المشارك الدراكة القطب الرباني أبا محمد عبد الله بن علي بن طاهر دفين أولاد الحاج بمدغرة قال له: جدي

97) أبو ضيف أحمد : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية على عهد الموحدين والمرينيين، البيضاء 1982، ص 147 وذلك بناءا على رواية ابن خلدون.

98) terrasse (H) : Histoire du Maroc. op cit, t 2 p 240.

99) أحمد بن عبد العزيز العلوي المدغري : الأنوار، م. س، ص 26.

مولاي الحسن الشريف بن القاسم هو القادم لسجلماسة من ناحية المشرق، وكـان دخولـه لمدينتهـا العظمى في أوائل السبعـة وهو من أبنـاء الستين... وتوفي بها قبل انقضاء المائة المذكورة».(100) وهذا يدل على أن هناك فاصلا زمنيا بين وصول أولى الموجـات البشرية المعقلية إلى المغرب وقـدوم مولاي الحسن بن القاسم إلى سجلماسة. ولا نستبعد أن يكون قدوم هذا الأخير قد صادف بداية استقرار بني معقل بالواحات وضمنها سجلماسة. وعلاوة على الفـارق الزمني الحاصل في القـدوم، نـلاحظ أن لا وجود لأيـة علاقـة بين المعقل العرب اليمنيون وشرفاء الينبـوع الحسنيون. فقد لخص الأستاذ عبد الـوهـاب بن المنصـور جميع الآراء التي قيلت في نسب عـرب المعقل. قـال: «...فنسب هـذا الشعب من العرب الـداخلين إلى المغـرب خفي مجهول عنـد الجمهـور، ويعدهم نسـابـوا العرب من بطـون هـلال وليس ذلك بصحيح. لأنهم ما تحيزوا إلى الهلاليين إلا بعدما أعجـزهم بنو سليم. أما هم فيدعون أنهم من أهل البيت من ذريـة جعفـر بن أبي طـالب(101) وهو إدعـاء غير مسلم به. لأن الطـالبيين والهاشميين أهل إقامة وحضر وليسوا أهل بـادية وانتجاع. ورجح ابن خلدون أن يكونوا يمنيين لأن من هؤلاء بطنيين يسمى كل واحد منهما بـالمعقل على ما ذكره ابن الكلبي وغيره، أحدهما من قظـاعة والآخر من مدحج. والغالب أنهم من هذا البطن الأخير».(102)

إن الغاية من إيراد هذه الإشارات يدخل في إطار التمييز بين عرب المعقل وشرفاء سجلماسة الحسنيين. لأن إشارة طيراس السابقـة الذكر قد يفسرها

---

100) محمد بن هاشم العلوي : مطالع الزهـراء في ذرية بني الزهراء، مخ. خ. ع الرباط رقم د 1768 ص ص 196 – 197.

101) يدافع عـن هذا الرأي أحمد بن خـالد النـاصري في طلعة المشتري، رغم أنـه يفتقد إلى أي دليل محســوس. مما يطبع افتراضــه بـالضعف، قال: «واعلم أننــي لم أتحقق بكيفية اتصــال نسبهم بجعفر رضي اللـه، غير أن الغالب على الظن أنهم من ولـد جعفر بن الأمير ابن إبـراهيم الأعرابي محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله ابن جعفـر رضي الله عنهم. وأنهم هم الذين كانت لهم الرياسة بالحجاز ثم غلبهم عليه بنو الحسن والحسين». انظر طلعة المشتري في النسب الجعفري ج 1 ص 92. أعادت نشر هذا الكتاب: «المؤسسة الناصريـة للثقافة والعلم» مطبعة سرار البيضاء 1987.

102) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب، ج 1 المطبعة الملكية 1968 ص 427.

من يحل له ذلك بكون الأسرة العلوية والإثنية المعقلية تشتركان في العديد من الخصائص، بما في ذلك زمن القدوم والصلات السلالية النسبية.

إن تكاثر العنصر العربي المعقلي تطلب فترة تزيد عن قرنين من الزمن لأن عددهم كان قليلا وقت دخولهم إلى المغرب رفقة وبعد الهلاليين خلال القرن 6هـ/12م. تم أصبحوا في القرن 8هـ/14م من أوفر قبائل العرب وأقواها، وقد ساعدهم على التكاثر انعزالهم في المناطق الصحراوية. أي في مجال بعيد عن المنافسة القبلية، وهذا ما سمح لهم بالتكاثر بهذه المناطق التي لم تشهد صراعا حادا بين القبائل، كما حدث بالمناطق الشمالية والغربية من المغرب. وهذا ما يبرر عدم ظهورهم على مسرح الأحداث السياسية ببلاد المغرب خلال القرن 6هـ/12م. لأن عددهم لم يكن يساعدهم على مزاحمة القبائل القوية ببلاد المغرب، وابتعدوا عن مناطق الصراع مدة طويلة. حتى إذا هل القرن 7هـ/13م وجدوا أنفسهم مؤهلين من حيث العدد لفرض سيطرتهم. تحركوا من مناطق الصحراء إلى الواحات الواقعة جنوب شرق جبال الأطلس،(103) سيما وأن الظرفية السياسية كانت مواتية. ذلك أنه لما طلع الزناتيون إلى التل وأسسوا مملكتيهم بفاس وتلمسان وإمارات أخرى بالمغرب الأوسط. تفرد عرب المعقل بالصحراء ونموا فيها نموا كبيرا. فملكوا القصور التي اختطتها زناتة وفرضوا الضرائب على سكانها، وصارت لهم اليد الطولى بجميع الجهات الصحراوية الواقعة بين المحيط الأطلسي وتيدكلت.(104) قال ابن خلدون: «لما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن قام هؤلاء - يعني عرب المعقل - وتفردوا بالبيداء وملكوا قصور الصحراء التي اختطتها زناتة بالقفر».(105) وعلاوة على هذا العامل الذي يظهر أنه ساعد عرب المعقل على التكاثر بعيدا عن المواجهة والصراع القبلي، ذكر ابن خلدون أن جماعات أخرى انظمت للمعقل من غير عصبيتهم وساهمت في تزايد عددهم. قال: «وقد تكاثر المعقل بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم، فإن فيهم من فزارة ومن أشجع

103) Marçais (G) : les arabes en bérbérie du XI au XIV siecles. paris 1913, p 374

104) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب م. س، ج 1 ص 414.

105) ابن خلدون : العبر م. س، ج 6 ص 78.

أحياء كثيرة وفيهم الشظة من كرفة والمهاية من عياض والشعراء من حصين والصباح من الأخضر ومن بني سليم وغيرهم».(106) وهذا يعني أنهم كونوا حلفا معقليا واحدا فيهم الأصيل والدخيل، فهم يجتمعون باعتبارهم رحل وعرب وينتمون لحلف عربي معقلي واحد، نجهل الكثير عنه وعن تطوره التنظيمي. لأن المادة العلمية لا تسعفنا في ذلك رغم إشارة ابن خلدون ومن جاء بعده.

وكل هذه العوامل وغيرها ساعدت عرب المعقل على القوة والتنامي وهذا ما حاول أحد الباحثين المحدثين التعليق عليه قائلا: «إذ لم يكن على عرب المعقل أن تتقوى شوكتهم بعيدا عن الضغط الأمازيغي وحيث تقل كثافة السكان بشكل ملحوظ. فلم يلبثوا أن شكلوا قوة عسكرية ضاربة فأصبحت المواجهة بين الأمازيغيين والأعراب تفترض مزيدا من الحذر والعداء، نتيجة ظهور المصالح الخاصة لكل طرف. وقد ظل هذا التباين بينهما يزداد متخذا مظاهر عدة منها المادية ومنها المعنوية. فظهر بشكل واضح أسلوب الإنتاج القائم على الغزو، وهو أسلوب غدته طبيعة الموقع الجغرافي والرسوم التي يمكن فرضها من طرف الأعراب على القوافل».(107) وهذا كله مقبول في الصحراء الغربية جنوب موريطانيا فيما يسمى عنده بمنطقة تكنة، ورغم ذلك فهذه الشهادة تصور جانبا من الصراع الذي أحدثه الدفع الداخلي المعقلي انطلاقا من الجنوب، في أفق تغيير الخريطة البشرية لمناطق جنوب الأطلس.

ومنذ القرن 7هـ/13م حاول عرب المعقل الوصول إلى السواحل الجنوبية الغربية المغربية بالمحيط الأطلسي، وقطعوا الطريق في وجه صنهاجة المتطلعة إلى المناطق الشمالية. لكن هذه الأخيرة نجحت في التسرب إلى الشمال، وما بقي منها من جماعات خضع لنفوذ المعقل.(108) ولم يصل النصف الثاني من القرن 7هـ/13م حتى كانت الواحات جنوب جبال الأطلس خاضعة لسلطة عرب المعقل، الذين أصبحوا سادتها. وحاول عرب المعقل في إطار

106) ابن خلدون : العبر م. س، ج 6 ص 76.

107) مصطفى ناعيمي : الصحراء من خلال بلاد تكنة ص 89.

108) delachapelle : Esquice. op cit, p 66.

عملية الدفع الداخلي الذي مارسته على هذه الأصقاع، مواصلة مسيرتها نحو المناطق الشمالية المغربية. لكنها اصطدمت بالقبائل الزناتية المرينية الرحل التي كانت تتحكم في الممرات المؤدية إلى الشمال. كما كانت مناطق الأطلس الكبير والمتوسط تحت سيطرة القبائل البربرية المستقرة بهذه المجالات منذ زمن قديم أو التي وصلت متأخرة تحت تأثير زحف القبائل المعقلية من جهة الجنوب. وكل هذه الجماعات كانت بمثابة درع واقي وحاجز أمام اندفاع المعقل نحو الشمال، مما اضطرهم للبقاء بالمناطق الواقعة خلف جبال الأطلس خلال مدة زمنية طويلة.(109)

تفيد رواية ابن خلدون أن المنبات الذين سيطروا على سجلماسة في أواخر القرن 7هـ/13م وأعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيان سلطان دولة بني عبد الواد، يعتبرون القوة الرئيسية فيما يسمى بالأحلاف من ذوي منصور: وكانت زعامتهم زمن ابن خلدون في محمد بن عبد الله بن حسين بن يوسف بن فرح بن منبا، وكانت في عهد السلطان أبا عنان لأخيه علي بن عامر بن أبي البركات بن منبا.(110)

ومع مطلع العصور الحديثة اشتد ضغط عرب المعقل على مناطق جنوب الأطلس، وضمنها منطقة مدغرة. فقد أشار الوزان أن هذه الأخيرة كانت خاضعة لسيطرة عرب المعقل لا سيما فصيل المنبات منهم. قال: «مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة – يعني دائرة الخنك – في اتجاه الجنوب خارج المضيق، وتحتوي على قصور عديدة تقع كذلك على وادي زيز وأهمها القصر المسمى هلال. وفيه يقيم أمير الدائرة وهو عربي، وله فخد من قبيلته تعيش في البادية تحت الخيام. وأخرى كذلك بالقصر مع بعض الجنود لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح. فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا وجردوا التجار والرائدين».(111) وهي نفس الإشارة التي ساقها مارمول الغرناطي في كتابه إفريقيا.(112)

---

(109) terrasse (H) : Histoire du Maroc. op cit, t 2 p 18.

110) ابن خلدون : العبر م. س، ج : 6 ص 89.

111) الوزان : وصف : م. س ج 2 ص 123.

112) مارمول : إفريقيا : م. س ج 1 ص 108.

كما كانت مدغرة إحدى مناطق مجال تحرك العمارنة، كما هو الشأن كذلك بالنسبة للمنبات. وبهذا الخصوص نتوفر على معلمة طوبينيمية بمدغرة ترتبط بهذا القبيل المعقلي. ويتعلق الأمر بقصر العمارنة وهو من القصور التي أنشأها عرب بني معقل من فرع بني عامر ثم إندرس بعد رحيلهم عن مدغرة. وقد سبق أن أشرنا في الفصل السابق أن هذا القصر يعتبر من القصور القديمة المندرسة، وهو الآن محل للزراعة بالغابة ولم يعد محلا للسكن كما كان من قبل.

يطلق على العمارنة والمنبات إسم الأحلاف، هؤلاء الذين لم يكونوا على وفاق تام مع أولاد حسين(113) إخوانهم الموجودين بمجالات فكَيكَ إلى الجهة الشرقية من مجال الأحلاف. لكن العصبية كانت تجمعهم ضد غيرهم حسب ما تفيدنا به رواية ابن خلدون.(114)

لقد كانت مجالات الأحلاف تقع على الطريق الرابط بين سجلماسة وفاس كممر طبيعي يتبع مجرى وادي زيز حتى أعالي ملوية عبر مضيق تيزي ن – تالغمت. فقد أشار عبد الوهاب بن منصور اعتمادا على رواية ابن خلدون أنهم كانوا يصعدون في التل نحو نهر ملوية حتى يبلغوا مصبه بالبحر الأبيض المتوسط، ويفرضون على أهله الضرائب والاتاوات.(115) كما كانوا يتحكمون في الطريق الرابط بين سجلماسة وتلمسان، وهذا ما أهلهم لأن يلعبوا دورا كبيرا في تاريخ المنطقة ابتداءا من القرن 8هـ/14م وما يليه. لأنهم كانوا يراقبون مناطق حيوية تمر عبرها القوافل التجارية التي كانت تزود بلاد المغرب بخام الذهب القادم من السودان.(116)

لقد تميز الصراع بين قبائل عرب بني معقل والقبائل البربرية القاطنة بجبال زيز بالمد والجزر، ولو أن الكفة كانت لصالح عرب المعقل في غالب

---

113) يحتمل أن يكون المقصود بهم بني حسن.

114) ابن خلدون : العبر م. س ج 6 ص 89.

115) عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب م. س ج 1 ص 425.

116) Marçais (G) : les arabes en berberie. op cit, p 374.

الأحيـان. فقد كـان هـؤلاء البرابرة يتحينـون فـرصة غيـاب بني معقل عن الواحات لبيع السمن والصوف للأهالي. قال الوزان: «ويذهب هؤلاء الناس – يعني بـربر جبـال زيـز – أحيانـا إلى سجلماسـة يحملـون إليها صـوفهم وسمنهم، لكنهم لا يـذهبـون إليهـا إلا عنـدمـا يكـون الأعـراب في الصحراء».(117) ويصور الوزان في مواضع متعددة من وصفه حدة الصراع وشراسة المواجهة التي كـانت تحدث بين الطرفين لا سيما عند نقط التماس. وقد كانت مدغرة إحدى نقاط صراع البدو والمستقرين أي بين إثنيات الجبال وإثنيات السهوب. إلا أن ظروف المواجهـة والحرب التي طبعت علاقة المعقل مع برابرة جبال زيـز منذ نهاية القرن 8هـ/14م إلى مطلع القرن 10هـ/16م كانت تتخللها فترات سلم، يستكين فيها الطرفان إلى حط أوزار الحرب وعقد اتفاقيات هدنة لفسح المجال للإتجار بأمان. قال الوزان: «أن هؤلاء الجبليين اعتـادوا في أيامنـا هذه – أي مطلع القـرن 16م – أن يطلبـوا من الأعـراب رخصة مرور ويعطونهم الأعـراب رخصة مرور، وهكذا يمكنهم الاتجار في أمان».(118)

إن الأثـر السلبي الـذي أفرزتـه السيطـرة المعقليـة على منطقة مـدغـرة رسخت لدى الأهـالي شعورا معاديـا لعرب بني معقل لا سيما بعـد انتقال شرفاء قصور وادي إفلي إلى مدغـرة. فالذاكرة الشعبية المحلية مـازالت تذكر مثالا شعبيا يعبر عن مدى السطوة التـي مارسها المعقل على الأهالي ومفاده «مْـشَـاوْ بْـنِـي عَـرْ أُوجَـاوْ بْـنِـي حْـسَـنْ»(119) وفي نفس هـذا السياق احتفظت ذاكرة المحليين كذلك بروايـات تعكس القوة والنفوذ التي تمتعت به قبيلة المنبـات بمنطقة مدغرة ومثـال ذلك المثال الشعبي القديم الـذي مازال يستعمل حتى اليوم بهذه المنطقة ومؤداه «لَـوْلا الْـمَــنْـبَـاتْ مَا يْـكَـدْ حَـدْ إيبَاتْ».

117) الوزان : وصف م. س، ج 1 ص 288.

118) الوزان : وصف م. س، ج 1 ص 288.

119) وأحيانا أخرى تعكس هذه الرواية.

فكل هذه القرائن والإشارات التاريخية تثبت أن الأسياد الفعليين لواحات جنوب الأطلس وضمنها منطقة مدغرة هم عرب المعقل، الذين لم يفرضوا فقط سلطتهم على هذه المجالات، بل أنهم ساهموا بشكل فعال في تغيير الهيكل الديمغرافي لهذه الواحة بشكل ملحوظ. وذلك عن طريق استقرار أعداد هائلة منهم بها. صحيح أن مسألة الوقوف على بقايا بني معقل بمدغرة في الوقت الحاضر لا سيما على مستوى الأسر المكونة لمجتمعات القصور المدغرية تبدو من الأمور الصعبة جدا، على اعتبار أنه لما ارتحل بنو معقل عن المنطقة، لم يتركوا بقاياهم السلالية بالإقليم. إلا أنهم مع ذلك تركوها على مستوى الطوبينيمية. وتشهد على ذلك مجموعة من المعالم السكنية سواء أظلت قائمة أو إندرست والمرتبطة بهذه الإثنية. وفي هذا الخصوص نشير إلى قصور أولاد أبي ناجي وأولاد الحاج وأيت مسعود - الغروس - العمارنة الرحبة وخصوصا أولاد بو عبد الله، التي استمرت علاقاتهم النسبية مع مجالات استمر فيها الوجود المعقلي حتى الوقت الحاضر.

إن التحول الذي عرفته البنية البشرية بمنطقة مدغرة ارتبط بوصول عرب المعقل واستقرارهم بجملة من واحات جنوب جبال الأطلس. الشيء الذي أدى إلى تجديد الخريطة البشرية التي أصبحت تتكون من غالبية عربية، وهو ما سيزداد بوصول شرفاء قصور وادي إفلي المنتقلين إلى مدغرة خلال القرن 16م. إذ أنه انطلاقا من هذا التاريخ ستصبح مدغرة في قسمها الأوسط وكذلك الأسفل مجردة بصورة نهائية من الإثنية البربرية المستقرة والتي لم تعد تذكرنا بها إلا أسماء الأماكن بالغابة وأسماء القصور والشعاب والممرات. في حين ظلت مدغرة العليا محافظة نسبيا على الوجود البربري الممثل خاصة بقبائل أيت إزدگ وبقايا بني وراين. وهذا التحول في البنية البشرية هو ما طبع منطقة مدغرة بميزة خاصة خلال الفترة الحديثة انطلاقا من القرن 16م، وهو ما سينعكس كذلك على التراث المكتوب الذي واكب أحداث المرحلة. فقد اقتصر الحديث من خلال المصادر على عنصرين إثنين خلال هذه المرحلة هما: عرب المعقل والشرفاء. لأن عرب بني معقل

كانـوا أصحاب القوة العصبيـة والشرفاء أصحاب النفـوذ الروحي والعلمي. وهذه التشكيلـة البشرية الجديدة هي التي ستـؤهل منطقة مدغـرة لتصدر أحداث المغرب الجنوبي مباشرة بعد انهيار الدولة المرينية. رغم أن إبراز هذه الصـدارة ظلت في الظل بالنسبـة لحديث الـوثـائق والحوليات عنهـا. ولكن نستطيع التقاط هـذه الأهمية في كتب التراجم وفي الـوثائق المحليـة الخاصة بتطـور ملكية الأراضي التي أمكننـا الحصـول عليها. وستلعب المنطقـة دورا فعالا ورئيسيـا سواء تعلق الأمر ببناء صرح الـدولة السعدية خـلال القرن 16م أو العلويـة في مراحـل لاحقة، وهذا مـا سنتناولـه بالتمهيـد في الفصل اللاحق.

الباب الثاني :

الفصل الرابع :

الشرفـــاء

مقدمـــة :

1 – الظروف العامة التي تم فيها استقدام الحسن الداخل إلى سجلماسة :

2 – انتقال بعض لأسر الحسنية من تافيلالت إلى مدغرة :

– الانتقال الأول :

– الانتقال الثاني :

3 – مواطن استقرار الشرفاء بمدغرة وما إليها :

– الشرفاء المحمديون :

– الشرفاء اليوسفيون :

1 – أسرة أهل قصر بوحامد :

2 – أسرة أهل قصر حم داوود :

3 – أسرة أهل قصر تعرمت :

أ – جدول جغرافية الانتشار العلوي بمدغرة :

ب – جدول جغرافيـة الانتشـار العلوي بمواطن أخرى خارج منطقة مدغرة.

4 – محاولة تقدير عدد السكان :

* طريقة الكوانين :

الباب الثاني :

السكن والسكان وتقسيماته بمدغرة

الفصل الرابع :

الشرفـــاء

مقدمـــــة :

اختلفت المصــادر في مسألــة تاريخ قــدوم جــد الأسرة العلــوية مــولاي الحسن بن قــاسم إلى سجلماسة، وهــذا طبعــا حسب تصور تلك المصــادر لدواعي هــذا الانتقال. فمنهــا من يرد تاريخ هــذا القدوم إلى عهــد السلطان الموحــدي عبد الــواحد المعــروف بالمخلــوع، خلال النصف الأول من العقــد الثالث مــن القرن 7هــ/13م. ومنها مــن يعود بــه إلى أوائل الدولــة المرينية خلال مرحلة حكم يعقوب المنصور المريني – أي خلال أواسط العقد السـابع من القرن 7هــ/13م –، وذلك اعتمادا على الشجرة الحسنية(1) التي أتى بها أبو إبراهيم. رئيس ركب الحجيج المغربي خلال تلك الفترة من ينبوع النخل إلى سجلماسـة.

---

1) لازالت هذه الشجرة لم تكتشف بعد.

وقد لخص مولاي إدريس الفضيلي جميع الآراء التي قيلت في هذا الموضوع. قال: «قال الشيخ الولي الصالح سيدي إبراهيم بن هلال في مناسكنه... أجداد شرفاء بلدنا سجلماسة الذين نزلوا في أوائل الدولة المرينية. قال الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله ابن علي بن طاهر وذلك سنة أربعة وستين وستمائة، قلت وهذا التاريخ أخذ عن الشجرة الحسنية التي أتى بها السيد أبو إبراهيم من ينبوع النخل. وقيل في دولة عبد الواحد الموحدي المخلوع على ما قاله أبو العباس أحمد بن يوسف السجلماسي.(2) فيكون ذلك في العشرة الثالثة بعد ستمائة. والصحيح الأول فيكون ذلك في دولة يعقوب المنصور المريني».(3)

فإذا كان تاريخ هذا القدوم يكتنفه الشك على الأقل حسب ما يمكن استخلاصه من إشارات النصوص، غير أن الأكيد أنه تم خلال الفترة الممتدة من عهد السلطان الموحدي المعروف بالمخلوع إلى عهد السلطان المريني يعقوب المنصور، وهو ما يمكن أن نحدده تاريخيا من سنة 620هـ إلى سنة 664هـ/1223 إلى 1265م. وهذه المرحلة الزمنية كانت كافية لخلق ظاهرة جديدة ليس فقط في تاريخ الغرب الإسلامي، بل في مجموع بلاد العالم الإسلامي عامة. فكيف تم وصول جد هذه الأسرة إلى سجلماسة؟ هل هي أسباب مرتبطة بالحركة المعقلية؟ أو بنظام ركب الحجيج؟ أو بالتجارة؟ أو هي مرتبطة بموقع الأسرة من أحداث الشرق العربي في الحجاز والعراق والشام، وما عاشته هذه الأقطار خلال هذا القرن من زحف مغولي تتري؟ أو هي مرتبطة بمسألة الخلافة؟ أو بهذه الأسباب كلها؟

---

2) لا تسعفنا المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها – رغم المحاولات الاستقصائية – في إيجاد ترجمة خاصة بهذه الشخصية. وعليه يبقى التعريف به باعتباره شخصية ساهمت في تدوين بداية هذه الأسرة في المغرب الأقصى. مسألة قد تكشف عنها مصادر جديدة تكتشفها عملية البحث المستقبلية.

3) إدريس الفضيلي : الدرر البهية م. س ج 1 ص 53.

1 - الظروف العامة التي تم فيها استقدام الحسن الداخل إلى سجلماسة :

إن المدقق في حالة العالم الإسلامي خلال القرن 7هـ/13م لا سيما على المستوى السياسي، يلاحظ بجلاء تام أن هذا القسم من العالم كان يعرف تحولات كبرى في خريطته السياسية. وما يتبع ذلك من تحولات اجتماعية واقتصادية، وذلك في سياق تحول مراكز القوى في العالم بأسره.

فأغلب المصادر والدراسات التي واكبت أحداث هذه المرحلة، ترجع تردي أوضاع العالم الإسلامي مع مطلع القرن 7هـ/13م إلى الآثار السلبية التي خلفها الزحف المغولي التتري على الجهة الشرقية منه، وانكسار الجيش الموحدي في معركة العقاب في جهته الغربية. الشيء الذي هز بنيته الكلية وغير خريطته السياسية الشاملة وفسخ خريطته البشرية. لكن هل المؤرخ يكتفي بالوقوف على هذه الأسباب دونما تركيز التحليل على المراحل التاريخية السابقة عن هذا الانهيار؟

صحيح أنه لا مجال لإنكار القوة العسكرية المغولية وقوة جيوشها بشكل لا يصدق، بالإضافة إلى مهارتهم التكتيكية التي أهلتهم للإنتصار، لكن مع ذلك فهذه التفسيرات هي تفسيرات أحداث.(4) لهذا لابد لنا من الرجوع إلى ما هو أبعد وأعمق من ذلك، أي إلى حالة العالم الإسلامي في جهته الشرقية قبل الزحف المغولي.(5)

---

4) أندريه ميكل : الإسلام وحضارته. ترجمة د. زينب عبد العزيز مراجعة كمال الدين الحناوي، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت 1981. ص ص 284 - 285.

5) فقد كانت البلاد الإسلامية في الشرق العربي مع أوائل القرن 7هـ / 13م منقسمة إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع على حساب الآخرين. ولم يدركوا خطر الغزو المغولي إلا بعد أن أغارت جيوش المغول على الدولة الخوارزمية، ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزءا من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأروبا الشرقية. ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعين في إقامة حلف إسلامي يصد التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل خطره. ففي بغداد نفسها قام النزاع بين القواد وطالبوا بزيادة أرزاقهم وتفاقمت العداوة والبغضاء بين الشيعيين والسنيين، وأشتد خطر نهر دجلة فاختل الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية حتى أن نصف أراضي العراق أصبح خرابا. قال ابن الأثير في الكامل: «ولقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر الذين أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها» أنظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 12 ص 138. =

إن الغاية من إيـراد مجموع هذه الأحداث هو بالـدرجة الأولى التنبيه إلى حـالة دويـلات العالم الإســلامي في جهته الشرقيـة. إذ كانت هـذه الأخيرة تعاني من التصدع والانشقاق على أكثر من مستوى. فعلى المستوى السياسي كانت سلط هذه الدويلات على فوهـة بركان وهشة البنيات التحتية لضمان استمرارها. كما ساهمت الأوضاع الاقتصادية المتردية إلى حد كبير في تهييء الظروف الملائمة لـزحف المغول الذي لم يلق مقاومة في مستـوى قوة وعدد جيوشه. لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م وغيرها من المراكز الإسلامية الأخرى حدثا مفاجئا، وإنما كان نتيجة لضعف العالم الإسلامي، الذي لم يفكـر حكامـه في إقامـة حلف إسلامي يستطيـع الوقـوف في وجه المغول والحفاظ على بنياته سيـاسيا واجتماعيا واقتصاديا، وعلى العكس من ذلك أتاح الفرصة للمغول لشن غاراتهم على البلاد الإسلامية التي بدأت منذ سنة 617هـ/1220 – 1221م. الشيء الذي انعكس على أوضاعه العامة وعجل بتحول كبير في خريطته السياسية وخلخل بنيته البشرية.

ولم تكن المنطقـة الغربيـة من العالم الإســلامي أحسن حالا من جهتـه الشرقية، إذ ستتميز الفترة الممتدة من سنة 620هـ إلى سنة 664هـ/1222 –

= كما قـامت في المشرق أمبراطوريـة خوارزم العظيمـة التي كـانت في أول الأمر تحمي الخلافـة العباسية من الشرق والشمال الشرقي بقوة جيوشها وضخامة أموالها. على أن علاء الدين محمد خوارزم طمع في الاستيـلاء على بغداد وانتـزاع السلطة من الخليفـة العباسي كما فعل السـلاجقة وبنو بـويه من قبل. ولكنه اضطـر إلى التراجع بسبب هبوب عاصفـة ثلجية وتقدم المغـول نحو بلاده وإحـلالهم الهزيمة بجيـوشه، وبعد هـذه الحرب الاستطلاعيـة والخاطفة عـاد المغول إلى بلادهم. على أن جـلال الدين منكبرتي الـذي عاد من الهنـد سنة 622هـ بعد أن فـر إليها أمام جيوش جنكيزخان بدلا من توجيه اهتمامـه وأخذ الحيطة لدرىء المغول، نراه يجمع فلول جيش أبيه ويعيد سيطرته على العراقين العربي والعجمي ويحارب أمراءهما حتى اضطر أمراء المسلمين إلى محاربتـه في السنة نفسهـا. وخلال سنـة 628هـ / 1230م أغار المغـول على جلال الـدين منكبرتي وهزموه وفر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد.

أما في الولايات الإسلاميـة الأخرى، فقد كانت الجزيرة العربيـة ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطة خلفـاء صلاح الدين الأيـوبي. إلا أن وفاة أخ صلاح الـدين سنة 610هـ أدى إلى انقسام الدولة بين أولاده الـذين انشغلوا بالنزاعـات والحروب وتهديد الولايات الصليبيـة التي كانت ما تزال قائمـة في سوريا ومصر وفلسطين. أنظر تاريـخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن م.س، ج 4 ص 135.

1265م بانهيـار الخلافة الموحدية بمجمـوع تراب الغرب الإســلامي. وكانت بداية ذلك من انكسار الجيش الموحدي في معركة العقاب سنة 609هـ/1209م بالأندلس، وسيستمر الإنحـلال الموحدي من سنة 615هـ/1215م. وتتلاحق بـوادر الضعف الحكـومي وينحصر نفـوذ السلطة في المدن خـاصــة، حيث اعتصم بها الولاة الذين لم يعد لهم نفوذ على البوادي. كما اشتعلت الثورات في كثير من الجهات وانعـدم الأمن في الطرقـات وظهرت المنـاكر بينما امتنع عامــة الشعب عن أداء الضرائب،(6) على أن الإنهيـار الفعلي والعملي للخلافــة الموحديــة سيتحقق مع نهاية العشرة السابعــة من القرن 7هـ/13م على يد القوة المرينيــة الصاعـدة. وستقوم على أنقاض هــذه الأمبراطوريــة المترامية الأطـراف أربع أسر حاكمــة، تقـاسمت النفوذ في الـرقعــة الموحديــة بشمال إفـريقيا والأنـدلس. فقـد صـارت تونس ومـا إليهـا من نصيب الحفصيين واستـولى بنو عبـد الواد على المغـرب الأوسط وانتصب المرينيـون بالمغـرب الأقصى، بينما استقر الأمر فيما تبقى مـن الأندلس المسلمة لبني الأحمر أو بني نصر بعدما استولى على معظم هذه الأخيرة القشتاليون والكطلانيون.(7)

يظهر ممـا سبق أن تطور الوضع التاريخي للعـالم الإسلامي مع مطلع القرن 7هـ/13م أفـرز تحولات كبيرة في الخريطــة السيــاسيــة والبشريــة والبنيات التحتيــة. وفي هذا الإطار التـاريخي تبدو مسألة قـدوم جد الأسرة العلوية إلى سجلماسة أمرا مرتبطا بالظروف العامة لتاريخ المشرق والمغرب. صحيح أن المادة العلميــة التي استطعنـا جمعهـا لا تشير بطريقــة مبـاشرة وجزمية إلى أن تطور الوضع التاريخي للعالم الإسلامي خلال مرحلة القرن 7هـ/13م كانت وراء انتقال الحسن الداخل إلى سجلماسة. ومع ذلك فإنه لا يجب أن نستبعد أن يكون هذا الوضع كواحد من الأسباب التي أثرت بشكل أو بـآخـر في الخلخلة العـامــة سيـاسيـا وبشريـا في مجموع بـلاد العـالم الإســلامي. وهــذا من شـأنــه – على مـا نعتقد – أن يـوفق بين مـا تحكيــه النصوص التقليدية المغربية فيما يخص أسباب هــذا القدوم والظرفية العامة التي كان يجتازها العالم الإسلامي خلال مرحلة القرن 7هـ/13م.

6) محمد المنوني : ورقات عن الحضارة م. س، ص 5.
– مجهول : الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. دار المنصور الرباط 1972 ص 35.
7) أبو ضيف أحمد مصطفى : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية م. س ص 112.

كما اختلفت النصوص المحلية كذلك في أسباب قدوم جد الأسرة العلوية إلى تافيلالت. فمن هذه المصادر ما يربطه بأهمية الشرفاء ومنزلتهم في المعتقد الشعبي الديني المغربي(8) قال في النزهة إن: «أهل سجلماسة لم تكن تصلح ثمارهم فذهبوا إلى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت، فأتوا بالمولى حسن المذكور. فحقق الله رجائهم وأصلح ثمارهم».(9) وساق البعض الآخر رواية أخرى تربط بين هذا القدوم وغياب السلالة الشريفة بتافيلالت خلال هذه المرحلة. فقد كان وصول الدول البربرية إلى حكم المغرب الأقصى في فجر القرن 10م تحت الزحف الفاطمي، وبحثا عن الاستقلال السياسي والعقائدي.(10) من بين الأسباب التي اضطرت الشرفاء

---

8) نود أن نوضح في هذا الخصوص أن الشرفاء كانوا أصحاب بركة ولم يكونوا حاصلين على بركة، لأن هناك رأي في الأوساط الأنتروبولوجية أنظر :

- Jamous (R) : Honneur et Baraka, les structures sociales traditionnelles dans le Rif paris 1981 p 205.

مفاده أن الشريف لا يتمتع بالبركة إلا بحد سيفه، وهذه إشارة واضحة إلى السلطان الشريف الذي يحصل على السلطة بعد القضاء على منافسيه. وهذا الرأي لا يصمد أمام مسلمات التاريخ السياسي المغربي الذي أفرز عدة أحداث تشهد كلها أن الشريف سواء كان منتصرا أو منهزما بقوة السلاح فهو صاحب بركة، يؤمن بها المجتمع المغربي في كل الأحوال والأمثلة متعددة :

– السلطان مولاي سليمان يهزم مرتين، الأولى من طرف برابرة الزاوية الشرادية ومرة أخرى من طرف برابرة الأطلس المتوسط. وفي الحالتين يعزز ويكرم السلطان المهزوم بعد أن يقتل جميع قواده ويتمسح الرجال والنساء بثيابه طمعا في التبرك به، ثم يرد إلى عاصمة ملكه دون أن يصيبه مكروه.

– المولى محمد بن الحسن الأول يقصى من ولاية العهد لعدم اهتمامه بالأمور الدينية وينفى إلى تافيلالت، ويتقمص «الروكي بوحمارة» في بداية القرن 20م شخصيته، فيحصل على ثقة قبائل المغرب الشرقي الذين جعلوا منه سلطانا. فيدرك المخزن المكيدة فيطاف بالمولى محمد الحقيقي، حينذاك يتمكن من الثائر بوحمارة.

– محمد الخامس يخلع عن عرشه وينفى خارج بلاده، فيخرج الشعب إلى الشوارع تحت وبال رصاص المستعمر مطالبا برجوع السلطان الشريف المنفي. أنظر مجلة أبحاث السنة الخامسة سنة 1988. عبد اللطيف أكَنوش ص 8 هامش 2.

– عبد اللطيف أكَنوش : تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب. مطابع إفريقيا الشرق البيضاء 1987، ص ص 104 – 105.

9) الإفراني : النزهة م. س، ص ص 289 – 290.

10) تنحدر هذه الدول كلها من القبائل البربرية الزناتية، وهي: دولة بني أبي العافية المكناسية ودولة المغراويين ودولة بنو يفرن أو ما سمي بدولة سلا – تادلا. وقد حكمت المغرب باسم =

الأدارسة إلى الإنصهار والذوبان في العصبيات البربرية بجهات مختلفة، وإخفاء أصلهم الشريف اتقاءا لقمع الدول الزناتية الموالية لخلفاء بني أمية في الأندلس.(11) ويظهر أن سجلماسة لم تنل حظها من السلالة الشريفة الإدريسية لبعدها عن فاس مركزهم الأول، ولكون ملوك زناتة حافظوا على شوكتهم بها. قال في مطالع الزهراء: «...إلى أن أظهر الله سبحانه وتعالى نجم الدولة المرينية... فأوضحوا نور النبوة واحترموا النور المحمدي فظهر من الأشراف الأدارسة من كان مختفيا في البلدان وفي الجبال، لما وجدوا في الدولة من الاحترام والتوقير والتبجيل... وأهل سجلماسة حيث لم يكن عندهم بقية من الأشراف لما روعهم ابن العافية لم يصل أحد منهم لسجلماسة لبعدها عليهم، ولكون ملوك زناتة كانت لهم شوكة بسجلماسة. وأجمعوا أمرهم - أهل سجلماسة - بعد المذاكرة مع رؤسائهم وكبرائهم وأعيان بلدتهم على أن يأتوا بشريف حقيقي النسب. فقالوا أجمعهم الذهب لا يطلب إلا من معادنه والياقوت لا يجلب إلا من مواضعه، ومواضع الأشراف الحجاز».(12)

وهذه الآراء تؤكد كلها على أن قدوم جد الأسرة العلوية إلى سجلماسة، جاء بعد دعوة أهل هذه الأخيرة لمولاي الحسن بن قاسم. بمعنى أن قدومه لم يكن في إطار موجة بشرية هاجرت إلى المغرب خلال هذه المرحلة. وهو ما لا يدع مجالا للإستئناس بما قد يفهم من إشارة طيراس الذي تساءل عما

= الإيديولوجية السنية الأموية الأندلسية من بداية النصف الأول من القرن 10م (950م) إلى نهاية النصف الأول من القرن 11م (1050م) وهو التاريخ الذي يصادف بداية الدولة المرابطية الصنهاجية أنظر:

- Agnouche (A) : Contribution à l'etude des strategies de legitimation du pouvoir autour de l'institution califienne, le Maroc musulman des Idrissides à nos Jours. thèse d'etat casablanca 1985 p 73 et suite.

11) لقد عرف موسى ابن أبي العافية بعدائه الشديد للأدارسة، وذلك نتيجة لتعاطفهم مع الشيعة الفاطمية عموما. فقد أخرجهم من فاس ونفاهم إلى مدينة مليلية وكذا إلى جبل العلم سنة 925م. وقد كانت أقسى ضربة تلقاها الشرفاء الأدارسة كانت على يد المغراويين المتحالفين مع الأمويين سنة 984م عقب ثورة الشريف الإدريسي الحسن بن جنون أنظر:

- Agnouche (A) : contribution. op cit .p 75.

12) مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء مخ. خ. ع الرباط رقم د 1768 . محمد الزكي بن هاشم العلوي ص 198.

إذا كان رئيسا الأسرتان السعدية والعلـوية قد قدما مع بني معقل.(13) وقد سبق أن استنتجنا وبنـاءا على الإشارات المنصـوص عليها سابقـا، أن عرب بني معقل كانـوا طالبين بينما جد الأسرة العلـوية مـولاي الحسن بن قاسم القادم إلى سجلماسة كان مطلوبا.

إن الظرفيـة التاريخية التي استقـدم فيها مـولاي الحسن بن قاسم إلى المغرب تميزت بخصوصيات بارزة، ذلك أن القرن 7هـ/13م تميز في المغرب الأقصى بظهور الـدولة المرينية التي كانت تتـوفر على القوة المادية الكـافية لقيام واستمـرار دولتهم. إلا أنها مع ذلك كانت تفتقد للسند الـروحي وهو الأمـر الـذي لم تبحـه لهم بـربـريتهـم المحضـة، سيما في وقت طغى فيـه الإنتساب إلى النسب العربي بوجه عام والعلوي بوجه خاص. من هنا نفهم لماذا حظي الأشراف بمكانة خـاصة لدى أمراء الدولـة المرينية الأوائل. وهذه «الحظوة» التـي كانت لهم عنـد أولي الأمر من بني مـرين مردهـا إلى الدور الذي قامت به فئة الأشراف وسط المجتمع المغربي عامة.

أفضت جهـود أحـد الـدارسين إلى اعتبـار أن علاقـة الـدولـة المرينيـة بالأشراف تعود إلى عهد أبي يوسف يعقوب(14) وذلك خلافا لما ذكره الأستاذ محمد القبلي، الذي اعتبر أن هذه العلاقة بدأت مع أبي يعقوب يوسف.(15)

يحدد الأستاذ محمـد القبلي الدوافع التـي حدت بـالمرينيين إلى الاتصال بالأشراف في عاملين:

1 – اعتماد مبرر الشرف كإيـديولـوجية سيـاسية، في الإطـار التاريخي العام في صراعهـا مع جيرانها بني عبـد الواد. سيما وأن مبررات الصراع بين الطرفين اعتمدت الشرف كوسيلة لتبرير مشروعية التوسع بالمنطقة.(16)

أما العامـل الثاني الذي حدا بها إلى الاهتمام بالشرفـاء، فيتمثل في الدور الذي لعبـه المتصوفـة وأولياء مدينـة فاس. في بلورة معـارضة دينيـة ضد

---

13) Terrasse (H) / Histoire du Maroc. t II op cit. p 240.

14) عبـد الوهـاب الـدبيش : فاس المرينيـة بين سنتي 674 – 759هـ / 1276 – 1358م «المجال والمجتمع وعلاقتهما بالدولة» د. د. ع التاريخ فاس 1989 ص 350.

15) محمـد القبلي : مساهمة في تـاريخ التمهيد لظهـور دولـة السعديين. مجلـة كلية الأداب والعلـوم الإنسانية الرباط. العدد 3 – 4، 1978 ص 6.

16) محمد القبلي : مساهمة م. س ص 17.

المرينيين. الشيء الذي اضطرت معه الدولة المرينية إلى تسييج هذه المعارضة عن طريق الاهتمام بالشرف والشرفاء، وهو ما ترجمه المرينيون إلى ممارسة واقعية. حيث أحيوا عيد المولد النبوي بجوامع فاس واعتباره عيدا وطنيا رسميا، كما فعل بنو العزفي بسبتة قبلهم.(17) وسواء كان هذا الاهتمام مرتبطا بالظرفية السياسية في علاقتهم مع بني عبد الواد أو كان مرتبطا بعلاقتهم بالمتصوفة، فإن علاقتهم بالأشراف كان الهدف منها هو استغلال هذا الاهتمام لترسيخ مشروعيتهم السياسية كسلطة قائمة بالمغرب خلال هذه المرحلة.

إن تطور الأوضاع الداخلية للمغرب بعد القرن 4هـ/10م لم يكن في صالح فئة الأشراف، التي ركنت فيما بعد إلى الصمت لمدة طويلة. وهو الصمت الذي فسره الأستاذ محمد القبلي بعاملين:

1 – ضعف وزنهم الاجتماعي على إثر الحملات القمعية التي وجهت ضدهم على يد موسى بن أبي العافية.

2 – اندماجهم وانصهارهم ضمن العصبيات البربرية التي استقروا بين أحضانها. بعد أن انسلخوا من نسبتهم «ولبسوا جلدة العصبيات البربرية».(18)

إن أهمية الشرفاء زمن المرينيين الأوائل على المستوى الاجتماعي تفسر بمجموعة من العوامل. يأتي في مقدمتها تغلغل محبة الرسول وآل بيته في المعتقد الشعبي والديني، سواء لدى السلطة الحاكمة أو لدى الطبقات الاجتماعية ومن ضمنها المتصوفة.(19) فقد أشارت النصوص إلى أن العامة والخاصة كانت تنادي على الشريف بلفظة «سيدي». ويلاحظ الأستاذ القبلي أن هذا المصطلح كان سابقا عن تداول مصطلح «مولاي» الذي لم يعد متداولا على الألسن إلا خلال العهد الوطاسي.(20)

---

17) يشير الأستاذ محمد المنوني أن : «أول من ندب لهذا الإحتفال بالمغرب هو قاضي سبتة أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي ثم العزفي السبتي المتوفى عام 633هـ / 1236م.
أنظر : محمد المنوني : ورقات م. س ص 265.

18) محمد القبلي : مساهمة م. س. ص 17.

19) محمد القبلي : مساهمة م. س. ص 17.

20) محمد القبلي : مساهمة م. س. ص 17.

إن الغـاية مـن سرد كل هذه الآراء يهدف إلى رصـد الظـرفيـة الزمنيـة الخاصـة ببـلاد المغرب الأقصى، والتـي تمت فيها عمليـة استقـدام شريف الحجاز مـولاي الحسن بن قاسم إلى المغـرب. بمعنى أن المرحلة التـاريخية التي تم فيهـا هـذا الانتقال تميـزت بـالعطف الكبير على الشرفـاء وتقديـر جـانبهم، ممـا يعطي لهذا العامل أهميـة بـارزة في تفسير الـوجود العلـوي الحسني بمنطقة تافيلالـت بوجه خاص في هذه الظرفية الـدقيقة من تاريخ بلاد المغرب الأقصى.

يظهر من مجموع النصوص التي تعرضت لقدوم جد الأسرة العلوية إلى تافيلالت، أن هذا الانتقال تم في ظرفيـة جد مواتية لصالح الشرفاء، كما أن هـذا القـدوم كان بطلـب من أهل سجلماسة حسـب ما تحكيـه النصـوص التقليدية المحلية. وأنه – أي هـذا القدوم – لم يأت بين عشية وضحاها، بل هـو نتاج دراسـات ومنـاقشات طـويلـة. وربما حدثت اتصـالات بين أهل سجلماسة وأشراف الحجـاز لبرمجة وترتيـب هذا القـدوم. مما قـد يفيد في الكشف على أن قدوم الحسن الداخل إلى تافيـلالت ما هو في حقيقة الأمر إلا استجابـة لظرفيـة معينة وحـاجة ملحـة. فمن جهة نـلاحظ أن قـدومه إلى سجلماسة رافقه بـداية ظهور وتقوي شأن الأشراف في بـلاد المغرب وأعيد لهم الاعتبار، بعدما لاحقهم الأذى في المراحل السابقة على يد الدول البربرية الزناتيـة. إلا أنه مع تطور الأوضـاع الداخلية للمغـرب أصبح الشريف موقر الجانب ومطلوبا أكثر منه طالبا، وأصبح التوجه نحو احتضان هذا العنصر واستقطابـه بمختلف الوسائل. سيما وأن السلطـات الحاكمة نفسهـا كانت توقره وتقدره وتتقرب إليه مهما تعـددت خلفياتها وراء هذا التوجه الجديد. وفي خضم هذا التطور الحاصل في ذهنيـة المجتمع المغربي أصبحت مختلف المنـاطق المغـربيـة تتبـاهى بـاحتضـان الأشراف وتكـريمهم وتعظيمهم واستقطابهم من مراكزهم الأصلية. وكـانت منطقة تافيلالت من بين المناطق المغـربية التـي كانت تفتقـد إلى عنصر الأشراف حسب مـا تـرويه المصـادر المعاصرة لبني مرين. هذا وإن كنا نتوفر على بعض الإشارات التاريخية التي تشير إلى وجـود العنصر الحسني بنـواحي إقليـم سجلماسـة منـذ القـرن 4هـ/10م. فقد أشار المقري التلمساني إلى أن: «سيدي عبد الرحمان بن علي

بن إبـراهيم بن علي بن إدريس بن إدريس الحسني فر إلى سجلماسـة.(21) كما نتوفـر على بعض الوثـائق المحلية التي تشير كـذلك إلى وجود العنصر الحسني بمنطقـة زيـز الأعلى بإقليم سجلماسـة. ويتعلق الأمـر بـالشرفـاء المنحـدرين من الولي الصـالح سيدي أبـو وكيل بزاويـة أبو وكيل، وأيضـا بناحية منطقة تدراكلوت بزيز الأعلى.(22)

ولا نستبعد أن يكـون بعد مواطن هـؤلاء الأشراف وقلة عددهم، هـو ما حدا بالمصادر إلى القول بانعدام وجود هذا العنصر بنواحي إقليم سجلماسة خـلال المراحل السـابقة عـن الفترة المرينية. أو أن هـذا العنصر وجـد بهذه المناطق في فترات لاحقة عن تاريخ كتابة هذه المصادر.

يشير الزكي العلوي أن أهل سجلماسة : «أجمعوا أمرهم بعد المذاكرة مع رؤسـائهم وكبرائهم وأعيان بلـدتهم، على أن يأتـوا بشريف حقيقي النسب. فقـالوا أجمعهم: الـذهب لا يطلب إلا من معادنـه والياقـوت لا يجلب إلا من مواضعه، ومواضع الأشراف الحجاز».(23) وهذا النص يقيـم الدليل على أن سكان تافيـلالت لم يأتوا بمولاي الحسن بن قاسم إلا بعـد مداولات وأخذ ورد بين كبرائهم وأعيـانهم. وهـذا مـا أجبرهم على ربط الاتصـال بأشراف الحجاز. وكلفـوا بهذه المهمة أحـد أعيانهم وكبرائهم، وفي هـذا الخصوص لا نستبعد أن يكون اختيـار السيد أبا إبراهيم مرتبط بخطـورة هذه المهمة من جهـة، وبمكـانة الـرجل بـاعتبـاره أميرا لـركب الحجيج وثقلـه الاجتماعي والسياسي بين قومه وعفافه وصلاحـه، ومعرفته بمواطن الأشراف بالحجاز. فقد كان أبو إبراهيم: «عاملا عالما زاهدا ورعا صواما قواما كثير النسك لبيت الله الحرام. وكان رضي اللـه عنه أعرف الناس بـالأشراف في أماكنهم وأكثر زوارا لهم يواسيهم بما له ويوقرهم ويعظمهم ويراعي فيهم الجانب النبوي. وكـان إذ ذاك أهل سجلماسة هم أهل الأركـاب المغربيـة والأمير عندهم هـو الشيخ أبو إبـراهيم، لأنه كان عنـدهم جليل القدر فاضـلا له سمعة عـالية ونفس أبية... وكان رضي الله عنه مسموع الكلمة في سجلماسة».(24)

---

21) ابن عبد الله أحمد بن محمـد التلمساني المقري : زهرة الأخبـار في تعريف أنساب آل بيت النبي المختار. ص 72، المطبعة الجديدة فاس 1349هـ الطبعة الأولى.

22) سنثبت هذه الوثائق في الملحق الخاص بالوثائق، أنظر الوثائق رقم : 15 – 16 – 17 – 18 – 19.

23) الزكي العلوي : مطالع م. س، ص ص 198 – 199.

24) الزكي العلوي : مطالع م. س، ص ص 195 – 196.

لقد تطلبت هذه المهمة من السيد أبـا إبراهيم بذل الجهد الكبير في اختيار من يصلح من الأشراف الحجازيين لهذا التشريف. ومن تم لم يتوجه إلى أي كـان من شرفاء الينبـوع بل قصد وهـو الخبير بالأسر الشريفـة بالحجـاز وبأشراف مكة، من ثبتت فضيلتـه وثقته وعفافه ومركـزه الاجتماعي اللائق لهذه المهمـة. وكان تـوجهه إلى الشريـف مولاي الحسن بن قـاسم ينسجم ويستجيب لهذه التطلعـات، ويظهر ذلك مـن خلال الـوصف الـذي قدمتـه المصادر حول شخصية الحسن الداخل، ومزايا أسرته ومكانتها الروحية من بين أشراف مكة والحجاز عامة. قـال الزكي العلوي: «الشريف المنيف مولاي الحسن الشريف الفاطمي العلوي الحسني الينبوعي العيالي. لأن قومه رضي الله عنهم لما نـزلوا الينبوع كثـرت عليهم الخيرات واشتغلوا بإطعـام الطعام ،وكذلك كانت سيرة أسلافهم في القديم كعبد المطلب... وعبد مناف وكانوا في زمان الشدة والمجاعة يُـعَـيِّـشُونْ الناس بالقوت. فصار الناس يقولون لهم الْـعَــيَّـالِـيَّـةْ، فـاشتهروا بهذا الاسم».(25) ممـا يعني أن أسرة مـولاي الحسن بن قـاسم القادم إلى سجلماسـة كانت ذات يسر وعفـاف ووجاهـة بالحجاز. الشيء الذي ينفي نفيا قطعيـا أن تكون العوامل الاقتصادية بما في ذلك قلة ذات اليـد كأحد الأسبـاب التي كانت وراء هـذا القدوم. كما تطلبت هذه المهمة كـذلك من السيد أبي إبراهيم القيام بمفاوضـات عسيرة وشاقة لإقناع أسرة شرفاء الينبـوع بالسماح لمولاي الحسن بن قاسم بـالذهاب إلى المغـرب. ونعتقد أن شخصيـة السيد أبـا إبـراهيم المحترمة من قبل شرفـاء الينبوع والقـوية التأثير فيهم سـاعدته على النجـاح في مسألة إقنـاع السيد مولاي قاسم الذي لم يرسل إلا أنبل أبنـائه وأكثرهم سماحة وعفافا وثقة. ولكن بعد أخذ ضمانات تأمين ولـده. قال الناصري: «إن أهل سجلماسة لما طلبـوا من المولى قاسم بن محمـد أن يبعث معهم أحد أولاده، وكـان يومئـذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجـاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك. وكان له على ما قيل ثمانية من الولد، فكان يسأل منهم الواحد بعد الآخر من فعل معك الخير مـاذا تفعل معـه أنـت؟ الخير ومن فعل معك الشر فيقـول الشر

25) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 100.

فيقول اجلس إلى أن انتهى إلى المولى حسن الداخل. فقال له من فعل معي الشر أفعل معه الخير. قال: فيعود ذلك بالشر فأعود له بالخير، إلى أن يغلب خيري على شره. فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة وفي عقبه».(26)

يظهر من خلال النصوص التي استطعنا جمعها أن السيد أبا إبراهيم لم يتقدم بطلبه هذا إلى الشريف مولاي قاسم بن محمد بمفرده، بل إنه كان محفوفا بجماعة من أعيان أهل سجلماسة وكبرائهم. مما يضفي على هذا الطلب طابعا رسميا جماعيا. ونعتقد أنه علاوة على مكانة السيد أبا إبراهيم عند قومه وعند أشراف الحجاز، كان للوفد الذي صحبه إلى الينبوع بغرض استقدام الشريف مولاي الحسن بن قاسم الأثر البالغ في نزوع مولاي قاسم إلى تلبية رغبة هؤلاء. وهذا ما تنبه إليه إشارة مولاي عبد الله بن علي ابن طاهر عندما سئل عن القبائل من أهل سجلماسة الذين كانوا مع الشيخ أبا إبراهيم وقت حجه وقدومه بمولاي الحسن بن قاسم الشريف لبلاد سجلماسة، فأجاب رضي الله عنه هم أربعة قبائل(27): أولاد البشير وأولاد الميزار(28) وأولاد بن عاقلة وأولاد المعتصم. وهذه القبائل الأربعة كلهم من العرب الواردين على سجلماسة القاطنين بالمدينة العامرة... وما زالت هذه القبائل الأربعة متمسكة بالحسب والنسب مشتغلين بقراءة القرآن والدين والصلاح. وقد كانت لهم شوكة في مدينة سجلماسة، بحيث لا تجمع كلمة إلا بهم أو لبعضهم وجل علمائها وصلحائها منهم».(29) وهذا يحملنا على استنتاج آخر، وهو أن التمركز المعقلي بالمنطقة لم يكن مبنيا من بدايته على السلالة النبوية كما زعم طيراس.

---

26) أبو العباس أحمد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. دار الكتاب البيضاء 1954 ج 7 ص 6.

27) استعمال مصطلح «قبيلة» هنا ليس بالمعنى الخلدوني، وإنما تستعمل للدلالة على أسرة صغيرة كان المؤرخون القدامى يطلقونها عادة على أسر المدن المرينية مثل فاس وسجلماسة، هذه الأخيرة التي ما تزال قائمة كمدينة مسورة. مما يعني أن النص يتكلم عن مدينة سجلماسة وليس على قصورها.

28) يعرفون بأولاد المنزاري.

29) الزكي العلوي : مطالع م. س، ص ص 197 – 198.

إذا كان أبو إبراهيم والوفد المرافق له قد استطاع انتزاع موافقة مولاي قاسم كما يشير إلى ذلك نص الناصري. فإنه كانت أمامهم مهمة أخرى تمثلت في محاولة إقناع مولاي الحسن بن قاسم للقدوم معهم إلى سجلماسة. والغالب على الظن أن أبا إبراهيم بعد إقناع مولاي الحسن بن قاسم، هذا الأخير الذي ربما اشترط عليهم العودة إلى موطنه الأول إذا لم يطب له المقام بسجلماسة. لذلك عمل أبا إبراهيم وأفراد الوفد الآخرين على إغرائه بأهمية الإستيطان بسجلماسة كقولهم له بأنها «قاهرة المغرب في ذلك الوقت، وفيها العلماء والصلحاء والتجار».(30) واستمروا يزينون له الإقامة بسجلماسة حتى عند بلوغهم إياها، ولم يكتفوا بذلك بل لجأوا إلى استعمال شتى أنواع الحيل لإقناعه بضرورة الاستيطان بها. قال الزكي العلوي: «لما رجع ركب الحجيج قدم مولاي الحسن معهم، وأهل سجلماسة فرحين مسرورين إلى أن وصلوا سجلماسة ودخلوا مدينتها العظمى... فاحتالوا عليه في سكناها بكل حيلة حتى استوطنها».(31)

إن جميع هذه الآراء المنصوص عليها تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن شريف الينبوع القادم الحسن الداخل، حدث خلال النصف الثاني من القرن 7هـ/13م، وأن هذا القدوم كان بطلب من أعيان سجلماسة. مما يستبعد كل رأي يذهب إلى أن قدومه كان هو محاولة استبدال مجال فقير بآخر أكثر غنى، أو محاولة التخلص من وضعية مادية ضعيفة بأخرى أكثر رغدا وبسطا. وكل هذا حدث في وقت كان فيه المغرب قيادة وقاعدة قد ربط مصيره الاجتماعي بمصيره الديني، الذي أصبح سنيا. بعد الإنقلاب الذي أحدثه المرينيون الذين وصلوا إلى سدة الحكم بعد الموحدين المهدويين. وهذا ما طبع المنطقة في بنيتها البشرية بعنصر جديد أسهم بشكل فعال ومتميز في تطور تاريخ المغرب عامة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وروحيا. فمن جهة، سوف ننتظر مدة أربعة قرون كاملة بعد أن تتحول هذه الأسرة من عائلة ذات نفوذ روحي محلي، إلى قوة جديدة تتزعم مشروعا سياسيا بعد ذلك على المستوى المحلي والتراب الوطني ككل. وخلال هذه المرحلة كذلك أثروا

30) الزكي العلوي : مطالع م. س، ص 196.

31) الزكي العلوي : مطالع م. س، ص 196.

الساحة الفكرية بمساهماتهم في مختلف الميادين المرتبطة بشتى الألوان الأدبية المختلفة. ونشير في هذا الخصوص إلى أن الحسن الداخل وصل إلى سجلماسة بعد أن اكتملت شخصيته العلمية والفكرية،(32) بمعنى أن أهل سجلماسة أتوا بأمير روحي. لأن الرجل عندما قدم إلى سجلماسة كان في تمام الستين من عمره – أي في تمام نضجه السياسي والمعرفي، وتمام توفره على الزعامة الروحية –. مما يحملنا على الاعتقاد أن هذا الاستقدام كان عملية منظمة.

لقد استقر الشريف مولاي الحسن بن قاسم جد الشرفاء العلويين بمكان يسمى الْمَصْلَحْ(33) بعد وصوله إلى سجلماسة. وهناك توفي بإجماع المصادر التي أرخت لقدومه،(34) وتنافست قبائل سجلماسة بمجرد قدوم مولاي الحسن الداخل في مصاهرته. فقد ذكر صاحب النزهة أن الحسن الداخل لما استقر بسجلماسة اطمأنت به الدار، زوجه السيد أبو إبراهيم ابنته.(35) وكان لعامل اتخاد الشرفاء لزوجات متعددات من عصبيات مختلفة أن تكاثر الشرفاء بهذه المجالات. فحسب المخطوطة التي قام بنشرها

---

32) يكفي التذكير أن مولاي الحسن بن قاسم القادم إلى سجلماسة كان بارعا في علم البيان، فالمصادر تجمع على أن إليه يرجع الفضل في إدخاله إلى المغرب. فقد أشار الأستاذ عبد الكريم الفيلالي في إحدى هوامش تحقيقه لكتاب الأنوار أن : «الحسن بن قاسم كان عالما عارفا بمختلف الفنون منها البيان». أنظر الأنوار السنية : م. س ص 27 هامش 1.

33) يغلب على الظن أن اسم الْمَصْلَحْ كان يطلق على منطقة محدبة داخل مدينة سجلماسة القديمة، قبل أن يتحول المكان على إثر اندثار مدينة سجلماسة القديمة إلى اسم على أحد حقول ومزارع غابة قصر السيفة بجماعة ابني امحمد. أنظر لحسن حافظي علوي: سجلماسة م. س ص 147.

وحجتنا في ذلك ما جاء في تقاييد العربي بن عبد السلام قال: «فلما توفي رحمه الله – يعني مولاي الحسن بن قاسم – جاء أهل سجلماسة... كل قبيلة تريد دفنه في أرضها، فتفاقم الأمر على الشيخ أبا إبراهيم... وقال لهم أن كان قصدكم البركة فادفنوه وسط سجلماسة لتعم بركته جميعها. فتهادنوا وتراضوا على أن أخرجوا أمناء لكيل الأرض وهو رضي الله عنه مورج في الأكفان، فدفنوه حيث ضريحه الآن بالحدب لتوسطه». أنظر تقاييد العربي بن عبد السلام مخطوط خاص ورقة 2. ونفترض أن يكون إسم المصلح مشتق من مكان الاجتماع والتصالح إذا ما وقع خصام. كما لا يستبعد كذلك أن يكون المقصود به الرجل المصلح.

34) الناصري : الاستقصا م. س ج 7 ص 5.

– الإفراني : النزهة م. س ص 292.

35) الإفراني : النزهة م. س، ص 292.

«بساك Bassac» أن مولاي علي الشريف الذي توفي خلال القرن 9هـ/15م كانت له ثلاث زوجات هن: نجمة الحبشية وفاطمة العامرية التادلية وفاطمة الزهراء المنزرية السجلماسية.(36) ونعتقد أن ذلك مرتبط بالنفوذ والمكانة التي كان يحتلها الشرفاء في المجتمع المغربي. وتفسر كذلك كيف كان الشرفاء وهم أهل الحل والعقد، يحلون مشكل التنافس القبلي عن طريق المصاهرة. وهي أيضا إحدى الحلول التي غالبا ما كانت تذيب الخلافات بين العصبيات المتناحرة. ومن باب التذكير فقط نشير إلى أن هذه الظاهرة استمرت لدى بعض شرفاء مدغرة.(37)

ومع مرور الزمن أصبح الشرفاء يمثلون القوة الدينية والروحية بمناطق تافيلالت. وقد كان للتحولات التي عرفها المجتمع المغربي في العهد المريني والوطاسي دورها في ذلك، نظرا للإهتمام الذي أبداه المخزن المريني حيال آل البيت بشكل عام. قال ابن السكاك: «أما ملوك بني مرين فلا أعلم منهم إلا من كان معظما مكرما لهم على غيرهم، مهتما بمصالحهم. إلا أن بعضهم امتازوا في ذلك بمزيد قوة اختصاص، كالملك المجاهد أبا يوسف الذي محا دولة بني عبد المومن ومهد الدولة المرينية. كل ذلك ببركة تعظيمه لما هو من رسول الله».(38) ويظهر من كلام ابن السكاك أن الفراغ المذهبي الذي ظلت الدولة المرينية في حاجة إليه، هو ما حدا بها إلى التقرب من الأشراف لضمان مساندة الرأي العام.(39) لدرجة جعلت ابن السكاك يعتبر محو كيان دولة بني عبد المومن مرتبطا بهذا التقرب. وهو ما يعكس القوة الروحية والدينية للشرفاء، وأهمية مكانتهم لدى دولة بني عبد الحق. وإن كان هذا لا ينفي بالطبع وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، أن هذا التوجه كان مرتبطا بالبحث عن المشروعية السياسية للمرينيين في علاقتهم مع جيرانهم بني عبد الواد

---

36) Bassac : Sijilmassa, traduction d'une manuscrite arabe. B.S.G. Alger. 1930 p 232.

37) فقد جاء في فتح القدوس م. س ص 53 أن «أنجال سيدي محمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر كانت نساءهم على ثلاث».

38) ابن السكاك : نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخ. خ. ع رقم ك 383، ص ص : 42 – 43.

39) محمد القبلي : مساهمة م. س ص 11.

وبالمتصوفة، لتسييج أية معارضة دينية مرتقبة من طرف هؤلاء. بمعنى أنها عملية تبريرية من الوجهة السياسية.

وقد ازدادت مكانة الشرفاء لدى سلاطين بني عبد الحق في القرن 8هـ/14م. فقد كان أبو الحسن المريني يسعى إلى التبرك بشرفاء المغرب قاطبة،(40) كما أن أبا عنان ربط صلات طيبة مع شرفاء سبتة وسجلماسة وشرفاء تيط، وتدلنا إحدى الرسائل الموجهة من هذا السلطان إلى شرفاء إقليم سجلماسة على هذا الاهتمام،(41) الذي لا يفسره الأستاذ محمد القبلي فقط بعامل إيديولوجي. بل يشير إلى أن إقدام المرينيين على الاهتمام بشرفاء سجلماسة وإدماجهم في سلك شرفاء الدولة، كان يحركه عامل اقتصادي صرف. لأن منطقة نفوذ الشرفاء بسجلماسة أصبحت تطرح مشاكل سياسية واقتصادية لا سيما منذ أن عين أبو سعيد عثمان ابنه الثائر أبا علي عمر واليا عليها. كما أن وجود عرب بني معقل لا سيما الأحلاف بإقليم سجلماسة وبلاد ملوية، قد قوى من نزعة هذا الإقليم نحو الاستقلال عن فاس.(42) وتعود أقدم رسالة مرينية موجهة إلى شرفاء سجلماسة إلى فترة حكم أبا العباس أحمد وهي خاصة بشرفاء السيفة وصوصو وأخنوس، يستدعيهم السلطان للقدوم إلى فاس لأخذ هباتهم وأعطياتهم.(43)

ورغم المكانة التي احتلها شرفاء سجلماسة لدى أولي الأمر من حكام الدولة المرينية وعند عامة المجتمع المحلي. فإنهم مع ذلك لم يكونوا يمثلون إلا نفوذاً روحيا، في حين ظلت القوة المادية والغلبة لعرب بني معقل الذين استمروا يستمدون قوتهم من قوة وتماسك عصبيتهم. ويبرر الأستاذ القبلي هذا التوجه للشرفاء نحو الروحانيات بابتعادهم عن الخوض في الأمور السياسية.(44) لكن إذا كانت قوة النفوذ الروحي التي تمتع بها الشرفاء قد أكسبتهم مكانة خاصة وهيبة ووقارا في أوساط المجتمع المغربي عامة. إلا

---

40) ابن السكاك : نصح م. س ص 25.

41) علي بن منون الحسني : مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود أنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين وغيرهم، مخ. خ. ع، الرباط رقم د 723 ص 116.

42) محمد القبلي : مساهمة م. س ص ص 21 – 22.

43) علي بن منون الحسني : مجموع م. س ص 116.

44) محمد القبلي : مساهمة م. س ص 35.

أنها مع ذلك كانت مصدر توتر وقلق وفتور في علاقة بعض الشرفاء مع سلاطين وقتهم. وفي هذا الخصوص نشير إلى أن مولاي علي الشريف الذي عاش ما بين سنتي 762 - 847هـ/1361 - 1443م - أي مرحلة ضعف الدولة المرينية الحقيقية خلال عهد السلطان عبد الحق المريني، بمعنى أنه عايش المشاكل وسيساهم في حل أو عقد معضلات الدولة المرينية. - لم يولي أهمية كبرى للأمور السياسية. رغم قوة شخصيته وبعد صيته وكثرة أتباعه سواء في السودان أو الأندلس، حتى هابته ملوك بني مرين وتخفوا منه.(45) فقد بلغت درجة تخوف سلطان وقته الإمام عبد الحق بن سعيد المريني «وكان هذا السلطان يحبه محبة عظيمة قبل دخول الوشاة من أهل فاس. بينهما وتمكنوا من قلب السلطان المذكور، فأمر مولانا علي الشريف بالسكنى بفاس فامتثل أمره، وسكن بحومة جزاء بن عامر نحو اثني عشر سنة».(46) ويعكس هذا إلى حد ما أن عبد الحق بن سعيد المريني كان يدرك ثقل وأهمية الرجل سواء تعلق الأمر بموقف مولاي علي الشريف من اختيارات الدولة المرينية، التي ولت بعض العناصر اليهودية على بيت مال المسلمين. أو بما نقلته المصادر من أن مولاي علي الشريف كان مجاهدا بالأندلس والسودان. الشيء الذي أكسبه شهرة واسعة وقوى من أتباعه، لدرجة جعلت بعض علماء وفقهاء فاس والأندلس يكاتبونه في مسألة التولية عليهم. فممن كاتبه من علماء غرناطة القاضي المواف والعلامة أبو عبد الله السراج، ومن أهل فاس العلامة العكرمي وأبو زيد عبد الرحمان الرندي والإمام العلامة أبا العباس أحمد المواسي. ومع كل هذا لابد من التنبيه إلى أن وضعية الأسرة العلوية أنذاك لم يكن لها بعد سياسي واضح لتولي أمر المغرب في هذه الفترة. بحكم أن مشروع مولاي علي الشريف الجهادي كان مشروعا تطوعيا بالأندلس أو بالمناطق الصحراوية (السودان حسب تعبير النصوص). وبحكم أن الوضعية العامة بالمغرب كانت مواتية لأبنائه لمواصلة

---

45) العربي بن عبد السلام : تقاييد م. س ص 5.

- الفضيلي : الدرر البهية م. س ج 1 ص 102.

- خير الدين الزركلي : الأعلام. دار العلم للملايين بيروت 1979 ج 4 ص 274.

46) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 209.

الجهـاد، وتـولي أمر المسلمين في المغـرب الأقصـى. أي في وقت كـانت فيـه: «مملكة المغـرب الأقصـى في غايـة من الاضطراب والانتكـاس، حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك».(47) ومع ذلك ترك هذا الأمر لبني وطاس الـذين كانـوا وزراء لبنـي مرين. ولا يفسر هـذا الوضـع تفسيرا معقولا، إلا بالعودة إلى المسألة القبلية المغربية في هذه الفترة ومسألة تجارة القوافل بين المغرب كلـه وإفريقيا جنوب الصحـراء، وبتجنب الأسرة العلوية آنذاك الخوض في الأمور السياسية ونزوعها إلى الروحانيات.

أجمعت المصادر التي تعرضت لحياة مولاي علي الشريف أن هذا الأخير قسم عمره إلى ثـلاثة أقسام: ثلث كـرسه للعلم، وثلث ثاني كـان فيه أميرا لـركب حجيج أهل سجلماسـة، وثلث أخير كـان فيـه مجاهـدا بـالأنـدلس والسودان. قال الـزكي العلوي: «قسم مولاي علي الشريف عمـره إلى ثلاثة: الثلث الأول كان يشتغل فيـه بقراءة العلم والمذاكـرة وتلقين الأوراد، وإطعام الطعام، والصيام في النهار والقيام بالليل. والثلث الثاني كان يسافر فيه لحج بيت الله الحرام وزيـارة قبر جده عليه السـلام حتى وصلت حجاتـه سبعة عشر حجة، وهو في جميعها رئيس ركب الحجـاج. والثلث الأخير كان يسافر فيه بـرسم الجهاد حتـى لقب في زمانه مفنـي الكفار، إلى أن بلغت غـزواته عشرين غزوة فيما بين الأندلس والسودان».(48)

إن صورة مولاي علي الشريف مـن خلال نص مطالع الزهـراء باعتباره شيخ زاوية وفـاتحا، وباعتباره أميرا على ركـب حجيج أهل سجلماسة. هي صورة قابلة للنقد والمناقشة من عدة زوايا. سواء في سياقها العام أو في إطار الأبعاد الممكنـة علميا، انطـلاقا من حيـاة الرجل ومـا كان يعيشـه المجتمع المغـربي خـلال النصف الأول من القـرن 9هـ/15م. فمن جهـة نـلاحظ أن النص يجعل من مولاي علي الشريف صاحب زاوية بـاعتباره «كان مشتغلا بقـراءة العلم والمذاكـرة وتلقين الأوراد وإطعـام الطعـام». مع أن التعـرض للحياة الدينية لمولاي علي الشريف تُـظْـهِـرُ أن هذا الأخير لم يحظ باهتمام يذكر من قبل كتب التراجم والمناقب والرحلات التي واكبت المرحلة. فالشيخ

47) الناصري : الاستقصا، م. س، ج 4 ص 120.

48) الزكي العلوي : مطالع : م. س ص ص 206 – 207.

السيــوطي الذي مــر بمنطقــة سجلماسة خــلال هذه الفترة لم يشر إليـه في رحلته، كما هــو الشأن كذلك بالنسبة للمقــري في كتابه «أزهار الــرياض في أخبار القــاضي عياض». والأكثر من ذلك أن أحمد بن القاضي المكنــاسي الذي تــرجم لمختلف الشخصيــات العلمية والــدينيــة لمرحلة القــرن 9هــ/15م لم يدرجه ضمنها، بينما ترجم لمولاي عبــد الله بن علي بن طاهر. وأشار بعين الإجلال والتقدير لنبوغه وذكــائه ودينه وقوة عارضته في الحفظ. مما يعني أن مولاي علي الشريف كــان رجلا شعبيا ورجل التوازن الــذي كان المغرب عامة يبحث عنه في هذه المرحلة بــالذات. ولم يكن فقيها يعتمد عليه في رأيه، وغياب المعلومات التــاريخية فيما يخص هذا الجانب، يحمل على الاعتقاد أن مكانة مولاي علي الشريف السياسية كانت أكثر من مكانته العلمية.

ومن جهة ثــانية يذكر النص أن مــولاي علي الشريف «كان يلقب بمفني الكفار حتى بلغت غــزواته عشرين غــزوة ما بين الأنــدلس والسودان». فأي كفار يعني مولاي الزكي في مطالعه؟ أهم اليهود أم المسيحيون؟

إن التعرض للحياة الجهادية لمولاي علي الشريف من خلال ما تقدمه لنا المادة العلمية التي استطعنا جمعها نلاحظ أنها لا تشير قط إلى قيام مولاي علي الشريف بــالجهــاد لاسترداد سبتــة التي احتلها النصــارى منــذ سنــة 818هــ/1415م، أي خلال حياة مولاي علي الشريف. مما يحمل على الاعتقاد أن المقصــود بالكفــار ليست هي مسألة النصــارى – وإن كان قــد جاهــد ضدهم بالأندلس –. بل الغالب على الظن أن الأمــر يتعلق باليهود بالجنوب المغربي وبوجه التخصيص يهود توات، وما يؤكد ذلك أن شخصيات الدولة المرينية نفسهــا كان لها مــوقف من اليهود وخصــوصـا يهود تــوات الذين تنــاموا خــلال هذه الفترة. ومن جهــة أخــرى نجد أن مــولاي علي الشريف عاصر نفــوذ اليهود بــالدولــة المرينية. هــذا النفوذ الــذي بلغ ذروة بتــولية «شــاويل» على بيت مــال المسلمين. ونعتقد أنــه لما لاحظ – أي مــولاي علي الشريف – الثــراء المادي الفــاحش الــذي مكن اليهــود مــن السيطــرة على الاقتصاد المغربي وما خولهم ذلك من شفوف ودالة على رجال الدولة، ومن احتكار للتجارة لا سيما بــالمناطق الجنوبية الشرقية المغــربية. ويتعلق الأمر بيهود توات وتيكَورارين وتافيــلالت. استنكر استحواذ هؤلاء على الاقتصاد

المغربي واستخفافهم بالأحكام الشرعية قبل أن ينبه إلى ذلك الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي بنصف قرن، على اعتبار أن مولاي علي الشريف عاش ما بين سنتي 762 – 847هـ/1361 – 1443م والفقيه المغيلي تجمع المصادر أن وفاته كانت مع مطلع القرن 10هـ/16م وذلك حوالي 909 أو 910/ 1503 – 1505م.(49) وهو الفقيه الذي استنكر بشدة سيطرة اليهود على الاقتصاد ونقضهم عهد الذمة المبني أساسا على الخضوع التام للمسلمين، مقابل السماح لهم بالعيش بين أظهرهم. وألف في ذلك كتابا سماه: «ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار».(50) ففي هذا السياق إذا يمكن وضع مسألة جهاد مولاي علي الشريف بالمناطق الجنوبية الشرقية المغربية (السودان حسب تعبير النصوص). إلا أنه لابد من التنبيه إلى أن جهاد مولاي علي الشريف ضد اليهود (الكفار حسب تعبير النص) لم يكن من أجل الوصول إلى السلطة. فقد سبق أن أوضحنا أن الأسرة العلوية آنذاك لم يكن لها بعد سياسي واضح لتولي أمر السلطة بالمغرب خلال هذه المرحلة. بل إن جهاده كان في إطار التصدي لتجاوزات العناصر اليهودية وطغيانها على الاقتصاد المغربي.

وبناء على ما سبق نستنتج أن نص صاحب مطالع الزهراء هو نص تقديسي، يقدم معلومات تجعل من الرجل شخصية روحية وشعبية بحكم موروثه الأسروي وانتسابه للبيت النبوي. ومن جهة أخرى يجعل منه رجل التوازن باعتباره كان مسموع الكلمة. وهو التوازن الذي كان المغرب يبحث عنه خلال هذه المرحلة، وهذا يفضي إلى نتيجة هامة مفادها أن شخصية مولاي علي الشريف كانت لها مكانة سياسية شعبية أكثر منها علمية.

لقد ظل الشرفاء يتكاثرون ويتناسلون في قصور وادي إفلي بمنطقة سجلماسة، حتى أصبحوا يشكلون قوة عصبية من بني جلدتهم. ولم يعودوا مجرد أسرة يُتَبَرَّكُ بها ويستفاد من نفوذها الروحي فقط. وإنما

---

49) لخص الأستاذ محمد حجي مختلف الروايات فيما يخص وفاة الفقيه المغيلي أنظر : الحركة الفكرية م. س ج 1 ص 268، هامش 3.

50) ذكر الأستاذ حجي أن هذا الكتاب طبع مرتين على الحجر بفاس. أنظر محمد حجي : الحركة الفكرية م. س ج 1 ص 268 هامش 4.

أضحت إحدى مكونات المجتمع السجلماسي، تشارك في الحياة اليومية للسكان وتؤثر فيه وتتأثر به. وأدى هذا التطور السريع للأسرة العلوية إلى إثارة حفيظة أولائك الذين استمروا ينظرون إليها كأسرة نازحة. سيما عندما أصبح الشرفاء يملكون العقار والأصول. وبالتالي وسائل الإستمرار والبقاء والتأثير في مجريات الأحداث. قال في مطالع الزهراء: «فلما أكثر يعني - مولاي علي الشريف - من شراء الأصول اجتمع أهل سجلماسة وقال بعضهم لبعض أخرجوا هذا من بلادنا قبل أن يخرجنا منها. فلما سمع ذلك الفقيه العلامة سيدي محمد بن إبراهيم قال لأهل سجلماسة، إن أردتم إخراج هذا الشريف من أرضكم فاعطوا لنا قيمة أهوالنا».(51) مما يعني أن الأسرة العلوية بعدما تفرعت عرفت تحولات مادية من حيث امتلاكها للأصول والعقارات. الشيء الذي أفرز مواقف متباينة لدى الأهالي عن هذا التحول المادي للأسرة العلوية. هذا علاوة على ما كانت تتمتع به الأسرة من نفوذ روحي، أي أنها جمعت في سياق تطورها ما بين الثراء المادي واستمرار النفوذ الروحي. وهي على العموم الأسس المادية اللازمة والمغذية اقتصاديا واجتماعيا وروحيا لأي تحرك سياسي مستقبلي.

إلا أن ما يجب التنبيه عليه في هذا المقام، أن الأسرة العلوية خلال المرحلة الممتدة من أواسط القرن 7هـ/13م وهو القرن الذي تم فيه قدوم جد الأسرة العلوية إلى سجلماسة. إلى مطلع القرن 10هـ/16م وهو التاريخ الذي يصادف انتقال بعض الأسر الشريفة من تافيلالت إلى مناطق مغربية مختلفة، ومن ضمنها منطقة مدغرة وما إليها. لم يشارك الشرفاء السجلماسيون في أية حركة سياسية وحتى لو حدث كما لاحظنا ذلك مع مولاي علي الشريف خلال القرن 9هـ/15م، فإن ذلك كان في إطار مضمون روحي جهادي تطوعي فقط. بمعنى أنه إلى حدود القرن 10هـ/16م لم يكن للأسرة بعد سياسي واضح لتولي أمر المغرب، رغم توفرها على الأسس المادية والروحية الكافية للوصول إلى سدة الحكم بالمغرب.

---

51) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 212.

2 – انتقال بعض الأسر الشريفة من تافيلالت إلى مدغرة :

مع مطلع القرن 10هـ/16م تفيدنا المصادر بانتقال بعض الأسر الشريفة من قصور وادي إفلي، باتجاه مناطق مغربية مختلفة ومن ضمنها واحة مدغرة.

إن المصادر التي تناولت بالدراسة انتقال بعض شرفاء سجلماسة لم تكلف نفسها عناء ذكر المراحل التاريخية التي تم فيها هذا الانتقال، كما أغفلت هذه المصادر أيضا ذكر الأسباب القريبة والبعيدة المتصلة بهذا الانتقال؛ ذلك أنها لا تشير قط لا إلى الأسباب ولا إلى المراحل، وإنما تكتفي بالإشارة إلى انتقال العنصر العلوي الحسني إلى مدغرة وما إليها من المناطق المغربية الأخرى. وهنا نتساءل عن طبيعة وظروف هذا الانتقال؟ هل هو انتقال إرادي أو قسري أو استراتيجي؟ أم هو ناتج عن مشكل الصراع الداخلي الذي عرفته سجلماسة بين عرب بني معقل وبربر صنهاجة؟ أم هو انتقال زكته وساندته السلطة الوطاسية بفاس. بمعنى هل أقطعت مدغرة للعلويين؟ وأخيرا هل يمكن أن نتحدث عن انتقال واحد أو أكثر؟

من خلال مواكبتنا ومتابعتنا لانتقال بعض الأسر الشريفة من سجلماسة إلى مدغرة، حاولنا أن نستنطق ونحاور النصوص وأن نستخرج المضامين والمعاني التاريخية منها للكشف عن ظروف ومراحل هذا الانتقال. ومع الأسف لم تسعفنا المادة المصدرية التي استطعنا الاطلاع عليها إلا بالنزر القليل. هذا وإن كانت المادة الوثائقية المحلية تحتفظ لنا ببعض المعلومات فيما يتعلق بمراحل وبعض أسباب هذا الانتقال. وبناء عليه نفترض أن يكون هناك انتقالان اختلفا من حيث الفترة الزمنية التي تما فيها، ومن حيث اختلاف تطور الوضع الداخلي الذي أفرزهما.

الإنتقال الأول :

يظهر من خلال استنطاق المادة العلمية ومحاورتها، أن الأسرة العلوية عاشت خلال القرن 10هـ/16م، بعدما تفرعت ظروف منطقة سجلماسة ودرعة. وهذا الوضع عاصر تحولات أخرى بالإقليم، تمثل في ظهور نظام الأحلاف القبلية الكبرى، على أسس جديدة خصوصا حلف أيت يفلمان.

الذي لم يكن أمازيغيا صرفا وإنما جمع بين إثنيات مختلفة الأصول. إلا أنها كانت متفقة في الرؤية التصورية العامة لجمع الشمل وتوحيد الكلمة. مما يعني أن توازن هذه الأحلاف وتماسكها، ارتبط بالنظام الموروث عن النظام القبلي المغربي القديم. والأسر ذات الاعتبار الاجتماعي في الأقاليم، ولو لم تكن تلك الأسر مرتبطة دمويا بالبربر. وذلك للحفاظ على الجماعات المتحالفة. وهيأ هذا الوضع للشرفاء الحسنيين واقعا جديدا للظهور في مستوى آخر، تمثل في قيادة الأحلاف والقيام بعمليات التحكيم. مما سيدفع هذه الأسر إلى مرافقة هذه الجماعات القبلية في انتقالاتها، وهذه العملية جعلت من الشرفاء قوة روحية وعنصر توازن اجتماعي بين القوات القبلية التي كانت تتنافس فيما بينها وتتصارع على مناطق الاستقرار. والتمركز على امتداد طرق المواصلات وفي أحواض الوديان. من هنا تبدو مسألة توزيع العنصر العلوي على طول وادي زيز مرتبطة أشد الارتباط بالظروف والمخاض التاريخي المتلاحق للمنطقة السجلماسية. مما يستبعد كل رأي يذهب إلى أن هذا التوزيع الحسني على طول وادي زيز كان محكوما بالصدفة. بقدر ما ينم عن تنظيم دقيق ومحكم.

ولكن هناك ظاهرة لها أهميتها في المرحلة، وهي صراع وتنافس مجموعة أيت عطة،أهم تجمعات بربر إقليم سجلماسة، مع قبائل عرب بني معقل داخل إقليم سجلماسة وتافيلالت. وهنا نشير إلى ما تعرضت له الأسرة الحسنية من انقسام. مما أدى إلى طرد مجموعة منهم من سجلماسة وتوطينهم بمدغرة في بداية القرن 10هـ/16م. كما لا يجب إغفال أن المغرب خلال هذه المرحلة كان يعرف غليانا سياسيا وشتاتا سلطويا، مما قوى نزعة استقلال المناطق النائية. وكانت بلاد ما وراء الأطلس موكولة إلى نفسها حيث كانت الواحات تسير نفسها بنفسها على شكل مراكز مستقلة ولم تكن تعترف بسلطة الوطاسيين بفاس إلا إسميا. ومع ظهور القوة السعدية بالسوس كانت منطقة تافيلالت وما إليها، إحدى المناطق التي تمحور حولها الصراع السعدي الوطاسي. وذلك لما لها من أهمية لم تكن لتخفى على أطراف النزاع.(52) وهذا يعني أن هذه المرحلة زامنت احتضار

52) محمد فاتحي : أضواء حول بداية السعديين، مجلة تاريخ المغرب عدد 4 السنة 1984، ص 35.

الدولة الوطـاسية. ومعلوم أن اختصار الدول وقيام أخرى بـدلا عنها غالبا مـا يكون مليئـا بـالأوبئـة والاضطرابـات والحروب، كما أكـد على ذلك ابن خلدون من قبل.(53) وهذا بـالفعل مـا حدث خـلال القرنين 15 و16م مع انتقـال السلطـة من بني مـريـن إلى وزرائهم بني وطـاس ومن هـؤلاء إلى السعديين. الشيء الـذي انعكس على البنيـة البشرية للمغـرب عامـة ومنطقة الجنوب الشرقي المغـربي بوجه التخصيص، هذه الأخيرة التي كـانت تجتاز مرحلة الخلخلة البشرية الكاملة والتي انتهت بسيادة الإثنية العربية المعقلية على مجموع واحات جنوب الأطلس.

وينضاف إلى هـذا عامل تحول الطـرق التجارية الـرابطة بين تـافيلالت والسودان نحو الجنوب الغربي المغربي. فقد ذكرت دوزي جاك مونيي «أنه خلال القـرنين 15 و16م أصبحت القـوافل التجـاريـة لا تمر عبر طـريق سجلماسة، ولكنها أصبحت تمر عبر طرق أكثر استعمالا عبر درعة الشرقية وتكَاوست ووادي نون. وذلك بفعل سيطرة عرب المعقل على المحور الجنوبي الشرقي الرابط بين سجلماسة والسودان».(54) وأدى هذا التحول إلى اختناق الحركة الاقتصـادية بإقليم سجلماسة خـاصة، ولقـاء ذلك أصبح السوس ودرعة والجنوب الغربي المغربي عامة هو مركز الثقل. سيما وأن هذه الفترة زامنت تنامي القـوة السعدية بالسـوس، وما حققته من انتصارات متـوالية سواء على الإيبريين بـالسواحل الجنـوبية المغربيـة، أو على القوات الـداخلية المغربية.

ففي هذا الإطار إذا يمكن أن نوطن الانتقال الأول لبعض الأسر الحسنية السجلماسية، إلى مدغـرة والسوس وما إليهما من المناطق المغـربية الأخرى. ونذكر أنه خلال هذه المرحلة سالمت الأسرة العلوية الأسرة السعدية، وذلك في إطار جمع الكلمة وتوحيد البلاد. وفي هذا الصدد نشير إلى الدور الهام الذي لعبته العديد من الشخصيات الدينية والروحية من البيت العلوي التي كانت مستوطنة سواء بمدغرة أو مراكش عاصمة السعديين.

---

53) ابن خلدون : المقدمة م. س ص ص 31 – 32.

54) Meunié (D.J) le Maroc saharien. op cit. t 1 p 363.

فقد أجمعت المصـادر والدراسات الحديثـة التي تعرضت لـدور الحركة الأوليـائية في بنـاء صرح الدولـة السعديـة. على أن هذا المشروع التـاريخي والسياسي الكبير وضع لبناته الأولى أربعة أولياء يعدون من كبار الأولياء في منطقتي درعـة والسوس هم: الشيخ محمـد بن المبارك الأقـاوي نزيل أقـا بجبل باني فيما يلي الصحراء. والشيخ محمـد ابن أبي بكر التدسي المعروف بسيدي بركات نزيل تيدسي بضواحي تارودانت. والشيخ عبد الله بن محمد العنابي نـزيل تازروت بـوادي درعة. والشيخ أبو محمـد عبد اللـه بن عمر المدغري الذي أسس زاويته الأولى بمـدغرة تافيلالت(55) قبل أن ينتقـل إلى زاوية تكمادارت بدرعة.(56)

لم يكن الشيخ عبد اللـه بن عمر المدغري رابع أشهر الأوليـاء المساهمين في بناء صرح الدولـة السعدية يقل عن سابقيـه نفوذا، لا سيما في الأوساط العلميـة سواء في مـدغرة تـافيلالت أو في درعـة.(57) وقـد استغل الشيخ المدغـري هذه السمعـة والشعبية المتـازة في الدعـاية لمشروع بنـاء الدولـة السعديـة. ويعتبر في نظر بعض البـاحثين أول شخصية اتصلت بـالشريف محمد بن عبد الـرحمان الزيداني، وفاتحه في مسألة إقامـة دولة جديدة في الجنوب.(58) والظاهـر أن عبد الله بن عمـر المدغري قد حقق مسـاعيه في بلاد درعة بالخصوص، وحجتنا في ذلك ما نقله صاحب النزهة قال: «...إن كلا من ابن المبارك وابن عمر وغيرهما حظ على مبايعة الشرفاء. ابن المبارك بالسوس وابن عمر بـدرعة وضواحيها».(59) وفي نفس إتجاه المسـالة هذا تذكـر كتب التراجم أن عبـد الله بن عمـر المدغري زيـادة على كونـه داعية للدولة السعدية، كان شيخا لابني محمد بن عبد الرحمان الزيداني. فقد جاء في الدوحة مايلي:

55) سبق أن حددنا مكان وجود الزاوية بقصر سيدي أبـو عبد الله مدغرة. أنظر الباب الثاني الفصل الثاني ص.

56) أحمد الوارث : الأولياء ودورهم السياسي والاجتماعي بمغرب القرن 16 م. د. د. ع التاريخ فاس 1988 ج 2 ص 612.

57) أحمد الوارث : الأولياء ودورهم السياسي م. س ص 614.

58) محمد حجي : الحركة الفكرية ج 2 ص 521.

59) الافراني : النزهة م. س ص 12.

«وكان السلطان أبو محمد عبد اللـه محمد الشيخ وأخوه أبو العباس من تلامذته وبسببـه كانت دعوتهما».(60) ممـا يعني أن البيت العلوي خـلال مـرحلة مطلع القـرن 10هـ/16م كـان مسانـدا مسالما للمشروع السيـاسي السعـدي هـذا من جهة، ومـن جهة أخـرى والتـدقيق في نسب هـذا الشيخ وتنقلاتـه يفيد في تزكية مـا ذهبنا إليه سابقـا من أن الانتقال الأول لبعض الأسر الشريفة من تافيلالت إلى مدغرة مهما كانت دوافعه تم مع نهاية القرن 15م ومطلع القـــرن 16م، فـالشيخ المدغـري كـــان ينتقل بين سجلماسـة والسوس كما جـاء في الدوحة. قال: «...حـدثني ولده أبو عبد اللـه قال: لما أقبل والدي من سوس إلى سجلماسة».(61) كما أن الشيخ المذكور مـا نزل بقريـة تكَمادارت بدرعـة إلا بعد أن غادر منطقـة مدغـرة، والتي يبدو أنها كانت المحطـة الأولى قبل أن يقصد مواطن السعديين. ومعلـوم أن انتقاله إلى تكَمادارت بدرعـة حدث في الـوقت الذي كـانت فيه الأسرة السعديـة تتأهب لإعـلان إمـاراتها بدرعـة – أي قبيل عـام الـدعـايـة – الذي يـزامن سنـة 915هـ/1509 – 1510م. ممـا يعني أن انتقالـه إلى مدغـرة سبق انتقالـه إلى درعة. ورغم أن المادة العلمية لا تقدم لنا جوابا صريحا حول الفترة الزمنية التي استقر فيهـا بمدغرة. إلا أن الأكيد أنها تمت في فترة سـابقة عن مطلع القرن 10هـ/16م لـدرجـة أن هـذا الشيخ اكتسب نسب «المدغـري» نسبـة لمدغـرة تـافيلالـت، التي قد يكـون قـد قضى بها ردحـا من عمـره يصعب تحديده بدقة، خاصة مع غياب المعطيات التاريخية عن ذلك. هذا إن لم يكن هـذا الشيخ من مواليـد مدغـرةُ وهذا الـرأي الأخير هو الـراجح والشواهـد متعددة: فمن جهة هناك نسب المدغري ومن جهة أخرى تجمع كتب التراجم على أن هـذا الشيخ أسس زاويتـه الأولى بمـدغـرة قبل أن ينتقل إلى زاويـة تكَمادارت بدرعة قال في الدوحة: «...وقبره(62) بمضغرة حيث توجد زاويته

60) ابن عسكر : دوحـة الناشر لمحاسن من كـان بالمغـرب من مشايخ القرن العـاشر. تحقيق محمد حجي الرباط 1977 ص 88.

61) ابن عسكر : الدوحة م. س ص 88.

62) يوجد قبره في الجناح المعـروف «بالزيادة» بقصر سيدي أبو عبد اللـه. انظر الباب الثاني الفصل الثاني ص

رحمه الله».(63) وغني عن البيـان أن تأسيس الزاويـة مرتبط بـالاستقرار والإقامة المستمرة.

لم يقتصر الأمر على انتقـال أسرة آل بن عمر المدغـري من تافيـلالت إلى مدغرة خلال القرن 10هـ/16م، بل إن الإنتقال شمل كذلك ثلاثة أسر شريفة كبرى من تافيلالت إلى مدغرة. ويتعلق الأمر بشرفاء قصر تِـعِـرْمْـتْ وشرفاء قصر حم دَاوُّود وشرفاء قصر بُوحَـامِـدْ.(64) قال الفضيلي: «لما قبض الله صاحب الترجمة – يعني مولاي الحسن ابن يوسف بن مولاي علي الشريف – خلف رحمه الله أربعـة أنجال وهم : السيـد قاسم والسيـد عبد العـزيز والسيـد طاهـر والسيـد اعمرو ومنـازلهم قبل الخروج من وادي إفلي قصر بوحامـد وقصر تعرمت وقصر حم داوود. وبعده انتقلوا لمدغـرة فنزلوا من مدغـرة بقصبة تازناقت والقصر البراني وقصر أيت مسعـود وقصر أزمور وقصر لغروس وقصر العمارنة بـالنون وتاركَة والقصبة القـديمة والقصبة الجديدة والحيبـوس وزاوية مديـونة وتيطـاف وقصر سيدي أبو عبـد الله والقصر الدخلاني وتاوريرت والقلعة والحوش وقصر مولاي البكري وقصر بني موسي وقصر كَركَاوز وقصر جاوز، وهـذه القصور كلها بمدغرة».(65) إذا كان كـلام صاحب الدرر البهيـة في غاية الأهميـة لأنه ذكر مـواطن هذه الأسر بسجلماسة قبل الانتقال، وحـدد مختلف القصور التي حلت بها هذه الأسر الشريفـة بمـدغـرة. إلا أنـه مع ذلك لم يتنـاول القصـور الأخيرة من الناحية التاريخية السـابقة عن استيطان الأشراف لهذه القصور. وبناء على ذلك تعتبر أهميـة كلام الفضيلي ذات قيمـة خلال نهايـة القرن 19م وبداية القرن 20م، لأن المؤلف كان يتكلم بـروح عصره. أما قبل هـذه المرحلة فهي غير صـادقـة، على اعتبار أننـا نجهل القصـور الأولى التي حل بها شرفـاء قصور وادي إفلي المنتقلين إلى مدغرة. والأكيـد أن هذه الأسر الشريفة المنتقلة إلى مدغـرة ساهمت في تشكيل البنية السكنية لمجمـوعة من قصور مـدغرة. سواء عن طريق المساهمة في بناء بعض المرافق التـابعة للقصور، أو المكونة

63) ابن عسكر : الدوحة م. س ص 88.

64) محمد بن الطيب القادري : التقاط الدرر، الكتاب م. س، ص 99 هامش 1.

65) إدريس الفضيلي : الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.

لها أو عن طريق وضع الحجر الأساسي لقصور برمتها ولبعض الزوايا التي ارتبطت بـوجودهم بهذه المنطقة. وعلى سبيـل المثال لا الحصر نشير إلى أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر ساهم في تجديد بعض قصور مدغرة. هذه الأخيرة التي كانت تتعرض للاندراس بفعل تعرض مدغرة للفيضان النهري لوادي زيـز الذي كان في الغـالب يأتي عليها، أو على بعضـهـا. وقد سبق أن أشرنا كيـف أن فيضـان وادي زيـز لسنة 1343هـ/1925م قضـى على زاوية مولاي ابن علي.(66) كما قضى فيضـان وادي زيـز لسنـة 1965 على جل قصور مدغرة،(67) فالحافظة الشعبيـة المحلية تذكر أن مـولاي عبد الله بن علي بن طاهر ساهم في بناء عتبة قصر تازناقت،(68) كما أن مجموعة أخرى من القصور بناها الشرفاء أو ساهموا في تجديـدها. وهكذا أصبحنا نميز ما بين القصر القديم والقصر الجديد والقصبة القديمة والقصبة الجديدة وقصر مديونة الحدادة وقصر زاوية مـديونة سيدي بن الحسن وقصر أولاد الحاج القـديمة وقصر أولاد الحاج الجديـدة والقصر الـدخلاني التحتـاني والقصر الدخلاني الفوقاني وقصر الحيبوس، إشارة إلى مساهمة الشرفاء المنتقلين إلى مدغرة في إعادة بناء أو تجديد ثلة من قصور مدغرة. وهذا طبعا دون إغفال أن مجموعة أخـرى من القصور والزوايا بناها الشرفـاء خلال فترات زمنية متلاحقة، وأضيفت إلى لائحة القصـور المدغرية. وعلى سبيل المثال نشير إلى أن ثالث أبناء مولاي عبد الله بن علي بن طاهر ويتعلق الأمر بمولاي بن علي هو الـذي بنى قصري الزاويـة والحوش بمحاذاة قصر قلعة تـاوريرت.(69) وأن زاوية مولاي البكري كانت من بنـاء أحد حفدة الولي المذكور.(70) كما أن زاويتا «رحمة الله» و«نعمـة الله» بناهما الشريف سيـدي محمد العربي ابن الهاشمي العلوي.(71)

---

66) انظر الباب الأول، الفصل الثاني، ص : وتوجد بقايـا هذا القصر الآن بغابة قصر تاوريرت، انظر اللوحة رقم 2 في الملحق الخاص بالصور.

67) انظر الباب الأول الفصل الأول ص :

68) محمد بن الطيب القادري : التقاط الدرر م. س الكتاب. ص 99 هامش 2.

69) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس : م. س ص ص 70 – 72.

70) انظر الباب الثاني الفصل الثاني ص

71) انظر الباب الثاني الفصل الثاني ص

على أن ما يجب التأكيد عليه بخصـوص انتقال بعض الأسر الشريفة من تافيـلالت إلى مدغرة أن هذه الأخيرة لم تكـن خلال هذه المرحلة فـارغة من السكان، فالمرحلة تصادف فترة التنـافس والصراع ما بين المجموعات الإثنية البربرية وحلف عـرب بني معقل على مناطق الإستقرار والتمـركز على طرق المواصلات وأحواض الوديان. وانتهى هذا الصراع بتقسيم مناطق النفوذ بين الأطراف المتصـارعة والمتنافسـة، وذلك في سياق تحول البنيـة البشرية التي عرفتهـا واحات الجنوب الشرقي المغـربي. فالوزان الذي زار المنطقـة خلال سنة 917هـ/1511م في إطار رحلتـه التي قادته إلى السودان الغـربي بإيعاز من سلطان فـاس محمد الوطـاسي البرتغالي إلى ملك سنغاي محمـد الأسكيا الكبير، أشار إلى أن مدغرة كانت خاضعـة خلال هذه المرحلة لسيطرة عرب بني معقل ولم يشر إلى الـوجود العلـوي الحسني بها. ممـا يعني أن الأسر الشريفة السابقة الذكر (شرفـاء قصور تعرمت وحم داوود وبوحامد) التي انتلقت إليها، لم يكن لها ذلك النفوذ الـروحي والمادي الواسع الذي كان لها منذ مطلع القرن 11هـ/17م. وهي المرحلة التي أُعْلِـنَ فيها عن قيام الإمارة العلـوية بسجلماسـة قال: «مضغـرة دائرة أخرى تتـاخم السابقـة – يعني الخنكَ – في اتجاه الجنوب خارج المضيق وتحتوي على قصـور عديدة كذلك على وادي زيز، وأهمهـا القصر المسمى هلال. وفيـه يقيم أمير الـدائرة،وهو عـربي وله فخـذ من قبيلته تعيش في البـادية تحت الخيـام وأخرى كـذلك بـالقصر مع بعض الجنـود، لا يستطيع أحـد أن يخترق إقليمـه دون إذنـه الصريح. فإذا لقي هـؤلاء الجنود قافلـة بدون رخصة مـرور نهبوهـا فورا وجردوا التجار والرائدين، وهناك أيضـا قصور ومداشر أخرى كما شاهدت ذلك بنفسي لكنهـا كلها بـائسة».(72) ممـا يعني أن مسألـة التعمير كـانت متواضعـة ومرتبطة بـالحياة المعيشية المحليـة المحدودة الموارد، التي أعطت نظام عيش لا يبعث على البقـاء والاستمرار وبالتالي الاستقـرار. ومن هنا لا غـرو إذا وجـدنا الإنسـان الـذي سكن منطقـة مـدغرة طغى على سلـوكـه الاجتماعي التواكل والاعتماد على الغير.

---

72) الوزان : وصف م. س ج 2 ص 123.

يظهر من كلام الوزان السابق الذكر أن مدغرة خلال هذه المرحلة كانت خاضعة للسيطرة المعقلية من منبات وعمارنة وهي المرحلة التي تصادف انتقال بعض الأسر الشريفة من قصور وادي إفلي إلى مدغرة. وذلك على إثر ما عرفه الوضع الداخلي لسجلماسة من صراع وتنافس بين بربر صنهاجة وعرب بني معقل، وما تعرضت له الأسرة الحسنية من انقسام. وهذا من شأنه أن يبين بوضوح كبير أصل الضغوط والمضايقات من هذه الجهة أو تلك، والتي أدت من جهة إلى إحداث الانقسام داخل الأسرة الحسنية، ودفعت قسما منها إلى الانتقال والاستقرار بمنطقة مدغرة التي كانت خلال هذه المرحلة تحت رحمة السيطرة المعقلية. ومن جهة ثانية تجيب على جزء من السؤال الذي انطلقنا منه والمتعلق بطبيعة وظروف هذا الانتقال الأول لبعض الأسر العلوية واستقرارها بمنطقة مدغرة وما إليها.

ويحملنا هذا على استنتاج آخر وهو أن الأسر الشريفة التي انتقلت إلى مدغرة سواء في هذه المرحلة أو مع مطلع القرن 11هـ/17م كانوا مسالمين مهادنين، سواء في سياق تنافس وصراع الأحلاف القبلية الذي أفرزه تطور الوضع الداخلي لمنطقة سجلماسة خلال القرن 16م أو مع مطلع القرن 17م. بمعنى أن الجناح العلوي الذي سيطالب بتولية أمر المغرب بعد اضمحلال الدولة السعدية هو الجناح الذي بقي مستقرا بمنطقة سجلماسة. في حين ظل الشرفاء المنتقلون إلى مدغرة مساندين مهادنين وأحيانا منظرين للمشروع العلوي. وهذا على العموم ما سنحاول الوقوف عليه في الملحق الخاص بالأخبار.

الإنتقال الثاني :

إذا كان الانتقال الأول لبعض شرفاء قصور وادي إفلي إلى مدغرة وما إليها قد قدرناه مع مطلع القرن 10هـ/16م. وذلك في سياق ما عرفه الوضع الداخلي لسجلماسة من صراع وتنافس على مناطق الاستقرار والتمركز على طرق المواصلات والواحات، هذا على المستوى المحلي الإقليمي. أما وطنيا فقد صادفت هذه المرحلة اضمحلال السلطة المركزية بفاس ومراكش، مما أفرز عدة وعاءات سياسية واستقلال المناطق النائية التي أصبحت تسير نفسها بنفسها وخاضعة للمجموعة البشرية صاحبة الغلبة فيها.

وينضاف إلى ذلك عامل تحول الطرق التجارية وانتقال الثقل إلى منطقة الجنوب الغربي المغربي، وتهميش منطقة تافيلالت. فإن الانتقال الثاني لبعض الأسر الشريفة الحسنية إلى مدغرة وما إليها نستشفه ونلتقطه من المادة العلمية المخطوطة بوجه خاص.(73) رغم ما يشوبها من مغالطات وانعدام الضبط والدقة للوقائع التاريخية، ولا غرابة في ذلك فمخطوط «فتح القدوس القاهر في نسب أبى محمد عبد الله بن علي بن طاهر» الذي اعتمدناه في مواكبة ومتابعة دوافع وطبيعة الانتقال الثاني لبعض شرفاء قصور وادي إفلي إلى منطقة مدغرة وما إليها. كتب بعد مضي ثلاثة قرون على حدوث هذا الانتقال هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن سيدي مولاي علي بن المصطفى من آل عمي التهامي بن هاشم من زاوية تاوريرت مدغرة في فتح قدوسه قلما يشير إلى المادة العلمية التي اعتمدها في تأليفه هذا. مما طبع مؤلفه هذا – على أهميته – بالضعف من حيث التوثيق العلمي. وهذا يستنهض الدليل على أنه اعتمد – في الغالب – على ما كانت الذاكرة الشعبية المحلية تحتفظ به إلى حدود سنة 1322هـ/1905م، على اعتبار أن هذا التاريخ يزامن الفترة التي فرغ فيها مولاي علي بن المصطفى من تأليفه. قال اباسيدي بن التهامي العلوي في فتح القدوس: «ألف الفقيه العلامة مولاي علي بن المصطفى بن محمد بن التهامي(74) من زاوية تاوريرت مدغرة هذا التأليف المبارك في نسب أبا محمد عبد الله بن علي بن

---

73) نشير في هذا الخصوص إلى المادة العلمية القيمة التي أمدنا بها مخطوط فتح القدوس القاهر في نسب أبا محمد عبد الله ابن علي بن طاهر. مخطوط خاص.

74) هو مولاي علي بن المصطفى بن التهامي بن هاشم بن العربي بن علي بن عبد الله بن علي بن طاهر من زاوية تاوريرت مدغرة. بدأ تعليمه الأولي بزاوية تاوريرت، ثم انتقل إلى فاس، وأخذ العلوم على يد كبار علماء عصره، من بينهم الشريف سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن العابد العلامة الجليل شيخ الطريقة الدرقاوية بمدينة صفرو. ويقول مولاي علي بن المصطفى في فتح قدوسه «أن سيدي محمد بن محمد هذا كان لا يطار تحت جناحه في المعرفة بالله تعالى في العبادة... وهو الذي كان سببا لإرشاد المؤلف لقراءة العلم الشريف وبه انتفع. فقد قرأ عليه الأجرومية والألفية ومختصر الشيخ خليل». ولما عاد مولاي علي بن المصطفى إلى زاوية تاوريرت عمل إماما لمسجدها الجامع ولما توفي خلف ولدان هما: مولاي المهدي بن علي ومات دون أن يترك عقبا، وسيدي محمد بن علي وكان طالبا يحفظ القرآن العظيم وانتقل إلى قصر باكنو بكَير.
انظر فتح القدوس : م. س ص ص 130 – 185 – 186.

طاهر... بتاريخ 16 حجة الحرام عام 1322».(75) ومعلوم أن الرواية الشفوية قلما ما كانت تنقل بـدقة وأمانة متنـاهية تطور الوقائع التـاريخية. من هنا كانت استفادتنا من المادة العلمية الهامة التي يزخر بها هذا المخطوط تتطلب من الباحث عـدم الإقتصار على أخذهـا على علتها جملة وتفصيـلا ونسخها نسخا آليا، بل اقتضـت منا انتقائها ومعالجتهـا حتى تستجيب لمنطق تطور الوقائع التاريخية.

يقرر صاحب فتح القدوس أن أول من انتقل من الشرفـاء إلى مدغرة هو مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. قال: «وأول من هاجر منهم من تافيلالت هو مولاي عبد الله بن علي بن طاهـر، واستقر بقرية من وادي مدغرة يقال لها أولاد الحاج».(76) غير أن تتبع حياة مـولاي عبد الله بن علي بن طـاهر تثبت أنـه أولا: ولد بمـدغـرة وحجتنا في ذلـك أن قبر والده مـولاي علي بن طاهر يـوجد بمدغرة. وثانيـا نعلم أن أبناء مدغرة كـانوا يبدؤون دراستهم بمـدغرة ويستكملـون طـورها الثـاني بتـافيلالـت، قبل أن يلتحقوا بفـاس لاستكمال طـورها الثـالث. وإذا كنا نجهل طبيعـة تكوينـه العلمي بمدغـرة والمدة التي قضاهـا بها، إلا أن الأكيد أن مولاي عبـد الله بن علي بن طـاهر سار على القـاعدة العلمية بمنطقـة الجنوب الشرقي المغربي. فقـد اعتنى به والـده الذي غـرس عـوده وتعهد نبتتـه، فـدفعـه إلى الكتاب لتلقي القـراءة والكتابة على الطريقة المألوفة، فاستظهر القرآن الكريم وأخذ عنه وعن فقهاء سجلماسة مبادئ العلوم.(77) ثم إلتحق بفـاس وسكن مدرسة العطـارين بعدمـا لم تعد حلقات الدروس ببـلاده تروي غلته وتشبع رغبتـه، فانقطع لحلقات الدروس بالقرويين وغيرها من المراكز العلمية والصوفية بفاس التي كان يسيرها جهابذة العلماء وشيوخ الجماعة وفحول التدريس، مثل محمد ابن قاسم القصار الغرناطي المبرز في جميع العلوم معقولها ومنقولها والذي تجاوزت شهـرتـه أرض المغـرب كلـه إلى أرض مصر، والمتـوفى عـام

75) فتح القدوس م. س ص ص 1 – 300.

76) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 4.

77) التقي العلوي : الحافظ عبـد الله بن علي بن طاهـر الحسني العلوي، مجلة كلية الشريعـة عدد 1 السنة الأولى، رجب – شعبان – رمضان 1396هـ يوليوز – غشت – شتنبر 1976، ص : 51.

1012هـ/1603م. والإمام أحمد المنجور الفاسي أحد العلماء الراسخين في العلوم أصولها وفروعها معقولها ومنقولها، والذي قيل في حقه أن فهمه لا يقبل الخطأ(78) والمتوفى قبل الألف بخمس سنوات. والشيخ رضوان الجنوي المحدث الكبير الذي كان إماما ورعا زاهدا، ويتيمة دهره وفريد عصره، والمتوفى سنة 991هـ/1583م. والشيخ أبا القاسم محمد بن عبد الجبار الفجيجي البرزوزي صاحب الصيت الواسع والدين المتين وغير هؤلاء الذين كانت تتشكل منهم الهيئة التعليمية لجامعة القرويين. والذين أحاطوه بعين الإجلال والتقدير لنبوغه وذكائه وقوة عارضته في الحفظ والتحصيل، كما نص على ذلك جامعوا ترجمته. مثل صاحب الصفوة ومحمد بن سعيد المرغيثي السوسي وغيرهما.(79) قال في الصفوة: «وكان مولاي عبد الله بن علي بن طاهر آية في حفظ السير النبوية والتنقيب على أخبار الصحابة وأحوال السلف الصالح».(80) وعلاوة على ذلك كان مضرب الأمثال في احترام الأساتذة وتقدير قيمتهم العلمية، والعملية في حياتهم وبعد مماتهم، الشيء الذي أعانه على تقريب المسافات وطي المراحل. وساعد على خلق جو من الروابط المتينة بينه وبينهم، مما أكسبه مكانة خاصة لدى أساتذته. فقد كان الشيخ الإمام أحمد المنجور يقدر هاته الثقة التي لمسها في تلميذه البار، وكان يبالغ في مكافأته عليها كلما وجد سبيلا إلى ذلك. فهو الذي قدمه إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي بمراكش كأحد الأطر العلمية الناشئة التي تكونت برعايته، أثنى عليه منوها بمزاياه وسرد ما يحسنه من الفنون والعلوم. مما أثار حفيظة مولاي عبد الواحد الحسني ابن عم مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الذي رد على الإمام المنجور قائلا: «إن ما ذكرت من العلوم التي يتقنها – يعني مولاي عبد الله بن علي بن طاهر – لم تكن على قدر عمره».(81)

---

78) محمد بن عبد الله الإفراني : صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية فاس دون تاريخ، ص 5.

79) التقي العلوي : الحافظ عبد الله بن علي م. س ص 52.

80) الإفراني : الصفوة م. س ص 4.

81) أحمد بن عبد العزيز العلوي : الأنوار السنية م. س ص 65.

وإذا كنا نجهل متى أكمل مولاي عبد الله بن علي بن طاهر دراسته بفاس، إلا أن الغالب على الظن أن ذلك حدث مع نهاية المائة العاشرة بعد وفاة أستاذه وعمدته الإمام أحمد المنجور. مما يعني أنه في الوقت الذي خاض فيه المغرب معركة وادي المخازن كان مولاي عبد الله بن علي بن طاهر مازال يكتمل تكوينه العلمي. لهذا نفهم لماذا لم تشر إليه المصادر خلال هذه المعركة الجهادية رغم كونه داعية من دعاة الحض على الجهاد. فقد ذكر الأستاذ محمد حجي أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر ألف كتابين في الحض على الجهاد الأول سماه: «لباب مراقي الجنة مما ورد في الجهاد في السنة».(82) والثاني سماه: «الإسعاف والإنجاد في ذكر الآيات الواردة في الجهاد».(83) ثم التحق بمراكش وانقطع للتدريس بها. وهنا بدأ مرحلة تحمل المسؤولية والإنتقال من طور التلمذة إلى طور الأستاذية أي

---

82) أشار الأستاذ محمد حجي أن هذا المخطوط يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 299. انظر الحركة الفكرية م. س ج 1، ص 202 هامش 8.

83) لحد الآن لم يكتشف بعد هذا المخطوط. انظر الحركة الفكرية، م. س ج 1 ص 202.. وذكر الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي في إحدى هوامش تحقيقه لكتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر لمحمد ابن الطيب القادري، أن لمولاي عبد الله بن علي بن طاهر مؤلفات أخرى في الحديث والقراءات والتفسير والسيرة منها: كتاب «الدر الأزهر في مناسبات الآيات والسور» وكتاب: «الدر الأزهر المستخرج من بدر الإسم الأظهر» كتبه على غرار الإتقان في علوم القرآن للسيوطي وكتاب: «الدر الأزهر في السيرة النبوية»، ويذكر الأستاذ محمد حجي أنه توجد نسخة خطية منه بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 3753. وكتاب «نظم في اصطلاح الحديث». وذكر العباس ابن إبراهيم التعارجي أن لمولاي عبد الله بن علي بن طاهر عقيدتان بديعتان صغرى وكبرى اقتصر فيهما على الحروف التي اشتملت عليها سورة الإخلاص وهي 13 حرفا، ولم يدخل فيها غير ذلك من حروف المعجم فصعبت بذلك وصار يرتكب الغريب من اللغة فيها. انظر العباس بن إبراهيم: الإعلام م. س ج 2 ص ص 304.

ومن جهة أخرى ورد في مخطوط فتح القدوس أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر ألف ديوانا في الأمداح النبوية. أنظر فتح القدوس م. س ص 267. وسنثبت في الملحق الخاص بالوثائق إحدى هذه القصائد التي رتبها على آية ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ من سورة «الرحمان علم القرآن». ولمولاي عبد الله بن علي بن طاهر كذلك قصيدة نظمها حين حصلت له الإذاية من بعض السفهاء استغاث فيها بالنبي ﷺ، ورتبها على حروف قوله تعالى: ﴿**رب إني مغلوب فانتصر**﴾. أنظر مخطوط فتح القدوس م. س ص 269 وسنثبتها كذلك في الملحق الوثائقي الخاص.

مـرحلة تطبيق العلم على العمل، سيما وأنـه وجـد نفسه يتـوفر على أفكـار صحيحة تشكلت من حصيلة معلومات عالية اقتبسـها من مطالعته ودراسته على يد زمـرة من الأسـاتذة، ولـديه فهارس محيطـة وكفيلة بالإحـاطة بعلم هاتـه الأمة على حـد تعبير البوسعيـدي. وحينئذ يمـم وجهته نحـو حاضرة مراكش التي لم تكن غريبة عليه. فالمصادر تذكر أنه كان يُـدَرِّسُ سنة 1004 هـ/ 1595 - 1596م(84) بمسجد الحرة أو مسجد باب دكالة بمراكش، الذي أسستـه السيدة عـودة بنت أحمد بن عبـد اللـه الوزكيتـي والدة المنصـور الذهبي السعدي. وقـد حبست عليه أحباسا وأوقـافا لا تحصى وذلك سنة 995هـ.(85)

كان مولاي عبـد الله بن علي بن طاهر معتـزا بفهمه واثقا من آرائه التي جعلته لسـانا وصوتا مـدويا ضد الفـرق الباغية والمذاهب المنحرفـة. وكان صارما في الحق والجهر به والتعبير عن مـواقفه الصريحة الجريئة المطبوعة بأخلاقه العلميـة المتشددة، التي لا تعرف هوادة ولا مـداهنة ولا تملقا فيما أوصله إليـه اجتهاده العلمي، دون أن يخشى في ذلك لومـة لائم. وكثيرا ما كان يتحين الفرص ليجعل من درسه منبرا للتشنيع على أهل البدع والأهواء الفاسـدة وأصحاب الإنحراف كيفما كـانت حالتهم وطبقاتهم. وقـد تعرض بسبب ذلك لإذاية بعض السفهاء الذين لابد وأن يكونوا مدفوعين من بعض الجهات التي لها نفـوذ قوي، فتحمل كل ذلك احتسابـا لله وتأدية للأمـانة العلمية التي كان يؤديها.(86)

ثم بعد ذلك انتقل مولاي عبد الله بن علي بن طـاهر إلى مدغرة تافيلالت مارا عبر درعة. ولعل سبب انتقاله كـان سياسيا لخلافه مع أحمد المنصور حول مجموعة من القضايـا. فالمصادر التي واكبت المرحلة الأخيرة من عهد السلطان المنصور وعـلاقته بالرجل، تجمع كلهـا على اختلاف المنصور مع مـولاي عبد اللـه بن علي بن طاهـر حـول مجموعـة من القضايـا. يأتي في مقدمتها موقف المنصور من اليهود ودالتهم على رجال الدولة. وتستشهد في

84) الإفراني : صفوة م. س ص 4.

85) الناصري : الاستقصا م. س ج 5 ص 117.

86) التقي العلوي : الحافظ عبد الله بن علي، مجلة كلية الشريعة م. س ص 54.

هذا الجانب بحكاية مولاي عبد الله بن علي بن طاهر مع اليهودي الذي كان يصول ويجول في بلاط المنصور. كما تربط هذا الخلاف من جهة ثانية بمسألة رفض مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الإقرار باجتماع السعديين والعلويين في النسب.(87)

ومن هنا تبدو مسألة موقف المنصور من اليهود ورفض مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الإقرار بنسب السعديين من خلال الفحص الخارجي السبب الأول والأخير لهذا الخلاف، والذي أدى إلى طرد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر من بلاط المنصور بمراكش إلى مدغرة. مما يعني أن انتقاله إلى مدغرة كان يشبه إلى حد ما «الإقامة الإجبارية» على حد رأي الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي.(88) وهذا الانتقال الإجباري لمولاي عبد الله بن علي ابن طاهر من مراكش إلى مدغرة نجد صداه في إحدى الكرامات التي مازالت الذاكرة الشعبية المحلية تذكرها لحد الآن. ومؤداها أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر كلما أراد الوضوء يذهب لبئر المسجد لجلب الماء، وكان الدلو

87) فقد جاء في مخطوط : «نزهة الأخيار المرضيين في مناقب السادات الدلائيين البكريين» لعبد الودود بن عمر التازي الأندلسي مخ. خ. ع الرباط تحت رقم 1364 ك – ض. م ص ص 104 – 105 – 106 ما يلي : «فأرسل لسيدي عبد الله الطاهري الفاسي – وهي ترجمة خاطئة والمقصود به مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني – ... أراد أن يسأله عن نسبه ليزول عنه ما يرمى به من أنه لقيط وليس لأبيه. وقد أمر السعدي – يعني السلطان أحمد المنصور – به أن يأتي في صيت عظيم، وذلك أنه أمر بالقبائل كلها أن تهاديه كبني حسن وسفيان وبني مالك والخلط وطليق والشاوية وعبدة وأهل السوس وزرارة والشبانات وشتوكة والشياظمة وأهل حاحا وأهل تادلا والسراغنة ودكالة والرحامنة وقبائل البربر... وأمر أن يأتي معه – أي مع مولاي عبد الله ابن علي بن طاهر – من أهل فاس عدد كبير من علمائها وأشرافها فكان ذلك علة... ولما وصل سيدي عبد الله الطاهري – يعني مولاي عبد الله بن علي بن طاهر – إليه بمراكش خرج السعدي لملاقاته... وأخرج جميع من حضر من القبائل وأحضر طعاما وأطعم الناس وجلس هو والطاهري في سوان عظيم لم ير الراؤون مثله. فلما حضر الطعام بينه وبين الطاهري وشرعا في الأكل قال السلطان السعدي للطاهري هذا أين يلتقي نسبنا بنسبكم، فرفع سيدي عبد الله الطاهري يده من آنية الطعام وذلك في ابتداء الأكل ونفضها. وقال له: «والله ما بيننا وبينكم من ملاقاة سوى في هذه الآنية فغضب السلطان السعدي ودخل داره وسدها عليه وأمر وزيره أن يودع الطاهري. وأقسم بالله لوزيره هذا أنه لولا أنه أقر بمجيئه وجاء في الأمان من أمره لقتله شر قتلة فودعه وزيره من غير رضاه، وأن الطاهري يقول ما أراد مني السعدي إلا أن أكذب على الله ليحصل هو على غرضه لا أقول إلا حقا ولا أفتي إلا صدقا...».

88) التقاط الدرر م. س ص 99 هامش 1. ترجمة م. هاشم.

يصعد مملوءا ذهبا عوضا عن الماء، إشارة إلى حياة النعيم التي كان ينعم بها بالبلاط السعدي. قبل انفجار الخلاف بينه وبين السلطان المنصور، والذي اضطره إلى مغادرة مراكش واستقراره بمدغرة والعيش في الزهد والكفاف. لكن هل المؤرخ يكتفي بالوقوف على هذه الأسباب دونما تحليل المراحل التاريخية السابقة لمعرفة الجذور الخفية لهذا الخلاف الذي لم تفصح عنه المصادر التي واكبت المرحلة ولو بالمرموز. والواقع أن الأمر لم يكن غير ذلك فقط، ومن هنا تفرض علينا الدراسة تسليط الأضواء على المرحلة الأخيرة من حياة المنصور وما عرفته من أزمات سياسية، كان لها بالغ الأثر في ظهور أولى مؤشرات هذا الخلاف. والذي أفضى فيما بعد إلى طرد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر من بلاط المنصور الذهبي بمراكش إلى مدغرة بعد أن بلغ الخلاف ذروته.

يظهر من خلال الفحص الدقيق والعميق للنصوص التاريخية أن أفراد البيت العلوي إبان قيام الدولة السعدية كانوا مهادنين مسالمين وذلك في إطار جمع الكلمة ولم الشمل. وما يشهد على تلك المساندة وذلك الدعم الذي قدمه البيت العلوي للأسرة السعدية ما نستشفه من شهادة السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله قال أبو القاسم الزياني في البستان:

«ولما استبد محمد الشيخ على أخيه أحمد الأعرج وعزله وولاه سجلماسة وكان بها تواصل مع سلفنا وقاموا بأمره ونصروه على أخيه محمد الشيخ إلى أن غلب عليه محمد الشيخ وفر أحمد وولده إلى قطر توات، وكاتب محمد الشيخ سلفنا وكاتبوه بمراسلات وقفت عليها».(89) ولقاء ذلك كان موقف السعديين إزاء العلويين موقف ود ومسالمة لشرفاء تافيلالت. فمولاي عبد الله بن علي بن طاهر الذي كان من أكابر العلماء والمحدثين في تلك الفترة. كان يعتبر من العلماء المبرزين الذين يحضرون في البلاط السعدي بمراكش وكانت له مقابلات خاصة مع أحمد المنصور أكبر ملوك هذه الدولة وأعلمهم. كما أن مولاي عبد الواحد بن أحمد الحسني العلوي المدغري كان كبير كتاب أحمد المنصور وذا حظوة خاصة لديه، بحيث كاد أن يكون

89) أبو القاسم الزياني : البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، تحقيق رشيد الزاوية. د. د. ع التاريخ فاس 1991 ص 9. لم يقف البحث التاريخي بعد على هذه النصوص.

وزيرا، وأكثر من هذا كانت له مجالس خاصة مع المنصور. وكان السعديون والعلويون يعتبرون أنفسهم أسرة واحدة، لأن من جملة ما كتب مولاي عبد الواحد بن أحمد الحسني كتابا عن آداب أهل البيت بطلب من أحمد المنصور.(90) وعلى أية حال فهذه الكتب الموجودة بخطه فيما تبقى من خزانة السعديين بإسبانيا تؤكد العلاقة القوية والطيبة التي كانت موجودة بين الشرفاء العلويين والسعديين على الأقل خلال هذه المرحلة. وهو ما نجد له صدى في المصادر التي واكبت مرحلة المنصور في علاقته مع أشراف تافيلالت قبل انفجار الخلاف بين الطرفين. فقد حكي عن المنصور أنه أعطى لبعض شرفاء سجلماسة مدا من الياقوت ومثله من الجوهر.(91) كما كان المنصور يعظم الأشراف ويواسيهم بالأموال الهابلة.(92) ولم يسجل لنا التاريخ أية محاولة تظهر لنا نوعا من توتر العلاقة بين الطرفين إلا مع النصف الثاني من القرن 10هـ/16م. ونستشف ذلك من خلال ما تقدمه لنا الكتابات التاريخية عن ذلك.

ويمكن أن نلمس أولى مؤشرات هذا الخلاف الذي حدث بين الأسرتين من خلال الحوار الذي دار بين السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله والمؤرخ أبا القاسم الزياني، عندما ذكر له هذا الأخير الخلاف الذي وقع في نسب السعديين. قال في البستان: «ولقد سمعت من مولانا أمير المسلمين سيدي محمد بن عبد الله لما جر ذكرهم – يعني السعديين – وذكرت له الخلاف الذي وقع في نسبهم. قال لي رحمه الله: أسكت ولا تعد لمثل هذه المقالة فإنهم إخواننا وبنو عمنا وجدنا وجدهم واحد... إلا أنهم لما صار إليهم ملك المغرب لم يعاملونا معاملة الإخوان واقتصروا على التوقير والاحترام، فكان سلفنا رحمهم الله يحقدون عليهم بسبب ذلك الإهمال، هذا

---

90) فقد ذكر الأستاذ محمد حجي أن هذا الكتاب موجود بخط الشريف الحسني المدغري مولاي عبد الواحد بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا وإن كان غير تام. كما أن خزانة زيدان بالقسم العربي لمكتبة الأسكوريال يضيف الأستاذ حجي تحتوي على نحو 10 كتب إما من تأليف عبد الواحد الحسني وإما بخطه، وقد كانت له اهتمامات لغوية وأدبية وكتبه تأخذ طابع الاختصار بصفة عامة. انظر محمد حجي : المنافسة بين سجلماسة وإليغ والدلاء. ندوة سجلماسة تاريخيا وأثريا. جامعة مولاي علي الشريف الخريفية الريصاني مارس 1988 ص ص 29 – 30.

91) 92) الزكي العلوي : مطالع م. س ص ص 331 – 332.

موجب طعنهم فيهم».(93) مما يحمل على الاعتقاد وكأن البيت العلوي بتافيلالت كان يود أن يشارك السعديين في السلطة لقاء ما قدمه البيت العلوي من دعم ومساندة للأسرة السعدية، ولما أدرك السعديون مرمى البيت العلوي أقصوهم وأداروا وجههم عنهم. وما كان بيد البيت العلوي آنذاك إلا التشكيك في صحة نسبهم. الشيء الذي ساعد على استمرار الخلاف بين الأسرتين حتى بلغ ذروته وانفجر خلال المراحل الأخيرة من عهد السلطان المنصور. هذا الأخير الذي شدد من سياسته إزاء أفراد البيت العلوي، ولم يسلم من سياسة الإبعاد والتشدد التي سنها المنصور إلا من سالم وهادن. وقد بلغت حدة هذا الخلاف إلى درجة الإبعاد والسجن. فالمصادر التي واكبت أحداث المرحلة تجمع كلها أن المنصور السعدي سجن حوالي أربعين شريفا علويا بمراكش. فقد ذكر العباس بن إبراهيم التعارجي في سياق ترجمته لمولاي علي الشريف بن محمد العلوي قال: «هو مولاي علي بن محمد بن علي بن يوسف بن مولانا علي الشريف السجلماسي الحسني دفين مراكش، الولي الصالح والقطب اللائح الواضح... أحد أولياء مراكش المشهورين توفي بها في سجن أحمد المنصور الذهبي السعدي من جملة أبناء عمه. وكانوا أربعين وجلهم ماتوا بالسجن وكانوا لا يأكلون ما يأتيهم من جهة السلطان المذكور – يعني أحمد المنصور – ولا من غيره، وإنما يأكلون من عمل أيديهم كنسخ الكتب وتوظيف الخوص(94) وغير ذلك تورعا. ومما يأتيهم من بلادهم إلى أن انقرضت الدولة السعدية وخرجوا لأنفسهم بدون مسرح».(95) وأضاف مولاي الزكي: «وكلهم أئمة أعلام يقتدى بهم في كل شيء. وقد بني عليهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبة عظيمة ومزارة كبيرة تُقْصَدُ للزيارة بكرة وعشيا بإزاء ضريح القاضي عياض».(96) ولا نعتقد أن يقدم المنصور على مثل هذا العمل إلا إذا كان مرتبطا بالطعن في مشروعية السلطة السعدية والشواهد متعددة:

1 – إن مسألة سجن المنصور لأربعين شريفا علويا ما هي في حقيقة الأمر إلا مرحلة من مراحل خلاف البيت العلوي والأسرة السعدية، هذا الخلاف الذي نضج وبلغ شأوه إلى أن انفجر مع عهد المنصور الذهبي.

93) أبو القاسم الزياني : البستان الظريف م. س ص ص 8 – 9.

94) الخوص هو سعف النخل.

95) العباس بن إبراهيم : الإعلام م. س ج 9 ص 224.

96) مطالع الزهراء : الزكي العلوي م. س ص 230.

2 – انطلاقا من نص التعارجي نلاحظ أن هذا الأخير لا يشير إلى سبب سجن المنصور لهذه الثلة من الأشراف، هل لأسباب مرتبطة باقترافهم جرائم مثل قطع السبل أو السرقة أو الاغتصاب وغيرها،أم لأسباب سياسية ترتبط بالطعن في مشروعية الدولة السعدية. إلا أنه وبالعودة إلى ما نقله صاحب مطالع الزهراء يتبين أن سبب سجن المنصور لهؤلاء الأشراف إلى الأبد يرتبط بالخلاف الذي انفجر بين الأسرتين السعدية والعلوية، والذي اضطر المنصور إلى سجن هؤلاء الأشراف الذين كانوا على ما يبدو يتزعمون حركة سياسية بتافيلالت ضد السلطة السعدية. ولا نستبعد أن يكون المنصور قد ألقى عليهم القبض بتافيلالت ونقلهم منها إلى مراكش لقبر هذه الحركة والتنكيل بزعمائها، سيما وأن المنصور حسب ما يفيدنا به عبد العزيز الفشتالي كان: «له من رجاله المصطنعين على كل مرقبة رصدة وعلى كل ثنية نقباء وفي كل خلوة أو جلوة عيون أذكاها موكلين بنقل ما يحدث من خبر أو قصة أو يدور على الألسنة... فكانت الأخبار لذلك تسبق إليه قبل بروزها للناس».(97) مما يدفعنا إلى الإعتقاد أن هؤلاء الأشراف المسجونين بمراكش كانوا بمثابة «معتقلين سياسيين» حسب التعبير الحالي. وما يشهد على ذلك أن المدة التي قضاها هؤلاء بالسجن كانت مفتوحة، فمنهم من لقي حتفه بالسجن وما تبقى منهم لم يخل سبيله إلا بعد موت المنصور وانقراض الدولة السعدية بعد ذلك. قال التعارجي: «...وكانوا أربعين وجلهم ماتوا بالسجن» وأضاف قائلا: «...إلى أن انقرضت الدولة السعدية وخرجوا لأنفسهم بدون مسرح»(98) هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان السجناء الأشراف يمتنعون عن أكل كل ما يأتيهم من جهة السلطان. قال التعارجي: «وكانوا لا يأكلون ما يأتيهم من جهة السلطان ولا من غيره»(99) ألا يعني هذا أنهم «كانوا يضربون عن الطعام» حسب التعبير الحالي، لا سيما تلك الأطعمة التي تأتيهم من جهة السلطان؟ ومقابل ذلك كانوا، يكتفون في قوتهم بما يرد عليهم من تافيلالت وما تجود عليهم به صناعة نسخ الكتب. وحرفة صناعة القفف والزنابيل وغيرها من سعف النخل.

---

97) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، م. س ص 207.

98) 99) العباس بن إبراهيم التعارجي : الإعلام م. س، ج 9، ص 224.

وقد حفظ السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله هذا الفضل والدعم والإستماتة لهؤلاء الأشراف الذين سجنهم المنصور واعتبرهم بمثابة «شهداء الحركة العلوية». وما يؤكد ذلك هو إقدام السلطان المذكور على بناء قبة عظيمة على قبور هؤلاء. قال مولاي الزكي: «...وقد بنى عليهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبة عظيمة ومزارة كبيرة تقصد للزيارة بكرة وعشيا بإزاء ضريح القاضي عياض».(100)

وينضاف إلى كل هذه العوامل التي على ما يبدو أنها تفسر إلى حد ما سبب الخلاف الذي انفجر بين الأسرتين العلوية والسعدية خلال عهد المنصور، ما عرفته المرحلة الأخيرة من حياة المنصور من أحداث ساهمت بدورها في تغذية هذا الخلاف. وفي هذا الخصوص نعتقد أن أهم مشكلة سياسية داخلية واجهت المنصور في آخر حياته هي مسألة بيعة ابنه المامون، هذه التولية التي كان يتوخى منها المنصور القضاء على أهم المشاكل التي كانت تعاني منها الدول المغربية عامة والدولة السعدية بوجه خاص. وتمت هذه البيعة على يد أبرز فقهاء المرحلة خاصة الإمام المنجور والشيخ القصار وغيرهم، وهم الفقهاء الذين كانوا يمثلون الهيئة التدريسية لجامعة القرويين، هذه المدرسة التي كان يقرأ بها أهل تافيلالت. وقد أثارت هذه البيعة ضجة كبيرة. ولا نستبعد في هذا الخصوص أن تكون هذه المشكلة قد غذت هذا الخلاف على اعتبار أن أهل تافيلالت كانوا يتأثرون بفقهاء وشيوخ القرويين الذين عقدوا هذه البيعة.

ومن جهة أخرى ومن باب التذكير فقط نشير إلى أن الذين رحبوا بالعلويين من أهل فاس هم فقهاء وعلماء القرويين. لأن الحاضرة الإدريسية ظل عالقا بذهنها التدخلات العنيفة للجيش السعدي بفاس، هذه التدخلات التي لم تكن رحيمة بأهل فاس.(101) من هنا تبدو مسألة طرد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر من قبل المنصور من بلاطه بمراكش أمرا لا ينفصل

---

100) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 230.

101) انظر بهذا الخصوص ما نقله المجهول بخصوص عنف التدخل السعدي بفاس : المجهول : تأريخ الدولة السعدية الدرعية التكمادارتية. اعتنى بنشره جورج كولان المطبعة الجديدة الرباط 1934 ص ص 22 – 23.

عن كل هـذه الحيثيات التي طبعت المرحلـة الأخيرة من حياة المنصـور، مما يعني أن الأمر لم يكـنْ فقط مرتبط بمـوقف المنصور من اليهـود وبرفض مولاي عبـد الله بن علي بـن طاهـر الإقرار بصحة نسـب السعديين، وإنما يرتبـط بأبعد من ذلك وخـاصة بـرغبة العلـويين في مشاركـة السعديين في السلطة. هـذا إن لم تكن رغبـة هؤلاء في الإنفراد بحكـم المغرب خـلال هذه المرحلة. وما يـؤكد ذلك أنه بمجرد وفاة المنصور وانـدلاع النزاع بين أبنائه حول السلطة استقلت العديد من المناطق عن طاعة العاصمة مراكش، وكانت منطقة تافيلالت أولى المناطق التي انفصلـت عن مراكش على إثر قيام الثائر ابــن أبي محلي بها (1019 – 1022هـ). وبعيـد هذه المرحلة ظهـر مولاي الشريف ظهورا سياسيا في إقليم سجلماسة، وتلتهـا مباركة مولاي عبد الله ابن علي بن طاهر للمشروع العلـوي انطلاقا من منفاه بمنطقـة مدغرة وطن أسلافه.

ظل مولاي عبـد الله بن علي بن طاهـر بعد طـرده من قبل المنصور من مراكش يتردد على قصور مـدغرة واعظا مدرسـا إلى أن انتهى به المطاف إلى قصر أولاد الحاج بمـدغـرة الـوسطى، والـذي شغل فيـه إمـام مسجـدهـا الجامع.(102) وهذا يدل على أن انتقال مولاي عبـد الله بن علي بن طاهر إلى مـدغرة يمثل مـرحلـة أخرى مـن تعمير هذه الأخيرة. سيما وأننـا نعلم أن الإنتقال الأول لبعض شرفـاء قصور وادي إفلي إلى مدغرة وما إليهـا تزامن مع مطلع القرن 10هـ/16م. ولا نستبعد في هذا الخصوص أن يكون مولاي عبد الله بن علي بن طاهر قد قصد تـافيلالت بعد طرده من مراكش في إطار تردده بين قصر حم داوود وطن أسلافه قبل الإنتقال ومدغرة بعد الإنتقال. وزامنت هذه العودة نهايـة العقد الأول من القرن 11هـ/17م على اعتبار أن مولاي عبد الله بن علي ابن طاهر كان سنة 1004هـ/1596م مدرسا بمسجد بـاب دكالـة بمـراكش. ممـا يعني أن عودتـه إلى منطلقـه كـان بعيد سنـة 1004هـ/1596م وقبيل وفاة المنصور الذهبي المؤرخة بسنة 1012هـ/1603م. على أن وفاة مولاي عبـد الله بن علي بن طاهر رمز إليهـا المؤرخون بجملة

102) محمد بن الطيب القادري : التقاط الدرر م. س ص 99 هامش 1.

دعائية هـي «دُسَّ فِي رَحْـمَـةٍ»، وهو ما يـوافق سنة 1042هـ/1632م حسب ما أورده تلميذه المرغيثي.(103)

إن التعرض لـلأسباب التي حـدت ببعض شرفـاء قصور وادي إفلي إلى الإنتقال إلى مـدغرة وما إليهـا مع مطلع القرن 11هـ/17م لا يتم استغلاله استغلالا علميا ومعقولا، إلا إذا وضعناه في سيـاق تطور الأوضاع الداخلية ليس فقط على المستوى المحلي الإقليمي بل وأيضا على المستوى الوطني.

إن أهم حـدث بارز ميز مطلـع القرن 11هـ/17م هو اختفـاء شخصية المنصور الذهبي القوية، إذ بمجرد وفاته سنة 1012هـ/1603م عمت المغرب الفـوضى السياسيـة. الشيء الذي أدى إلى تشتـت البلاد وظهـرت مظاهـر التعصب القبلي والجهـوي وانتشر الخوف والهلع وانعـدم الأمن في السبل، وسـاهمت ثورات القبـائل في نخر الجهـاز المخـزني. وسيزداد هـذا الجرح تفاقما وسيسـاهم إلى جانب عوامـل أخرى في تفتيت كل ما بنـاه السلاطين الأوائل. ولخص ابن أبي محلي هذه الوضعية قائلا: «فاجتمع على أهل الغرب عندما مات المنصور بل وقرب وفاته الجوع والهرج والوباء... تفاقم واتسع

103) فقد ناقش الأستاذ مولاي هاشم العلوي القاسمي في إحدى هوامش تحقيقه لكتاب التقاط الدرر جميع الآراء التي قيلت حول هـذه الوفاة، واستنتج أن أقـوى هذه الروايـات هي رواية المرغيثي للإلمام الرجل بعلم التوقيـت. قال: «مسألة ضبط تاريخ وفاة مولاي عبد اللـه بن علي بن طاهر الحسني مسألة هامة جـدا بالنسبة لتاريخ هذه الأسرة في مدغرة تـافيلالت، وتنقسم الروايات في ذكرهـا إلى ثلاثة وهي: أولا روايـة «محمد بن سعيد المرغيثي السـوسي» تلميذ مولاي عبـد الله يقول في «إجازة بن ناصر» أن شيخه توفي عند طلوع الشمس من يوم السبت 12 جمادى الثانية عام اثنين وأربعين وألف ثم كتبها بالأرقام 1042هـ بمدغرة ودفن خارج قرية أولاد الحاج. ثانيا رواية «الهشتـوكي» في كتـابه «بـدل المناصحة» إن الـوفاة كـانت في شهـر جمادى الثانيـة عام 1044هـ ، هذا متفق أيضا مع ما في نشر المثاني. ويـلاحظ أن هذه الرواية لم تحدد اليوم وعدده في الشهر ولا السـاعة. ثـالثا رواية «الطيب بن محمـد الفاسي» في «فهرستـه» وهذه تـؤرخ وفاة مولاي عبد الله بعام 1045هـ وهي تتفق مع رواية «الإفـراني» في «الصفوة»، وقد نقل القادري أيضا هـذه الرواية وإن كـان رجح رواية الهشتوكي لكـونه معاصرا وحـاضرا لزمن وفاتـه. أما «محمد بن الطيب القادري» في «التقاط الدرر» فقد لخص رواية «الهشتوكي» والفاسي. مما يعني أن القادري لم يطلع على الـرواية الأولى وهي رواية المرغيثي التي تتفق مع روايـة الهشتوكي في شهر الوفاة وتزيد عليها في الضبط. ويؤكـد هذا أن «المرغيثي» إمام في «التوقيت» يهتم بالزمان والمكان لا يكاد يضحي بلحظة واحدة حتى لكأنه يضع أصبعنا في روايته على اللحظة الأخيرة من حياة شيخه مولاي عبد الله، ولم يكتف بذلك بل وضعه بالأرقام. لهذا نرجح رواية المرغيثي على غيرها مخالفين ترجيح القادري في نشر المثاني. انظر التقاط الدرر م. س ص 98 هامش 1.

الخرق ووقعت وقائع مات منها خلق كثير».(104) وازداد الأمر تفاقما بفعل النزاع الذي اندلع بين أبناء المنصور وأحفاده واضطرب المغرب وشاع الهرج في حواضره وبواديه، فقام الثوار في كل ناحية من نواحيه».(105) وعاد الوجود المسيحي إلى السواحل المغربية، وأصبحت صورة المغرب مع مطلع القرن 11هـ/17م تطابق الصورة التي كان عليها مع مطلع القرن 10هـ/16م.

في ظل هذه الظروف لم تكن منطقة تافيلالت بمعزل عن هذه الأحداث بل تأثرت بها وأثرت فيها، إذ منها انطلقت أولى المحاولات المناوئة لشرعية السلطة السعدية. ويتعلق الأمر بقيام أبي محلي بالساورة ثم سيطرته على تافيلالت، التي يبدو أنها لم تعد تعترف بالسلطة السعدية خلال هذه الفترة إلا إسميا. في ظل هذه الظروف إذا يمكن أن نعالج مسألة الانتقال الثاني لبعض شرفاء قصور وادي إفلي إلى منطقة مدغرة وما إليها. فهل المسألة مرتبطة بموقف السعديين من أشراف تافيلالت؟ أم أنها مرتبطة بعلاقة أشراف تافيلالت بقبائل البربر خاصة أيت عطة؟ أي هل يعتبر انتقالهم إلى مدغرة مرتبط بالصراع القبلي على سجلماسة؟ أو هي مرتبطة بموقف الأشراف من الفقيه الثائر ابن أبي محلي الذي سيطر خلال هذه الفترة على سجلماسة؟ وأخيرا هل كان هذا الإنتقال إراديا أو قسريا؟ وجميع هذه الأسئلة تظل واردة باستمرار مادامت الوثائق لا تعطينا تفسيرا دقيقا حول هذه المسألة.

إن استقراء النصوص التاريخية يبرز أن هذه العوامل مجتمعة لعبت دورا كبيرا في هذا الانتقال، وإن كان هذا لا ينفي بالطبع وجود تفاوت فيما بينها من حيث التعجيل بهذا الإنتقال. مما يؤكد أن هناك علاقة سببية وثيقة بين هذا الإنتقال مع ما كان يجري من صراع داخل تافيلالت بين حلف صنهاجة وعرب بني معقل وبين الأسرة العلوية والسلطة السعدية.

---

104) ابن أبي محلي : مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدارس نفوس السفلة المنخدعة، مخ. خ العامة الرباط عدد ك 192، ص ص 5 – 7.
– إصليت الخريت م. س ص 115.

105) الزكي بن هاشم العلوي : مطالع م. س ص 347.

وأخيرا مـا أفرزه تطـور الأوضـاع العامـة بالمغـرب بعـد اختفاء شخصيـة المنصور القوية، ومـا تلى ذلك من ظهور الزعامات المحلية في منـاطق عديدة من المغرب.

يقرر صاحب فتح القدوس أن سبـب انتقال بعض شرفاء سجلماسة إلى مدغرة ومـا إليها يعود من جهة إلى أنواع المضـايقـات التي مارسـها ابن أبي محلي على سكـان تافيـلالت بما في ذلك الأشراف. ومن جهة ثـانية إلى فتنـة وقعت بين الشرفاء أنفسـهم.

ففيما يخص السبب الأول يذكر صاحب فتح القدوس أن : «مولاي عبد الله بن علي بن طاهر... كان مستوطنا سجلماسة وطن أسلافه الكرام بقصر حم داوود فلما وقع بينه وبين الفقيه ابـن أبي محلي من أهل زاوية القاضي مـا وقع، أرسل إليـه أعوانـه من رجـال حـاشيته لأجل إذايتـه فخـرج من سجلماسة مع بعض البرابرة من قبيلة أيت عطة كانت لهم معرفة به».(106) رغم أهميـة كـلام صاحب فتـح القدوس لأنـه يشير إلى جـانب من الصراع والتنافس الذي كانت تعرفه منطقة سجلماسة، سواء بين الاثنيات القبلية أو بين الثوار والسلطـة السعديـة. إلا أنه مع ذلك لا يجب أن نأخـذ هذا النص على علته وذلك لما يتضمنـه من مغالطات. لذا كـان لزاما تنقيحه ومعـالجته حتى يستجيب لتطور الوقائع التـاريخية. وقد سبق أن أوضحنا أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر كان من مواليد مدغرة، فمنها انطلق وإليها عاد.

وبالرجـوع إلى إشارة صاحب فتح القدوس والمتعلقة بأنـواع المضايقات التي أفرزهـا تطور الوضع الـداخلي لتافيـلالت والتي أدت إلى انتقال بعض الشرفاء إلى مـدغرة ومـا إليها، نـلاحظ أن ابن أبي محلي عندمـا انطلق من الساورة ومـد نفوذه إلى سجلماسـة أثقل كاهـل السكان بـالضرائب وأنواع المضايقات لا سيما على الأشراف منهم، وهذا يعاكس ما صورته لنا المصادر من أن هـذا الفقيـه الثـائر لما دخل سجلماسـة: «أظهـر العـدل وغير المناكر».(107) فقد جاء في مطالع الزهـراء ما يؤكد أن ابن أبي محلي لم يكن

---

106) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص ص 3 – 4.

107) الإفراني : نزهة الحادي م. س ص ص 206 – 207.

عـادلا ولا مغيراً للمناكـر ولا رحيما بأهل سجلماســة. قـال مولاي الـزكي العلوي: «... ومنهـا ما حكي عن بعض الثقـات أن أبا محلي المذكـور القائم بسجلماسة عام طيش ومات عام كبش بمراكش وظف على الأشراف... ستة صرر من تبر الـذهب، فجاؤوا إليـه بثلاثـة ولم يجدوا غيرها لقلـة ذات اليد فوجدوه – أي ابن أبي محلي – على شفير بئر كان يحفرها ومعهم الصبيان بألواح القـرآن يستعطفونـه أن يسمح لهم فيما وظف عليهم. وألقى الصرر الثـلاثة في البئـر المذكورة وأقسم لهم يمينـا مغلظا إن بـات عليهم من تلك السنـة شيء من الصرر الموظفـة أن يجعلنهـــا عليهم إثنى عشر، ولا يحسب الثلاثة الضــائعة. وأمر أولاد اليهودي بـرجم أولائك الصبيان».(108) وهذه الإشارات التاريخية تصور لنا جانبا من المضايقات التي أصبح يتعرض لها الأشراف لا سيما مع اختفـاء شخصية المنصـور القـوية. ممـا أتاح المجـال للثـوار الذين ضــايقـوا الأشراف واضطروا البعـض منهم إلى الإنتقال نحـو مناطق أخرى، منها مـا حادى تافيلالت وظن أسلافهم ومنهـا ما بعد عنها. وهذا يعني وانطلاقا من كلام صاحب فتح القدوس أن حدث الانتقال الثاني لبعض شرفاء قصور وادي إفلي نحو مدغرة وما إليها حدث مع مطلع القرن 11هـ/17م وبـالتحديـد مع نهايـة العقد الثـاني وبـدايـة الثالث من القـرن 11هـ/17م وهي الفترة التاريخية التي قام فيها ابن أبي محلي منذ أن انطلق من منطقة الساورة إلى أن قُـتِـلَ بمـراكش – أي الفترة الممتدة من سنة عام طيش 1019هـ/1610م إلى سنة عام كبش 1022هـ/1613م –، هذا من جهة. ومن جهة أخرى نفترض أن يكون الشرفـاء قد انقسموا على أنفسـهم، فمنهم من رفض الخضـوع للمضـايقـات التي أفـرزهـا تطـور الـوضـع الـداخلي لسجلماســة، ســواء على مستوى صراع وتنـافس الأحـلاف القبليـة أو على مستوى اصطـدام الثوار بممثلي المخـزن السعدي. ومنهم من رضي بـالأمر الواقع. وهـذا الإنقسام الذي حصل داخل البيت العلوي هـو ما حمل قسما منـه إلى الانتقال إلى مـدغرة ومـا إليها وظل القسم الآخـر مرتبطـا بأرض أسلافه، وهو الجناح الذي سيطـالب بعد حين بتولي أمر المغرب. ونعتقد أن

---

108) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 233.

هذا الإنقسام الذي حصل داخل الأسرة العلوية كانت تغذيه المعطيات المحلية الظرفيـة التي ميزت مطلـع القرن 11هـ/17م. لـدرجة جعلت صـاحب فتح القـدوس يعبر عن هذا الانقسـام «بـالفتنة»، التـي كانت من بين الأسبـاب المباشرة كـذلك لانتقال قسم من الأسرة العلـوية إلى منـاطق مغربيـة أخرى محادية لتافيـلالت. قال في فتح القدوس: «... وصـاروا ينتقلون منها – أي من تافيلالت – لمدغرة بسبب فتنة وقعت بينهم».(109) ومن هنا تبدو الفتنة التي وقعت بين الشرفاء من خـلال الفحص الخارجي السبب الأول والأخير في انتقال قسم من البيت العلوي إلى مدغرة. لكن هل المؤرخ يكتفي فقط برد الإنقسام الحاصل داخل الأسرة العلـوية إلى ما أفرزه تطور الـوضـع الداخلي لسجلماسة بما في ذلك مضايقـات ابن أبي محلي؟ أم يجب البحث عن خبايا هـذا الإنقسـام من داخل الأسرة العلويـة نفسهـا؟ بمعنى هل الإنقسـام أو «الفتنة» التي تحدث عنها صاحب فتح القدوس ترتبط – افتراضا – بتطور الأوضاع الداخلية العامة لسجلماسة خلال هذه المرحلة؟ أم أن هذا الإنقسام كانت تغذيه الخلافات الأسرية الضيقة داخل نسيج الأسرة العلوية نفسها؟

إن استقراء المادة العلميـة ومحاورتها تفيد في تفسير أسباب هـذه الفتنة التي ظهـرت بين شرفاء قصـور وادي إفلي، والتي اضطـرت قسما منهم إلى الإنتقال والإلتحـاق بإخوانهم بمدغـرة. بينما حتمت على القسم الباقي منهم بسجلماسة ضرورة التفكير وبجدية في كيفية أخـذ زمام الأمر والوصول إلى سـدة الحكم بالمغـرب. لا سيما بعدمـا ضاق بهم الحال ومستهم الأيـادي العادية، في خضم الغليان السياسي الذي عرفتـه منطقة تافيلالت خلال هذه الفترة، والذي أفضى إلى بروز فكرة الوصول إلى سدة الحكم بالمغرب.

فإذا كانت المضـايقات التي أفرزهـا تطور وجود هذه الأسرة بتـافيلالت وما خلفته المستجدات بعد وفاة شخصية السلطان المنصور القوية من آثار أسهمت إلى حد كبير في بلورة شعور الأسرة بضرورة التحـرك والأخذ بزمام الأمر. إلا أن هذه الـرغبة على ما يظهر اتسمت بافتراق كلمـة الشرفاء حول من يولونه عليهم، وهذا الخلاف الأسري يترجـم جانبا من الفتنة التي أشار

---

109) مولاي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 5.

إليها صاحب فتح القدوس. فقد ذكر الـزكي بن هاشم العلوي أنه لما ضايق ابن أبي محلي سكان سجلماسـة بالضرائب وأنـواع المضايقـات و«طال ذلك بأهل سجلماسة نهضـوا بأجمعهم وقدموا على الأشراف بوادي إفلي، وقـالوا لهم اعطونا شريفـا منكم نبايعه وتجتمع كلمتنا عليـه، فإنكم أهل الولاية... وجعلوا الأمر المطلـوب بينهم بين الشريفين الجليلين مولاي الشريف بن علي ابن محمـد... ومـولاي الشريف بن بـوزكـري. وكـلاهما من أبنـاء سيـدي يوسف».(110) وهذا يعني أن البيت العلوي قدم مرشحين لتولي أمر المغرب. ورغم أن النص لا يشير بصريح العبارة إلى كـون عامل التنافس هـذا حول مسألـة التوليـة كان كأحـد الأسبـاب المباشرة التي خلقت الإنقسـام داخل الأسرة العلوية ولكن على الأقل فهذه النقطة واردة الحضور، ويظهر ذلك من خلال تقديم شريفين للولاية.

وإذا كان هذا التنافس باهتا خـلال هذه المرحلة إلا أنه سيظهر بوضوح مع مـرور الزمن، لا سيما عنـدما سيستتب الأمـر لمولاي الشريف بن علي. قال في مطالع الـزهراء: «لما تولى مولاي الشريف بن علي أمـر الشرفاء خرج عنه ابن أخيـه محرز بن مولانا أحمد للفايجة بغـريس وفركلة وأهل تـدغة وجمعهم وطلب منهم أن يبايعـوه لأنهم برابرة أجـلاف، فاحتال عليـه عمه مولاي الشريف حتى قبضه وأحلم عليه وسمح له وأدخله داره وقال له: لا تتعب نفسك ولا تشقي روحك فـإن العـربي محرز الـذي سمعت عنـه من بعض أهل التاريخ هـو من صلبي ولن يدرك من الخلافـة شيء، ويموت في خـلافـة ولـدي عمـه إسماعيل. فتـاب ولـد أخيـه ورجـع عما كـان في ضميره».(111) وهـذا النص يستنهض الـدليل على أن مسألـة تـوليـة أمـر المغرب كـان واحدا من جوانب الفتنـة والإنقسام الذي اضطـر بعض شرفاء قصور وادي إفلي إلى الإنتقال إلى مدغرة وما إليها، كما يحدثنا بذلك صاحب فتح القدوس.

ومع كل هـذه الآراء التي تفسر إلى حد مـا دوافع وظروف هـذا الإنتقال الثاني نحو منطقة مدغرة وما إليها تبقى الأسئلة التي انطلقنا منها مستمرة

---

110) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 235.

111) نفس المرجع السابق، ص 236.

الحضـور بشكل لـزومي، مــادامت الـوثـائق لا تعطينــا تفسيرا دقيقـا في الموضوع كما أسلفنا سابقا. إلا أن الجدير بـالإشارة في هذا الخصوص هو ضرورة التأكيد على أن الأسرة العلوية خلال نهاية القرن 10هـ/16م ومطلع القرن 11هـ/17م لم تعـد مجرد أسرة يتبرك بها ويستفــاد من نفــوذهـا الروحي وإنما أضحت إحدى مكونات المجتمـع المغربي. فقد اتفقت الكتابات التاريخية على أن هذه الأسرة ساهمت في الحياة الاجتماعية وفي الحياة العامة للمغـرب بعـد انتشـار أفرادهـا في كل أنحـائه، بفـاس وصفـرو ومـراكش وزرهون ودمنات ومراكز كبرى بإقليم سجلماسة كالرتب ومدغرة والخنك. وأهم ما يمكن استنتاجه من الإشارات الواردة في هذه الكتابات عن العلويين هي مكانتهـم الخاصة بالمغـرب خاصـة بإقليم سجلماسة بمختلف واحـاته التي أصبحت لهم فيها روابط المصاهرة والتعليم والتثقيف والوعظ والإرشاد وعمومـا رابطة روحيـة بسكان الإقليم، هذه المكـانة يمكن مـلاحظتها حتى خارج إقليم سجلماسة من مظاهـر الاحترام والتوقير الذي حظيت به الأسرة أثناء حكم السعـديين. بمعنى أنهم لم يكونوا غـرباء عن الوضعية المغـربية قبل أن يؤسسوا حكما بالمغرب بل تأثروا وتفـاعلوا ولامسوا جوهر المشاكل التي كان يعـاني منها المجتمع المغـربي. وسيؤثر هـذا النفوذ في الإنطـلاقة الأولى للعلـويين، إذ سيتحـول أفـراد هــذه الأسرة من فقهـاء نـاصحين إلى شخصيــات تحاول أن تلعب دورا سيــاسيــا تنظيريــا. ويكفي في هــذا الخصوص الوقوف على ما قام به مـولاي عبد الله بن علي بن طاهر في هذا الجانب من تزكية للمشروع العلوي انطلاقـا من واحة مدغرة، التي أصبحت بعد انتقـال بعض الأسر الحسنية إليها بمثـابة قاعدة تنظـر للدولة العلـوية الناشئة التي أفـرزتها مضايقات ابن أبي محلي وزكاها مـوقف مولاي عبد الله بن علي بن طـاهر. مما يعني أن قيام الإمـارة العلوية بتافيـلالت يرتبط أشد الإرتباط بظهور قوة الشرفاء العلويين. وهو ما يمكن أن نحدده تاريخيا من مـرحلة قيـام ابن أبي محلي وسطـوته على تـافيـلالت إلى حدود سنـة 1042هـ التي توافق وفـاة منظر الدولة العلوية، مـولاي عبد الله بن علي بن طاهر الذي ساهم علاوة على ذلك في تكوين حلف أيت يفلمان الذي سيصبح مواليـا للدولـة العلوية بعـد حين. وذلك في سياق خلق نـوع من التوازن في

صراع الأحلاف القبلية، التي أفرزها تطور الـوضع الداخلي لتافيلالت خلال مرحلة مطلع القرن 11هـ/17م. وسيصبح إقليم سجلماسة بمختلف واحاته قاعدة بشرية مغذية لهذا الطموح السياسي والقاعدة الإقتصادية الممول الأول لانطلاقة العلويين. وقد ساهمت الظروف الإقليمية وطبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في خلق فرص مناسبة للعلويين. وذلك نتيجة الأحداث المترتبة عن اختلاف أنماط العيش ومشكلات الجفاف التي أدت إلى حصول الإصطدام بين الأحلاف القبلية المتنافسة أي بين سكان الجبل والواحة. وأدى هذا الإصطدام التقليدي في الظروف الجديدة للمغرب إلى تدخل عناصر عملت على بلورة الطموح السياسي لدى العلويين.

3 – **مواطن استقرار الشرفاء بمدغرة وما إليها :**

إن انتقال شرفاء قصور وادي إفلي لم تكن لتقتصر على منطقة مدغرة، بل شملت كذلك مناطق: الرتب – الخنك – ملوية العليا – حوض غريس – صفرو – فاس – مكناس – مراكش ودمنات. وهي على العموم مناطق تختلف من حيث المعطيات البيئية والأهمية الاستراتيجية، فأغلبها يوجد على أحواض الوديان وطرق المواصلات بين فاس وسجلماسة. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه سابقا من أن انتقال الشرفاء جاء نتيجة للصراع الداخلي الذي كانت تعرفه منطقة سجلماسة بين الأحلاف القبلية الإقليمية. مما أدى إلى مرافقة الشرفاء العلويين للبربر في انتقالاتهم واستقرارهم بأحواض الوديان وعلى طرق المواصلات. هذا من جهة، ومن جهة ثانية تعتبر هذه المناطق في أغلبها المحطات التي توقف بها مولاي عبد الله بن علي بن طاهر في رحلته التي قادته إلى فاس ومراكش وعودته إلى مدغرة. ولا نستبعد أن يكون الرجل قد مهد الطريق للشرفاء السجلماسيين، لهذا لا غرو إذا وجدنا أغلب المحطات التي توقف بها هذا الولي هي المناطق التي قصدها الشرفاء المنتقلون، على أن استقراره بشكل نهائي بمدغرة – وإن كان استقرارا إجباريا كما سبق أن أوضحنا ذلك – فإنه يعبر في عمقه على أهمية هذه المنطقة كمركز للتنظير السياسي للمشروع العلوي، وكهمزة وصل بين جميع المحطات التي انتقل إليها الشرفاء المتنقلون. مما يضفي على منطقة مدغرة أهمية استراتيجية وسياسية متميزة.

إن تنوع بيئات المواطن التي حل بها الشرفاء المنتقلون من قصور وادي إفلي بيئيا واستراتيجيا ووظيفيا، فرض على الشرفاء المنتقلين اختيار وانتقاء العناصر البشرية الملائمة التي تستطيع أن تتكيف بسرعة مع تنوع هذه البيئات. وهذا يعني أن هذا الإنتقال لم يتم إلا بعد إعداد الترتيبات اللازمة، وبناء على تخطيط دقيق ومحكم، أشرف على إعداده وتنفيذه - افتراضا - مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. هذا وإن كنا لا نستطيع أن نثبت أن هذا الأخير وزع الأراضي على المنتقلين. إلا أن الأكيد أنه بارك هذا التجمع السكني، أي أنه خروج منظم. وهذه الاستراتيجية لا نعتقد أن تتم بشكل عفوي إلا إذا ربطناها بدوافعها ومراميها. وهذا يدل أن هناك علاقة سببية وطيدة بين هذا الإنتقال وطبيعة هذا الإستقرار، مع ما كان يجري من صراع داخلي بسجلماسة بين حلف بربر صنهاجة وحلف عرب بني معقل وبين الأسرة العلوية والسلطة السعدية.

منذ البداية يجب التأكيد على أن انتقال شرفاء قصور وادي إفلي إلى منطقة مدغرة وما إليها من المناطق المغربية الأخرى، شارك فيه فرعا الشرفاء: المحمديون واليوسفيون المنحدرون من ابني مولاي علي الشريف السيد مولاي محمد وأبي الجمال سيدي يوسف. وإذا كانت منطقة مدغرة قد انتقلت إليها غالبية يوسفية ممثلة في ثلاثة أسر كبرى هي: شرفاء أهل قصر بوحامد وشرفاء أهل قصر حم داوود وشرفاء أهل قصر تعرمت، فإن الوجود المحمدي لم يكن منعدم الحضور بها، هذا وإن كانت مواضع أسر هذا الفرع الأخير معدودة على رؤوس الأصابع. ونالت مدغرة بهذا التعمير الجديد حصة كبيرة من الشرفاء مقارنة مع مناطق مغربية أخرى شملها الإنتقال العلوي خلال هذه المرحلة، وبهذا التمركز أصبحت أسر مجموع الشرفاء تكون قوة بشرية تكاد تشبه ما هو موجود في المنطقة السجلماسية القديمة. بمعنى أن مدغرة تحولت إلى منطقة شرفاء، توازي في قوتها منطقة تافيلالت. ولتوضيح هذا الواقع نقف قليلا عند هذين الفرعين الرئيسيين :

الشرفاء المحمديون :

إن التدقيق في المواضع التي قصدها الشرفاء المحمديون، سواء بمدغرة أو ما والاها من المناطق المغربية الأخرى. يفيد في الكشف عن خصائص هذا

الفرع التـي لا تنفصل عن هذا الإختيـار الذي يبـدو وكأنه كـان مقصودا، ويستجيب في الغـالب للمهـام الـوظيفيـة التي اضطلع بها هـؤلاء الأشراف. وغني عن البيـان أن الفرع المحمـدي من خـلال الصورة التي تقـدمها لنـا المصادر عنهم أنهم كانوا تجاراً في غالبيتهم. وما يشهد على ذلك هو إشارات النصوص التي تجعل منهم أصحـاب دنيا، علاوة على تمركـزهم على طرق التجارة التي تمر عبرها أو تنتهي إليها القوافل المترددة بين فاس والسودان، كفاس وصفرو وقصر تِـيغيوْرينْ وزاوية قصر تـازوكا بأعلى مدغرة وقصر البلاغمـة بالـرتب وبسجلماسة وتوات والسـودان. فقد استقـر بفاس أولاد مـولاي هـاشم بن حـرازم بـن محمـد... ومن هـذا الفـرع تجار إلى بـلاد السودان.(112) كما تمركز أحفاد مولاي قاسم بن مـولانا محمد بن مولانا علي الشريف بوادي إفلي قـرب ضريح مولانا الحسن الجد الأعلى، وبمـدينة صفرو بموضع الشَّـبَّـاكْ وبتوات بمداشر عـديدة. أما في مدغرة فقد استقر أفراد هذا الفرع بمدشر تيغيـورين برأس مدغرة.(113) وانتشر أحفاد الفرع الرابع من أولاد مولاي محمد بن مـولانا علي الشريف. ويتعلق الأمر بالسيد مولاي علي بن محمد بوادي إفلي قـرب سوق البلاد الأعظم و«بأولاد زيان» وبدشر لهم بقبيلة «إشقيرن» وتوات بزاوية «كنت» وبمدينة «ولاتة» بصـحراء السودان. ويمـران قرب طرابلس وبفاس الإدريسيـة وبرأس مدغرة بقـرية تازوكا(114) وبمكناسة الزيتون.(115) كما استقر أحد فـروع أولاد مولاي محمد بالـرتب بقصر البلاغمة وإليهم ينتسب مولاي عمـر بن مولاي أحمد المجدوب الغائب المستجاب الدعاء، فكم من قـوم ربحوا بدعوته وكم من قوم هلكوا بسطوته، تهابه اللصوص وتدعن إليه الخصوص.(116)

إن التـدقيق في هذه الأمـاكن التي حل بها الشرفاء المحمـديون تتنـاسب وميولهم الـوظيفي، حيث إنها كلها نقط حسـاسة في طـرق القوافل المترددة

112) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 225.

113) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 220. أنظر تحديد هذا القصر بالجدول الخاص بالقصور

114) يوجد هذا القصر على الضفة اليمنى من وادي زيز بأعلى مدغرة.

115) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 223 / الأنوار السنية : م. س، ص : 56.

116) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 223.

بين السـودان وفـاس. ممـا يعني أن اختيـارهم لهذه الأمـاكن يستجيب في الغالب لمهامهم التجارية خاصة.

وبخصوص مـدغرة نـلاحظ أن هؤلاء الأشراف استـوطنوا أمـاكن ذات حساسية تجارية واستراتيجية. فمن جهة نلاحظ أن قصر تِـيغيوْرينْ الذي استقر فيـه أحفاد مولانـا قاسـم بن مـولانا محمد بن مـولانا علي الشريف وقصر زاوية تازوكا الذي استقر فيه أحفاد مولاي علي بن محمد من الفرع المحمدي، هي مراكـز ذات أهمية تجارية. إذ تعتبر المجال الـذي تتلامس فيه مدغـرة مع منطقة الخنكَ، وتحتـوي على سوق ويتعلق الأمـر بقصر السوق المنصوص عليه سابقا.(117) ويغلب على الظن أنه كان بمثابة محطة تتوقف بها القـوافل التجـاريـة. ويعتبر هذا المجـال إحـدى الشعـاب والمداخل التي توصل مـدغرة بـالخنكَ عبر قصر أيت عثمان وممر زعبل، الـذي كان يعتبر بمثـابـة مجمع للتمثيل القبلي. وقـد سبق أن أوضحنـا أهميـة المنطقـة من الوجهة الاستراتيجية،(118) لهذا لا غـرو إذا كــان هـذا القصر – أي قصر السـوق – واحـدا من تلك المواضع التي اشترط محمـد الحاج الـدلائي على مولاي محمد بن الشريف أن لا يحرك له فيهـا ساكنا، وذلك على إثر الهدنة التي أعقبت معركة الكَارة سنة 1056هـ/1646م. لاعتبارات مرتبطة بأهميته الاستراتيجية والتجارية. وفي هذا الخصوص نعتقد أن استقرار الشرفاء بهذا القسم من مدغرة كان الهدف منه هـو تثبيت الوجود العلوي بهذه المجالات التي مدت إليها القـوة الدلائية نفوذها، ممـا يبعث على الاعتقاد من جهة أن انتقال الشرفاء المحمدين إلى هذا القسم من مـدغرة ما هو في حقيقة الأمر إلا إحدى النتائج التي أفرزها الصراع العلـوي الدلائي بعد وقعة الكَارة. ويعني هذا من جهة ثانية أن هذا الانتقـال المحمدي إلى هذا القسم من مدغرة يمكن اعتباره انتقالا ثـالثا. لأنه جاء بعد الانتقـال الأول الذي تم مع مطلع القرن 10هـ/16م، وبعد الإنتقـال الثاني الـذي حدث مع مطلـع القرن 11هـ/17م. مما يعني أن الإنتقال الثـالث تم بعد سنة 1056هـ/1646م وهي السنة التي

117) انظر الباب الثاني الفصل الثاني.

118) انظر الباب الثاني الفصل الأول.

تؤرخ لوقعة الكَارة.(119) ونتوفر على معلمة طوبنيمية تحمل اسم قصر أيت مولاي محمد، وقد سبق أن أشرنا(120) أن هذا القصر يعتبر من القصور القديمة المندرسة. ونفترض أن يكون هذا القصر استمد اسمه من اسم السلطان مولاي محمد بن الشريف العلوي. مما يطبع وجوده بطابع سياسي استراتيجي أكثر منه تجاري.

نعتقد أن وجود هذا القصر بهذا القسم من مدغرة يصور حدة الصراع بين النفوذ العلوي والدلائي لأجل مراقبة هذا الممر الاستراتيجي. ويغلب على الظن أن الغاية من إقامته هو إشعار القوة الدلائية بانتشار العنصر العلوي الشريف على امتداد الطرق. كضامنين لسلامة الممرات والمداخل الرابطة بين الشمال والجنوب، والضمان هنا ليس بقوة عسكرية ولكن بقوتهم الروحية.

صحيح إن هذا التأويل هو تأويل سياسي ولكن ألا يكون هناك تفسير آخر لهذا الانتشار العلوي بهذا القسم – الأعلى – من مدغرة؟ ويتعلق الأمر هنا بمسألة قطع الطريق على الدلائيين، وبالتالي حبس الإنتفاع من التجارة الصحراوية. من هنا لا غرو إذا وجدنا السلاطين الأوائل للدولة العلوية خاصة مولاي محمد ومولاي رشيد يديرون وجهتهم نحو الشرق نحو عين الشواطر والإتجاه الشرقي لتازة. مما أدى إلى تكوين حلف أيت يفلمان من عرب بني معقل سكان السهوب وصنهاجة، وبالتالي خلق قاعدة بشرية بجهة الشرق لتدعيم الحركة العلوية والوصول إلى الشمال والغرب عبر الشرق. وذلك لتسييج الوجود الدلائي من الجنوب والشرق والشمال الشرقي. من هنا لا داعي للاستغراب إذا وجدنا حل وقعة الكَارة لم يدم طويلا من جهة، ومن جهة أخرى نفهم لماذا لم يجد مولاي رشيد العلوي أدنى صعوبة في اقتحام فاس من جهة الشرق، وينفي محمد الحاج الدلائي ورموز الحركة الدلائية بعد تدمير الزاوية إلى الشرق. أي إلى منطقة نفوذ العلويين.

وقد حفظ العلويون هذا الدعم وتلك المساندة التي قدمتها الجهات الشرقية للدولة العلوية في مراحلها الأولى، ونقلوا مجموعة من القبائل

---

119) انظر كل المصادر والمراجع التي واكبت العهد العلوي الأول من الإفراني إلى الناصري.

120) انظر الباب الثاني الفصل الثاني.

الشرقية إلى فاس. فقد ذكـرت دوزي جاك مونيي أن قبائل أيت أزدكَ تلقت الدعـوة من أجل مساعدة بربـر دخيسة الذين كانـوا بمنطقة تَـالْـسِّــينْـتْ أثناء حكم مولاي محمـد بن الشريف العلوي من أجل الإستقرار بِــكَـرَّامَـةْ بكَير الأعلى وبمنطقـة بودنيب بكَير الأوسط بعـد دعـوة دخيسة لهم، هـذه الأخيرة التي انتقلت أثنـاء محاصرة مولاي محمـد بن الشريف لفاس سنـة 1649م من أجل الاستقــرار في منطقــة ســايس الجنــوبي شمال غــرب مكناس.(121) كما أن مـولاي رشيـد نقل قبائل شراكَـة إلى فـاس وأسكنهم قصبة عسكريـة كونها في غالبيتها من العناصر الشرقيـة، ليضمن سيطرته على المدينة الإدريسية. وجدد مدرســة الشراطين وخصصـها للطلبة الوافدين من تافيلالت والجهات الشرقية.(122) وكان يتوخى من ذلك تكـوين طائفة من العلماء المناصرين للسلطة الجديدة ومحاولة القضاء على نوايا الفتنة.

الشرفاء اليوسفيون :

إذا كان شرفاء الفرع المحمدي المنتقلون إلى مدغرة يمثلون قلة، حسب ما أمدتنا به المادة العلمية التي اطلعنا عليهـا. فإن شرفاء الفرع اليوسفي مثلوا الغالبيـة العظمى التي استقرت بمدغرة، وينحـدرون من السيد أبي الجمال يوسف ثـاني أبناء مولاي علي الشريف. وكانت مـواطنهم الأولى بوادي إفلي بقصور: حم داوود – تعرمت، وقصر بوحامد.(123) وبوصولهم إلى مدغرة استقروا في مجموعة من القصور، استطعنـا تحديد عددها في ستة وعشرين قصرا. وما يجب التأكيـد عليه في هذا الخصوص أن منطقة مـدغرة لم تكن هي المستقر الوحيد لهم بعد انتقالهم من تافيلالت. فقد وجدوا بواحة الرتب

---

121) Meunie (D.J) / le Maroc saharien. op cit. t II p 659. هامش 51.

122) روجي لوطورنو : فاس قبل الحماية م. س ج 2 ص ص 668.

123) إدريس الفضيلي : الدرر البهية م. س ج 1 ص 231. وذكر صاحب الدر السني عبد السلام بن الطيب القادري أن هذه القصور سمي أكثرها بأسماء رجال كانوا قد بنوها أو عمروها أولا «مما يعني أنها ليست من بنـاء الشرفاء المنتقلين إلى مـدغـرة». انظر عبـد السلام بن الطيب القـادري الحسني : الدر السني في بعض من بفاس من النسب الحسني، طبعة حجرية فاس سنة 1308هـ ص 54.

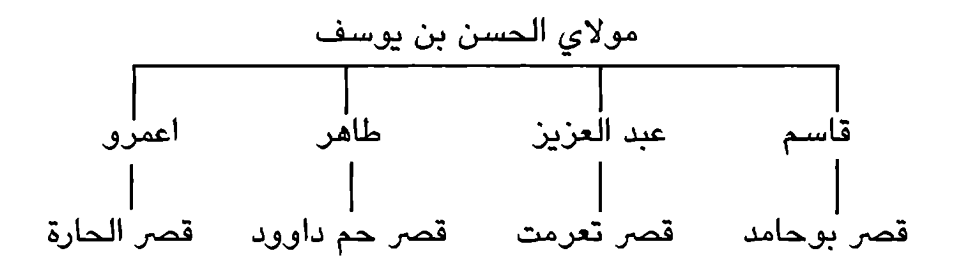
جنـوب مدغـرة كما انتشروا بزيـز الأعلى وبكَير وفي بـلاد السودان وتـوات وملوية وصفـرو وفاس ومكناس ومراكش وزرهون ودمنـات. وتعدد هذه المواطن التي استقـر بها هـؤلاء الأشراف يعكس كثـرة عددهم، وهـو مـا لم نلاحظه مع أشراف الفرع المحمدي الذي اقتصر وجوده بمدغرة على قصرين أو ثلاثـة. الشيء الذي يفسر أن الشرفـاء اليوسفيين إليهم يـرجع الفضل في التعمير الجديد الذي شـهدتـه مدغرة، وحولوا هذه الأخيرة إلى قـاعدة فكرية معطـاء لكونهم تنـافسوا في اقتسـام الوظـائف الـدينية والفكـرية من فقـه وخطابة وإفتاء. وبفضل هذه الوظائف والمهام المتعددة أسهموا إلى حد كبير في إثراء الحياة الدينية بمدغرة بوجه التخصيص، هذه الأخيرة التي أصبحت تباهي الكثير من المراكـز الفكرية المغربيـة التقليدية لا سيما القرويـة منها. وطـوال العصر الحديث وحتـى الفترة المعـاصرة ظل شرفـاء مــدغـرة ومن انضاف إليهم من الشرائح الأخـرى ذات الفضيلة العلمية، تمثل قسما مهما من الطلبة والأساتـذة الوافدين على فاس من أجل استكمال المعـرفة العلمية والدينيـة وغيرها. فقد أشـار لوطورنـو أن الطلبة بجـامعة القرويين كـانوا منقسمين إلى صنفين متميـزين بوضـوح، الفاسيـون والغـرباء عن فـاس. وكـانت مـدرسة الشراطين التي أسسهـا السلطـان الرشيـد العلـوي أوسع المدارس كلها جميعا، ويـوجد بها الجزائريون والفيلاليـون والريفيون وأهل المغرب الشرقي.(124) ورغم أهميـة كلام لـوطورنـو الذي يشير إلى مـدى مساهمة أبنـاء المنطقة الفيلالية بما في ذلك مـدغرة في الهيكل التعليمي لهذه الجامعة، إلا أننـا مع ذلك نلاحظ أن كـلام لوطـورنو يصـدق على وضعية المدرسة في أواخـر القرن 19م. أما قبل ذلك فإن معـارفنا عن هـذه المدرسة وعن عـدد الطلبـة والأساتـذة من منطقـة مـدغرة والمنـاطق الأخـرى تبقى غامضة، وذلك لقلة المعلومات في هذا الجانب.(125)

---

124) لوطورنو روجي : فاس م. س ج II ص ص 666 – 668.

125) ولكشف هذا السر الخاص بغموض عـدد الطلبة بمدرسة الشراطين وغيرها بمـدينة فاس يمكن الرجوع إلى ملفـات المجلس العلمي لفاس، الذي كان يسهر على نظام سكني الطلبـة. وكان يسند هذه السكنى بوثائق مضبوطة إداريا حسب التنظيمات الإدارية التقليدية المغربية. وبالرجوع إلى هذه السجلات وفحصها يمكن اكتشاف عـدد طلبة المدارس ومن ضمنها مدرسة الشراطين، كما يمكن ضبط الجهات التي وفدوا منها ومعرفـة الاستحقاقـات الماديـة التي كـانـت تساعدهـم=

عدد مولاي إدريس الفضيلي الأسر الشريفة التي انتقلت من قصور وادي إفلي إلى مدغرة وما إليهـا، كما عدد القصور المدغرية التي نـزلت بها هذه الأسر. قال: «لما قبض الله صاحب الترجمة - يعني مولاي الحسن بن يوسف بن علي الشريف - إليه خلف أربعة أنجال وهم: السيد قاسم والسيد عبد العزيز والسيد طاهر والسيد اعمرو... ومنازلهم قبل الخروج من وادي إفلي قصر بوحامد وقصر تعرمت وقصر حم داوود وقصر الحارة وبعده انتقلوا لمدغرة وغيرها، فنزلوا من مدغرة بقصبة تازناقت والقصر البراني وقصر أيت مسعود وقصر أزمور وقصر لغروس وقصر العمارنة... وتاركَة والقصبة القديمة والقصبة الجديدة والحيبوس وزاوية مديونة وتيطاف وقصر سيدي أبو عبد الله والقصر الدخلاني وقصر جديد وتاوريرت والقلعة والحوش وقصر مولاي البكري وقصر بني موسي وقصر كَركَاوز وقصر جاوز، وهذه القصور كلها بمدغرة».(126) ولتوضيح هذا الواقع نقف قليلا عند الجدول الأتي الخاص بالجد الأعلى لهذه الأسر الشريفة المنتقلة إلى مدغرة وأسماء قصورها بوادي إفلي :



= في حياتهم اليومية. حيث كانت هناك أحباس موظفة لهذه المهمة، ولم نتمكن لحد الآن من دراسة هذه الملفات التي مازالت مغمورة في السجلات الدفينة لجامعة القرويين. ونلاحظ أن هذه المسألة أيضا تصدق على جامعات أخرى كانت توجد بها مدارس يعمرها الطلاب للسكن فيها ويستكملون دراستهم بمساجدها الجامعة مثل سلا - مكناس - تطوان - أسفي وبعض المدن الأخرى مثل تارودانت ومراكش.

126) إدريس الفضيلي : الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.

إذا كان كلام صاحب الدرر البهية في غاية الأهمية، لأنه عدد مختلف القصور التي حل بها شرفاء وادي إفلي والتي حددها في إثنين وعشرين قصرا. إلا أنه لم يذكر القصور التي استقرت بها كل أسرة من الأسر الثلاثة التي انتقلت إلى مدغرة،(127) هذا وإن كنا نستتشف ذلك من خلال ترتيبه لقصور مدغرة التي توازي ترتيبه للأسر الشريفة المنتقلة إليها، وهي على العموم المعلومات التي تمدنا بها بعض المراجع التي واكبت وتابعت قدوم الأشراف إلى مدغرة(128) وما إليها. مع العلم أن تحديد القصور التي حلت بها كل أسرة له أهمية بالغة، لأنه ينسجم إلى حد بعيد مع الوظائف التي اختصت بها كل أسرة. وهذا من شأنه أن يفيد في الكشف عن ملامح الحياة العامة بمنطقة مدغرة خلال هذه المرحلة. ويفيد من جهة أخرى في رسم ملامح نوع العلاقات بين الأشراف أنفسهم من جهة، وبينهم وبين مختلف الشرائح الاجتماعية الأخرى. مما سيفيد في تحديد نوع العلاقات الاجتماعية بوجه عام التي أصبحت قائمة بوجود عنصر الأشراف بمدغرة، سيما إذا علمنا أن هؤلاء اختصوا في تسييج الأزمات التي كانت تنجم داخل مجتمع القصر الواحد أو بين مجموعة من القصور أو بين مدغرة وما يواليها من مناطق أخرى. مما سيكشف عن دور الشرفاء في استمرار ودوام مجموعة من الأنشطة المرتبطة بأهمية موضع مدغرة، ويتعلق الأمر أساسا باستمرار النشاط التجاري سواء المحلي منه أو العابر لهذه المنطقة. ولا تتضح هذه المساهمة بصورة بينة إلا خلال الأزمات السياسية والمناخية التي هي بمثابة مرتع خصب وفرصة سانحة ومواتية للقبائل المغيرة المجاورة لمنطقة مدغرة للصراع والتنافس وبسط النفوذ على المضايق الإجبارية لمرور القوافل التجارية، وهذا من شأنه أن ينير لنا بعض الجوانب المتعلقة بالحياة

---

127) نشير في هذا الخصوص إلى أن الأسرة الرابعة المنحدرة من السيد اعمرو، والتي كانت مستوطنة قصر الحارة بوادي إفلي لم تنتقل إلى مدغرة، بل أنها انتقلت إلى منطقة الرتب خاصة جنوب منطقة مدغرة.

128) نشير في هذا الخصوص إلى المادة العلمية الهامة التي أمدنا بها مخطوط مطالع الزهراء للزكي العلوي وكتاب الدرر البهية لمولاي إدريس الفضيلي ومخطوط فتح القدوس والأنوار السنية وغيرها.

الاقتصادية بمدغرة لا سيما مسار المسالك التجارية التي تربط مدغرة بما يجاورها من مناطق أخرى.

كما سيساهم هذا التحديد في رسم المعالم الكبرى التي وجهت إلى حد كبير التاريخ السياسي والاجتماعي لمدغرة خلال مرحلة الدراسة وما بعدها، هذا علاوة على الأهمية الفكرية التي ميزت المنطقة بعد هذا التعمير الجديد، مما سيساهم بشكل واضح في معرفة التحولات العميقة سياسيا واجتماعيا وفكريا التي لحقت بالمنطقة، سواء من حيث حضور المنطقة بالتراث المكتوب أو من حيث نحت حظورها في ذاكرة السلطات القائمة.

ومن جهة أخرى كان من شأن هذا التمييز المبني أساسا على خصوصيات كل أسرة لا سيما على المستوى الوظيفي، أن أضحى مجالا خصبا للتباهي والتفاخر بين هذه الأسر نفسها، وما اتصف به أسلافهم من أخلاق وسلوكات وكرامات وخوارق. وقد استمرت هذه المسألة حتى الوقت الحاضر، مما يعكس نوع العلاقة والعقلية الضيقة التي طبعت علاقات الشرفاء أنفسهم من تعصب ونشاز وشنآن لا سيما عند بعض متحدلقيهم وجهلتهم. رغم أن هذه الأسر كلها ترجع إلى أرومة واحدة، وذلك من خلال انحدارهم من الحسن بن يوسف بن علي الشريف. كما أن معرفة عدد وأهمية القصور التي استقرت بها هذه الأسر يوضح إلى حد ما خصوصيات كل أسرة ونفوذ هذه عن تلك.

تستمد الأسر الشريفة الثلاثة التي استقرت بمدغرة ألقابها من أسماء القصور التي كانت مستوطنة بها بوادي إفلي قبل انتقالهم إلى مدغرة، وبناءا عليه يمكن الحديث عما يلي:

1 – أسرة أهل قصر بُوحَامِدْ :

كانت منازل هذه الأسرة قبل الانتقال من وادي إفلي بقصر يسمى «بوحامد» ونزلوا بمدغرة «بقصبة تازناقت والقصر البراني وقصر أيت مسعود وأزمور وبقصر الغروس والعمارنة وتاركَة».(129) ولم يقتصر

129) الزكي العلوي : مطالع الزهراء م. س ص 279.

استقرارهم فقط بمدغرة بل شمل مناطق أخرى بزيز الأعلى، ونتوفر في هذا الخصوص على معلمة جغرافية لازالت لحد الآن تعـرف بجبل بوحامد قرب منطقـة تيعـلالين. وهـذا يعني أن المعالم الجغـرافيـة نفسـهـا التي شملهـا الانتشار العلوي بدأت تستمد أسماءها من هذا التعمير الجديد. كما استقروا بملويـة وصفرو وفـاس وزرهون ومكناسـة الزيتـون ومراكش. وهـذا ما نستشفه من كلام الزكي العلوي. قال في مطالع الزهراء: «نزل أهل بوحامد بـزيـز بتامكـانست وبكير وبقصـابي ملـويـة بالقصر الكبير وبـالأحـواش وبالقصر الجديد وبتاغزوت وبأولاد روزيـن السمغوني وببوسلام وصفرو وفاس وبزرهون وبمكناسة الزيتون وبمراكش».(130)

2 – أسرة أهل قصر حم داوود :

انتقلت هذه الأسرة من قصر حم داوود بوادي إفلي بتـافيلالت واستقرت بمدغـرة بعد الانتقال في القصور الآتيـة: «القصر الجديد وزاوية تـاوريرت والقلعـة والحوش وقصر زاويـة مـولاي البكـري وقصر بني مـوسي وقصر كَـرأو الكَاز وجاون».(131) كما استقرت بعض الفـرق منهم بواحـة الرتب بقصر أولاد شـاكـر والقصر الجديد وديـار الشرفـاء(132) وقصدوا فـاس وصفرو وزرهون ومكناسة الزيتون ومراكش.(133)

3 – أسرة أهل قصر تِـعِـرْمْـتْ :

في حين تمركزت مـواطن أهل قصر تعرمت بعـد انتقال الأسرة من قصر تعرمت بوادي إفلي، بواحة الرتـب بقصر الجرامنة وبفاس ومكناس الزيتون وبمراكش ودمنات.(134) أما بمنطقة مدغرة فقد ذكر الزكي العلوي أن هذه الأسرة شغلت قصور القصبـة القديمـة والقصبة الجديـدة وقصر الحيبوس

130) الزكي العلوي : مطالع الزهراء م. س ص 279.
– الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.
131) مطالع الزهراء : م. س ص 286 / الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.
132) مطالع الزهراء : م. س ص 286 / الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.
133) مطالع الزهراء : م. س ص 286 / الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.
134) مطالع الزهراء : م. س ص 282 / الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.

وزاوية مديونة وتيطاف وقصر سيدي أبو عبد الله والقصر الدخلاني.(135) إلا أنه واعتمادا على مجموعة من ظهائر التوقير والاحترام(136) التي كان يبعث بها سلاطين الدولة العلوية إلى أحفاد الولي الصالح مولاي عبد الله بن عمر المدغري، يتبين أن هذه الأسرة التي ينتمي إليها الولي المذكور لم يقتصر وجودها على القصور الموجودة بمدغرة الوسطى والسفلى المذكورة أعلاه، كما أشار إلى ذلك الزكي العلوي ومولاي إدريس الفضيلي.(137) بل إنها وجدت كذلك بقصر السوق وزاوية تازوكا بقسم مدغرة العليا. ولتوضيح ذلك نقف قليلا عند بعض هذه الظهائر التي تشير إلى وجود أنجال مولاي عبد الله بن عمر المدغري بكل من قصر «كَصر السوكَ» وزاوية «تازوكا». فقد جاء في إحدى الظهائر التي وجهها السلطان العلوي مولاي عبد الرحمان بن هشام، كما يتبين ذلك من خلال اسم السلطان المثبت في الطابع الشريف الذي يعلو الظهير وأيضا من تاريخ كتابة الظهير المؤرخ بتاريخ 12 شوال من عام 1242هـ الموافق لسنة 1826م. ومعلوم أن السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام تولى سدة الحكم بالمغرب من سنة 1238 إلى 1276هـ/1822 – 1851م.(138). إن أسرة آل بن عمر المدغري كانت مستوطنة كَصر السوكَ بأعلى مدغرة، ومما جاء في هذا الظهير: «... جددنا بحول الله وقوته وشامل منه... أولاد السيد عبد العزيز من آل البركة سيدي عبد الله ابن عمر النازلين بقصر السوق بمدغرة وهم السيد محمد الزكي وإخوانه.. وذلك في 12 شوال الأبرك عام 1242».(139)

وجاء في ظهير آخر وجهه هذه المرة السلطان العلوي مولاي سليمان كما يتبين ذلك من تاريخ كتابة الظهير المؤرخ بسنة ألف ومائتين وستة هجرية.

---

135) مطالع الزهراء : م. س 282 / الدرر البهية م. س ج 1 ص 231.

136) توجد هذه الظهائر بخزانة الأستاذ مولاي عبد الرحمان العمراوي من قصر تسكَدلت بمدغرة العليا. ويشغل حاليا منصب موظف بعمالة الرشيدية. وسنثبت مجموع هذه الظهائر في الملحق الخاص بالوثائق. انظر الوثائق رقم: من 20 إلى 29.

137) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 282 / الدرر البهية، م. س، ج 1 ص 231.

138) محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب. الفترة المعاصرة 1790 – 1930م. ج 2 ص 10، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة الدراسات البيبليوغرافية رقم 1. مطبعة فضالة المحمدية الرباط 1989.

139) انظر هذا الظهير بالملحق الخاص بالوثائق، الوثيقة رقم : 20.

لأن عهـد السلطـان مـولاي سليمان استمـر من سنـة 1206 إلى سنـة 1238هـ/1792 إلى سنة 1822م.(140) إن توجيه هذا الظهير من قبل السلطان مـولاي سليمان إلى أحفاد عبـد الله بن عمـر المدغري يثبت أن هـذه الأسرة كانت مستوطنة كذلك قصر الزاويـة. والغالب على الظن أن الزاوية المقصودة في الظهير هي زاوية تازوكا، على اعتبار أن قسم مدغرة العليا لا توجد به إلا زاوية واحدة هي زاويـة قصر تازوكا. وقد سبق أن أشرنا سـابقا أنها كانت كمستقر لأحفـاد مولاي علي بن محمـد من الفـرع المحمدي.(141) هذا من جهة ومن جهـة أخرى لأن الشريف «العمراوي مولاي عبـد الرحمان» الذي أمدنا - مشكورا - بهذه الظهائر كانت أسرته - صاحبة هذه الظهائر - إلى عهد قريب جـدا تقطن قصر تسكَدلت قرب زاوية تـازوكا وما زال لحد الآن بعض أقربائه يقطنون قصر السوق بمدغرة العليا وطن أسلافهم. مما يعني - افتراضا - أن المقصـود بالزاويـة هي زاوية تـازوكا التي قد تكـون هذه الأسرة قد انتقلت إليها في زمن من الأزمـان ولسبب من الأسباب، ومما جاء في هذا الظهير: «...هذا الظهير الكريم... بيد السيـد ماسكه... السيد عبد الله ابن عبد العزيز حفيد الولي الصالح سيدي عبد الله بن عمر وأولاده النازلين بالزاوية... في 13 جمادى الثانية عام 1206هـ».(142)

سبق أن أشرنا أن قصر سيـدي أبو عبد اللـه بمدغرة الـوسطى يستمد اسمه من الـولي عبد اللـه بن عمر المدغـري هذا الأخير الـذي أسس زاويته الأولى بـه، وذلك بإجماع المصـادر التي واكتب المرحلـة. قـال في الـدوحـة: «وتوفي هذا - يعني عبد الله بن عمر المدغري - في آخر المائة العاشرة - أي 927هـ/1539م - واللـه أعلـم، وقبره بـزاويتـه رحمه اللـه».(143) ولازال ضريحه لحد الآن ماثلا للعيان بالجناح المعروف «بالزيادة» بالقصر المذكور. مما يعني أن قصر سيدي أبو عبد الله الذي انتقلت إليه أسرة آل ابن عمر مع مطلع القرن 10هـ/16م بعد خروجهم من قصر تعـرمت بوادي إفلي، هـو

---

140) محمد المنوني : المصادر العربية م. س ج 2 ص 10.

141) أنظر الباب الثاني الفصل الرابع .

142) أنظر الوثيقة رقم : 21 بالملحق الخاص بالوثائق.

143) ابن عسكر : دوحة الناشر م. س ص 87.

المستقر الأول لهذه الأسرة قبل أن ينتقل أحفاد الـولي المذكور ثانية إلى قسم مدغـرة العليا، ويستوطنـوا «كَـصر السوكَ» وزاويــة تازوكا» خـلال القرن 11هـ/17م.

وإذا كنا لا نعلم دوافع وتـاريخ انتقال أنجال عبد الله بـن عمر المدغري من قصر سيدي أبو عبد الله بمدغرة الوسطى إلى مدغرة العليا واستقرارهم «بكَـــصر السوكَ» و«زاويــة تازوكـا» وقصر «تسكَـدلت» بعد حين، إلا أنــه بالرجوع إلى هذه الظهائر يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1 – إن أقـدم هـذه الظهائر يعـود إلى سنــة 1059هـ/1649م(144) وهي السنة التي توافق تولية مولاي محمد على رأس الإمارة العلوية بسجلماسة، كما أن هذه السنــة تعني من حيث تطور الأحداث الكـرونولوجيـة الخاصة بالإمارة العلـوية بسجلماسة ومدغـرة في صراعها مع القوة الدلائيـة، هزيمة مـولاي محمد بسجلماســة على يـد محمـد الحاج الدلائي في وقعـة الكَـارة 1056هـ/1646م. وعقد هـدنة سلم بين الطرفين، اشترط فيهـا محمد الحاج الـدلائي على مـولاي محمد أن لا يتصرف في خمســة مـواضع بعـد تقسيم مناطق النفوذ. وقد سبق أن أوضحنـا أن هذه المواضع التي يندرج ضمنها كَـصر السوكَ بمدغرة العليا كانت بمثـابة مداخل وممرات في الطريق الرابط بين سجلماسة العلوية وفاس الدلائية.

2 – سبق أن أشرنا أن القـوة العلويــة بتافيـلالت على إثر هــذه الهزيمة والهدنة المؤقتة التي تلتهـا، عملت على تثبيت وجودها بهذا القسم الأعلى من مدغرة عن طريق نشر العنصر العلوي به. وذلك بهدف إشعار القوة الدلائية بالـوجود الحسني بالمنطقـة لكبح جماح تقدم القـوة الدلائية نحـو الجنوب ولمراقبة الممـرات التي تربط الشمال بـالجنوب، وحـدث هذا قبيل أن يـدير السلاطين الأوائل للدولة العلوية وجههم نحو الشرق، الذي سيصبح القاعدة البشريــة المغديــة للطموح العلـوي (حلف أيت يفلمان) والممول الاقتصـــادي الأول (قضية ابن مشعل). والظاهر أن السلطان العلوي مولاي رشيد وقبله مولاي محمد العلوي قد أدركا أهمية المحور الشرقي ليس فقط للوصول إلى

144) انظر الظهير رقم : 29 في الملحق الخاص بالوثائق.

فـاس، ولكن لإيجاد منفذ على البحـر الأبيض المتوسط عبر المحـور الشرقي ولتسييج القـوة الـدلائيـة من الجنـوب والشرق والشمال الشرقي. في هـذه الظروف الـدقيقة من تاريخ قيـام الإمارة العلـوية بتافيـلالت ومحاولة فك الحصـار الذي فـرضـه زعماء القوة الـدلائيـة في وجـه تقدم العلـويين إلى الشمال، تبدو مسـألـة انتقال أنجـال مولاي عبـد الله بن عمـر المدغري من قصر سيدي أبو عبد الله بقسم مـدغرة الوسطى مستقرهم الأول إلى كَـصر السوكَ وزاويـة تازوكـا بقسم مدغـرة العليا خلال هـذه المرحلة التـاريخية الحاسمة - أي خلال القرن 11هـ/17م من صراع القوتين الدلائية والعلوية، أي بعيد هزيمة وهـدنة الكَارة 1056هـ/1646م وأثناء حصار مـولاي محمد بن الشريف العلـوي لفاس سنـة 1059/1649م أمـرا لا ينفصل عما أفـرزه تطور الصراع والتنافس بين الدلاء والقوة العلـوية الطموحة. ويعني هذا من جهـة أخرى أن هـذا الانتقال لم يكن محكـوما بـالصدفـة وإنما هو نتـاج تخطيط واستراتيجية منظمة ومحكمة، بهدف تـأمين الخطوط الخلفية لتقدم الإمارة العلوية نحو الشمال عبر الشرق.(145)

3 - لا نستبعد كـذلك أن يكون انتقال أحفاد أسرة آل ابن عمـر المدغري من مدغـرة الوسطى إلى القسم الأعلى منها، وتمركزهـا على خطوط التماس بين القوتين الـدلائية والعلويـة بكل من كَـصر السـوكَ وزاوية تازوكـا أمرا يرتبط أشد الارتباط بموروث الأسرة النسبي والوظيفي بوجه خاص. سيما إذا علمنا أن أسرة آل ابن عمـر علاوة على شفوفهـا الديني(146) لعبت دورا كبيرا في بناء صرح الدولة السعدية، في شخص زعيم الأسرة عبد الله بن عمر المدغري. فقـد ذكر أحـد الباحثين المحـدثين أن أبا محمـد عبد اللـه بن عمر المدغري كان واحدا من بين الأولياء الأربعة الكبار الذين سهروا على الدعاية للدولـة السعدية، مستغـلا في ذلك شعبيته الممتازة ونفـوذه العلمي الواسع

---

145) ذكر الأستاذ محمد حجي أنه بعد انتقال بعض الأسر الحسنية إلى مدغرة خلال مرحلة الدراسة تصدرت العلم أسرتين كبيرتين هما آل ابن عمر المدغريون وآل بن طاهر الحسنيون. أنظر محمد حجي : الحركة الفكرية م. س ج 2 ص 520.

146) أحمد الوارث : الأولياء ودورهم السياسي والاجتماعي، م. س، ج 2 ص 614.

بمدغرة ودرعة لمشروع الدولة السعدية.(147) من هنا لا نستبعد أن يكون مولاي محمد بن الشريف العلوي قد أدرك أهمية هذه الأسرة ومكانتها بمدغرة وقوة تأثيرها في القبائل المجاورة، وركزها بهذه المنطقة الحساسة من مدغرة للقيام بنفس الدور الدعائي الذي سبق لزعيمها أن قام به لبناء صرح الدولة السعدية. والغالب على الظن أن أنجال عبد الله بن عمر المدغري قد نجحوا في هذه المهمة. وحجتنا في ذلك ظهائر التوقير والاحترام التي ظل سلاطين الدولة العلوية من عهد السلطان مولاي محمد بن الشريف إلى عهد السلطان محمد بن يوسف(148) يخصون بها هذه الأسرة دون غيرهم. هذا وإن كانت ظهائر التوقير والاحترام تعطى لشيوخ الزوايا والمرابطين أما أفراد البيت العلوي فلم يكونوا يحصلون عليها إلا نادرا، مثلما هو حاصل مع أسرة آل *ابن* عمر المدغري.

إن الترتيب الذي اعتمدناه بالنسبة لهذه الأسر التي استوطنت مدغرة ومختلف المناطق المغربية الأخرى، مبني بالأساس على عدد المواطن التي استقرت بها. وهذا من شأنه أن يساعدنا في الكشف عن العدد البشري الذي كانت تتكون منه كل أسرة والنفوذ المجالي لها. وذلك مرتبط على ما نعتقد بقوتها ونفوذها، خاصة إذا علمنا أن المجال المكتسح قد يضيق ويتسع حسب العدد البشري والنفوذ المادي والمعنوي لكل أسرة.

يأتي في مقدمة هذه الأسر من حيث عدد المواطن سواء بمدغرة أو غيرها من المناطق الأخرى أسرة آل بوحامد، إذ استوطنت هذه الأخيرة في مدغرة بسبعة قصور وخمسة عشر موطنا في مواطن أخرى خارج مدغرة، ليكون مجموع مواطنها 22 مركزا. وتأتي في الدرجة الثانية أسرة أهل حم داوود، إذ توزعت هذه الأسرة على ثمانية قصور بمدغرة أي أنها تفوق أسرة أهل بوحامد من حيث عدد القصور التي استقرت بها في مدغرة بقصر واحد. أما

147) أحمد الوارث : الأولياء ودورهم السياسي والاجتماعي، م. س، ج 2 ص 614.

148) وذلك اعتمادا على التواريخ المثبتة في هذه الظهائر والمتراوحة بين سنة 1059هـ إلى هـ1361هـ / 1649م. إلى 1942م وهذه المرحلة تمتد من عهد السلطان مولاي محمد بن الشريف إلى عهد السلطان محمد الخامس. ويظهر ذلك كذلك من حيث أسماء السلاطين المثبتة في الطوابع الشريفة التي تعلو هذه الظهائر.

عدد المواطن التي استقـرت بها خارج منطقة مـدغرة فثمانية كـذلك، ليكون المجمـوع هو ستـة عشر مـوطنا. في حين اقتصر وجـود أهل قصر تعـرمت بمدغرة في تسعة قصور وهي بـذلك تفوق أسرة آل بوحامد بقصرين وأسرة آل حم داوود بقصر واحد بمنطقة مدغرة. أما في المناطق المغربية الأخرى فقد استقرت في ستـة مواطن لتبقى هـذه الأسرة هي الأقل عددا من حيـث عدد المواطن فقط، ويبلغ عدد مواطنهـا بمدغرة والمناطق المغربيـة الأخرى خمسة عشر موطنا. ولتوضيح ما يمكن أن نسميه بجغرافية الانتشار العلوي سواء بمنطقة مـدغرة أو بالمناطق المغـربية الأخرى التي انتقلت إليهـا هذه الأسر، نقف قليلا عند الجدولين التاليين :

أ) جدول جغرافية الانتشار العلوي بمدغرة

	الفرع المحمدي		الفرع اليوسفي	
مواطن الشرفاء بمدغرة		آل حم داود	آل تعرمت	آل بوحامد
1 - كَـصر السوكَ	+	–	+	–
2 - قصر زاوية تازوكا	+	–	+	–
3 - قصر تاكَنيت	–	–	–	–
4 - قصيبة أيت موحى أو علي	–	–	–	–
5 - قصر موشقلال	–	–	–	–
6 - قصر تسكَدلت الفوقانية	–	–	+	–
7 - قصر تازروت	–	–	–	–
8 - قصر أزرو	–	–	–	–
9 - قصر الحراطين	–	–	–	–
10 - قصر تاغزوت	+	–	–	–
11 - قصر أزمور	–	–	–	+
12 - قصر تاركَة	–	–	–	–
13 - قصر تسكَدلت التحتانية	–	–	–	+

14 – قصر بني محلي	–	–	–	–
15 – قصر أسرير	–	–	–	–
16 – قصر زاوية مديونة	–	–	+	–
17 – قصر الحيبوس	–	–	+	–
18 – قصر مسكي	–	–	–	–
19 – قصر تيغيورين	+	+(149)	–	–
20 – قصر بني وراين	–	–	–	–
21 – قصر الرحبة	–	–	–	–
22 – قصر جديد أيت حمو	–	–	–	–
23 – قصر أولاد الحاج	–	+(150)	–	–
24 – قصر أولاد أبي ناجي	–	+(151)	–	–
25 – قصر زاوية مولاي البكري	–	+	–	–
26 – القصر الدخلاني	–	–	+	–
27 – القصر البراني	–	–	–	+
28 – قصر جديد	–	+	–	–
29 – قصر أيت مسعود	–	–	–	+

149) لم يكن هـذا القصر مستقرا للشرفـاء خلال انتقالهم مـن وادي إفلي إلى مدغـرة لا سيما شرفاء الفرع اليوسفي. إلا أنه بالعـودة إلى مخطوط فتح القدوس، نلاحظ أن بعض البطون من آل حم داوود قد عمرته خلال المراحل المتأخـرة. ويتعلق الأمر بمولاي عمر بن الحسن من أولاد مولاي عبد الله بن الصديق بن عبـد الله بن العابد. قال في فتح القدوس: «وأمـا سيدي مولاي عمر بن الحسن لما مات خلف ولدان وانتقـلا من قصر زاوية تاوريرت مدغرة وسكنـا مدة بقصر أمزوج بالخنك وسكنا بقصر تغيورين بقصر السوق...» انظر فتح القدوس م. س ص 86.

150) إن المصادر التي اعتمدنـا عليها لرسم معالم جغـرافية الإنتشار العلوي بمـدغرة لا تدرج قصر أولاد الحاج ضمن القصور إلى استقـرت بها أسرة آل حم داوود. إلا أن الغالب على الظـن أن هذا القصر استقـر به بعض الأفخـاذ من هذه الأسرة. وحجتنـا في ذلك مـا يزخـر به مخطـوط فتح القدوس في مـواضع متعددة من جهة، ومن أخرى لأن مـولاي عبد الله بن علي بن طـاهر زعيم هذه الأسرة استقـر بهذا القصر بعد طـرده من مراكش قـال في فتح القدوس ص 4 : «وسكن – يعني مولاي عبد الله بن علي بن طاهر – بقرية يقال لها أولاد الحاج بمدغرة».

151) بعدما تفرعت أسرة آل حم داوود التي انتقلت إلى مدغرة انتقل أنجـال مولاي عبد الله بن العابد ابن علي بن عبد الله إلى قصر أولاد أبي ناجي، ويتعلق الأمر بسيدي محمد بن عبد الله بن العابد. انظر مخطوط فتح القدوس م. س ص 76 وما يتبعها.

30 – قصر القصيبة	–	–	–	–
31 – قصر زاوية مولاي بن علي	–	+	–	–
32 – قصر قلعة تاوريرت	–	+	–	–
33 – قصر الحوش	–	+	–	–
34 – قصر سيدي أبو عبد الله	–	–	+	–
35 – قصر القصبة القديمة	–	–	+	–
36 – قصر القصبة الجديدة	–	–	+	–
37 – قصر تيطاف	–	–	+(152)	–
38 – قصر أولاد امحمد الكَرواني	–	–	–	–
39 – قصر بني موسي	–	+	–	–
40 – قصر جاوز	–	+	–	–
41 – قصر كَرأو الكَاز	–	+	–	–
42 – قصر تازناقت	–	–	–	+
43 – قصر بوسعيد(153)	–	–	–	–
44 – قصر العمارنة	–	–	–	+
45 – قصر لغروس	–	–	–	+

152) وقصر تيطاف في الوقت الحالي مسكون من طرف فئة الحراطين فقط ولا أثر للوجود الحسني العلوي به.

153) من باب الملاحظة نشير إلى أن قصر بوسعيد لا تستوطنه أسر الفرع المحمدي ولا الأسر اليوسفية التي انتقلت إلى مدغرة (أسرة آل بوحامد – آل حم داود – آل تعرمت). ولكن صنف العنصر العلوي الموجود به ينحدر من أحفاد السلاطين العلويين الذين كان يبعث بهم إلى تافيلالت من فاس لتلقي العلوم الأولية وللتربية والنشأة.

ب) جدول جغرافية الإنتشار العلوي بمواطن أخرى خارج منطقة مدغرة

	الفرع المحمدي		الفرع اليوسفي	
مواطن أخرى للشرفاء خارج منطقة مدغرة		آل حم داود	آل تعرمت	آل بوحامد
* الخنك				
1 – قصر أوليت كَير	–	–	–	–
2 – قصراكبا	–	–	–	–
3 – قصر صرغين	–	–	–	–
4 – قصر بني إيفوس	–	–	–	–
5 – قصر أمزوج	–	+(154)	–	–
6 – قصر إنكَبي	–	–	–	–
7 – قصر تكَنيت	–	–	–	–
8 – قصر أيت مولاي محمد	+	–	–	–
9 – قصر تيمزوغين	+	–	–	–
10 – قصر أيت عثمان	–	+(155)	–	–
* الرتب				
11 – قصر أولاد شاكر	–	+	–	–

154) لم يكن قصر أمزوج من بين القصور التي استوطنها الشرفاء سواء تعلق الأمر بالفرع المحمدي أو اليوسفي عند انتقالهم من وادي إفلي. إلا أنه بالعودة إلى مخطوط فتح القدوس نلاحظ أن بعض بطون أولاد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر قد استوطنوا هذا القصر، لا سيما خلال المراحل المتأخرة من الانتقال. انظر ما جاء في فتح القدوس ص 86.

155) كما هو الشأن كذلك بالنسبة لقصر أمزوج تفيدنا المادة العلمية التي واكبت انتقال بعض الأسر الحسنية من تافيلالت خلال القرنين 16م و17م. أن قصر أيت عثمان لم يكن كمستقر للشرفاء بعد الانتقال من وادي إفلي، إلا أن هذا القصر في المراحل المتأخرة عن الانتقال عمر من طرف بعض أحفاد مولاي بن علي بن عبد الله بن علي بن طاهر. وحجتنا في ذلك ما جاء في مخطوط فتح القدوس قال: «وأما سيدي محمد بن محمد بن العربي بن علي بن عبد الله لما توفي خلف ولدا واحدا اسمه سيدي مولاي الصديق بن محمد، وقد انتقل من زاوية تاوريرت مدغرة لبلاد أيت عثمان بالخنك». انظر مخطوط فتح القدوس م. س ص 151.

12 – قصر ديار الشرفاء	–	+	–	–
13 – قصر الجرامنة	–	–	+	–
14 – قصر الزريگات(156)	–	–	–	–
15 – قصر المعاركة(157)	–	–	–	–
16 – قصر الكنز(158)	–	–	–	–
17 – قصر أولاد عميرة(159)	–	–	–	–
18 – قصر جديد	–	+	–	+
* گير				
19 – قصيرة الشرفاء ألمو	–	+	–	–
20 – أيت أوبسري	–	+	–	–
21 – بلاد مدرار	–	+	–	–
22 – بودنيب	–	+	–	–
23 – قدوسة	–	+	–	–
24 – بوتسبكين	–	+	–	–
25 – أموگر	–	+	–	–
26 – تغزى	–	+	–	–

156 – 157 – 158 – 159) أدرجنا هذه القصور من بين المواطن الأخرى التي عرفت استقرار العنصر الحسني الشريف. رغم أن الأمر لا يتعلق بالأسر الشريفة السابقة الذكر التي انتقلت إلى مدغرة من وادي إفلي. ذلك إن ما تناسل من أسرة مولاي عمر بن هاشم استقروا بقصور الجرامنة – الكنز – أولاد عميرة المعاركة والزريقات، ينحدرون من السيد مولاي عمر بن هاشم – جد شرفاء أهل زاوية أوفوس – بن محمد فتحا بن بوعلي بن محمد بن يوسف بن مولانا علي الشريف بن الحسن. وحجتنا في ذلك ما جاء في إحدى الوثائق المحلية الخاصة بزاوية شرفاء أوفوس والتي سوف نثبتها في الملحق الخاص بالوثائق. انظر الوثائق رقم: 30 – 31 – 32 – 34.
ومما جاء فيها أن «مولاي المامون – وهو أحد أحفاد مولاي عمر بن هاشم – كان مستوطنا بحارة الزريقة». أنظر الوثيقة رقم 30 ورقة 5.
كما أن «مولاي علي ومولاي الطيب فأمهما لالة الحسنية بنت علي من شرفاء المعركة» – أي المعاركة – انظر نفس الوثيقة ورقة 14.
«وأما مولاي عبد القادر بن عمر فأمه لالة فاطمة الزهراء بنت الحنفي أخت مولاي المصطفى بن الحنفي من شرفاء الجرمنة» انظر نفس الوثيقة ورقة 15.
«وأما مولاي الحسن فقد حصل له جذب وسار يسبح في البلدان فمات بدون عقب، وهو مدفون في بلد الكنز». أنظر الورقة 17.
وأما «سيدي الأمين بن عبد الله بن حفيد بن عمر بن هاشم... كان شريفا مباركا، وقد خلق ثلاثة أولاد هم سيدي لحبيب بن الأمين ومولاي المختار ومولاي التقي. ولما أخرج البربر – يغلب على الظن أنهم أيت عطة خلال القرن 18م – الشرفاء من أولاد عميرة انتقل أولاد هذا الشريف إلى فاس».
انظر الورقة 20 من نفس الوثيقة.

27 – باكنو	–	+	–	–
28 – الكَرعان	–	+	–	–
29 – ملاحة	–	+	–	–
30 – كَرامة	–	+	–	–
31 – تاعليلت	–	+	–	–
* زيز الأعلى				
32 – أيت يعقوب	–	+	–	–
33 – قصر بورديم من بلاد عياض	–	+	–	–
34 – تميغيت بتعلالين	–	+	–	–
35 – كراندو	–	+	–	–
36 – قصر إمعدان	–	+	–	–
37 – تامكناست	–	–	–	+
* بلاد ملوية				
38 – قصابي ملوية	–	–	–	+
39 – القصر الكبير	–	–	–	+
40 – الأحواش	–	–	–	+
41 – تاغزوت	–	–	–	+
42 – أولاد روزين السمغوني	–	–	–	+
43 – بلاد بوسلام	–	–	–	+
* مناطق أخرى				
44 – كَيكَو	–	+	–	–
45 – بلاد سرغينة بالنجيل	–	+	–	–
46 – أوطاط أولاد الحاج	–	+	–	–
47 – بني مكَيلد	–	+	–	–
48 – تمكُروت بدرعة	–	+	–	–
49 – قصر توروكَ	–	+	–	–
50 – صفرو	+	+	–	+
51 – فاس	+	+	+	+
52 – مكناس	+	+	+	+
53 – زرهون	+	+	+	+
54 – مراكش	+	+	+	+
55 – دمنات	–	–	+	–

وجدير بالإشارة أن كل هذه الأسر استقرت بمختلف أقسام مدغرة وأحيانا تعايشت داخل القسم الواحد منها، كما أنها كلها أثبتت وجودها بواحة الرتب وبمدن الشمال والجنوب المغربي كصفرو وفاس ومكناس وزرهون ومراكش، وكلها مواطن نهاية الطرق التجارية. كما أن البعض من هذه المدن مثل عواصم تقليدية للدول المغربية السابقة. ممّا له دلالة خاصة في تثبيت الحضور العلوي بمراكز القرار السياسي والإمداد العسكري والحساسية الاستراتيجية والأهمية التجارية والعلمية. مما يبعث على الاعتقاد أن لهذا علاقة بأهداف هذا الاستقرار، سيما وأنه حدث قبيل الإعلان عن قيام الدولة العلوية بسجلماسة.

من خلال جرد مختلف القصور التي استقرت بها أسرة أهل بوحامد بمدغرة يظهر أن هذه الأسرة لم تكن فقط أكبر الأسر من حيث العدد البشري بناء على عدد المواطن، بل كذلك ذات نفوذ مادي ومعنوي واسع. إذ يمتد مجال انتشارها بمدغرة من قصر قصبة تازناقت بمدغرة السفلى إلى قصر أزمور بمدغرة العليا، فضلا عن وجودها بمدغرة الوسطى حيث تعايشت مع أهل أسرة حم داوود وأسرة أهل تعرمت. إن هذا الانتشار الواسع مرتبط بدون شك بقوة نفوذها المادي وأعدادها البشرية. وقد احتفظت لنا ذاكرة المحليين بروايات لازال لحد الآن يتغنى بها رجال الموسيقى والطرب المسمى محليا «الْبَلْدِي»(160) تعكس القوة والنفوذ الذي تمتعت به الأسرة في منطقة مدغرة. ومثال ذلك المقطع من الأنشودة الشعبية القديمة التي مازالت تردد حتى اليوم بهذه المنطقة. وهي: «أنَا بَعْدَ مْزَاوْكَة فِي أهْلْ بُوحَامِدْ». ولا نعتقد أن يكون هذا النفوذ الذي تمتعت به الأسرة بمدغرة مرتبط فقط بالوظائف الدينية والعلمية. ذلك أن المصادر التي أرخت لهم تذكرها بالوظائف الدينية والدنيوية معا. هذا وإن كانت الوظائف الدنيوية هي الغالبة، بل نفترض أن تكون لذلك علاقة بالنفوذ المادي الممثل أساسا

160) يطلق البلدي على الطرب المحلي الخاص بمنطقة الرشيدية، بينما يطلق اسم «الجرفي» على الطرب المحلي الخاص بمنطقة الجرف والغرفي خاص بمنطقة قصور الغرفة. ومن أبرز زعماء الطرب البلدي الشيخ مولاي علي الفيلالي والشيخ محمد باعوت. توفي الأول مع مطلع السبعينات والثاني مع مطلع التسعينات من هذا القرن.

في الهيمنة التجارية والاستراتيجية، وما يشهد على ذلك أن معظم القصور التي استوطنوها بمدغرة توجد كلها في أماكن ذات حساسية استراتيجية وتجارية. فقصر قصبة تازناقت الذي هو القاعدة المركزية لهم كان وكما سبق أن أوضحنا ذلك(161) محل مراقبة الطريق التجاري الرابط بين مدغرة والرتب أي المحطة التي كانت تؤدى بها «الزطاطة». مما كان يوفر لهذه الأسرة ربحا ماديا كبيرا أكسبها نفوذاً ماديا بالمنطقة، كما أن قصر «تاركَة» كان محطة أخرى لأخذ «الزطاطة» كذلك. وقد سبق أن أوضحنا أن تاركَة في الاصطلاح اللغوي البربري تعني القناة، وهذا من شأنه أن يفيد من جهة في الكشف عن بعض المحطات التي كانت تمر أو تتوقف بها القوافل التجارية المترددة بين فاس وسجلماسة. وهو الأمر الذي لا تشير إليه المصادر بكثير من التفصيل والتدقيق، وإنما تكتفي فقط بالإشارة إلى أن القافلة كانت تجتاز منطقة وطن مدغرة دون تحديد المحطات التي كانت تتوقف بها. ويعكس هذا من جهة ثانية أن استقرار هذه الأسرة بهذه المحطة ينسجم ووظائفها ومهامها إلى حد كبير. ونعتقد أن هذا المردود المادي والعدد البشري ولحمة السلالة النسبية، كانت وبدون أدنى شك وراء هذا النفوذ المادي الذي تمتعت به هذه الأسرة.

يظهر من خلال المعلومات التي تفيدنا بها المصادر والمراجع التي تعرضت لانتقال شرفاء أسرة قصر تعرمت إلى مدغرة بوجه التخصيص أن أغلب القصور التي استوطنتها هذه الأسرة توجد بمدغرة الوسطى والسفلى، هذا وإن كانت بعض الوثائق المحلية تشير إلى استقرارهم ببعض قصور مدغرة العليا. ويتعلق الأمر خاصة بقصر تسكَدلت وزاوية تازوكا وكَصر السوكَ، التي استقر بها أنجال الولي الصالح عبد الله بن عمر المدغري.(162) مما يعني أن مجال انتشار هذه الأسرة امتد من كَصر

161) انظر الباب الثاني الفصل الثاني ص

162) نفترض أن يكون السلطان مولاي محمد بن الشريف العلوي هو الذي وطن أحفاد الولي عبد الله بن عمر المدغري بهذه القصور. وحجتنا في ذلك ظهائر التوقير والاحترام التي خص بها سلاطين الدولة العلوية أنجال هذه الأسرة دون غيرهم. انظر الوثائق رقم من 20 إلى 29 في الملحق الخاص بالوثائق.

السوكَ إلى زوايـة مديونـة من الشمال نحو الجنوب. ويعني هـذا أن المجال الـذي استقرت بـه هذه الأسرة كـان يمثل قـاعدة الاستقـرار البشري الأولى بمدغرة.(163) وبنفس هـذا المجال كانـت توجـد العديد مـن الأسواق يتردد عليها المدغريـون أسبوعيا. فالحافظة الشعبية المحليـة تذكر أن بهذا القسم من مـدغرة كـانت تـوجـد بعض الأسواق بكـل من قصر تيطاف والقصبـة القديمة وبقصر سيدي أبو عبد الله، واستمر وجودها حتى نهاية القرن 19م حسب ما عاينه شارل دوفوكو.(164) هذا علاوة على كَـصر السوكَ بمدغرة العليا الـذي كان يتوفر على سـوق كذلك، أي أن هذا المجال كـان هو القلب النـابض اقتصاديـا لمدغرة. كما يـوجـد بهذا القسم من مدغـرة العديـد من القصبات والقلاع والأكثر من ذلك أن أحد قصور القسم الأوسط من مدغرة سيتحول إلى محل لنيابة دار المخزن العلوي. ويتعلق الأمر بقصر سيدي أبو عبد الله لا سيما في المراحل المتأخرة، وتشهـد على ذلك المرافق المخزنية التي تـوجد داخل القصر مـن جهة، ومن جهـة ثـانية فإن بعـض الوثـائق التي استطعنا الاطلاع عليها تثبت أن قصر سيدي أبو عبـد الله كان مركزا إداريا منذ عهد السلطـان مولاي عبد الرحمان بـن هشام أوائل القرن 19م، حيث كان مبعـوث السلطان المذكور إلى سجلماسـة يوزع الصلات المخـزنية على شرفاء مدغرة بقصر سيدي أبو عبد الله.(165)

نعتقد أن هذه الشواهد كافية لتوضيح أسباب اختيار هذا المجال من قبل هـذه الأسرة الذي ينسجم إلى حـد بعيد والمهـام الإداريـة والسياسيـة التي اختصت بها هذه الأسرة. ويشهـد على ذلك موروث الأسرة الدعـائي وطبيعة ووظـائف المنشآت السكنيـة التي استـوطنتهـا هذه الأسرة بهذا المجـال من مدغـرة. أما من النـاحية العلمية فـالمصادر تذكـر أنهم كانـوا تباعين لأولاد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر، باعتبار أن هؤلاء كانوا ورثة العلم بمدغرة

---

163) انظر الباب الثاني الفصل الثاني، ص

164) Faucauld (ch. de) : Reconnaissance. op cit. pp 351-352.

165) توجـد هذه الـوثيقة بخـزانة المرحوم العـلامة مـولاي عبد الـواحد المدغـري من القصر الجديد بمدغـرة، والذي كان يشغل قيدومـا لكلية الشريعة سـابقا. وسنثبت نسخة من هذه الـوثيقة في الملحق الخاص بالوثائق.

على الأقل خلال المرحلة القديمة. هذا وإن كانت بعض الوثائق المحلية تشير إلى اهتمام أسرة أهل تعرمت بالفتوى والقضاء والخطابة لاسيما شرفاء القصبتان القديمة والجديدة والحيبوس وزاوية مديونة.(166)

وينتشر مجال أسرة حم داوود بمدغرة الوسطى والسفلى، ذلك أن القصور التي استقرت بها هذه الأسرة شملت: القصر الجديد وزاوية تاوريرت والقلعة والحوش وقصر زاوية مولاي البكري وقصر بني موسي وقصر جاوز وقصر كَرأوالكَان».(167) ويغلب على الظن أن أسرة حم داوود التي ينتمي إليها مولاي عبد الله بن علي بن طاهر أتت بعد وصول هذا الأخير إلى مدغرة من مراكش. أما الشرفاء الآخرين فقد كانوا موجودين قبل ذلك. وذلك بناء على رواية صاحب فتح القدوس التي تشير إلى أنه لما استقر مولاي عبد الله بن علي بن طاهر بقصر أولاد الحاج صار أبناء عمه ينتقلون من تافيلالت إلى مدغرة.(168) وهو ما يمكن أن نحدده تاريخيا مع مطلع القرن 11هـ/17م، فقد سبق أن أوضحنا أن عودة مولاي عبد الله بن علي ابن طاهر إلى مدغرة كانت قبيل وفاة المنصور 1012هـ/1603م، على اعتبار أنه كان قبل ذلك كأحد الأطر التعليمية بمسجد باب دكالة بمراكش سنة 1004هـ/1596م.

---

166) سنثبت بعض هذه الوثائق في الملحق الخاص بالوثائق انظر الوثيقة رقم : 35. فقد اشتهر العلامة النحرير مولاي علي بن محمد من شرفاء قصر القصبة الجديدة في وقته (القرن 13هـ) بالعلم الغزير في ميادين الفتوى والقضاء والخطابة والتأليف والنثر والشعر وكانت تأتيه الفتاوى من أقاصي البلاد فيفتي ويجيد. وله منظومة رائعة في الخطابة والتركة. كما أن الشريف الجليل سيدنا ابن أحمد بن احفيد صاحب خطارة تماسين بمدغرة له تآليف عديدة منها شرح كبير على ألفية بن مالك في النحو، وكتاب في نسب الأشراف في جزئين، وكل هذه المؤلفات لعبت بها يد الشمول. كما أن للعلامة الجليل الولي الصالح سيدي محمد العربي بن محمد بن قاسم بن حفيد من شرفاء قصر القصبة الجديدة بمدغرة قصيدة طنانة في مدح فاطمة الزهراء وآل البيت الشريف رضوان الله عليهم أجمعين. والقصيدة موجودة بخطوط فتح القدوس ـ نسخة خاصة بخزانة والدنا اباسيدي بن التهامي العلوي رحمه الله ـ بالصفحات 288 ـ 289. وبالجملة فهذه الأسرة أسرة علم ووجاهة، كان جل أفرادها آية في حفظ السير النبوية والتنقيب على أخبار الصحابة وأحوال السلف الصالح. علاوة على اشتهارهم بالفتوى والقضاء أبا عن جد. ولمزيد من التثبت والإحاطة يكفي الرجوع لتراجم رجالات هذه الأسرة بمدغرة وغيرها من المناطق المغربية الأخرى.

167) الزكي العلوي : مطالع م. س ص 286.

168) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 5.

كان مستقر أسرة حم داوود الأول بمدغرة بالقصور القريبة والمجاورة لمحل إقامة مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. ويتعلق الأمر بقصور زاوية مولاي البكري والقصر الجديد علاوة على قصر أولاد الحاج، على اعتبار أن استقرار هذه الأسرة بقلعة قصر تاوريرت وزاوية مولاي ابن علي والحوش لم يتم إلا في عهد مولاي‌ابن علي أحد أبناء مولاي عبد الله ابن علي بن طاهر.

تفيدنا رواية صاحب فتح القدوس أن الفضل في استقرار هذه الأسرة بقصر قلعة تاوريرت يرجع إلى جماعة تدعى أولاد بوحمو.(169) قال مولاي علي بن المصطفي: «لما توفي مولاي عبد الله بن علي بن طاهر بقرية أولاد الحاج مدغرة رَغَّبَ أولاد بوحمو أولاده في السكنى معهم لفرط محبتهم في آل البيت، فانتقل أنجال المولى عبد الله بن علي بن طاهر إلى تاوريرت وأسكنوهم في القلعة العالية لأنها كانت بين أيديهم، وكانت محل عمال الملوك السعديين. فلما انقرضت دولتهم بقيت القرية تحت يدي أولاد بوحمو وهم خدام الدولة السعدية».(170) ونفترض أن يكون استقرار أولاد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر بقلعة تاوريرت يعبر عن نوع من النكاية وتعويض وجود السعديين بمدغرة.

وإلى مولاي بن علي يرجع الفضل في بناء الزاوية المحاذية لقصر قلعة تاوريرت، والمقصود بها هي بقايا القصر الذي أتى عليه فيضان وادي زيز لسنة 1343هـ/1925م وهي المعروفة بزاوية مولاي ابن علي.(171) وقد جُدِّدَ بناؤها قرب قصر تاوريرت بجوار المقبرة الكبرى الفاصلة بينها وبين قصر القصيبة. فقد جاء في فتح القدوس أنه: «لما سكن مولاي ابن علي القلعة وكثرت عليه الوفود والزوار، وانتشر ذكره في الأقطار، والناس يأتون إليه أفواجا رجالا وركبانا، ضاق به ذلك المحل بكثرة الأضياف فنزل منها لجنان قد اشتراه بينه وبين القلعة نحو رمي حجر، وبنى فيه زاويته

169) نعتقد أن بقاياهم مازالت موجودة بقصور : الحوش القصيبة وتاوريرت. وهي الأسر التي مازالت لحد الآن تحمل في أسمائها العائلية اسم بوحمو أو الحمومي.

170) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص ص 69 – 70.

171) وسنثبت في الملحق الخاص باللوحات صورة بقايا هذا القصر انظر اللوحة رقم : 2.

ومسجده».(172) ويتضح من هذه الشهادة أن بناء الزاوية كان في نهاية القرن 11هـ/17م على اعتبار أن مولاي عبد الله بن علي بن طاهر كانت وفاته بإجماع المصادر التي أرخت له خاصة تلميذه المرغيثي سنة «دُسَّ في رَحْمَةٍ» 1042هـ/1634م. - أي أن بناء الزاوية - كان في الوقت الذي كانت فيه الدولة العلوية قائمة -. أي خلال عهد السلطان العلوي مولاي إسماعيل -، ولأن المصاهرة التي تمت بين مولاي ابن علي وأهل اليمني كانت في عهد مولاي العابد. مما يبعث على الإعتقاد أن بناء هذه الزاوية مرتبط أشد الإرتباط بحدث قيام الدولة العلوية ومساهمة هذه الزاوية إلى حد بعيد في تدعيم أسس الدولة الجديدة هذا من جهة. ومن جهة أخرى جاءت هذه الزاوية بديلا عن قصر قلعة تاوريرت من حيث الاعتبار الديني بالأساس. لأن تاوريرت كانت قاعدة السعديين، وبوجود الزاوية انعدمت أهمية تاوريرت، لأن العلويين كانوا بديلا للسعديين. وفي هذا الخصوص نشير أن قصر سيدي أبو عبد الله لن يصبح قصرا إداريا إلا بعد اختفاء أهمية تاوريرت وبالتالي فإن تحصيناته أخذها مع العلويين.

وإلى مولاي ابن علي كذلك يرجع الفضل في بناء حصن الحوش قبلة قصر قلعة تاوريرت لما استقدم ابنا أخيه مولاي عبد الهادي اللذان كانا يوجدان بالمدينة المنورة بالحجاز. فقد كلف مولاي ابن علي الرحالة أبا سالم العياشي عند مروره بمدغرة، وهو في طريقه إلى الحج باستقدام مولاي الشريف بن عبد الهادي وأخته لالة الطاهرة. قال في فتح القدوس: «وقد دفع - يعني مولاي ابن علي - دراهم للإمام أبي سالم العياشي حين قدومه للحج ينفقها على ولدي أخيه سيدي مولاي عبد الهادي بن عبد الله سيدي مولاي الشريف ولالة الطاهرة بنت عبد الهادي. والإتيان بهما من المدينة المنورة لما مات والدهما هناك. وأتى بهما أبو سالم العياشي رحمه الله، وبنى لهما سيدي مولاي ابن علي حصنا يقال له الحوش قبلة تاوريرت العالية».(173)

---

172) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 70.

173) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 72.

إن مرور وتوقف الرحالة أبو سالم العياشي بزاوية مولاي ابن علي بمدغرة، حسب ما تمدنا به المادة العلمية التي نلتقطها من مخطوط فتح القدوس(174) ومن «ماء الموائد» أو الرحلة العياشية» قال أبو سالم العياشي: «ثم ارتحلنا من هناك – أي من قصر أيت عثمان – وزرنا عشية ذلك اليوم بمدغرة قبر الإمام الحسيب النسيب الحافظ اللافظ المقرىء المحدق مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني نفعنا الله به. وبتنا تلك الليلة عند ولده الذرية الطاهرة والسلالة الطيبة الباهرة والفقيه الأرضى السني المرتضى، الحسن الأخلاق، والطيب الأعراف مولاي محمد المدعو بن علي رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بمحبته، فقد بالغ في الإحسان بما قرت به عين كل إنسان وأجزل القرى لحجاج أم القرى. فلم يدع خيرا إلا فعله ولا ميسورا إلا بذله من طعام وشراب وعلف الدواب وغير ذلك ... فتكفل بذلك لنا ورأيناه من أجل نعم الله علينا وعقدت معه عقدة أخوة في الله تعالى...»(175) لا يمكن أن يفهم إلا في إطار أن مدغرة كانت معبرا للحجيج المغربي ومركزا علميا ودينيا وروحيا. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم تكن زاوية مولاي ابن علي تقتصر على المهام التثقيفية التعليمية، بل اهتمت كذلك بالأمور الدنيوية. وتدل كل القرائن التاريخية على أن هذه الزاوية أسهمت إلى حد كبير في تقوية النفوذ العلوي، انطلاقا من منطقة مدغرة، لا سيما بقسمها الأوسط التي يبدو أنها لم تدخل في الصراع بين الدلائيين وأولاد مولاي الشريف بن علي. وذلك للدور الكبير الذي يمكن أن يكون قد لعبه العياشي اعتبارا للعلاقة الحميمية التي كانت تربط العياشي بمحمد الحاج الدلائي. ولعقد الأخوة الذي عقده العياشي مع مولاي ابن علي، كما نص على ذلك كلام أبى سالم العياشي في الرحلة. مما لا يدع مجالا للشك أن قيام هذه الزاوية لا ينفصل عن تطور الأحداث التي أفرزها القرن

---

174) فقد جاء في مخطوط فتح القدوس ص 68 ما يلي : «قال أبو سالم : وبتنا عند ولده العالم العلامة الولي الصالح سيدي محمد المدعو مولاي ابن علي بن عبد الله في زاويته فرحب بنا وفرح فرحا شديدا، فهش وبش ومن كل خير رش وعلف الدواب».

175) أبو سالم العياشي : الرحلة العياشية – ماء الموائد – ج 1 ص 15. طبعة ثانية مصورة بالأوفسيط، وضع فهارسها الأستاذ محمد حجي الرباط 1977.

11هـ/17م ونستشف ذلك من العديد من الإشارات التي تصب كلها في هذا الجانب والأمثلة كثيرة ومتعددة منها: «أن هذا الإمام سيدي مولاي ابن علي رضي الله عنه هو الذي اختط البلاد وجمع بين الأقارب»(176) ومنها أيضا: «أنه كان رضي الله عنه يقري الضيف ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الحق، وكان حريصا على إصلاح ذات البين بين المسلمين».(177) ألا يعني هذا أن اختطاط البلاد وجمع الأقارب - بمعنى الأسرة العلوية - في ظروف مثل هذه وإصلاح ذات البين. كلها ترتيبات أولية للدعاية وتقوية النفوذ العلوي الذي أسهمت فيه أسرة حم داوود بضلع وافر، وأن هذه المهام التي اختصت بها هي التي جعلتها تعاني من المطاردة والملاحقة والتعذيب والتقتيل وأحيانا السجن مدى الحياة. فبالروجوع قليلا إلى الوراء نلاحظ أن زعيم هذه الأسرة ويتعلق الأمر بمولاي عبد الله بن علي بن طاهر أنه ما استقر بمدغرة إلا بعد أن ضايقه السلطان المنصور الذهبي وطرده من مراكش. كما تشير المصادر أن ثلة من شرفاء سجلماسة من بينهم: «عدد من أسرة قصر حم داوود سجنهم المنصور بمراكش وكان عددهم أربعين شريفا منهم مولاي عبد الواحد بن علي بن طاهر»،(178) إلى أن مات جلهم بسجن المنصور وما تبقى منهم سرحوا أنفسهم بأنفسهم بعد وفاة المنصور، وانقراض الدولة السعدية. مما يعني أن التشكيك في مشروعية السلطة السعدية بعد انفجار الخلاف بين البيت العلوي والسلطة السعدية ساهمت فيه أسرة آل حم داوود بضلع وافر. مما يحملنا على استنتاج آخر هو أن البداية الفعلية لمشروع الدولة العلوية بدأ منذ مرحلة المنصور السعدي ونضج مع مطلع القرن 11هـ/17م.

لم تكن أسرة حم داوود فقط شوكة بالنسبة للدولة السعدية ولا قناة فعالة في الإعداد للمشروع العلوي وتقوية نفوذه، وهي على العموم مهام مرتبطة بالجانب السياسي. بل إنهم ظلوا على مر تاريخهم، زهادا نساكا مهتمين بالأمور العلمية والدينية. مما بوأهم مكانة أقطاب زمانهم ورجالات

176) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 72.

177) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 72.

178) هو أخ مولاي عبد الله بن علي بن طاهر. انظر الأنوار السنية، م. س، ص 67.

وقتهم. إذ اهتموا بالفتوى والقضاء والخطابة والفقه والعلوم الشرعية والأدبية، وبذلك أسهموا إلى حد كبير في إثراء الساحة العلمية ليس فقط في مدغرة، بل كذلك في مناطق مختلفة من المغرب، ولم يقتصروا على التدريس بالمساجد الجامعة بمدغرة، بل وجد منهم من بوأته فضيلته العلمية ليصبح مدرسا لأمراء وسلاطين وقتهم. فقد سبق أن أوضحنا أن مولاي عبد الله ابن علي بن طاهر كان يقرئ السلطان أحمد المنصور الذهبي القرآن العظيم على السبع بمراكش، وجاء في مخطوط فتح القدوس أن سيدي مولاي الصديق بن هاشم بن العربي من آل مولاي ابن علي بن عبد الله بن علي ابن طاهر: «ذهب لمراكش مع جماعة من علماء تافيلالت ومدغرة وشرفائهما وكبرائهما في زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رضي الله عنه. وحين وصلوا مراكش تعرض لهم علماء مراكش فألقوا عليهم مسائل من الشعر نظما. وقد أجابهم الفقيه سيدي مولاي الصديق بن هاشم جوابا شافيا مسكتا، وألقى عليهم مسائل بنظم سلس وعجزوا عن الجواب وسألهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن سيدي مولاي الصديق هذا. وقالوا له إنه من ذرية سيدنا ومولانا عبد الله بن علي بن طاهر دفين مدغرة. فرحب به السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبسط له من العطاء ثم أمره بالإقامة عنده بقصد قراءة – أي إقراء – نجله أبى الربيع مولانا سليمان... ومكث سيدي مولاي الصديق بن هاشم عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله ما شاء الله...».(179) هذا على سبيل المثال فقط، لأن لائحة رجالات العلم الديني لهذه الأسرة طويلة جدا. وإلى جانب هذه المهام ظلت أسرة أهل حم داوود تتوارث إصلاح ذات البين بين القبائل على مر العصور والأحقاب. ونشير في هذا المقام إلى إحدى الوثائق المحلية النادرة التي تفضل الأستاذ العربي مزين بنشرها في مجلة هيسبيريس تمودا(180) والتي تؤكد أن أولاد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني استمروا يصلحون ذات البين بين القبائل المتنافسة بمنطقة مضيق الخنك. فقد جاء في الفصل الثاني من

179) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص ص 202 – 203.

180) Mezzine (L) : t'aqquit de Aït Atman. op cit. in Hesperis tamuda vol XIX fasicule unique 1980-81. pp 89-121.

اتفاقيــة قصر أيت عثمان المؤرخ في 12 جمادى الأولى من عــام 1333هــ/28 مارس 1915م مــا يلي: «الحمد للــه لما وقع الخلف - أي الخلاف - بين أيت مَــنْــزُو وأيت عثمان دخلــوا - بمعنى دخل - بينهم الشرفــاء آل سيــدنــا ومولانــا عبد الله بن علي بن طــاهير - أي طاهر - نفعنا اللــه ببركته آمين. فاصطلحــوا على أيديهم ودخلوا - بمعنى دخــل - أيت منز ومع أيت عثمان ومزوج - أي أمزوج - وأهل إفــري الفوقانيين وأهل إنَــجْــبِــي وإمَــزَّاوْرَا وجددوا العهد والأخوة».(181)

وإلى أسرة حم داوود كذلك يرجع الفضــل في تأمين جزء كبير من طريق المخزن الرابط بين فاس وسجلماسة. وفي هــذا الخصوص نتوفر على وثيقة محلية نادرة وهامة(182) تثبت نفــوذ هذه الأسرة على هذا المسلــك التجاري من جهــة. ومن جهــة أخرى تشير إلى الاتفــاقيــات التي كانــت تعقدهــا مع مختلف القبائل التي كانت تقيم على حوافي طــريق المخزن. وهذا على العموم ما سنحاول تفصيله بالدراسة في الباب اللاحق.

إن صدى هــذه الأسرة على مستوى الدعــاية والإعــداد للمشروع العلوي السيــاسي لقي صدى بمنــاطق مختلفــة من المغــرب، حتى إن أهل الحياينــة وبعض شرفاء أهل وزان حسب جل المصادر التي واكبت أحداث هذه الفترة استدعوا الشريف سيدي محمد الناصر للقيام بأمرهم وتملك عرش المغرب. كما أن الجهود التي بذلتها هذه الأسرة لتقوية النفوذ العلوي سواء ما قام به مولاي عبــد الله بن علي بن طاهر من تــزكية للمشروع. أو ما قام بــه ابنه مــولاي بن علي بوجــه خــاص من دعم ومسانــدة لخدمــة العرش العلــوي المغــربي. أكسب هذه الأسرة احترامــا كبيرا من قبل الملوك الأوائل والأواخــر للدولة العلوية. وقد سبق أن رأينــا كيف أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أكرم وفادة شرفاء وعلماء مــدغرة، واصطفى مولاي الصديق بن هاشم ليكون كأحــد الأطر العلمية لإقراء السلطــان مولاي سليمان من بين جموع العلماء الآخــرين. ويظهر ذلك أيضــا من خلال الصــلات التي كان يمنحهــا

---

181) Mezzine (L) : t'aqquit de Aït Atman. op cit. p 107.

182) توجــد هذه الــوثيقة بــالخزانة العلميــة الهامة لأستــاذنا المشرف السيــد مولاي هاشــم العلوي القاسمي. وسنثبت نسخة منها بالملحق الخاص بالوثائق أنظر الوثيقة رقم: 36.

ملوك الدولة العلوية لشرفاء مدغرة أو من خلال ظهائر التوقير والاحترام التي حظي بها شرفاء مدغرة، والتي سبق الحديث عنها سابقا. ولا تفهم هذه المكانة المتميزة لشرفاء مدغرة لدى سلاطين الدولة العلوية إلا في إطار الأدوار الهامة التي لعبتها الأسر الحسنية الشريفة لصالح المخزن العلوي.

لقد حاولنا أن نواكب ونرصد أعداد الشرفاء بمدغرة خلال مرحلة الدراسة التي عالجناها، ومع الأسف لم تسعفنا المادة العلمية التي اطلعنا عليها لذلك. لأن مسألة تتبع أعداد الشرفاء إحصائيا خلال المرحلة التي عالجناها تحتاج إلى متابعة الأسر، خصوصا وأن مسألة الضبط العددي للأسر الشريفة لم تكن واردة إلا عند بعض الأسر التي كانت تستفيد من مداخيل الزيارات والهدايا، التي كانت تقدم شعبيا من منطقة مدغرة ومن جهات أخرى للأضرحة المشهورة طلبا للمكرمة والبركة أو للترحم وفقا للتصور الشعبي الديني عند السكان. مثل ما نلاحظه في ضريح مولاي عبد الله بن علي بن طاهر لتوزيع مداخيل زيارته. وفي هذا الخصوص نتوفر على وثيقة محلية نادرة(183) تضبط شروط مسألة تعاقب «النوبة» على الجلوس في روضته قصد الاستفادة مما يأتي عن طريق الصدقة إلى الروضة يوميا أحيانا، هذا فضلا عن الموسم الذي كان يعقد له سنويا من طرف القبائل، وخاصة قبيلة أيت عيسى الواقعة بوادي كَير أو قبيلة أيت يوسي الواقعة بوادي كَيكَو.

لقد شهدت مدغرة بهذا التعمير الجديد حياة علمية وفكرية جعلت منها مركزا دينيا وروحيا هاما، على غرار ما هو موجود في الجهات القروية المغربية التقليدية الأخرى مثل درعة وتازوالت بالسوس. وأسهمت زواياها في نشر العلوم الشرعية والأدبية. الشيء الذي أدى إلى تعدد المساجد الجامعة التي كان يُدَرِّسُ بها أعلام أكفاء ويفد إليها الطلاب من جهات مختلفة. كما كان يتردد عليها المشهورون بالعلم من جهات متعددة من المغرب مثل أبى سالم العياشي صاحب الرحلة العياشية ولحسن بن مسعود اليوسي صاحب المحاضرات وعبد الجبار الفجيجي صاحب قصيدة الصيد، وحتى بعض

---

183) وهو على العموم ما سنحاول الوقوف عليه في الباب الخاص بالحياة الفكرية بمنطقة مدغرة، وسنثبت هذه الوثيقة في الملحق الخاص بالوثائق انظر الوثيقة رقم: 37.

علماء فـاس ومراكش. الـذين كانـوا يمرون بتـافيلالت وغيرهم من أعـلام وأقطاب الجهـات المغربيـة الأخرى. لهذا لا غرو إذا وجـدنا الأستـاذ محمد حجي يشير إلى أنه بعد انتقال هذه الأسر الحسنية الشريفة من وادي إفلي إلى مدغرة تصدرت العلم أسرتان كبيرتـان هما أسرة آل ابن عمر المدغريون وآل ابن طاهر الحسنيون.(184)

إن الأهمية والـدور الفعال الـذي أصبحت تلعبه منطقـة مدغـرة منذ أن انتقلت إليها هذه الأسر الشريفة، جعل النفوذ العلمي الديني والروحي لمنطقة مدغرة يتخطى حـدودها. وهذا ما نلاحظه في مـواضـع متعددة من مخطوط فتح القدوس. حيث يشير مولاي علي بن المصطفى في فتح قـدوسه أن عددا كبيرا من الطلبة والأسـاتذة لمنطقة مـدغرة برزوا خـارج حدودها، إذ كـانوا يقومون بالوظيفة التعليمية والتثقيفية علاوة على الوظيفة الدينية في المجالات المحاذيـة لمدغرة ككَير وملـوية وغريس ودرعـة، أو في المناطق البعيـدة عنها كفاس وصفرو ومراكش وزرهون. ممـا يعني أن مدغرة علاوة على أهميتها كمركز «مصدر» للعلوم الشرعيـة والدينية والفكرية لم تستطع أن تستقطب أبناءها، وأصبحنـا نجد لفظ «المدغري»(184م) في كل مكـان بالمغـرب. فهل يعزى ذلك إلى الظـروف البيئية القاسية التي لم تسمح لمدغـرة بالإحتفاض بأبنائها؟ أما أن تطور الأوضـاع الداخلية بصورة عامة أثرت بشكل أو بآخر في عدم الثبات والاستقـرار؟ وإذا كنا لا نرجح هذا العـامل على ذلك، إلا أننا نرى أنهما اجتمعا معا وتظافرا طـوال مراحل التاريخ البشري لمنطقة مدغرة.

---

184) محمد حجي : الحركة الفكرية م. س ج 2 ص 520.

184م) نود أن نشير في هذا المقام أن عملية المتابعة والبحث والتقصي أفضت إلى أن الأسر المدغرية التي تحمل لقب «المدغري» تنحـدر كلها من أصول شريفـة وبنفس الآن ذات وجاهة علميـة وروحية وشفوف ديني ونسبي وتقدير واعتبار اجتماعي. بينما – ومـن باب المقارنة فقط – لا نجد من غير الشرفاء من يحمل هذا اللقب.

وجديـر بنا أن نشير أن مجمـوع هذه الأسر التي تحمل هـذا اللقب «المدغري» لم تعـد تستوطن منطقة مدغرة بل خارجها، وغالباً ما نجد لقب «المدغري» يسبق أو يلي نسب العلوي. والظاهر أن هذا التشبث بلقب «المدغـري» يأتي تأكيداً لمواطن هـذه الأسر الأولى، وتثبيتاً لأرومتهـا الهاشمية الحسنية العلـوية، وذلك انسجامـاً مع الإسم التاريخي المشهـور الذي عرفت بـه مجموع الأسر الشريفة التـي استقرت بمنطقة مـدغرة بعـد الانتقال من وادي إفلي بتـافيلالت مع مطلـع القرن 10هـ وهو «شرفاء مدغرة الحسنيون».

الشيء الذي ظل يؤثر باستمرار على تطور طبيعة الخريطة البشرية للمنطقة ومازالت رواسبه ونتائجه مستمرة حتى الوقت الحاضر.

4 - محاولة تقدير عدد السكان :

تكتنف مسألة محاولة تقدير عدد السكان صعوبات كبيرة، ليس فقط بالنسبة لمنطقة مدغرة بل في مجموع مناطق المغرب عامة خلال العصر الحديث. على اعتبار أن المغرب لم يعرف نظام الحالة المدنية إلا مع مطلع الخمسينات من القرن الحالي أي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقبيل اختطاف السلطان محمد الخامس. وهو ما يمكن أن نحدده تاريخيا بسنوات 1951، 1952م. ولم يجرى به أول إحصاء إلا عام 1956م.(185) هذا وإن كان بعض الدارسين يتحدث عن بعض الإحصاءات التقديرية المحلية خلال سنوات 1926 و1936م،(186) وهي على العموم إحصاءات تقديرية وغير موحدة. على إن الإحصاء الذي يعتمد عليه هو الذي نظم من طرف فرنسا وإسبانيا في مناطق نفوذهما سنة 1949م، والذي أعطى 9م ن كعدد إجمالي لسكان المغرب. ومعلوم أن الحماية الفرنسية لم تستطع أن تثبت أقدامها بمنطقة تافيلالت التي تندرج منطقة مدغرة ضمنها، إلا مع نهاية العقد الثالث من القرن 20م. مما يعني أن المنطقة لم تعرف أية محاولة تقديرية لعدد سكانها حتى مطلع الستينات من القرن 20م.

سبق لعدد كبير من الباحثين أن أكدوا أن الإقدام على محاولة تقدير عدد السكان يعتبر من قبيل المغامرة غير المأمونة.(187) وذلك راجع بالأساس إلى افتقار مصادر تلك الفترة للإحصاءات الرسمية، وحتى إذا توفرت هذه الأخيرة فإنها لا تغطي سائر المناطق التي تصفها. فالأرقام التي قدمها

---

185) محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18 الرباط 1992 ص 24.

186) أحمد التوفيق : مساهمة م. س الطبعة II ص 189.

187) أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى حدود إخلاء آسفي وأزمور. دار الثقافة البيضاء 1984 ص 83.

الوزان مثلا في بـداية القرن 16م لم تكن تشمل سـائر المدن والقبائل،(188) ومع كل ذلك يبقى القرن 16م هو الفترة التي بدأنا نتوفر فيها على معطيات تاريخيـة هامة، تساعـد على تسليط بعض الأضواء على عدد السكـان. وهنا نشير بـوجه خـاص إلى المعلـومات القيمـة التي قدمهـا الـوزان الذي جـال بالمغرب ما بين سنتي 1508 و1516م، ودَوَّنَ مشاهداته وملاحظاته في كتابه الهام «وصف إفريقيا».(189) وهناك إضـافات مكملة لعمل الـوزان نلتقطها خاصة عند مارمول(190)و Damio de gois،(191) وما نجـده في كناشـة قائد أحمد المنصور السعـدي.(192) وقـد أغرت هـذه المعطيات بعض البـاحثين الذين حاولوا اختراق هذا المجـال الصعب. فقد حاول كاريط(193) استغلال الأرقام التي قـدمها مارمول على علتهـا، ولم يحاول ماسينيون(194) الذي كتب بعد كاريط أن ينقح هذه المعطيات ويتعامل معها بحذر. ولم تبرز أولى المحـاولات الجدية إلا مـع بدايـة الستينـات من هذا القـرن. ويتعلق الأمـر بمحاولة الجغرافي الفرنسي الدكتور نوان(195) الذي درس الإحصاء الرسمي الوحيد الذي عـرفه المغرب سنة 1960م، محاولا تجاوز الأخطـاء التي وقع فيها سابقوه. وأبد حرصا شـديدا على نقد هذه المعطيات ومقابلتها، وأعطى تقديـرات عددية للقبائل التي لم تـرد عنها أرقام عـلاوة على تطبيق المعامل

---

188) الأرقام التي قدمها الوزان لم تشمل سوى 42 مدينة و30 قبيلة في المغرب ككل.

189) الحسن بن محمـد الفاسي الـوزان المعروف بليـون الإفـريقي : وصف إفريقيـا. ترجمة محمـد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للترجمة والنشر الرباط، 1980.

190) مارمول : إفريقيا، 3 أجزاء الرباط 1984.

191) Damio de gois : cronica del Reil emanuel Lisbona 1566 - 1567 2 vol. Extrait traduit en Français p R. Ricard : les portugais au Maroc de 1495 à 1521 Rabat 1937.

192) Justinard (L.T.cl) le Kennach d'une expédition du Sultan Ahmed Elmansour dans le sous 988H / 1580. in archives marocaines Paris XXIV 1933 p: 163-230.

– حليمة بن كَرعي: مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين، ملحق رقم 2 د. د. ع التاريخ الرباط 1985.

193) Carrette (J) : rechèrches sur l'origine et l'émigration des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie Paris. 1853.

194) Massignon (L) : Le Maroc. op cit. Alger 1906.

195) Noin (D) : La population rurale du Maroc. 2 tomes Paris. 1970.

الذي اقترحه كاريط (مضاعفة عدد المحاربين ثلاث مرات، بعد إضافة الربع للحصول على عدد السكان العاجزين عن حمل السلاح).

وبنـاء على ما سبـق يظهر جليـا أن النتـائج التي توصـل إليها هـؤلاء الباحثون في محاولـة معرفة عدد سكان المغـرب خلال القرن 16م، ومع أن فضلهم لا سبيل إلى إنكـاره، إلا أن تقـديراتهم تبقى مجرد تخمينـات. إذ في غياب إحصائيات دقيقـة يتعذر في الواقع القيام بأية دراسـة ديمغرافية، هذا وإن كانت عملية العناية بالتـاريخ الديمغرافي تساعد الباحث في الكشف عن جوانب عديدة من التاريخ المغربي.

إذا كانت عملية محاولة تقديـر عدد سكان المغرب خلال العصر الحديث تواجـه بمجموعة من الصعـوبات، وتخلص بـالتالي إلى الإفتراض والتخمين. فإن نفس هذه الصعوبات تجابه كل من حاول الغوص في عملية تحديد عدد سكان المدن والحواضر المغربية.

إن ما نتـوفر عليه من إشـارات بخصوص عدد سكان المدن، مـا هو في حقيقة الأمر إلا بعض التقديرات الملتقطة من هنا وهناك من أدبيات الرحلات الأجنبيـة، هـذه الأخيرة التي لم تكن تكلف نفسهـا عنـاءا كبيرا فيما يخص محاولـة تحديد عـدد سكـان المدن، وإنما كانت تكتفـي بذكـر المدن حسب أهميتها الـديمغرافيـة، بدون تقديم أي رأي في الموضـوع. فهذا «بـوطوكي» يضـع خـلال سنة 1791م مدينـة فاس في المقدمـة ثم يتبعها بمدينـة تطوان ومراكش ومكناس وسلا.(196) كما أن التقديـرات التي قدمهـا برايت وايت Brat-wite عن عدد سكان بعض المدن يشوبها الغمـوض والتذبذب، فقد اعتمد هذا الأخير طريقة تستند على قياس طول وعرض هذه المدن. فنجده بالنسبة لمدينة تطوان مثلا يقدر طولها بميل واحد وعرضـها بنصف ميل. وبناءا على ذلك قدر عدد سكانها ب30,000 نسمة ثم نبه على ذلك قـائلا: «قد يبدو هذا الرقم مبالغا فيه بالنظـر إلى ضيق المدينة لكنني جعلته أقل مما يوهمني به البعض. إذ لاحظت أن المؤلفين القـدامى والمحدثين يبـالغون كثيرا في تقـدير عدد سكان هذه البلاد».(197) وكل هذه الشواهد هي بمنزلة دليل محسوس

196) Potoki (J) : Voyage en Turque et en Egypte, en Hollande et au Maroc paris. 1980 p 175.

197) Brat-Wite (J) : Histoire des revolutions de l'empire du Maroc de puis la mort du dernier empereur My Ismail. Amesterdam p. Mortier 1731 p 157.

على صعوبة اختراق مجال محاولة تقدير عدد السكان، ليس فقط على مستوى المدن والحواضر المغربية بل إن هذه الصعوبة تطال حتى مستوى التراب الوطني ككل. وحتى إن حاول بعض الدارسين تقديم بعض التقديرات فإن هذه الأخيرة تبقى تقريبية، مما يدل على أن أصحابها اكتفوا بنسخها نسخا آليا الواحد تلو الآخر، وهي علاوة على ذلك لا تستند على أي معطى ديمغرافي أكيد. مع ما يلاحظ من تناقض مع أدبيات الرحلات التي تركها الرحالة والجغرافيون الذين ساحوا بالمغرب، والتي غالبا ما كانت تجمع على وجود فراغ بشري كبير في أكثر من جهة بالمغرب.

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمدن والحواضر، فما بال الباحث بالنسبة للمناطق القروية. هذه الأخيرة التي ظلت دائما في الظل ولم يحاول أحد من الدارسين أن يخترق مجال دراسة وضعها الديمغرافي، سيما وأن بعض الباحثين سبق لهم أن نبهوا إلى أن الصعوبة السياسية كانت تؤدي إلى عدم الاستقرار. كما أن قلة الأمن كانت لا تشجع على السكن المنفرد أو السكن في البوادي.(198)

إن هذه الصعوبة الكبيرة التي ظلت تنتاب عملية البحث في الوضع الديمغرافي بالمناطق القروية وضمنها منطقة مدغرة، لم تكن لتشكل عائقا أبديا وسرمديا وذريعة تبعد الباحث عن الخوض في هذه المغامرة المحفوفة بالمزالق. صحيح أن أصحاب كتب الجغرافية والرحلات الذين مروا بالمنطقة لم يحاولوا البتة إعطاء ولو إشارة واحدة عن طبيعة الوضع الديمغرافي بمنطقة مدغرة، فالوزان الذي زار منطقة مدغرة مع مطلع القرن 16م وهو في طريقه إلى سجلماسة لم يقدم أية إشارة عن عدد سكان المنطقة. رغم كونه رحالة من صنف خاص يدون كل مشاهداته وملاحظاته. إلا أنه مع الأسف لم يفعل، فقد جاء في سياق حديثه عن منطقة مدغرة مايلي: «مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة – يعني دائرة الخنَك – في اتجاه الجنوب خارج المضيق وتحتوي على قصور عديدة تقع كذلك على وادي زيز وأهمها القصر المسمى هلال. وفيه يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخد من قبيلته تعيش في البادية تحت الخيام وأخرى كذلك بالقصر مع بعض الجنود لا يستطيع

198) محمد مزين : فاس وباديتها م. س، ج 1 ص 147.

أحـد أن يخترق إقليمه دون إذنــه الصريح. فإذا لقي هـؤلاء الجنـود قافلـة بدون رخصــة مرور نهبوها فـورا وجردوا التجار والرائدين. وهنـاك أيضا قصور ومداشر أخرى كما شاهدت ذلك بنفسي لكنها كلها بائسة».(199) كما أن مارمول الذي قدم معلومات تكميلية للمادة العلمية التي قدمها الوزان لم يذكر بدوره أي شيء عن طبيعة الوضع الديمغرافي بمدغرة. قال: «يوجد هذا الإقليم – أي مدغـرة – شمال الإقليم السابق – أي إقليم الـرتب – ويتاخم إقليم كنـانـة شمالا في المنطقـة المؤديـة إلى مملكـة فـاس. تقع معظم قـراه ومداشره بجـانب هـذا النهر – يعني نهر زيـز – وأهمها بلـدة هلالـة مقر الحاكم العربي».(200) كما أن كتب التراجم والمنــاقـب ورحــلات الحجيج المغـربي لا تشير قط لا إلى عـدد السكـان، ولا حتى إلى العنـاصر المكـونـة للمجتمع. اللهم إلا إذا تعلق الأمر بذكر عالم أو صــالح حينذاك تذكر أصله وموطنه(201) وتنقلاتـه وأسانيـده. كما أن الدراســات الحديثة اصطـدمت بدورها بنفس المشكل، هذا وإن كان بعضهـا حاول تقديم بعض التقديرات حول نسبة الكثافة السكانية للبوادي المغربية وللمغرب ككل قرى وحواضر. فقد افترض «نوان» أن تكون نسبة كثافة السكـان بالبوادي المغربية بصورة عامة خلال القرنين 10 و11هـ/16 – 17م تتراوح ما بين 9 إلى 10 نسمة في الكلـم المربع. ونسبة الكثـافة بمجموع بلاد المغرب الأقصى عـامة متراوحة ما بين 11 و12 ن/كلم^2. (202) هذا وإن كنـا نعلم مسبقا أن هذه التقـديرات تظل من قبيل العموميات، علاوة على أن الوصول إلى مثل هذه الإستنتاجات لا يتم إلا بإضـافة الكثـافـات المرتفعة إلى المنخفظـة واستخلاص المتـوسط العـام.

وإذا أضفنا إلى هــذه الصعوبـات ما كانت تعـرفه المنطقـة من مجاعات وأوبئة وجفاف وكوارث مختلفة، وما كـانت تتركه من آثار عميقة وواضحة على البنيـة البشرية للمنطقـة. ومـا كـان يصحب ذلك من هـزات سياسيـة

199) الوزان : وصف م. س ج 2 ص 123.

200) مارمول : إفريقيا م. س ج 3 ص 155.

201) كما نلاحظ ذلك خاصة عندما مر الرحالة أبو سالم العياشي بمنطقة مدغرة وبات بزاوية مولاي ابن علي بن عبد الله بن علي ابن طاهر. انظر : الرحلة العياشية م. س ج 1 ص 15.

202) Noin (D) : la population rurale du Maroc. op cit. t 1 pp 234-237.

واضطرابات اجتماعية وحروب متواصلة. أثرت على مدغرة بحكم موقع هذه الأخيرة كمعبر إجباري. وانعكـاس ذلك على الاقتصاد المرتبط أشـد الارتباط بالعنصر البشري أدركنا بـالفعل صعوبة التأريخ لمحاولة تقديـر عدد سكان مـدغـرة خلال هـذه المرحلـة من تـاريخ المنطقة، سيما إذا علمنـا أهميتهـا وملامستهـا لأهم القوى التي كانـت تتصارع على سدة الحكم بـالمغرب مع مطلع القرن 10هـ/16م أو مع مطلع القرن 11هـ/17م.

وبقدر مـا كان هذا المشكل يكبر ويشتد بقـدر ما كان عنادنـا وإصرارنا للبحث فيه والغوص في عبـابه أشد، وحاولنا أن نتخطـاه قدر الإمكان وذلك عن طريق جمع كل الإشـارات الواردة في المصادر والمراجع وكتب الـرحلات ومن مظان الوثائق وما أفضت إليه جهود الدراسات الأوروبية التي عملت في هـذا الحقل. وفي هـذا الخصوص نشير إلى استفـادتنـا من أعمال البـاحثين الأوروبيين الـذين اهتموا بمـوضـوع التطورات الـديمغرافيـة خـلال مرحلـة القرنيين 16 و17م. ففي كتابه «البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي على عهد فيليب الثاني»، أكد بروديل أن المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط عرفت خـلال هذه الفترة تزايدا في أعـداد سكانها، والزيـادة خصت البوادي دون المدن».(203) ورغم أن هذه الشهادة صحيحة بالنسبة للضفة الشمالية للجنـاح الغـربي من البحـر الأبيض المتـوسـط بمعنى أروبـا. إلا أنها غير صحيحة بالنسبة للضفة الجنوبية منه، لأن هذه الأخيرة كانت تعيش خلال هذه المرحلة الصراعات الأهلية والوباء، ونعتقد أن هذا مرتبط بكون المدن لا سيما التقليدية منهـا، والتي كان أغلبها في مراحـل تاريخية معلومـة بمثابة عواصم للدول التـي تعاقبت على سدة الحكم بالمغـرب. أكثر المناطق تضررا من جراء الحروب والصراعـات المتواصلة بين القوى المتنـافسة على السلطة، سيما وأن احتلال هـذه المدن كان بمثابـة مؤشر على التحكم في زمـام الأمر هذا من ناحية. ومن أخرى يظهر أن المنـاطق الجنوبية كانت وما تزال وكما سبقت الإشارة إلى ذلك(204) تتلقى كميـة أقل من الأمطار. ممـا يحمل على

203) Breaudel (F) : la méditèrrannèe et le monde mediteraneen. op cit. p 305.

204) أنظر الباب الأول الفصل الأول،

الاعتقاد أن هـذه المناطق الجافة وشبه الجافـة هي التي تكون عرضـة لآفة الجفاف وهجـوم أسراب الجراد. مما ينعكس سلبا على الاقتصـاد القائم على العنصر البشري أكثر من أية منطقة أخرى. والـواقع أن الأمر كذلك فعلا إلا أن استعـداد السكان الـدائم لمثل هـذه الأهـوال واعتماد السقي في الزراعـة واختيار مزروعات لا تتطلب كمية كبيرة من الأمطار وغراسة النخيل وغيره واعتماد تخزين الأقوات. كل ذلك كان يحول دون تحول ظـاهرة الجفاف إلى مجاعة حقيقية وخطيرة وأزمة حـادة في كثير من الأحيان، لا سيما إذا توفر عنصر الأمن. فقـد اهتـدى أحـد الـدارسين(205) أن هـذه الإمكـانيـات على بساطتها هي التي حالت دون وصول مجاعـة مطلع العقد الثالث من القرن 16م إلى هـذه الجهـات بمثل مستـوى خطـورتها الـذي بلغتـه في الأقـاليم الشمالية، خـاصة في سهول تـامسنا ودكالـة وحاحا وتـادلا. وما قيل عن مخلفات الجفاف على بعـض الأقاليم دون غيرها يقال كذلـك بالنسبة لحدة الأوبئة لا سيما وباء الطـاعون الذي يعد أكثـر الأوبئة فتكا بالبشريـة. فقد لاحظ روزان بيرجي أن المنـاطق الجبليـة والصحـراويـة تعتبر أقل المنـاطق تضررا للإصابة بـالطاعون، نظرا لأن الهواء بارد في الجبال وحـار بالمناطق الجافة عمـوما. وهي ظروف تكـون في الغالب غير ملائمـة لانتعاش حشرة البرغوث الناقلة لفيروس الطاعـون، ولأن الروائح المنبعثة من الأغنام والماعز التي يقبل على تـربيتها سكان هـذه الجهات تعمل على طـرد تلك الحشرة... ممـا يحد من انتقـال العـدوى بشكل كبير، ويجعل الخسـائر البشريـة أقل بالمقارنة مع السهول المعروفة بكثافة سكانها وبانتشار الحيوانات القارضة، التي تعتبر أنسب عامل لنقل العدوى.(206) ورغم أهمية كلام روزان بيرجي إلا أنه لابـد من الإشارة إلى أن الـذي يتحكم في التقليل من الإصـابة بـوباء الطاعـون بالمناطق الباردة وشبـه الجافة هو وجـود الهواء النقي، عكس ما

205) محمد استيتو : الكوارث الطبيعية في مغرب القرن 16 م، د. د. ع التاريخ فاس 1988 ص 170.

206) Rosenberger (B) : calamité sécurité et pouvoir au Maroc du XVI au XVII siecle. in peuples mediteraneens n° 27 - 28 Avril - septembre 1984 p 224.

نلاحظه بالمدن والحواضر المعروفة بالاكتضاض البشري وكثرة الأوساخ. أما بخصوص أثر الهواء البارد بالجبال على انتعاش حشرة البرغوث، فإن هذه المسلمة عكسها هو الصحيح. ذلك أن المناطق الجبلية تعتبر بمثابة مرتع خصب لانتعاش ونمو وتكاثر هذه الحشرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نشير إلى أن بلاد كَيكَو الجبلية تعرف في الأوساط الشعبية «ببلاد البرغوث» إشارة إلى كثرة تواجد هذه الحشرة بها.

ولا يقتصر الأمر على سهولة انتقال وباء الطاعون في السهول والمدن أكثر من البوادي، بل إن داء السل ينتشر في السهول والمدن أكثر من البوادي.(207) ومعلوم أن دور مثل هذه الكوارث في إعادة توزيع السكان لا يقتصر على كثرة الوفيات التي كانت تعرفها السهول أكثر من الجبال والصحراء فقط، بل ترجع كذلك إلى عامل الهجرة التي غالبا ما كانت تتم من المناطق المنكوبة إلى المناطق الأقل تضررا، أي إلى المناطق الجبلية والصحراوية بصفة خاصة. فقد أشار صاحب «الإحياء والانتعاش، أنه لما ضرب الجفاف المغرب خلال سنتي 1071 – 1072هـ/1660 – 1662م بدأ الجوع من تادلا: «فانتشر يمينا وشمالا فيها وأباد كثيرا من دشورها وبواديها فمات من مات وهرب من بقي إلى بلاد الصحراء بنسائهم ودراريهم حتى لا تكاد توجد هناك عمارة من زاوية الدلاء مدينة أزغار إلى مدينة أزمور قرب مدينة مراكش، ولم يتراجعوا إلى بلادهم شيئا فشيئا إلى أن ظهر في ناحية الصحراء».(208) يظهر من كلام عبد الله بن عمر العياشي أنه رغم تضرر الأطراف بعد ذلك بالجوع، إلا أن خطره لم يكن في مستوى حدة خطره بالمناطق الشمالية. قال في الإحياء: «فوادي درعة ووادي تدغوت ودادس فهذه البلاد الثلاثة... وإن كان فيها – يعني الجوع – فإن سطوته لم تبلغ ما بلغت في غيرها، ويذلك على ذلك أن أهل بلاد الصحراء وغيرهم من أهل الآفاق القريبة إليها يمتارون من تدغوت الشعير واللفت من وادي

207) Graud (J) : gèographie des maladies, Rabat 1965 pp 13 - 16.

208) عبد الله بن عمر العياشي : الإحياء والإنتعاش في ترجمة سادات أيت عياش. مخطوط مصور الخزانة العامة الرباط رقم 1433 د، ورقة 250 ـ 294.

درعـة وهـو أكثرهما مـوردا لأهل الآفـاق... إلى أن انقطعت بسبب الخوف والنهب».(209)

إن هذه الشـواهد التاريخية التي سقنـاها تعتبر بمنزلـة دليل محسوس على أن المناطق الصحراوية علاوة على ما كانت توفره من زاد وطعام أوقات المجـاعات،وكمجـال لا يسـاعد على انتعـاش وانتشـار الأوبئة لاسيما وبـاء الطاعون، وانعكاس ذلك على الوضع الديمغرافي. فإنها حافظت إلى حد ما على قوة وكثـافة بنيتها البشريـة. كما أن من شأن هذا كـذلك أن يعزز افتراض «نوان» فيما يخص كثـافة البـوادي المغربيـة خلال نفـس المرحلة، لا سيما المناطق الشبه الصحـراوية. فقد ذهب هذا الأخير أن البوادي المغـربية خلال القرنين 16 و17م كانت كثافتها البشرية تتراوح ما بين 9 إلى 10ن/كلم^2.(210)

ومع كل هـذا التقـدم الحاصل في عمليــة الاقتراب من وصف الـوضع الديمغرافي للمنطقـة خلال العصر الحديث، فإن إشكالية الموضـوع المحورية يظل يكتنفهـا الغمـوض. على اعتبـار أن المقارنـة بين النصـوص المعـاصرة لـلأحـداث وما ذهبـت إليه اجتهـادات الـدراسـات الحديثـة تبقى من قبيل العمـوميات. ذلك أن مصطلح «الصحـراء» الذي ورد عنـد صاحب الإحيـاء والذي يصنف ضمن البوادي المغربيـة هو تحديد واسع وغير دقيق، لأن كل المنـاطق الواقعـة جنـوب جبال الأطلـس الكبير والصغير تدخل ضمن هـذه المفازة الواسعة. مما سبب في اختلاط وتـداخل أخبار الواحات المتعددة التي تتشكل منهـا الصحـراء في روايـات المؤرخين وأوصــاف كتب الجغـرافيـة والـرحلات لهذه المنـاطق على أكثـر من مستـوى. وجعل أخبـارها مبهمـة ومتباينـة لدرجـة يصعب معها التمييـز بينما هو خاص بمـدغرة ومـا هو خاص بالمناطق الأخرى. سيما وأن الإختلاف حاصل وبدرجات متفاوتة بين هـذه المنـاطق من حيث التطـور التـاريخي بوجـه عـام، وتـاريخ الـوضع الديمغرافي بوجه خاص.

لقد حاولنا أن نواكب ونتابع تطور الوضع الديمغرافي بمدغرة من خلال ما استطعنا جمعه من مــادة علمية، ومع الأسف لم تسعفنا هذه الأخيرة إلا

209) عبد الله بن عمر : الإحياء م. س ورقة 251.

Noin (D) : la population rurale du Maroc. op cit. t 1 p 234. (210

بالنـزر القليل. وحاولنـا استغلالها وتأويل بعضهـا حتى تستجيب لمطلبنا، وذلك تمشيا ومسـايرة للطرق التي اعتمـدها عدد كبير من البـاحثين. الذين حاولوا بدورهم استغلال مثل هـذه المعطيات أملا وراء الحصول على نتيجة تقـارب إلى حـد مـا العـدد الفعلي لعـدد السكـان، كل حسب حقل وفترة دراسته.(211)

إن ما نتـوفر عليـه من معطيات على قلتها تفـرض علينا اعتماد طـريقة الكوانين،(212) وذلك قصد محاولة تحليل ما أمدنا به مخطوط فتح القدوس من معلومات، أملا للـوصول إلى محاولة تقدير عدد السكـان بمدغرة خلال العصر الحديث. هـذا وإن كانت هـذه الإشارات لا تنطبق في أغلبهـا إلا على مطلع القرن 20م. لأن مولاي علي بن المصطفـى فرغ من تأليفـه هذا في 16 ذي الحجة الحرام عام 1322هـ/1905م(213) هذا من جهة. ومن جهة أخرى حاولنا أن نعتمد طـريقة المحاربين لتحديد عدد سكان مدغـرة خلال مرحلة الـدراسة واعترضتنـا مجموعـة من الصعـوبات. يأتي في مقـدمتها الصفـة المسـالمة لسكـان مـدغـرة، إذ لم يثبـت تـاريخيـا أن سـاهمت مـدغـرة في التجييش.(214) لأن سكانها كانوا مستقرين يتكونون في غالبيتهم من الطلبة

---

211) نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى بعض تلك الأبحاث المنجزة في هذا الاتجاه :

- أحمد التوفيق : مساهمة في دراسة المجتمـع المغربي إينولتان 1830 – 1912. منشورات كلية الآداب الرباط ط 2 1983.
- محمد مزين : فاس وباديتها م. س الرباط 1986 جزءان.
- أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى حدود إخلاء آسفي وأزمور. البيضاء 1984.
- عبد الـرحيم بن حادة : النشـاط الاقتصادي في سوس خـلال القرن 16 م. د. د. ع التـاريخ فاس 1988.

212) الكانون ج كوانين وهو موقد النار الـذي تطبخ عليه ربة البيت الأطعمة لأبنائها. ومن العادة أن يوجـد الكانـون في كل بيت وحددت بـه الأسر. وفي المصادر الإسـلامية استعمل عـادة في إعطاء السكان لجباية الأعشار والزكاة.

213) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 1.

214) هذا وإن كنا نتوفر على إشارة يتيمة تشير إلى مشاركة فرقة أولاد بوحمو، الذين كانوا على عهد حكم الأشراف السعديين بمثابة عمال ملـوك هذه الدولة بمدغرة. وبعد انقراض الـدولة السعدية انتقلت غالبيتهم إلى مكناسة الزيتون واستمر البـاقي منهم مقيما بمدغرة بقراهم المعروفة بأولاد بوحمو وبقصر قلعة تاوريـرت. قال مولاي علي بن المصطفى في فتح القدوس ص 69: «لما توفي مولاي عبد الله بن علي بن طاهر... بقريـة أولاد الحاج رغب أولاد بوحمو وهم أهل قرية بمدغرة قد خربت الآن قراهـم وانتقل جلهم إلى مكناسة الزيتون وما بقي منهم بتـاوريرت بمدغرة إلا =

والفقهاء والفلاحين. مما يعني أن طبيعة الاستقرار المدني أقوى من أية صفة أخرى. ومن ناحية أخرى نلاحظ أن اعتماد هذه الطريقة لتقدير عدد سكان مدغرة فيها كثير من التمحل وعدم ضبط تطور الواقع الديمغرافي لمنطقة مدغرة. مما يجعل نتائجها بالتالي مردودة، لأن شارل دوفوكو الذي طبق هذه القاعدة زار المنطقة في نهاية القرن 19م (1882 – 1884) وهي فترة متأخرة عن مرحلة الدراسة. مما يجعلنا نبتعد عن الاطمئنان لها. سيما إذا علمنا أن هذا الرحالة غالبا ما كان يعتمد على الرواية الشفوية لتحديد عدد السكان القادرين على حمل السلاح، وأحيانا أخرى يقدم أرقاما من ذات نفسه. وكل هذه العوامل وغيرها تجعلنا نبطل طريقة المحاربين ونطمئن أكثر لطريقة الكوانين لما لها من «مصداقية» بالنسبة لتطور الوضع الديمغرافي بمدغرة إلى حد ما:

طريقة الكوانين :

يذهب أحد الباحثين إلى أن المقصود بالكانون هو : «مجموعة من الأشخاص الساكنين في محل واحد. والمكونين لزمرة عائلية واحدة عند

= القليل». وإذا كنا نجهل تاريخ وأسباب انتقال غالبية أولاد بوحمو إلى مكناسة الزيتون، رغم أنه يمكننا أن نلمس ذلك من إشارة أبي القاسم الزياني في البستان، هذا إذا صح أن أولاد بوحمو كما جاء في فتح القدوس هم أولاد «أبي أحمد» كما جاء في البستان. قال أبو القاسم الزياني في البستان الظريف م. س، ص 343: «وفي هذا العام – يعني 1172هـ – أمر نصره الله – يعني السلطان سيدي محمد بن عبد الله – بقدوم حراطين الصحراء الذين بالرتب وتافيلالت وهم الجبابرة والمعاركة وأولاد أبي أحمد بلغة عنهم أنهم يعينون عمه مولاي الحسن – وهو أحد أبناء مولاي إسماعيل قام على عمه مولاي عبد الله في أواخر حكمه – على محاربة الشرفاء فانقلهم لمكناسة وأعطاهم الكسوة والسلاح وكتبهم في ديوان الجيش». والأكيد أن أولاد بوحمو كانوا ضمن الجيش النظامي العلوي خلال مرحلة حكم السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله انطلاقا من سنة 1194هـ حيث كان أولاد بوحمو بمثابة حراس لدار السلطان. وحجتنا في ذلك ما جاء عند الضعيف الرباطي ص 182 قال : «وفي شوال من عام 1194هـ نزل السلطان سيدي محمد بن عبد الله بكَرميم أتى من مكناسة الزيتون ورحل الباقي من العبيد وترك فيها الخمسمائة أو التسعمائة من عبيد تافيلالت، وهم الروحة وأولاد بوحمو والمعارك (المعاركة) حراسا على داره ثم ارتحل السلطان لمراكش». هذا وإن كنا لا نعلم بالضبط كم كان عدد أولاد بوحمو في جيش السلطان سيدي محمد بن عبد الله على أمل أن يكشف البحث مستقبلا عن هذه المسألة، وذلك بالاعتماد على كنانيش ديوان الجيش العلوي.

توزيع التكاليف وتقسيم بعض المنافع».(215) إلا أن هذه الطـريقة مع ذلك تكتنفها العديد من المصاعـب يأتي في مقدمتها اختلاف الباحثين فيما يخص معـامل الكانـون كمحدد أسروي مـادي. ويـرتبط ذلك – على ما نعتقـد – باختـلاف عدد أفراد الكانـون الواحد حسب المنـاطق والعصور، على أن كل تعميم في هذا المجال يعتبر مجازفة خطيرة. والأكيد أن حجم الكانون بمدغرة كان يفوق مثيله بأروبا مع نهاية العصر الـوسيط وبداية الحديث، فقد قدر أحد الدارسين عدد أفراد الكانون بـ 5 أو 6 أفراد(216) أما الصعوبة الثانية فتتمثل في الأرقام الضخمة التي تتكون منها بعض الكوانين بمدغرة إذ تصل أحيانا إلى حوالي 15 فردا حسب ما تفيدنا به بعض الوثائق.(217)

لقد كان معتمدنا الأساسي في تحديد معامل الكانون بمدغرة هو مجموعة من عقود القسمـة، وما يتضمنـه مخطوط فتح القـدوس من إشارات تتعلق بعدد أفراد الكانون الواحد. إلا أن مـا يستوقفنا في هذا الخصوص هو تباين عدد أفـراد الكوانين من أسرة إلى أخـرى، هذا علاوة على أن المخطـوط يؤرخ للشرفاء المنحـدرين من ذرية مولاي عبـد الله بن علي بن طـاهر فقط دون سائر الأسر الشريفـة الأخرى التي استقـرت بمدغرة. أمـا الشرائح الأخرى التي تتشكل منها البنية البشرية لمنطقة مـدغرة فلا نلتقط الإشارات المتعلقة بعدد أفراد كوانينها إلا في عقود القسمة بالأساس. أضف إلى ذلك أن مولاي علي بن المصطفى في فتح قـدوسه عنـد ذكره لأفـراد الدار الـواحدة، يـذكر الذكور دون الإناث. مما يطرح عـدة مشاكل تحول دون الوقوف على العدد الحقيقي للكانون الواحد، وهذا ما يفـرض على الباحث اعتماد طريقة إضافة الكوانين ذات الأعـداد المرتفعة إلى تلك ذات الأعداد المنخفضـة وقسمتها على إثنين للحصول على المتوسط العام.

ورغم مـا يشوب هـذه العمليـة من عمـوميات إلا أنها على الأقل تقـرب الباحث إلى حد ما من العدد الحقيقي لأفراد الكـانون الواحد. ولتوضيح هذا

---

215) أحمد التوفيق : مساهمة م. س ص ص 182 – 183.

216) Guillaume (P) et poussou (J.P) : démographie Historique. collection U. paris 1970 pp 14-15.

217) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 31.

الواقع نقف قليلا عند بعض الإشارات الواردة في مخطوط فتح القدوس التي تثبت اختلاف عدد أفراد الكوانين من أسرة إلى أخرى، مع الغياب المطلق لذكر الإناث وعـددهن. فبعد فحص دقيق لمخطوط فتح القـدوس لم نعثر إلا على إشارة واحـدة تشير إلى أن عدد أفراد بعض الكـوانين من ذرية مـولاي عبد اللـه بن علي بن طاهـر تصل إلى 15 فردا. قـال في فتح القـدوس: «لما توفي سيدي محمـد ضما بن محمد فتحـا بن علي بن محمد بن عبـد الله بن علي ابن طاهر خلف ثـلاثة عشر من البنين ذكورا وهم مولاي عبـد الله، مولاي الشريف، ومولاي عمـر ومولاي العربي، مولاي الحسن، مـولاي الصديق، مولاي الحبيب، مـولاي محمد فتحا، مولاي مبارك، مـولاي الطيب، مولاي الحنفي، مولاي أحمد ومولاي المداني».(218) أما عدد أفراد الكوانين القليلة العدد فهي كثيرة ولا تتعدى في الغالب فردين أو ثلاثة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقف عند بعض الشـواهد. فنقول «لما توفي مولاي محمـد هذا خلف ولدا واحـدا اسمه سيـدي محمد ضماً»(219). وفي مـوضـع آخـر من نفس المخطوط نجد ما يلي: «أما مولاي محمـد المدعو أبـحنيني فقد مات من غير عقب».(220)

إن هـذه الشواهـد التي حـاولنـا من خلالها الـوقـوف على الحد الأدنى والأقصى لعـدد أفـراد الكوانين بمـدغـرة كـانت الغـاية منهـا هي محاولـة استخـلاص المتوسط العـام لعدد أفـراد الكـانون الـواحد، عن طـريق ضم الكوانين ذات الأعـداد المرتفعة إلى تلك ذات الأعداد المنخفضـة وقسمتها على اثنين. ورغم أهمية هذه العملية إلا أننـا نلاحظ أنه يعتريها شيء من النقص، لأن مـولاي علي بن المصطفى يذكـر عدد أفـراد الكانـون من الذكـور دون الإناث، وذلك مرتبط بكـون الذكور هم الذين تنحصر فيهم تطويـر السلالة النسبيـة لكل أسرة. بنـاءا على حديث رسـول اللـهﷺ: «الإبن يتبع أبـاه في النسب لا أمـه» ولأن مخطـوط فتح القـدوس نفسـه ينـدرج ضمن كتب الأنسـاب، ويظهـر هذا من الاسم الـذي أعطاه مولاي بـن المصطفى لتأليفه

---

218) مولاي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 31.

219) مولاي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 31.

220) مولاي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 33.

هذا. قال في فتح القدوس: «هـذه نسخة طبق الأصل من كتاب فتح القدوس القاهر في نسب أبي محمد عبد الله بن علي ابن طاهر بن الحسن بن يوسف ابن علي الشريف دفين سجلماسة».(221) ولا يشير إلى البنات ولا إلى عددهن داخل الكانـون الواحـد بصورة تكـاد تكون شبه مطلقـة، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بالنساء القـانتات الناسكات. وفي هذا الخصوص نتـوفر على إشارتين تشيران إلى جنس الإناث داخل الكوانين. «فقـد خلف مولاي عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر بعـد وفاته اثنين من البنين هما : مولاي الشريف ولالة الطاهرة»،(222) كما أن «مولاي العـربي بن مولاي علي لما تـوفي دفن قرب قلعة تاوريـرت العالية في ناحية الغروب، وحولـه ضريح لالة الطاهرة بنت سيدي مولاي عبد الهادي وقبور بنـاته السبعة كن رضي الله عنهن – من الأولياء – قانتـات تائبات عابدات أدركن المقام العـالي في الولاية».(223) وهذا من شـأنه أن يطرح عـدة مشاكل تتعلق بعـدد البنات داخل الكـانون الـواحد، سيما وأن عمليـة ضم الكـوانين ذات الأعداد المرتفعـة إلى تلك ذات الأعداد المنخفضـة وقسمتها على اثنين من أجـل استخلاص المتوسـط العام للكانـون الواحد بمـدغرة يشوبها شيء من النقص مـادامت تفتقر إلى عنصر الإناث، مما يبقي سيطرة الغموض حتى في حالة الافتراض. ومهما يكن من أمر فلابد من التأكيـد أن الكوانين ذات الحد الأدنى (فردين) والأقصى (15 فردا) ما هو في الحقيقة إلا استثنـاء. إذ أنه بعد الفحص الدقيق لبنية الأسر بمـدغرة سـواء من خـلال عقود القسمـة أو مـا هو وارد في مخطـوط فتح القدوس أو ما نلمسه بارزا في الوقت الحالي، يتبين أن النسب الأكثر شيوعا من حيث عدد الأفراد المكونين للكانـون الواحد بمدغرة تتراوح من 6 إلى 10 أفراد وهـذا يوافق إلى حد مـا النتيجة التي نستخلصهـا بإضافة عـدد أفراد الكـوانين ذات الأعداد المرتفعـة (15 فـردا) إلى تلك ذات الأعـداد المنخفضـة (فـردين)، المستقـاة من مخطـوط فتح القـدوس وقسمتهـا على الإثنين. ولتوضيح هذا الواقع نقوم بالعملية الآتية :

$$8,5 = \frac{2+15}{2}$$

221) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص ص 1 – 27 – 300.

222) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 11.

223) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 138.

وبذلك نخلص إلى أن عدد أفراد الكانـون في المتوسط العام بمدغرة هو 8 أو 9 أفراد، وهـذا طبعا مع بعض الاستثناءات. فقد يحصل أن يقل أو يـزيد عن هذا العدد.

يفيدنـا هذا الإستنتاج المتعلق بعـدد أفراد الكـانون بمدغـرة في استغلال بعض الإشارات الواردة في مخطوط فتح القدوس، لمحاولة تحديد عدد سكان مدغـرة خلال مـرحلة الدراسـة. من خلال اعتماد طـريقة الكـوانين رغم ما يشوب هذه الطـريقة من افتراض وتعميم، لأننا لا نتوفـر على عدد الكوانين التي يتكون منها كل قصر من قصور مدغرة. هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ أن قصور مدغرة لم يكن فيها عدد الكوانين محددا بشكل دقيق، فقد يزيد أو ينقص حسب المراحل الزمنية، وحسب أهمية القصر ودوره السياسي والاجتماعي والـروحي. كما أن قصور مـدغـرة باعتبـارهـا مركـزا للتجمع السكني(224) تنقسم إلى قصـور قديمـة منـدرسة نجهل الكثير عنهـا وعن تاريخ انـدراسها، وقصـور ظلت قائمة وحـافظ أغلبها على وجـودها حتى الوقت الحاضر. وعليه سيكون عملنـا مقتصراً على القصور التي ظلت قائمة ومحافظـة على وجـودها خـلال مـرحلـة الـدراسة، وذلك طبعـا بنـاءا على المعلـومات الـواردة في هـذا الصـدد بكتب الرحـلات والجغـرافيـة العربيـة والأجنبية.

يقرر صـاحب فتح القدوس وهـو يتحدث عن التطـور التاريخي لقصر قلعـة تاوريـرت أن هذه القلعـة «قلعـة قصر تاوريـرت مبنية على صخـرة والخندق مستدير عليها، وفيهـا من الديار قرب العشرين».(225) يظهر من كلام صاحب فتح القدوس أن الدار في الإصطلاح المحلي هي بمنزلة الكانون هذا من جهة. ومن جهة أخـرى نلاحظ أن مولاي علي بن المصطفى يتحدث عن قصر قلعـة تاوريرت مع مطلـع القرن 20م، لأنه وكما أسلفنـا فرغ من تأليفه هذا سنة 1322هـ/1905م أي أن هذا القصر خلال هذه المرحلة لم يعد قصرا مخزنيا كما كان خلال القرن 16م. ومعلوم أن القصور المخزنية كانت

---

224) أنظر الباب الثاني الفصل الثاني

225) مولاي علي بن المصطفى : فتح القدوس م. س ص 70.

كبيرة إلى حد ما عن القصور الأخرى. وقد سبق أن أوضحنا أن قصر قلعة تاوريرت وبناء على ما جاء في فتح القدوس كان بمثابة دار نيابة المخزن خلال المرحلة السعدية.(226) وستنعدم أهمية تاوريرت مع مجيىء العلويين ووصولهم إلى سدة الحكم، باعتبار قلعة تاوريرت قاعدة للسعديين وباعتبار أن العلويين كانوا بديلا للسعديين. وسيعوضها قصر زاوية مولاي ابن علي من حيث الاعتبار الديني في مرحلة أولى، وقصر سيدي أبو عبد الله من حيث الإعتبار الإداري السياسي في مرحلة ثانية. وهذا يدل على أن إشارة صاحب فتح القدوس حول عدد ديار قصر قلعة تاوريرت تصدق على هذا القصر وهو مجرد من أية وظيفة إدارية أو سياسية أو غيرها. أي أنه قصر عادي كسائر القصور الأخرى، مما قد يفيد في الكشف من أن عدد الكوانين أو الديار التي ذكرها مولاي علي بن المصطفى بخصوص قصر تاوريرت يمكن أن نتخذها كمتوسط عام بالنسبة لمجموع قصور مدغرة الأخرى. على اعتبار أن قصر تاوريرت لا يمكن تصنيفه ضمن القصور الكبيرة، على غرار قصر سيدي أبو عبد الله مثلا أو قصر مسكي. كما لا يمكن تصنيفه ضمن القصور الصغيرة كقصر القصيبة.

وبناءا على ما سبق إذا افترضنا أن عدد أفراد الكانون أو الدار حسب تعبير صاحب فتح القدوس في المتوسط العام هو 8,5 بالقصر الواحد. وأن متوسط عدد الكوانين أو الديار بالقصر الواحد، كما هو الشأن بالنسبة لقصر قلعة تاوريرت مثلا هو حوالي 20 دارا. يكون عدد سكان هذا القصر هو :

8,5 × 20 = 170 نسمة.

سبق أن أشرنا أن عدد القصور التي كانت موجودة بمدغرة سواء تلك التي اندرست أو تلك التي بقيت قائمة، كان يناهز ما يفوق الستين قصرا تقريبا.(227) وبناء عليه يكون المتوسط العام لعدد سكان مدغرة المستقرين هو :

170 ن × 60 = 10200 نسمة.

---

226) انظر الباب الثاني الفصل الثاني، ص

227) انظر الباب الثاني الفصل الثاني : ص

لكن مع ملاحظة أن هذا العدد قد يزيد أو ينقص حسب حجم وعدد القصور وحسب المراحل التاريخية أيضا. وهذا العدد يزيد شيئا ما عما ذكره «نوان» بخصوص نسبة الكثافة التي اقترحها للبوادي المغربية خلال القرنين 10 و11هـ/16 و17م، والتي حددها في 9 أو 10 ن/كلم². ويظهر ذلك من خلال القيام بعملية ضرب هذه النسبة في قطر مدغرة، هذا الأخير الذي نتوصل إليه عن طريق ضرب طولها في عرضها، وقد سبق أن أوضحنا أن مدغرة تمتد من الشمال إلى الجنوب على مسافة 35 كلم ومن الشرق إلى الغرب على مسافة 20 كلم.(228) ولتوضيح ذلك نجري العمليات التالية :

قطر مدغرة نصل إليه بما يلي :

35 × 20 = 700 كلم².

عدد سكان مدغرة اعتمادا على ما ذكره «نوان» بخصوص نسبة الكثافة بالبوادي المغربية نصل إليه بما يلي :

9 × 700 = 6300 ن.

10 × 700 = 7000 ن.

ومعلوم أن اقتراح نوان للكثافة خلال القرنين 10 و11هـ/16 و17م هو خاص بكل البوادي المغربية على العموم. ولا أحد ينكر الفروق الواضحة الموجودة بين البوادي المغربية، مما يطبع افتراضه هذا بالتعميم. ومع ذلك فهو يقترب من العدد الحقيقي للكثافة بمنطقة مدغرة، سيما وأن المناطق الصحراوية وبناءا على ما جاء في الإحياء والانتعاش كانت خلال القرن 11هـ/17م مأهولة بالسكان الذين فروا إليها من المناطق الشمالية هربا من الجوع التي دهم هذه الأخيرة هذا من جهة. ومن جهة ثانية إذا قارنا عدد سكان مدغرة الذي توصلنا إليه باعتماد طريقة الكوانين والذي حددناه في 10200 نسمة بالكثافة التي اقترحها نوان للمغرب ككل. نجد أنهما يتطابقان إلى حد ما، على اعتبار أن نوان اقترح أن تكون نسبة الكثافة بالمغرب خلال هذه المرحلة تتراوح ما بين 11 و12ن/كلم².(229) ونصل إلى ذلك عن طريق

---

228) انظر الباب الثاني الفصل الثاني،

229) Noin (D) : la population rurale du Maroc. t 1 op cit. p 237.

ضرب نسبة الكثافة بالكلم² في مساحة قطر مدغرة ويظهر ذلك من خلال العمليات التالية :

11 × 700 = 7700 ن.

12 × 700 = 8400 ن.

وبهذا يكون التوافق التقريبي بين ما توصلنا إليه بناء على إشارة صاحب فتح القدوس التي استثمرناها باعتماد طريقة الكوانين لمحاولة تحديد عدد سكان مدغرة خلال مرحلة العصر الحديث، وما افترضه نوان بخصوص نسبة الكثافة بالمغرب خلال القرن 10 و11هـ/16 و17م. كما أن استنتاج 10200 نسمة يمكن أن ننطلق منه لتحديد نسبة الكثافة بالكلم² بمنطقة مدغرة، وذلك عن طريق قسمة عدد السكان على مساحة قطر مدغرة ويتبين ذلك من خلال إجراء العملية التالية:

$$\frac{10200}{700} \quad \frac{\text{نسمة}}{\text{كلم}^2} = 14,59 \text{ نسمة/كلم}^2.$$

وهذه النسبة في الكثافة بمنطقة مدغرة تزيد شيئا ما عن اقتراح نوان بخصوص نسبة الكثافة بالمغرب ككل، خلال القرنين 10 و11هـ/16 و17. خاصة وأن هذا الأخير جمع المغرب النافع إلى المغرب الغير النافع. ومع كل هذا لابد من التأكيد أن الكثافة بمنطقة مدغرة تتركز على حوافي وادي زيز حيث القصور السكنية المرتبطة بنقط الماء. أما في حريم مدغرة فلا نكاد نعثر على أي قصر سكني، إذ كان هذا الأخير مخصصا بالأساس للمحتطب والمرعى. مما يعني أن نسبة الكثافة بهذا القسم من مدغرة كانت تقل بكثير عما هو موجود بحوافي الوادي.

وانطلاقا من عدد سكان مدغرة الذي توصلنا إليه عن طريق اعتماد طريقة الكوانين، يمكن أن نتوصل كذلك إلى النسبة التي كانت تمثلها ساكنة مدغرة بالنسبة لمجموع سكان المغرب خلال هذه المرحلة. فإذا علمنا وبناء على ما جاء عند «نوان» أن سكان المغرب خلال القرنين 10 و11هـ/16 و17م كانوا يقدرون بأربعة ملايين نسمة(230) يمكن تحديد نسبة سكان مدغرة

---

230) Noin (D) : la population rurale du Maroc t 1 p 240.

بالنسبة لمجموع سكان المغرب أنذاك وذلك عن طريق اعتماد العملية الحسابية الثلاثية الآتية :

4 م ن ———— 100 ٪

10200 ن ———— ؟ ٪

$$\frac{100 \times 10200}{4,000,000} = 0,255\ \%$$

كما أن استنتاج 10200 نسمة كعدد لسكان مدغرة خلال هذه المرحلة يوافق تماما ما جاء في تقرير مديرية الإحصاء مندوبية عمالة الرشيدية لعام 1972 (231) الذي يشير إلى أن عدد سكان دائرة قصر السوق كان يقدر آنذاك بحوالي 30 ألف نسمة، ومعلوم أن منطقة مدغرة يضيف نفس التقرير كانت تمثل ثلث الدائرة. مما يعني أن عدد سكانها أنذاك كان هو 10 ألف نسمة.

إن الرقم الذي يمكن أن نتوصل إليه حول عدد سكان مدغرة من خلال هذه العمليات الحسابية بناء على طريقة الكوانين خلال مرحلة العصر الحديث يتراوح ما بين 7000 و10000 نسمة. وهو رقم قريب من افتراضات «نوان»، الذي اتبع الطريقة التراجعية حول عدد سكان البوادي المغربية.(232) ويتوافق تماما مع الإحصاء الذي أجرته مندوبية مديرية الإحصاء بمركز قصر السوق خلال سنة 1972م. وبناء على طريقة الكوانين استخلصنا أن سكان منطقة مدغرة كانوا يمثلون أنذاك حوالي 0,255ن٪ من مجموع سكان المغرب خلال القرنين 10 و11هـ/16 و17م، وهكذا يظهر أن مختلف أوجه استغلال المعلومات البسيطة التي نتوفر عليها تشهد على «مصداقية» اعتماد طريقة الكوانين في محاولة تقدير عدد سكان مدغرة خلال مرحلة الدراسة رغم ما يشوبها من نقص وتعميم.

بعد رصدنا ومتابعتنا لمختلف مراحل التشكيل البشري في التاريخ العام يظهر أن منطقة مدغرة لم تعرف ثباتا بشريا أو استمرار سيادة إثنية بشرية

---

231) تقرير مندوبية وزارة السكنى بالرشيدية لسنة 1972.

232) Noin (D) : la population rural. op cit. t 1 p 240.

واحـدة، بل إن المنطقة طـوال مراحل التـاريخ ظلت منطقة جـدب للإثنيـات بشرية مختلفة. وهذا ما تؤكده التركيبـة السكانية لمختلف قصور مدغرة، إذ يطغى على هذه الأخيرة الإختلاط والتجـانس البشري. من هنا جاء مصطلح مجتمع القصر لأنه يستجيب لهذا الاختلاط. وهذا لـه ما يبرره بحكم موقع مدغـرة المتميز كمنطقة عبـور اجباريـة وهمزة وصل بين الشمال والجنوب ومن غرب إلى شرق مدغرة.

فإذا كانـت العناصر البربريـة المدغريـة قد سجلت حضـورا مستمرا إلى حدود القـرن 5هـ/11م بـالمنطقة، فإنـه انطلاقـا من هـذا التاريخ المذكـور ستنـدمج قبيلة مـدغرة في مجمـوعات بشريـة أخرى بـربريـة مصموديـة وصنهاجية وعربية. ومع مـرور الزمن لم نعد نتحدث عن العنصر البربري بمدغـرة إلا في قسمها الأعلى. ولكن هناك مـلاحظة أساسيـة لها أهميتها في خـريطة البنيـة البشريـة بمدغـرة وهو الحضـور المكثف للعنـاصر الملونـة (الحراطين)، الذين ظلوا يشكلون السواد الأعظم بمجتمعات القصور بمدغرة. ومنذ نهايـة القرن 14م بـدأ الوجـود العـربي يخيم على الخريطة البشريـة بمنطقة مدغرة بشكل شبه مطلق، وسيساهم هذا العنصر بشكل فعال سواء تعلق الأمر بسيطرة عرب بني معقل أو العنصر الحسني الشريف المنتقل إلى مدغـرة في إطار تنافـس وصراع الأحلاف القبلية على طـرق المواصلات وعلى أحواض الـوديان، في تغيير الهيكـل الديمغرافي لهذه الـواحة بشكـل ملحوظ. وأصبحت البنية البشريـة لمنطقة مدغرة تتكـون من غالبية عـربية. وانعكس هذا كذلك على التراث المكتوب الـذي واكب أحداث المرحلة. إذ اقتصر الحديث عن سكان مـدغرة على عنصرين إثنين: الشرفـاء باعتبارهم أصحـاب النفوذ الـروحي، والمعقل أصحاب القـوة العصبيـة. ومنذ مطلع القـرن 16م الذي يوافق بـداية انتقال بعض الأسر الحسنية الشريفـة إلى مدغرة من تـافيلالت تحولت المنطقة إلى قـاعدة علمية وروحية معطـاء. ولم تعد مدغرة قـابعة في الظل كما كانـت في السابق، بل نحتت حضـورها بشكل بـارز وملموس في الذاكرة العلمية والروحية المغربية ولدى المخزن العلوي كذلك.

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحات

الفصل الثاني :

الباب الثاني :

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

رقم الإيداع القانوني : 125/ 1996

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)

الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)

فاكس : 32.46.44 (03)